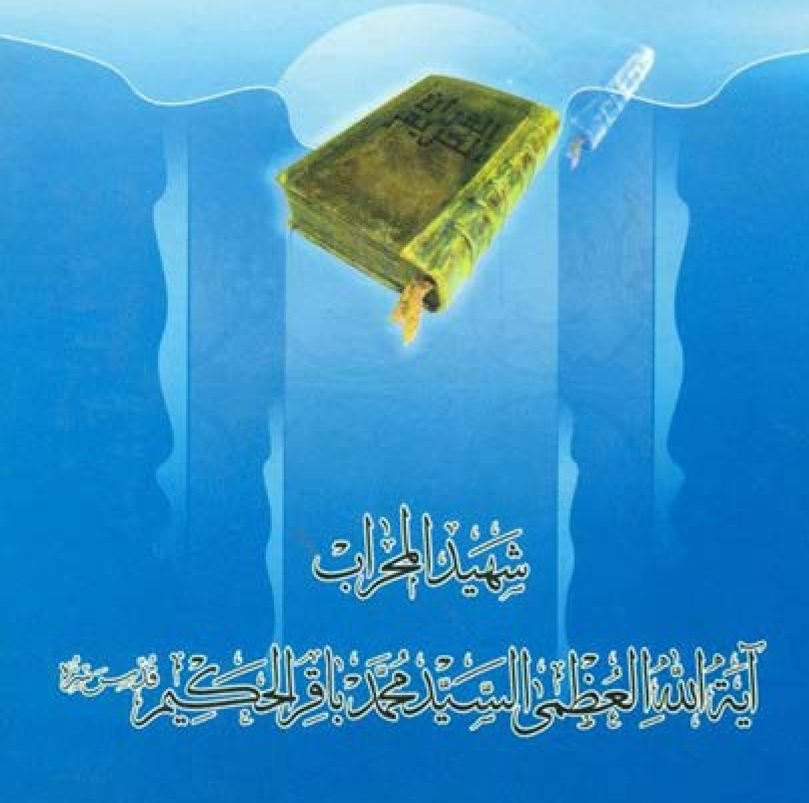
المجتمع الانساني في القرآن الكريم

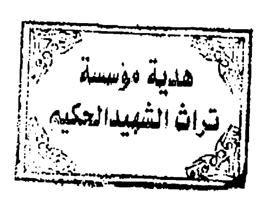


شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

المجتمع الإنساني
في
القرآن الكريم

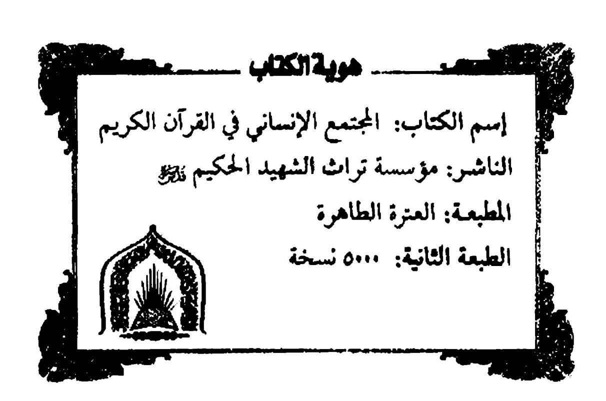
المجتمع الإنساني في القرآن الكريم



شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

طبعة منقحة



هوية الكتاب

إسم الكتاب: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم

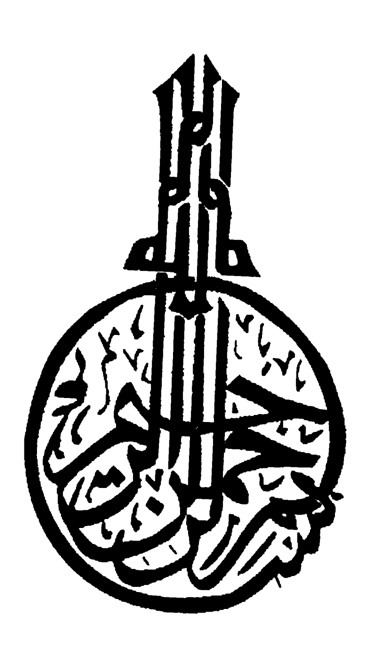
الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

المطبعة: العترة الطاهرة

الطبعة الثانية: ٥٠٠٠ نسخة

النجف الأشرف

صيف سنة ٢٠٠٦ م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

تفاوتت الرؤى والنظريات الاجتماعية التي تناولت مسيرة المجتمع الإنساني تفاوتا كبيرا في تشخيص العوامل المؤثرة فيه والنتائج السلوكية للإنسان وفق قوة المؤثرات، حيث جعلت الإنسان خاضعا للظروف الطبيعية، أو عوامل الغريزة، أو العرق، كما أن الجانب الاقتصادي لدى بعضها يدخل كعامل مؤثر في مسيرة الشعوب، أي: أنها فسرّت ما يحدث في البشرية من تغيير وفق نظرة مادية أحادية الجانب..

أما النظرية القرآنية التي تَلَمس معالمها سيدنا ـ شهيد المحراب ـ وسلّط الضوء عليها في هذا الكتاب فقد اشتملت على تصور كامل لظروف النشأة الأولى، و ما انطوت عليه المسيرة الإنسانية من أبعاد عقائدية، واجتماعية، وتأريخية، وأخلاقية؛ ذلك لأنها قد أولت الإنسان اهتماما خاصا، باعتباره محوراً للوجود، فقد كرمه الله تعالى، وسّخر كل ما في الحياة لأجله، كما زوّده بالقدرات والإمكانيات، التي تهيؤه ليكون خليفة لله تعالى في الأرض، وبموجب ذلك، فقد أمتاز هذا المخلوق بثلاث ميزات هي: العقل، والعلم، والإرادة، إذ بواسطتها أستطاع أن ينهض بالمسؤلية وثقل الأمانة التي حملها؛ لأن العقل أداة العلم، والعلم هو طريق الإيمان، أما الإرادة فهي تدفع الإنسان لتحمل المسؤلية للوصول إلى التقوى والصلاح.

لقد توجهت (النظرية القرآنية) إلى مفهوم المجتمع الإنساني من خلال (الأمة) التي تضم مجموعة من الناس تربطهم وشائج فكرية وعقائدية وسلوكية، كما أن العلاقات التي تنظّم المجتمع لا تقتصر على الجانب الإنساني المباشر فقط، وإنما

هناك عنصر آخر، وهو عنصر العلاقة بالله تعالى، أما في المجتمع غير الإسلامي فتكون من خلال الشهوات أو الشيطان والهوى..

كما أشارت (النظرية القرآنية) إلى الوحدة الفطرية التي كانت تتحكم في المجتمع الإنساني، حيث كانت الأهداف العامة مشتركة ومتبادلة، ولكن بسبب التفاوت في الإمكانيات والمواهب، حدث الاختلاف، برزت حالة الظلم والمظلومية في المجتمع، وهو سنّة الابتلاء والامتحان، وبموجبها كان للدين دور الإشراف على حركة المجتمع الفطرية، باعتبار أن الإنسان قد تجاوز الحدود المعقولة في إشباع حاجاته، حيث تحول المجتمع بالنتيجة من مجتمع قائم على توحيد الله إلى مجتمع إختلاف وظلم وشرك بالله تعالى.

ويستعرض - شهيد المحراب ﭪ - تطور مهمة الوحي الإلهي من توجيه الفطرة وهدايتها، إذ أصبح أكثر شمولية عند مجيئ النبوة والتي تهدف إلى تقنين حياة البشرية، بحيث مارست الشريعة دور الموجّه والمحدد للعلاقات الاجتماعية، ثم تخطّت هذه المرحلة مع تطوّر المجتمع إلى النبوة القائدة (الإمامة) وهي المرحلة التي يقوم فيها الإمام بالإشراف على عملية التغيير الاجتماعي والسعي لإقامة الدولة الإلهية..

كما تطرق الشهيد الحكيم ﭪ إلى المحتوى الداخلي للإنسان وعلاقته بحركة التأريخ والبناء الاجتماعي العلوي بكل ما ينطوي عليه من علاقات وأنظمة، فكما أن للإيمان والتقوى أثرا إيجابيا في التغيير الذي يحصل في المجتمع كذلك لها أثر بارز فيما يشهده الكون والطبيعة من تغيير، وبموجب ذلك فإن الجانب الروحي الذي يتبناه الدين يمثل العنصر الفاعل والمؤثر في مسيرة الإنسان.

ويقف الشهيد الحكيم ﭪ عند الصراع الذي ينجم نتيجة بروز

ظاهرة تجاوز البعض على حقوق البعض الآخر، حيث يتحول إلى صراع مستديم، وهو على أنواع سواء كان فرديا يتحقق على يد طاغية يظهر في مراحل الحياة، حيث يضطهد الآخرين، أم على شكل طبقة معينة أم طائفة أم أمة تفرض هيمنتها وسلطانها على الآخرين، كما هي عليه في مرحلة الاستعمار القديم والجديد، أم غيره من أنواع الصراع، غير أنه ﵀ يرى أن الإسلام لم يكن بمنأى عن إيجاد الحلول لهذا الصراع، حيث ربط حل مشكلة الصراع بين القوي والضعيف عن طريق إنهاء الصراع في داخل الفرد (نفسه) الذي ينشأ من عوامل داخلية يشكل طرفاه الهوى والعقل، أو خارجي وهو الشيطان والهدى ويتأتى ذلك عن طريقين:

أحدهما: الجهاد الأكبر، الذي ينهض بحل الصراع داخل النفس وتقوية الإرادة باتجاه الحق.

والثاني: الجهاد الأصغر، وتكون دائرته أوسع؛ لأنه يتكفل بحل الصراع بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى، ومن اجل ذلك فقد تكفل الإسلام بسن القوانين والأحكام الشرعية لمعالجة السلوك الإنساني لتحقيق المجتمع الصالح..

وبالنظر لأهمية الأطروحات التي أوردها المفكر الإسلامي آية الله الشهيد الحكيم في هذا الكتاب، والتي سلطت الضوء على جوانب النظرية الإسلامية - من خلال القرآن الكريم - في رؤيتها للمسيرة الإنسانية، وما انطوت عليه من منعطفات تكاملية وتسافلية في حركتها التأريخية، وإبراز السنن والنواميس التي حكمت مسيرتها، وما تضمنه الحديث من مناقشات جادة للنظريات الوضعية في هذا المجال، مضافا

إلى زيادة الطلب على الكتاب ونفاذه من الأسواق، ارتأت المؤسسة إعادة طبع هذا الكتاب بعد مراجعته وتنقيحه.

داعين المولى العلي القدير أن يكون زادا نافعا للمؤمنين في مسيرتهم إلى الله وصدقة جارية لشهيدنا الفقيد، وأن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح.

دائرة التأليف والتحقيق

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم (قدس سره)

المدخل

في البداية يحسن بنا أنْ نقف قليلاً عند المنهج العام للبحث والحاجة إليه، وهو منهج: (التفسير الموضوعي)، وكذلك موضوع البحث وأهميته، وهو: (المجتمع الإنساني).

١) منهج البحث

تختلف الدراسات التفسيرية للقرآن الكريم فيما بينها، وتتنوّع في المنهج والمضمون، تبعاً للموضوعات التي تهتم بها والمدرسة التي ينتمي إليها المفسِّر، حيث نرى بعض المفسرين يتجه إلى تأكيد الموضوعات اللغوية واللفظية في النصّ القرآني، وبعضهم الآخر يتجه إلى تأكيد الموضوع التشريعي والفقهي، وثالثاً يولي اهتمامه بالموضوع العقائدي.

ويلتزم بعض المفسِّرين منهج الحديث ويفسرون القرآن بالمأثور، بينما يعتمد غيرهم منهج الجمع بين المعقول والمنقول، أو منهج التدبر والتحليل، أو منهج تفسير القرآن بالقرآن، وهكذا.

وبالرغم من هذا الاختلاف في مذاهب التفسير، وتعدد مدارسه وتباين اهتماماته، إلاّ أنّ هناك منهجين رئيسيين متّبعين في تفسير القرآن الكريم، هما: منهج التفسير الترتيبي (التجزيئي)، والتفسير الموضوعي.

أوّلاً: التفسير الترتيبي (التجزيئي)

وهو المنهج الذي اعتاده المفسِّرون منذ بدايات نشوء علم التفسير وحتى عصرنا الحاضر، حيث يفسر القرآن الكريم قطعة قطعة، وكما هو مدّون في المصحف الشريف، فيبتدأ المفسِّر بسورة الحمد وينتهي بسورة الناس.

ويستعين المفسّر في إطار هذا التفسير - عادة - بظهور الكلام في المعنى المراد، وبالقرائن المأخوذة من القرآن الكريم نفسه، وذلك بمراجعة الآيات الأخرى، أو الآية التي تشترك مع المقطع موضع البحث في بيان مصطلح أو مفهوم أو فكرة، أو يستعين بالقرائن الحالية التي تعرف عادة من خلال مراجعة ظروف نزول القرآن، من قبيل ما يسمى: بأسباب النزول، وما أشبه ذلك من المسلّمات التأريخية، أو المستنبطة من القرآن الكريم نفسه.

كما يستعين المفسّر - أيضاً - ببعض المسلّمات - العقائدية أو الدينية التي يرشد إليها القرآن الكريم - ذات العلاقة بالآية موضوع التفسير، أو التي يدركها العقل السليم.

سبب تبني المنهج الترتيبي

وقد تُذكر أسباب متعددة لتبنيّ هذا المنهج من قِبَل المفسرين[1]، ولعل أهم الأسباب هو القدسية التي ينظر بها المفسرون إلى مسألة ترتيب القرآن الكريم والمصحف الشريف، باعتبار أنّ القرآن الكريم والمصحف الشريف - ومنذ الصدر الأوّل للإسلام وحتى يومنا الحاضر- مرتب بهذا الترتيب، الذي يبتدئ بسورة الحمد وينتهي بسورة الناس، فراعى المفسّرون هذا الترتيب وساروا عليه في تفسيرهم.

وبهذا تختلف السنة النبوية عن القرآن الكريم؛ لأنّ السنّة لم يتم تدوينها بهذه الطريقة المقدسة، واعتُمد في تدوينها الموضوعات الفقهية والعقائدية، فكان المنهج الموضوعي هو المنهج العام فيها، في عصر التدوين الثاني.

---

(١) المدرسة القرآنية: ٢٠.

ثانياً: التفسير الموضوعي

وُلد هذا المنهج ومنذ بدايات نشوء علم التفسير في أحضان المنهج الترتيبي، وإنْ لم يكن - آنذاك - منهجاً شاملاً لكلّ القرآن الكريم، وإنما كان المفسرون يقفون أحياناً - وأثناء تفسيرهم الترتيبي - عند موضوع من الموضوعات القرآنية كـ (الألوهية) أو (التقوى) أو (الشفاعة)... فيفردون له بحثاً مستقلاً، محاولين بذلك استكشاف النظرية القرآنية الخاصة به، من خلال عرض وتفسير كل الآيات التي أشارت له، وفي مختلف المواضع.

وقد تطوّر هذا المنهج في عصرنا الحاضر - تبعاً للحاجة إليه - حتى أصبح منهجاً مستقلاً في البحث والتدوين، وشاملاً لكلّ القرآن الكريم.

وإذا عرفنا أنّ القرآن الكريم قد تناول كل الموضوعات الدينية، بل في بعض النصوص المأثورة ما يشير إلى تناوله لكل شي في الوجود[1]، وقد يفهم ذلك - أيضاً - من قوله تعالى: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ...﴾[2].

إذا عرفنا ذلك يمكننا أنْ نتصور مدى الكم الكبير من الموضوعات التي يمكن تناولها من خلال هذا المنهج التفسيري.

---

(١) في الصحيحة، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام، قال: ((إنّ الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كلّ شيء، حتى - والله - ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أنْ يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن، إلاّ وقد أنزله الله فيه)).

وفي حديث آخر معتبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ((ما من شيء إلاّ وفيه كتاب أو سنة))، الكافي ١: ٥٩: ح١ و٤.

(٢) النحل: ٨٩.

المقصود من (الموضوعية) في هذا المنهج

قد يتبادر إلى الذهن بأنّ المقصود من كون هذا المنهج منهجاً موضوعياً، هو أنْ يكون البحث فيه بحثاً معتمداً على الحقائق العلمية الخارجية، في مقابل البحث الذي يعتمد على الظنون والأوهام أو الذوق والاستحسان، بحيث يكون بحثاً متحيّزاً، يتبنى فيه الإنسان أفكاراً مسبّقة يحملها على القرآن الكريم.

إلا أنّ الحق إنّ هذه الصفة لا تشكل مائزاً للمنهج الموضوعي في مقابل المنهج الترتيبي (التجزيئي)، بل هي صفة ضرورية ومطلوبة في كلا المنهجين؛ لأنّ تفسير القرآن لابد أنْ يعتمد على الآيات القرآنية الأخرى، التي تُلقي ضوءاً على فهم القرآن، وكذلك على الوسائل العلمية التي اعتمدها القرآن والإسلام في إثبات المعاني والمضامين المقصودة من الألفاظ[1]، والاعتماد على الأوهام والظنون، والتحيز في التفسير، وتبني الأفكار المسبّقة فيه هو من (التفسير بالرأي) الذي ورد النهي عنه بشدة في السنّة النبوية، حتى عبرت عنه بعض الروايات بدخول النار، والكذب على الله: **((...من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار))**[2] و **((...ومن جادل في آيات الله كفر...ومن فسّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب...))** الحديث[3].

والصحيح أنّ (الموضوعية) المذكورة في هذا المنهج تعني أحد أمرين:

الأوّل: هو ملاحظة الموضوعات الحياتية الخارجية المختلفة التي يعيشها

---

(١) وهو ما يتم بحثه في أبحاث الدليل الشرعي أو العقلي من أبحاث أُصول الفقه، راجع دروس في علم الأُصول، الحلقة الأولى: ٧٧ و ١١٧ ــ ١٣٦.

(٢) التوحيد: ٩١، وسائل الشيعة ٢٧: ١٨٩، أبواب صفات القاضي ب١٣، ح٣٥.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٥٦، وسائل الشيعة ٢٧:١٩٠، أبواب صفات القاضي ب١٣، ح٣٧

الإنسان في هذا العصر، ومحاولة دراسة هذه الموضوعات على ضوء القرآن الكريم، من أجل تحديد الموقف القرآني منها.

فنأخذ ـ مثلاً ـ موضوع انتخاب الحاكم من قبل المجتمع، ونخضعه للدراسة على ضوء القرآن الكريم، لنرى هل أنّ هذا الانتخاب صحيح، أو باطل قرآنياً؟ أو أنّ فكرة الانتخاب صحيحة في أصلها، ولكن تحتاج إلى إصلاح؟ وهكذا الأمر بالنسبة إلى كلّ ظاهرة وموضوع نواجهه في الحياة الإنسانية.

ولعلّ هذا المعنى للموضوعية هو المراد من بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام والتي تحدثت عن تأويل القرآن الكريم، حيث ذُكر في هذه الروايات أنّ القرآن الكريم له تأويل في كلّ عصر وزمان ولا يعرفه إلاّ الراسخون في العلم.

فقد روى الصفّار، في بصائر الدرجات، بطريق معتبر، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: ((سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: (ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن) فقال :ظهره تنزيله،وبطنه تأويله،منه ما قد مضى، ومنه مالم يكن، يجري كما يجري الشمس والقمر،كلما جاء تأويل شيئ منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، قال تعالى :﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1] نحن نعلمه))[2] فبطن القرآن تأويله، وتأويله هو تطبيق القرآن على ما يأتي من الحوادث والموضوعات، مما لم يكن في عصر نزول القرآن، فهو في هذا الانطباق على الحياة الاجتماعية، مثل الشّمس والقمر التي تنطبق على الحياة الكونية، فكلما وجدت ظاهرة اجتماعية جديدة، كان للقرآن الكريم فيها تأويل وتطبيق،

---

(١) آل عمران:٧.

(٢) بصائر الدرجات: ٢١٦.

فهو ينطبق على الأحياء الآن كما كان ينطبق على الأموات.

وتؤكد هذه الرواية ما رواه الصفّار بطريق معتبر - أيضاً - عن إسحاق بن عمار من قول الصادق عليه السلام: ((إنّ للقرآن تأويلاً، فمنه ما قد جاء، ومنه ما لم يجئ، فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمّة عرفه إمام ذلك الزّمان))[1].

وقد شكل هذا المنهج - وهو تطبيق الآيات على المصاديق والشواهد الحياتية الخارجية - أحد خصائص التفسير المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[2].

الثاني: اختيار الموضوعات القرآنية وتقسيمها موضوعاً في مجال البحث والتناول، ثم نأتي بكلّ الآيات القرآنية التي تناولت ذلك الموضوع من أجل استنباط النظرية القرآنية الخاصة به.

فهي عملية استكشاف للصورة؛ بربط أجزائها بعضها ببعض؛ لاكتشاف التصوّر القرآني الكامل عن أبعاد الموضوع الذي يتناوله البحث، فليس التفسير الموضوعي هنا مجرد جمع الآيات القرآنية وتفسيرها حول موضوع واحد، بل هو استكشاف النظرية القرآنية حول هذا الموضوع من خلال هذا الجمع والتفسير.

وبهذا يكون هذا المعنى من التفسير الموضوعي مكملاً للمعنى الأوّل[3].

حاجة العصر إلى التفسير الموضوعي

لقد عرف الإسلام في أنظمته وتشريعاته طريقه إلى المجتمع - في الصدر الأوّل - من خلال التطبيق، ذلك لأنّ الجانب الاجتماعي من الإسلام لم

---

(١) بصائر الدرجات: ٢١٥، ح٥، وسائل الشيعة ٢٧: ١٩٦، أبواب صفات القاضي، ب١٣، ح٤٧.

(٢) راجع علوم القرآن ٣٠٧.

(٣) المدرسة القرآنية: ٣٣، الدرس الثاني، علوم القرآن: ٢٤٦.

يطرحه الرسول ﷺ كنظريات عامة، ثم جاء التشريع والتقنين بناءً فوقياً لها ليشمل جميع مناحي الحياة، وإنما طرحه الرسول ﷺ من خلال التطبيق الخارجي لها وحسب الحاجات ومتطلبات الحياة الجديدة، حيث كان يبين القوانين والتشريعات اللازمة؛ ويشخص الأحكام المختلفة في قضايا المجتمع التفصيلية.

ولذلك لم يكن الإنسان المسلم بحاجة إلى تصور النظرية؛ لأنّه يعيش الإسلام وروحه وآثاره من خلال التطبيق.

ولكن حينما انحسر الإسلام عن التطبيق في مجتمع المسلمين، وواجه النظريات المذهبية الاجتماعية والعقائدية المختلفة. ظهرت الحاجة الملحة إلى البحث الموضوعي القرآني في مختلف المجالات؛ لأنّ الإسلام أصبح بحاجة إلى أنْ يُعرض كنظرية مذهبية جاء بها الرسول ﷺ عن طريق الوحي الإلهي، وذلك من أجل أنْ تتضح الصورة الإسلامية في مدى صلاحية النظرية لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة، وفهم الإنسان المسلم لها واستيعابها أولاً، ومن أجل مواجهة النظريات المذهبية ومقارنتها بالنظرية القرآنية ومعرفة أوجه الشبه والاختلاف بينها ووجه الامتياز عليها في النظرية القرآنية ثانياً، وللتقليل والتحديد من التناقضات المذهبية أو الاختلافات الفقهية، التي كان أحد أسبابها الاستغراق في التفاصيل والتركيز على الجزئيات ثالثاً.

وعلى أساس هذه الحاجة اخترنا هذا المنهج التفسيري في بحثنا الحاضر، حيث اخترنا موضوعاً من الموضوعات الحياتية المهمة التي تناولها القرآن الكريم، وحاولنا إعطاء النظرية الخاصة به من خلال مجمل الآيات التي تناولت أبعاده المتعددة، والقرائن ذات العلاقة به.

٢) موضوع البحث وأهميته

سبقت الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم تناول عدداً كبيراً من الموضوعات العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والتأريخية... وغيرها من مختلف الشؤون والمجالات.

ولعلّ موضوع (المجتمع الإنساني) الذي عنونّا به بحثنا هذا هو من أهم الموضوعات التي تطرق إليها القرآن الكريم لعدة أسباب:

منها: ما يشتمل عليه من أبعاد مختلفة: عقائدية، واجتماعية، وتأريخية، وأخلاقية، مثل: بداية وجود الإنسان، وبداية تكوّن المجتمع الإنساني، والعناصر الأساسية المقومة له، والسنن التي تتحكم في حركة المجتمع والتأريخ، والمراحل العامة التي مرّ بها المجتمع الإنساني، وحركة التكامل فيه، والتصور العام الذي يجب أنْ يكون عليه المجتمع الإنساني الصالح، والنهاية التي لابد أنْ يصل إليها، والعوامل الروحية والاجتماعية التي تسوقه نحو الكمال وتحقيق الأهداف التي وضعها الله تعالى أمامه.

ومنها: سعة دائرة تناول القرآن الكريم لهذا الموضوع، لأنّ هدف القرآن الكريم هو هداية الإنسان وسعادته وتكامله وإخراجه من الظلمات إلى النور، وبناء المجتمع الإنساني الصالح من أهم أسباب هذه الهداية والتكامل، وبذلك أصبح الإنسان في القرآن الكريم موضوعاً وهدفاً رئيسياً.

ومنها: إنّ البحث في موضوع (المجتمع الإنساني) من أهم البحوث التي اهتم بها الإنسان في هذا العصر، فهو موضوع حيٌ ما دام الإنسان حياً على وجه هذه الأرض، ولا يختلف عالمنا الإسلامي عن غيره في هذا الأمر، فبعد أنْ انتشرت في عالمنا المعاصر العديد من النظريات التي تناولت هذا الموضوع ومن مختلف الاتجاهات الفكرية، كان لابد للبحوث الإسلامية أن تتناوله من خلال رؤية القرآن الكريم، لمعرفة النظرية القرآنية والتصوّر الإسلامي

بشأنه، ليُقَدِّم هذا التصور إلى المجتمع الإنساني ككل، قبال النظريات والتفسيرات المادية الأخرى.

الإنسان محور الحياة

والذي يؤكد أهمية هذا الموضوع هو ما نلاحظه في القرآن من اعتبار الإنسان كمحور أساس للحياة والكون والمجتمع، وبذلك امتازت النظرية القرآنية على غيرها من النظريات.

ويمكن أنْ نرى ذلك بوضوح من خلال الأمور والأبعاد التالية:

الخلافة في الأرض

البُعد الأوّل: ما هو ذكره القرآن الكريم من أنّ الله تعالى جعل الإنسان خليفته على الأرض، وبذلك امتاز الإنسان على بقية المخلوقات.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...**﴾[1].

وحينما تساءلت الملائكة عن سبب جعل الإنسان خليفة وهو الذي يصدر منه الفساد وسفك الدماء، دونهم، وهم يسبحون الله ويقدسونه ﴿**... قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...**﴾[2]، أجابهم سبحانه وتعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ﴿**... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[3].

ثم عرض سبحانه وتعالى مبرراً عملياً لهذا الامتياز وحق آدم عليه السلام بالخلافة دونهم، حيث ميزه بـ (العلم)؛ وذلك بتعليمه الأسماء كلها، ثم

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) البقرة: ٣٠.

عرضهم على الملائكة، وطلب منهم أنْ ينبئوه بأسمائهم، فلما عجزوا، طلب من آدم أنْ ينبئهم بهم، ثم أكد سبحانه وتعالى لهم القول: بأنه يعلم ما في نفوسهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاَء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[١].

وهنا يمكن أنْ نفهم الخلافة على أنها خلافة تشريعية في إدارة شؤون الأرض والتصرف فيها وفي إدارة نفسه وفي إدارة الكون المحيط به، كما يفهم ذلك من بعض الآيات الكريمة التي تتحدث عن الحكم ومسؤلية الإنسان عن سلوكه، وعمله تجاه هذه الأمور، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾[٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

كما يمكن ـ أيضاً ـ أنْ نفهم هذه الخلافة بأنها خلافة تكوينية ليكون مسؤلاً عن القيام بأعمار الأرض وإدارة شؤونها، والحركة والسلوك فيها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[٤].

---

(١) البقرة: ٣١ ــ ٣٣.

(٢) سورة ص: ٢٦.

(٣) يونس: ١٣ ــ ١٤.

(٤) الملك: ١٥.

وهذا ما سوف نتناوله بالبحث إنْ شاء الله.

التفضيل والتكريم

البعد الثاني: هو بُعد تفضيل الإنسان وتكريمه على كثير من المخلوقات، وهو ما يفهم من أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، والذي يُعبِّر عن الخضوع والاعتراف بهذه الحقيقة الإلهية، والموقع المتميّز له بالخلافة لله تعالى على الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وكذلك ما ورد من تكريم الله - تبارك وتعالى - للإنسان على كثير ممن خلق، وتفضيله عليهم تفضيلاً، وفي هذا إشارة إلى الموقع المتميّز له على من حوله في الأرض، بل والكون أجمع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2].

فإنّ القرآن لم يذكر مثل هذا الوصف (كرّمه) و(كرّمنا) بصيغة التفضيل لأي مخلوق في هذا الكون عدا الإنسان، وحتى الملائكة الذين وصفهم بالطاعة والعبادة، وأنهم ﴿... عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[3]، لم يصفهم سبحانه وتعالى بهذه الصيغة من التفضيل.

حمل الأمانة

البعد الثالث: - الذي خصّ الله به الإنسان - هو حمل الأمانة دون المخلوقات جميعاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) الإسراء: ٧٠.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الأنبياء: ٢٦.

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[١]، وقد خص الله سبحانه الجبال بالذكر دون غيرها من الموجودات، لما في مظهرها - مما يراه الإنسان - من الضخامة والقوة والقدرة والرسوخ الذي به ثبتت الأرض ورست، ومع كل ذلك لم تتمكن من حمل هذه الأمانة الإلهية، وكان الإنسان مؤهلاً لكل ذلك، دون السماوات والأرض والجبال.

وسوف نشير - إنْ شاء الله تعالى - في بحث لاحق إلى معنى (الأمانة)، ومعنى كون الإنسان ظالماً وجاهلاً، وما يهمّنا هنا هو تحديد هذا البعد بشأن الإنسان فقط.

تسخير الموجودات للإنسان

البعد الرابع: هو أنّ الله تبارك وتعالى سخّر بقية الموجودات للإنسان، وجعله قادراً على التصرف فيها، كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٣]. وغيرها من الآيات[٤].

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) الجاثية: ١٢ - ١٣.

(٣) إبراهيم: ٣٢ - ٣٣.

(٤) الحج: ٦٥، النحل: ١٢ - ١٤، وغيرها.

ويمكن اعتبار هذا التسخير والقدرة عليه شعبة من شعب الخلافة وبُعداً آخراً فيها، والذي يعني إعطاء الإنسان الإمكانيات والقدرات التي يحقق بها هذا التمكن من الأرض والكون المحيط به، تعبيراً عن الخلافة التكوينية على الأرض والتي منها قدرته على تسخير الموجودات فيها، والتي تمثل شيئاً من الامتداد للقدرة الإلهية في التصرف في الأرض والكون، بالإرادة والاختيار، والعقل والعناية الربانية.

فالإنسان بما وهبه الله تعالى من (عقل)، أصبح قادراً على تصور الأشياء في المستقبل بالتركيب بين المفردات الحسية، ومن خلال (إرادته) أصبح قادراً على السعي لإيجاد هذه الصورة في المستقبل.

الإنسان محور التغيير في الكون

البعد الخامس: هو أنّ الله سبحانه وتعالى، ربط التغييرات الحياتية في هذا الكون، بالتغييرات التي تطرأ على الإنسان، ومحتواه الداخلي (الروحي والنفسي) وهذه صفة وخصوصية تميّز الإنسان بها على بقية الموجودات، بحيث أصبح هو المحور لهذه الموجودات.

وهذا البعد يمثّل النتيجة لبقية الامتيازات السابقة، ويعبر عنها، فنحن نرى من خلال القرآن الكريم، أنّ التغييرات الاجتماعية في الحياة الإنسانية، ترتبط بالتغييرات النفسية، والتغييرات الكونية ترتبط بالتغييرات الاجتماعية الكلية، قال تعالى: ﴿... إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴾[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

---

(١) الرعد: ١١.

بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1]، إذ ربطت هذه الآية التغيير الذي يحصل في السماء والأرض من نزول البركات والخيرات بالمجتمع الذي تسوده التقوى والإيمان، وعلى العكس من ذلك عندما يعم المجتمع الإنساني الكفرُ والفسادُ والفسقُ والفجورُ، يتعرض الإنسان إلى العقاب الإلهي والهلاك، كما أشارت إلى ذلك هذه الآية الكريمة، وكما يدل عليه قوله تعالى:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

وخلاصة ما يستفاد من الأبعاد السابقة التي ذكرها القرآن الكريم: إنَّ الإنسان يمثل المحور الأساس في هذا الكون المحيط به، من سماوات، وأرض، ومخلوقات، ومن ملائكة، وجن، وحيوانات، ونباتات.

ولعل العنصر الأساس الذي استحق به هذا الامتياز، بحيث أصبح المحور في هذه الحياة، هو ما أشار إليه القرآن الكريم في بدء خلق الإنسان، حيث إنَّ الله تبارك وتعالى نفخ فيه من روحه، فهو نفخة إلهية تحمل في جوهرها قدراً من الصفات الإلهية، قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾[3]، ولعل هذا هو الذي يفسّر الطلب من الملائكة السجود لآدم.

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) الحجر: ٢٨ ــ ٢٩.

٣) فصول البحث

تبيّن لنا من خلال العرض للأبعاد المتعددة للإنسان أنّ الحديث عنه سيكون حديثاً هاماً؛ لأنه يشكل عنصراً مهماً في فهم النظرية القرآنية عن المجتمع الإنساني. وسوف نتناول في هذا الحديث بداية خلق الإنسان وخلافته في الأرض لنعرف:

أولاً: معنى الخلافة ومبرراتها، الذي سوف يلقي ضوءاً على هذا الامتياز والمحورية.

ثانياً: مسيرة هذه الخلافة من خلقها ووجودها وحتى قيامها على الأرض، وبذلك تتحقق بداية المجتمع الإنساني على الأرض.

وقد ارتأينا أنْ يشكل هذان الموضوعان (الباب الأول) من هذا البحث، ويكون ذلك في فصلين.

وأمّا الباب الثاني من البحث، فهو يتناول (المجتمع الإنساني ونشوءه)، حيث نتناول في هذا الباب - إنْ شاء الله - العناصر الأساسية التي يتكون منها المجتمع الإنساني، والوحدة الفطرية التي كان يقوم عليها هذا المجتمع، ووجود الاختلاف فيه بعد ذلك من خلال العامل الفطري البدائي.

وفي الباب الثالث نتحدث عن الاختلاف في المجتمع البشري، وتأثير الهوى على عناصر الوحدة الفطرية، ومعالجة هذا الاختلاف بالشريعة والإمامة والأسس التي يقوم عليها التغيير في المجتمع الإنساني، سواء الأسس البشرية أم الرسالية.

وفي الباب الرابع نتناول النظرية القرآنية في حركة التاريخ، ودور العقيدة الدينية في تقديم المَثَل الأعلى للإنسان، وتأثير ذلك في العلاقات

الاجتماعية، وسنحاول أن نقارن بين ما يطرحه الإسلام، وما تطرحه النظريات الأخرى في هذا المجال.

وفي الباب الخامس نتناول موضوع الدين والعلاقات الاجتماعية، ونبحث بذلك علاقة الدين بالعناصر الأساسية للمجتمع الإنساني، في ثلاثة فصول:

١. الدين وعلاقة الإنسان بالطبيعة.

٢. الدين وعلاقة الإنسان بالإنسان.

٣. الدين والعلاقات المتبادلة. بين الإنسان والإنسان من ناحية، والإنسان والطبيعة من ناحية أخرى.

وفي الباب السادس ـ وهو أوسع الأبواب ـ نبحث أسس الوحدة الإلهية الخمسة، والحكم الإسلامي في هيكله وأركانه، ودور الحكم في المجتمع الإنساني، وخصائص الحكم الإسلامي، كما نبحث ـ أيضا - منهج تحقيق الوحدة ووسائلها. ثم نختم البحث بالفصل الرابع، وهو النتائج والآثار التي حققتها الرسالة الخاتمة، التي سوف تنتهي ـ بإذن الله ـ إلى إقامة الوحدة الكاملة في مجتمع العدل المطلق، عندما يظهر الإمام الحجة ﷺ.

وإني لأشكر الجهود الطيبة التي بذلها تلميذنا الفاضل الشيخ المهندس أبو حيدر الشوكي(دام عزّه) في إعداد الكتاب، من تلخيص للمحاضرات، وتقويم للنص، وإبداء الملاحظات الفنية والتوضيحية، مما كان له الأثر المفيد في صياغته بهذه الصورة، كما أشكر ـ أيضاً ـ جهود ولدنا العزيز الفاضل السيد محمد صادق الحكيم (دام عزّه)على قيامه بصف الكتاب وتصحيحه واستخراج بعض مصادره، وبيان ملاحظاته المفيدة.

أسأل الله تعالى أنْ يكون لهما الثواب والأجر والتوفيق، كما وأسأله تعالى أنْ يجعل هذا البحث نافعاً لي عند الله والناس، وأنْ يكون ذخيرة لي

في يوم ألقاه، وأنْ يغفر لي ما فيه من أخطاء واشتباه، وأنْ يعفو عني وعن والديَّ وجميع المؤمنين يوم الحساب، وأنْ يتغمد علماءنا الماضين الذين استفدنا منهم برحمته الواسعة، ولاسيما أستاذنا الشهيد الصدر ﭬ ووالدنا الإمام الحكيم (رضوان الله عليه).

وقد تم ذلك كله في ربوع هذه الجمهورية الإسلامية المباركة التي كانت من أعظم النعم الإلهية علينا، تغمد الله مؤسسها الإمام الخميني بالرحمة والرضوان.

والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وآله الطاهرين.

تم كتابة المقدمة في ٢٩ صفر ١٤٢٤

السيد محمد باقر الحكيم

الباب الأوّل

خلافة الإنسان

تمهيد

الفصل الأوّل:

الخلافة ومبرراتها

الفصل الثاني:

مسيرة الخلافة من الخلق إلى الأرض

تمهيد

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

هذه الآيات العشر تتحدث عن قضية استخلاف الله سبحانه لآدم على الأرض، وهو استخلاف للنوع الإنساني في الأرض - كما سوف نعرف ذلك - وقضية الاستخلاف هذه تشتمل على جانبين وفصلين:

الفصل الأوّل: يتناول معنى الاستخلاف، والحكمة منه، والعلّة فيه

---

(١) البقرة: ٣٠ ــ ٣٩.

ومبرراته، وهذا الجانب من قصة آدم يشير إليه القرآن الكريم في عدة مواضع، ولكن أكثرها تفصيلاً ووضوحاً الآيات الأربعة الأولى من هذا المقطع الشريف؛ وذلك لأن جميع آيات الاستخلاف تتحدث عن هذا الموضوع - أيضاً - إلا أنها تتحدث عن استخلاف الإنسان عموماً، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[4].

وسوف نلاحظ أنّ هذه الآيات الكريمة الأخرى تكمل الصورة في فهم هذه الخلافة ومبرراتها، التي لا تختص بشخص آدم عليه السلام فقط.

والفصل الثاني: يتناول مسيرة الخلافة من الخلق إلى الأرض والعملية التي تم بها إنجاز هذا الاستخلاف خارجاً.

---

(١) الأنعام: ١٦٥.

(٢) فاطر: ٣٩.

(٣) يونس: ١٣ ــ ١٤.

(٤) الأحزاب: ٧٢.

وهذا الجانب تحدث عنه القرآن في مواضع متعددة:

منها: ما ورد في المقطع الشريف السابق من سورة البقرة من الآية (٣٠) إلى (٣٩).

ومنها: ما ورد في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ۞ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۞ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۞ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۞ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۞ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ

عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وكذلك ما ورد في سورة طه في الآية ١١٥ ـ ١٢٣، وغيرها من الآيات، ولا بد من دراستها بشكل عام، لكي تتضح لنا مسيرة خلافة الإنسان وعملية استخلافه على الأرض.

---

(١) الأعراف: ١٠ ــ ٢٧.

الفصل الأول

معنى الخلافة ومبرراتها

تقسيم البحث

إنّ ما يعني دراستنا في هذا الفصل، هو الآيات الأربعة الأولى (٣٠ ـ ٣٤) من مقطع سورة البقرة، والآيات الأخرى المشابهة السابقة.

والبحث في هذه الآيات، وما تضمنته من معلومات ومفاهيم، له عدة جوانب:

الأوّل: تحديد الموقف العام تجاه دراسة هذه الآيات من مقطع سورة البقرة الشريفة، وتصوير ما يعنيه القرآن الكريم منها.

الثاني: تحديد الموقف القرآني والإسلامي تجاه بعض المفاهيم التي جاءت في هذا المقطع، بالشكل الذي ينسجم مع المسلّمات القرآنية، والظهور اللفظي لهذا المقطع بالخصوص.

وقد اختص هذان الجانبان بهذا المقطع، لما ذكرناه من وضوحه وتفصيله.

الثالث: بيان الصورة الكاملة حول الاستخلاف، التي يمكن استفادتها من مجموع الآيات القرآنية الشريفة المشابهة، التي سبقت الإشارة إليها.

الأول: الموقف تجاه المقطع

فيما يتعلق بالجانب الأوّل نجد الشيخ محمد عبده - تبعاً لبعض الدارسين المتقدمين - يذكر رأيين مختلفين بحسب الشكل وإنْ كانا يتفقان في النهاية، حسب ما يقول:

الرأي الأوّل: هو الذي سار عليه السلف، واختاره الشيخ محمد عبده نفسه أيضاً، حيث يقول: (وأمّا ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شؤون الله مع ملائكته، صوّره لنا في هذه الفصول بالقول والمراجعة والسؤال

والجواب، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول، ولكننا نعلم أنّه ليس كما يكون منّا، وأنّ هناك معاني قصدت إفادتها بهذه العبارات، وهي عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم، وأنّه كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله)[1].

والرأي الثاني: الرأي الذي سار عليه الخلف من المحققين وعلماء الإسلام الذين بذلوا جهدهم في دراسة القرآن والتعرف على مقاصده وتأويله على أساس العقل، فإذا جزم العقل بشيء وورد النقل خلافه، يكون حكم العقل القطعي قرينة على أنّ النقل لا يراد به ظاهره، حيث يرون أنّ هذه القصة بمواقفها المختلفة إنّما جاءت على شكل التمثيل ومحاولة تقريب النشأة الآدمية الإنسانية وأهميتها وفضيلتها، وأنّ جميع المواقف والمفاهيم التي جاءت فيها لا يمكن فهم حقيقة المعاني والأهداف التي قصدت منها، بل يأتينا الله في ذلك ما يقرّب المعاني من عقولنا وتخيلتنا[2].

فالرأي الأوّل والثاني وإنْ كانا يلتقيان في حقيقة تنزيه الله سبحانه وتعالى وعالم الغيب عن مشابهة المخلوقات المادية المحسوسة في مثل هذه المشاهد والمواقف المختلفة، وكادا يتفقان - أيضاً - في الأهداف والغايات العامة المقصودة من هذا المقطع القرآني، ولكنهما مع ذلك يختلفان في إمكانية تحديد بعض المفاهيم التي وردت في المقطع، كما سوف يتضح ذلك عند معالجتنا للمقطع القرآني من جانبه الآخر.

---

(١) المنار ١: ٢٢٥.

(٢) المنار ١: ٢٢٦.

الثاني: الموقف تجاه بعض مفاهيم المقطع

وفيما يتعلق بالجانب الثاني نجد السلف - انسجاماً مع موقفهم في الجانب الأوّل - يقفون من دراسة المقطع موقفاً سلبياً، ويكتفون - في بعض حالات الانفتاح - بذكر الفوائد الدينية التي تترتب على ذكر القرآن لهذا المقطع القرآني (المتشابه) الذي لا يمكن فهم حقيقة المعاني فيه.

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى بعض هذه الفوائد[١]، ونكتفي بذكر فائدتين منها:

الأولى: إنّ الله - سبحانه وتعالى - في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أنْ يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه[٢].

الثانية: إنّ الله - سبحانه لطيف - بعباده رحيم بهم، يعمل على معالجتهم بوجوه اللطف والرحمة، فهو يهدي الملائكة في حيرتهم ويجيبهم عن سؤالهم عندما يطلبون الدليل والحجة بعد أنْ يرشدهم إلى واجبهم من الخضوع والتسليم: ﴿...إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ...﴾[٣].

وأمّا الخَلَف فقد حاولوا إيضاح المفاهيم التي وردت في هذا المقطع القرآني ليتجلى بذلك معنى استخلاف الله سبحانه وتعالى لآدم.

---

(١) المنار ١: ٢٢٥.

(٢) وهذا يعني توجيه الإنسان للبحث والتدبر في خلق الإنسان والكون.

(٣) البقرة: ٣٠ ــ ٣١.

مفاهيم المقطع

وعلى أساس منهج الخَلَف نرى في المقطع القرآني عدة مواضيع للحديث ترتبط بقضية الاستخلاف، يحسن بنا الإشارة إليها، والوقوف عندها، ثم الحديث عن المعنى العام للمقطع القرآني:

١) الخليفة

الخليفة بحسب اللغة: من يقوم مقام الذاهب ويسدّ مسده[١]، وتستعمل ـ أيضاً ـ بمعنى النيابة[٢]، ومن هذا المنطلق يطرح هذا السؤال: لماذا سُمّي آدم خليفة؟ وما هو المضمون القرآني لهذا اللفظ؟.

توجد هنا عدة مذاهب:

الأوّل: إنّ آدم سُميَ خليفة، لأنّه خَلَفَ مخلوقات الله سبحانه في الأرض، وهذه المخلوقات إمّا أنْ تكون ملائكة، أو يكونوا الجن الذين كانوا قد أفسدوا في الأرض، وسفكوا فيها الدماء، كما روي عن ابن عباس، أو يكونوا آدميين آخرين قبل آدم هذا[٣].

الثاني: إنّه سُميَ خليفة؛ لأنّه وأبناءه يخلف بعضهم بعضاً، فهم مخلوقات تتناسل ويخلف بعضها البعض الآخر، وقد نسب هذا المذهب إلى الحسن البصري[٤].

الثالث: إنّه سُميَ خليفة؛ لأنّه يخلف الله سبحانه في الأرض.

---

(١) لسان العرب ٩: ٨٩ .

(٢) مفردات الراغب: ١٥٦ ـ ١٥٧ مادة (خلف).

(٣) التبيان ١: ١٣١.

(٤) التبيان ١: ١٣١.

٢) الخلافة

وفي تفسير هذه الخلافة لله ـ سبحانه ـ وارتباطها بالمعنى اللغوي تعددت الآراء واختلفت، ومن أهم هذه الآراء:

أ) الخلافة لله - سبحانه - في الحكم والفصل بين الخلق؛ لأنّ الله قد أعطاه حق القضاء وحل الاختلافات، وهو المروي عن ابن مسعود[١].

ب) الخلافة لله - سبحانه - في عمارة الأرض واستثمارها، من إنبات الزرع، وإخراج الثمار، وشق الأنهار، وغير ذلك[٢].

ج) الخلافة لله - سبحانه - في العلم بالأسماء، كما ذهب إلى ذلك العلامة الطباطبائي[٣].

د) الخلافة لله - سبحانه - في الأرض بما نفخ الله فيه من روحه ووهبه من قوة غير محدودة، سواء في قابليتها أم شهواتها أم علومها، كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمد عبده[٤].

ولعل المذهب الثالث من هذه المذاهب الثلاثة، هو الصحيح؛ لظهور النص القرآني فيه، ولما ذكرته بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بهذا الشأن[٥].

---

(١) التبيان ١: ١٣١.

(٢) التبيان ١: ١٣١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١: ١١٦.

(٤) المنار ١: ٢٦٠.

(٥) فقد روى جابر بن يزيد الجعفي عن الباقر عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((إنّ الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده... قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يكون حجة لي في الأرض على خلقي...)). تفسير القمي١: ٣٦.

ويكون ما ذكر في القول الأوّل والثاني، إنما هو من آثار هذه الخلافة ومترتباتها.

كما يمكن أنْ يكون ما ذكره الشيخ محمد عبده في القول الرابع هو بيان السر والحكمة في منح الإنسان هذه الخلافة؛ لأنّه يتميز بهذه المواهب والقوى والقابليات، ولا يمثّل رأياً قبال الآراء الأُخرى في تفسير معنى الخلافة، وإنما هو بيان السر والعلة لهذه الخلافة.

وبذلك يمكن أنْ نجمع بين هذه الأقوال.

٣) تفسير معرفة الملائكة أن الخليفة يفسد في الأرض

لقد ذكر المقطع القرآني أنَّ جواب الملائكة على إخبار الله تعالى لهم بجعل آدم خليفة في الأرض، أنّهم تساءلوا عن سبب اصطفاء هذا المخلوق، ووصفوه بأنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فكيف عرف الملائكة هذه الصفة في هذا الخليفة؟

وهنا عدة آراء:

الأوّل: إنَّ الله سبحانه وتعالى أعلمهم بذلك؛ لأنَّ الملائكة لا يمكن أنْ يقولوا هذا القول رجماً بالغيب وعملاً بالظن[1]، فلابد لهم من العلم، والعلم مصدره هو الله تعالى، غاية الأمر أنَّ هذا الإعلام لم يذكر في الآيات الشريفة، وإنما تم بطريقة ما، فكأنه تعالى قال: إني جاعل في الأرض خليفة يكون من ولده إفساد في الأرض وسفك الدماء.

الثاني: إنهم قاسوا ذلك على المخلوقات التي سبقت هذا الخليفة - من الآدميين أو الجن - فعمموا الأمر على الذي سوف يقوم مقامها، كما يشير

---

(١) التبيان ١: ١٣٢.

إلى ذلك بعض الروايات والتفاسير، فعن ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة: إنما أخبروا بذلك عن ظنهم وتوهمهم لأنهم رأوا الجن من قبلهم قد أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فتصوروا أنه إنْ استُخلِف غيرهم كانوا مثلهم[١].

وإلى مثل هذا تشير بعض الروايات، مثل ما رواه العياشي، عن الصادق عليه السلام قال: ((وما علم الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء))[٢].

الثالث: إنّ طبيعة الخلافة تكشف عن ذلك، بناء على الرأي الأوّل من المذهب الثالث في معنى الخلافة، حيث إنّ الفصل والحكم يفترض وجود الاختلاف والنزاع، ولازمه الفساد في الأرض وسفك الدماء.

الرابع: إنّ طبيعة الخليفة نفسه تقتضي ذلك، وهنا رأيان:

أ) إنّ المزاج المادي والروحي لهذا المخلوق الذي يريد أنْ يجعله الله خليفة، والأساس الاجتماعي للعلاقات الأرضية التي سوف تحصل بين أبناء هذه المخلوقات، هي التي جعلت الملائكة يعرفون ذلك، يقول العلامة الطباطبائي: (إنّ الموجود الأرضي بما أنه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار التزاحم، محدودة الجهات، وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال وانتظاماتها وإصلاحاتها مظنة الفساد، ومصب البطلان، لا تتم الحياة فيها إلاّ بالحياة النوعية، ولا يكمل البقاء فيها إلاّ بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء)[٣].

---

(١) التبيان ١: ١٣٣.

(٢) تفسير العياشي ١: ٢٩ بحار الأنوار ١١: ١١٧، ح٤٧.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١: ١١٥.

ب) إنّ الإرادة الإنسانية - بما أُعطيت من اختيار يتحكم في توجيهه العقل بمعلوماته الناقصة - هي التي تؤدي بالإنسان إلى أنْ يُفسد في الأرض، ويسفك الدماء، قال محمد عبده: (أخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، نفهم من ذلك أنّ الله يُودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة أنْ يكون ذا إرادة مطلقة، واختيار في عمله غير محدود، وإنّ الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تعن له تكون بحسب علمه، وإنّ العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد، وهو معين لازم الوقوع؛ لأنّ العلم المحيط لا يكون إلا لله تعالى)[1].

ويبدو أنّ الرأي الأوّل هو الصحيح، حيث إنّه تعالى لابد وأنّه قد أعلم الملائكة بذلك، ولو عن طريق إعلامهم بحال وطبيعة هذا المخلوق الذي ينتهي به الحال إلى هذه النتائج.

وأمّا ما بُيِّنَ من هذه الطبيعة فلعل الصحيح هو بيان أمرين:

أحدهما: الخصوصية المادية الغضبية والشهوية، التي أشار إليها العلامة الطباطبائي، وهي: الهوى في طبيعة هذا الخليفة.

والآخر: هو أنّ هذا الإنسان مريد ومختار، يعمل بإرادته، كما ذكر الشيخ محمد عبده، ويمكن أنْ نفهم ذلك من قرينة قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، حيث إنّ هذا التسبيح والتقديس أمر لازم في الملائكة لا ينفك عنهم؛ لأنهم غير مختارين، بل يفعلون ما يؤمرون به، بخلافه في الإنسان باعتبار إرادته، الأمر الذي استدعى التوضيح الإلهي،

---

(١) المنار ١: ٢٢٦.

الذي يشتمل على بيان وجود خصوصية العلم التي تجعل هذا الموجود مستحقاً لهذه الخلافة.

وقد تحدث القرآن الكريم في وصف الإنسان بهاتين الخصوصيتين والصفتين، فقد قال تعالى في وصف الإنسان في خصوصيته المادية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

كما تحدث عن اختياره فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[2].

٤) الأسماء

والأسماء من المفاهيم التي وقع الخلاف فيها بين علماء التفسير حول حقيقتها، والمراد منها، والآراء فيها تسير في الاتجاهين التاليين:

الأوّل: إنّ المراد من الأسماء: الألفاظ التي سمّى الله سبحانه بها ما خلقه من أجناس وأنواع المحدثات وفي جميع اللغات، وهذا الرأي هو المذهب السائد عند علماء التفسير، ونُسِبَ إلى ابن عباس، وبعض التابعين[3].

وينطلق أصحاب هذا المذهب من فكرة أنّ الله سبحانه كان قد علّم آدم جميع اللغات الرئيسة، وقد كان ولده على هذه المعرفة، ثم تشعبت

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) الإنسان: ٢ ــ ٣.

(٣) التبيان ١: ١٣٨.

بعد ذلك واختص كل جماعة منهم بلغة غير لغة الجماعة الأُخرى.

الثاني: إنّ المراد من الأسماء: المسمّيات، أو صفاتها وخصائصها، لا الألفاظ، وحينئذٍ فنحن بحاجة إلى القرينة القرآنية أو العقلية التي تصرف اللفظ إلى هذا المعنى، الذي قد يبدو أنّه يخالف ظاهر الإطلاق القرآني لكلمة (الأسماء) الدالة على الألفاظ.

والقرينة الدالة على استعمال لفظ (الأسماء) في (المسمّيات)، يمكن أنْ نتصورها في الأُمور التالية:

أ) كلمة (علّم) التي تدل على أنّ الله سبحانه منح آدم (العلم) وبما (أنّ العلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات أنفسها؛ لأن الألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح فهي تتغير وتختلف، والعلم الحقيقي بالشيء لا يتغير، وهذا بخلاف المعنى فإنه لا تغيير فيه ولا اختلاف)[1]، فلابد أنْ يكون المراد من (الأسماء) هو المسمّيات التي هي المعلومات الحقيقية.

ب) قضية التحدي المطروحة في الآيات الكريمة، ذلك أنّ الأسماء حين يقصد منها الألفاظ واللغات، فهي إذن من الأشياء التي لا يمكن تحصيلها إلاّ بالتعليم والاكتساب، فلا يحسن تحدي الملائكة بها، إذ لا دلالة في تعليمها آدم على وجود موهبة خاصة فيه يتمكن بها من معرفة الأسماء، بل علمها بالتعليم الذي كان بإمكان الملائكة أنْ يعلموا بها من خلاله أيضا، وهذا على خلاف ما إذا قلنا: إنّ المقصود منها المسمّيات، فإنها مما يمكن إدراكه - ولو جزئياً - عن طريق إعمال الإدراك الذي يُعدّ موهبة خاصة، فيكون

---

(١) المنار ١: ٢٣١.

لمعرفة آدم بها دلالة على موهبة خاصة منحه الله إياها دون الملائكة[1].

قال الطوسي: (إنّ الأسماء بلا معانٍ لا فائدة فيها ولا وجه لإيثاره الفضيلة بها)[2].

وقال الرازي: (وذلك لأنّ العقل لا طريق له إلى معرفة اللغات البتة، بل ذلك لا يحصل إلاّ بالتعليم، فإنْ حصل التعليم حصل العلم به وإلاّ فلا، أمّا العلم بحقائق الأشياء فالعقل متمكن من تحصيله فصح وقوع التحدي فيه)[3].

ج) عجز الملائكة عن مواجهة التحدي؛ لأنّ هذه الأسماء لو كانت ألفاظاً لتوصل الملائكة إلى معرفتها بإنباء آدم لهم بها، وهم بذلك يتساوون مع آدم فلا تبقى له مزية وفضيلة عليهم، فلابد لنا من أنْ نلتزم بأنّها أشياء تختلف مراتب العلم بها، الأمر الذي أدى إلى أنْ يعرفها آدم معرفة خاصة تختلف عن معرفة الملائكة لها حين إخباره لهم بها، وهذا يدعونا لأنْ نقول: إنّها عبارة عن المسمّيات لا الألفاظ.

قال العلامة الطباطبائي بصدد شرح هذه الفكرة: (وقوله تعالى: ﴿...وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ...﴾ مشعر بأنّ هذه الأسماء أو أنّ مسمّياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء محجوبين تحت حجاب الغيب، وأنّ العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلاّ كانت

---

(١) وقد يقال: إن الملائكة (عقل محض)، ومن ثم فهم لديهم القدرة على هذا العلم من خلال عقلهم هذا.
الجواب: إن الملائكة (عقل محض) قد يراد منه طاعتهم المطلقة، حيث يراد من العقل ما يقابل الجهل الذي هو المخالفة، وذلك في مقابل الإنسان الذي لديه الشهوة وهي تدفعه نحو الجهل. وهذا غير موهبة القدرة على الاستنباط والتركيب بين الأشياء وابتكارها وتطويرها مما خُصَّ به الإنسان.

(٢) التبيان ١: ١٣٨.

(٣) التفسير الكبير ٢: ١٦٢.

الملائكة بإنباء آدم إياهم بها عالمين وصائرين مثل آدم مساوين معه)[1].

ولكن ما هي العلاقة المعنوية التي صححت استعمال لفظ (الأسماء) مجازاً في (المسمّيات)؟

وفي هذا المجال يحتاج أصحاب الاتجاه القائل: بأنْ المراد بالأسماء هي المسمّيات إلى أنْ يذكروا تفسيراً وقرينة للعلاقة التي صححت هذا الاستعمال، ويذكرون لذلك عدة قرائن:

١. فالرازي يرى هذه المناسبة والعلاقة في مصدر اشتقاق الاسم، فإنّ هذا الاشتقاق إمّا أنْ يكون من السمة أو السمو(فإنْ كان من السمة كان الاسم هو العلامة، وصفات الأشياء ونعوتها وخصائصها دالة على ماهياتها، فصح أنْ يكون المراد من الأسماء: (الصفات).

وإنْ كان من السمو فكذلك؛ لأنّ دليل الشيء كالمرتفع على ذلك الشيء، فإنّ العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول)[2]، والصفات تدل على الموصوف، وهي كالظاهر المرتفع بالنسبة إلى الشيء.

٢. والشيخ محمد عبده يرى هذه العلاقة في (شدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر)[3].

٣. كما انه يرى في ذلك وجهاً آخراً، يكاد يغنيه عن هذه العلاقة حيث إنّ الاسم قد يطلق إطلاقاً صحيحاً على صورة المعلوم الذهنية "أي ما به يعلم الشيء عند العالم" فاسم الله مثلاً هو ما به عرفناه في أذهاننا لا نفس اللفظ، بحيث يقال: إننا نؤمن بوجوده، ونسند إليه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن١: ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) التفسير الكبير ٢: ١٦٢.

(٣) المنار١ :٢٣١.

صفاته، فالأسماء هي ما يعلم بها الأشياء في الصور الذهنية، وهي العلوم المطابقة للحقائق الخارجية الموضوعية، والاسم بهذا المعنى، هو الذي جرى فيه الخلاف بين الفلاسفة، في أنه عين المسمى أو غيره، الأمر الذي يدعونا لأنّ نقول: إنّ للاسم معنى آخر غير اللفظ، إذ لا شك بأنّ اللفظ غير المعنى.

والاسم بهذا الإطلاق - أيضاً - هو الذي يُتبارك ويُتقدس: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[١]، إذ لا معنى لأنْ يكون اللفظ هو الذي يتبارك ويتقدس[٢].

كما أنه هو الذي يوصف بالحسنى ﴿...لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٣]، بما يعبر هذا الاسم عن الأوصاف الحسنة.

وهذا ما نفهمه في دعاء أمير المؤمنين عليه السلام من قوله: ((**وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء**))، فإنّ هذه الأسماء إنما هي مظاهر الأوصاف الإلهية الحقيقية التي تجلت في كل الوجود، من القدرة، والحكمة، والرحمة،والجود، والكرم...الخ.

فتعليم آدم الأسماء كلها، هو تعليمه الصفات والخصائص التي تتصف بها الأشياء.

حقيقة هذه الأسماء

وبعد هذا كله نجدهم يختلفون في حقيقة هذه المسمّيات، والمراد منها في الآية الكريمة.

وهناك اتجاهان رئيسيان يُطرحان في هذا المجال:

---

(١) الأعلى: ١.

(٢) المنار ١: ٢٦٢.

(٣) طه: ٨.

الأوّل: إنّ هذه المسمّيات موجودات أحياء عقلاء، وهي إما:

أ) عبارة عن أسماء العناصر والذوات الإنسانية الموجودة في سلسلة امتداد الجنس البشري من الأنبياء والربّانيين والأحبار، الذين جعلهم الله تعالى شهوداً على البشرية والإنسانية، واستحفظهم الله تعالى على كتبه ورسالاته **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾**[1]، ويكون وجود هذا الخط الإنساني الإلهي الكامل هو الضمان الذي أعده الله تعالى لهداية البشرية والسيطرة على الهوى، وتوجيه الإرادة نحو الخير والصلاح والكمال.

وقد ورد هذا الاتجاه في روايات أهل البيت عليهم السلام، فعن الصادق عليه السلام: **((إنّ الله تبارك وتعالى علم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلها ثم عرضهم ـ وهم أرواح ـ على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم عليه السلام ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.**

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله تعالى ذكره، فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته))[2].

فكأنه أريد بهذا التعليم بيان الخلفاء الحقيقيين والذوات الطاهرة النقية من عباد الله الصالحين، الذين استحق بهم الجنس البشري صلاحية الخلافة

---

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ١٤، رواه بطريقين.

على الأرض، باعتبارهم المسبحين المقدسين لله مع الإرادة والعلم، وبذلك يفضلون على الملائكة.

ويكون العلم بهذه الأسماء معناه تحقق وجودها في الخارج باعتبار مطابقة العلم للمعلوم، وتعليم آدم الأسماء إنّما هو إخباره بوجودها، أو إيداعها في صلبه.

أو يكون العلم بالأسماء معناه إيداع هذه الكمالات التي يتصف بها هؤلاء المخلوقون في خلقته وتأهيله للوصول إليها بإرادته، وهي صفات وكمالات تمثل نفحة من الصفات والكمالات الإلهية، ولا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ كلمة الأسماء في القرآن الكريم تطلق على الصفات الإلهية بنحو من الإطلاق.

وقد مال أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ إلى هذا الرأي، حيث افترض بأنّ الملائكة حين أخبرهم الله تعالى بإرادته في أنْ يجعل آدم خليفة في الأرض، ثارت في نفوسهم مخاوف أنْ يفسد هذا الخليفة الذي يتمتع بالإرادة والاختيار، وعندما أخبرهم الله تعالى بوجود الأنبياء والأولياء والأوصياء، أي: بوجود هذا الخط الذي يعبر عنه: بخط الشهادة الذي يكون مقتضاه شهادة أصحاب هذا الخط على الناس والنظارة على حركتهم وتعليمهم وهدايتهم، وحينئذٍ استقرت نفوس الملائكة، وذهبت عنهم الحيرة والخوف بعد معرفتهم لهذه الحقيقة[1].

ب) أو هي أسماء ذرية آدم وأسماء الملائكة، كما ورد ذلك عن الربيع بن زيد[2].

ج) ويرى العلامة الطباطبائي أنها موجودات عاقلة لها مراتب من

---

(١) راجع بحث خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء للشهيد الصدر ﷺ.

(٢) التبيان ١: ١٣٨.

الوجود، ويمكن من خلال العلم بها أنْ يسير الإنسان في طريق التكامل.

وكأن أصحاب هذا الاتجاه استفادوا ثبوت الحياة والعقل لهذه الموجودات من قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ عَرَضَهُمْ...﴾، حيث استخدم ضمير الجماعة المختص بمن يعقل[1].

ولكن الشيخ الطوسي يناقش فكرة الاعتماد على الضمير بقوله: (وهذا غلط لما بيناه من التغليب وحسنه، كما قال تعالى:﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾...)[2]، فحينما يكون المورد شاملاً للعقلاء وغيرهم يغلّب ضمير العقلاء.

الثاني: إنّ هذه المسمّيات تعني الحقائق والأشياء في هذا الكون، وما يتعلق بعمارة الدين والدنيا من غير تحديد ولا تعيين، ويكون شاملا للأنبياء والأئمة عليهم السلام أيضاً.

وقد تبنّى هذا الاتجاه عدد كبير من المفسرين، وهو الظاهر من كلام الشيخ الطوسي[3]، والرازي[4]، في تفسيرهما، والشيخ محمد عبده[5]، وحكاه الطبرسي[6]، عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعن أكثر المتأخرين.

وهذا الاتجاه مروي عن أهل البيت عليهم السلام أيضاً، فقد ورد في تفسير علي بن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن١: ١١٧.

(٢) النور: ٤٥، التبيان ١: ١٣٨.

(٣) التبيان ١: ١٣٨.

(٤) التفسير الكبير٢: ١٦٢.

(٥) المنار١: ٢٦٢.

(٦) مجمع البيان١: ١٥٢.

إبراهيم القمي، عن الصادق ﷺ، في تفسير قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾، قال: ((أسماء الجبال والبحار والأودية والنبات والحيوان))[١].

وفي مجمع البيان عن الصادق ﷺ ـ أيضاً ـ أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقال: ((الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته، فقال: وهذا البساط مما علمه))[٢].

وفي تفسير العياشي، عن أبي عبد الله ﷺ سألته عن قول الله:﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ ماذا علّمه؟ قال : ((الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته، فقال: وهذا البساط مما علمه))[٣].

وهذا الرأي هو الصحيح لما عرفت من عدم اختصاص المسمّيات بالوجودات العاقلة بدعوى قرينة (ضمير الجمع للعاقل) المدفوعة، كما أنه الرأي الذي ينسجم مع واقع الإنسان؛ لأن الله تعالى أعطى الإنسان، قدرة الإدراك وموهبة العلم بالحقائق، ولم يجعل ذلك مختصاً بالعقلاء من الموجودات، بل هي شاملة وغير محدودة وقابلة للنمو والتطور، وبذلك أمتاز الإنسان على الملائكة.

الثالث: نظرية الاستخلاف

بعد أن تعرّفنا على آراء العلماء المختلفة تجاه الأمور المهمّة التي جاءت في هذا المقطع القرآني الذي تناول استخلاف آدم، لابد لنا من معرفة الجانب الثالث: وهو بيان الصورة الكاملة لطرح النظرية العامة لاستخلاف الإنسان

---

(١) تفسير القمي١: ٤٥.

(٢) مجمع البيان١: ١٥٢.

(٣) العياشي١: ٣٢.

في الأرض، ومبّررات هذا الاستخلاف من خلال الآيات الشريفة الواردة بهذا الشأن.

صورتان لهذه النظرية:

وهنا يوجد عندنا صورتان بينهما كثير من وجوه الشبه:

تصور الشيخ محمد عبده

الصورة الأولى: الصورة التي ذكرها السيد رشيد رضا في تفسيره عن أستاذه الشيخ محمد عبده: حيث يرى أنّ القصة وردت مورد التمثيل، لغرض تقريبها من تناول إفهام الخلق لها، لتحصل لهم الفائدة من معرفة حال النشأة الأولى.

وعلى هذا الأساس يمكننا أنْ نفهم كثيراً من جوانب هذه المحاورة والألفاظ التي استعملت فيها، دون أنْ نتقيد بالمعنى اللغوي العرفي لها.

ولنظرية الشيخ عبده، أركان أساسية ثلاثة هي:

١) إنّ الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة بالقرار الإلهي، في أنْ يجعل في الأرض خليفة عنه يودع في فطرته (الإرادة المطلقة) التي تجعله قادراً على التصرف، حسب قدرته ومعلوماته التي لا يمكن أنْ تصل إلى مرتبة الكمال.

وعلى أساس هذه الإرادة المطلقة، وهذا العلم الناقص، عرف الملائكة أنّ هذا الخليفة سوف يسفك الدماء، ويفسد في الأرض؛ لأنّ ذلك نتيجة طبيعية لما يتمتع به من إرادة مطلقة يسير بها حسب علمه، الذي لا يحيط بجميع جوانب المصالح والمنافع، الأمر الذي قد يوجه الإرادة إلى خلاف الحكمة والمصلحة، فيقع في الفساد.

وحين عرف الملائكة ذلك، تعجّبوا من خلافة هذا النوع من الخلق - الذي يسفك الدماء، ويفسد في الأرض - لله تعالى، فسألوا الله سبحانه (عن طريق

النطق، أو الحال، أو غير ذلك) أنْ يتفضل عليهم بإعلامهم عن ذلك وبيان الحكمة لهم.

٢) وكان الجواب لهم على ذلك هو بيان وجوب الخضوع والتسليم، لمن هو بكل شيء عليم؛ لأنَّ هذا هو موقف جميع المخلوقات تجاهه؛ لأنَّ الله هو العالم المحيط بكل المصالح والحكم، وأفعاله لابد أنْ تكون لمصلحة.

على أنَّ هذا النوع من الخضوع والتسليم الذي ينشأ من معرفة الملائكة بإحاطة الله بكل شيء، قد لا يُذهب الحيرة ولا يُزيل الاضطراب، وإنما تسكن النفس بإظهار الحكمة والسر الذي يختفي وراء الفعل الذي حصل منه تعجب الملائكة، وهذا من أساليب القرآن الكريم في تفسير الظواهر الكونية والتشريعات الإلهية.

ولذلك تفضّل الله سبحانه على الملائكة، بأنْ أوضح لهم السر، وأكمل علمهم ببيان الحكمة في هذا الخلق، فأودع في نفس آدم وفطرته (علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين) الأمر الذي جعل لآدم امتيازاً خاصاً استحق به الخلافة عن الله في الأرض.

٣) ويظهر هذا الامتياز حين نقارن بين الإنسان وبين المخلوقات الأُخرى لله - سبحانه - فقد نطق الوحي، ودل العيان والاختبار على أنَّ الله تعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة، وخصَّ كل نوع منها بقدرات ومواهب، ولكنَّ الإنسان مع ذلك يختلف عنها في أنّه قد منحه الله تعالى قدرات ومواهب ليست لها حدود معينة يقف عندها ولا يتعدّاها، على خلاف بقية المخلوقات.

فالملائكة - الذين لا نتمكن من معرفة حقيقتهم إلاّ عن طريق الوحي - لهم وظائف محدودة - كما دلت الآيات والأحاديث - فهم يسبّحون الله ليلاً ونهاراً، وهم صافّون، ويفعلون ما يُؤمَرون، إلى غير ذلك من الأعمال

المحدودة.

وما نعرفه بالنظر والاختبار عن حال الحيوان والنبات والجماد، فإنها بين ما يكون لا علم له ولا عمل كالجماد، أو يكون له عمل معين يختص به نفسه دون أنْ يكون له علم وإرادة، ولو فرض أنّ له علماً أو إرادة فهما لا أثر لهما في جعل عمله مبيناً لحكم الله وسننه في الخلق، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها.

فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية - عدا الإنسان - له استعداد محدود وعلم إلهامي محدود، وما كان كذلك لا يصلح أنْ يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته.

وأمّا الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً وجاهلاً، ولكنّه على ضعفه وجهله، فهو يتصرف في الموجودات القوية، ويعلم جميع الأسماء بما وهبه الله من قدرة على النمو والتطور التدريجي في إحساسه ومشاعره وإدراكه وعلمه، فتكون له السلطة على هذه الكائنات، يسخّرها ثم يذلّلها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمّونها(العقل) ولا يعرفون حقيقتها ولا يُدركون كُنهَها، فهذه القوة نجدها تغني الإنسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والإلهام من الكساء والغذاء والأعضاء والقوة.

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل.

وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب، أعطاه أحكاماً وشرائع حدد فيها أعماله وأخلاقه، وهي في الوقت نفسه تساعده على بلوغ كماله؛ لأنّها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا.

وبهذا العلم كلّه استحق الإنسان خلافة الله في الأرض، وهي التصرف في المخلوقات، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الإنسان من

تطوير وسيطرة وتصرف في الكون.

وحين أودع الله في فطرة آدم علم الأشياء من غير تحديد، عرض الأشياء على الملائكة وأطلعهم عليها اطلاعاً إجمالياً، ثم طالبهم بمعرفتها والإنباء بها، وإذا بهم يظهرون التسليم والخضوع والعجز والاعتراف.

وعند ذلك أمر الله آدم أنْ ينبأهم بالأشياء ففعل، وذلك لتتكشف لهم الحقيقة بأوضح صورها وأشكالها.

تصوّر العلامة الطباطبائي

وأمّا الصورة الثانية: فهي التي عرضها العلامة الطباطبائي، وهي تختلف عن الصورة السابقة في بعض الجوانب، وتتفق معها في بعض الجوانب الأخرى، وسوف نقتصر على ذكر جوانب الخلاف التي سبق أنْ أشرنا إلى بعضها:

١) إنّ خليفة الله موجود مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار تزاحم، محدودة الجهات وافرة المزاحمات، لا يمكن أنْ تتم فيها الحياة إلاّ بإيجاد العلاقات الاجتماعية وما يستتبعها من تصادم وتضاد في المصالح والرغبات، الأمر الذي يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء.

٢) إنّ الملائكة حين تعجبوا كانوا يرون أنّ الغاية من جعل الخلافة هي أنْ يحكي الخليفة مستخلفه - بتسبيحه بحمده وتقديسه له - بوجوده، والأرضية، أي: الانتماء إلى الأرض وشهواتها لا تدعه يفعل ذلك، بل تجره إلى الفساد والشر، هذا مع أنّ الغاية من جعل الخلافة يمكن أنْ تتحقق لهم، بتسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له.

٣) إنّ آدم استحق الخلافة لقدرته على تحمل السر الذي هو عبارة عن تعلم الأسماء التي هي أشياء حية عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب

محفوظة عند الله، وقد أنزل الله كل اسم في هذا العالم بخيرها وبركتها، واشتق كل ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها، وأنّهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعدّدون تعدد الأفراد.

المقارنة بين الصورتين

ويحسن بنا أنْ نقارن ونوازن بين هاتين الصورتين لنخرج بالصورة الكاملة التي نراها صحيحة، لتصوير هذا الجانب من المقطع القرآني، ولنأخذ النقاط الثلاث التي خالف فيها العلامة الطباطبائي الشيخ محمد عبده.

ففي النقطة الأُولى نجد العلامة الطباطبائي على جانب من الحق، كما نجد الشيخ محمد عبده على جانب آخر منه؛ ذلك لأن العلامة الطباطبائي أكّد ما فُطِر عليه الإنسان من غرائز وشهوات وعواطف مختلفة - وهذا شيء صحيح أكّده القرآن أيضاً - لما لهذه الغرائز من تأثير كبير في حركة الإنسان وحصول التزاحم والتنافس في المجتمع الإنساني، الأمر الذي يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء، وأساس هذه الغرائز غريزة حب الذات التي جاءت الأديان السماوية - ومنها الإسلام - من أجل توجيهها توجيهاً صالحاً، يدفعها إلى تجنّب الفساد والسفك للدماء، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكّد دور الهوى - الذي يُعبّر عن طغيان هذه الغرائز - في الفساد وسفك الدماء.

والشيخ محمد عبده حين يغفل هذا الجانب في حقيقة الإنسان - وفي مسألة معرفة الملائكة للفساد، وسفك الدماء في الإنسان - يؤكد جانباً آخراً له دور كبير - أيضاً - في الفساد وسفك الدماء، وهو الإرادة المطلقة المقرونة بالمعرفة الناقصة، فلولا هذه الإرادة، ولولا هذا النقص في العلم، لما كان

هذا السفك والفساد، ولذا لا نرى الفساد وسفك الدماء في عباد الله المخلصين الصالحين؛ لأنّ علمهم بالمصلحة علم كامل مع وجود الغرائز والشهوات فيهم، وكذلك لا نراه حتى في عامة الملائكة، وقد يكون ذلك إمّا لعدم وجود الإرادة، أو وجودها - والله أعلم - مع عدم وجود الشهوات فيهم والتضاد بينهم والله العالم.

وعلى هذا الأساس يمكن أنْ نعتبر كلا الجانبين مؤثّراً في معرفة الملائكة لنتيجة هذا الخليفة.

وفي النقطة الثانية نجد الشيخ محمد عبده يحاول أنْ يذكر أنّ الشيء الذي أثار السؤال لدى الملائكة: هو قضية أنّ هذا المخلوق المريد ذا العلم الناقص لابد أنْ يكون مفسداً في الأرض وسافكاً للدماء، ومن ثَمّ فلا مبرر لجعله خليفة مع ترتّب هذه الآثار والنتائج على وجوده.

وأمّا العلامة الطباطبائي فقد حاول أنْ يذكر أنّ الشيء الذي أثار السؤال: هو أنّ الخليفة لابد أنْ يكون حاكياً للمستخلِف (الله) وبدا لهم كأن هذا المخلوق لا يحكي هذا المستخلِف؛ لأنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، بخلاف الملائكة أنفسهم، حيث يمكن أنْ يحكوا المستخلِف من خلال تسبيحهم وحمدهم.

وفي هذه النقطة قد يكون الحق إلى جانب العلامة الطباطبائي، وذلك بقرينة أنّ التفسير والمبرر الإلهي، لهذه الخلافة كان من خلال بيان امتياز هذا الخليفة بالعلم، كما قد يفهم من الآية، وأشار إليه الشيخ محمد عبده، مع أنّ هذا المبرر لا ينسجم مع النقطة التي ذكرها الشيخ محمد عبده، لأنه افترض في أصل إثارة سؤال الملائكة وجود العلم الناقص إلى جانب الإرادة؛ فكيف يكون هذا العلم - بالشكل الذي ذكره الشيخ محمد عبده، أي: علمه بالأشياء، وهو علم ناقص على أي حال - جواباً لهذا السؤال؟.

نعم، لو افترضنا أنّ العلم الذي علّمه الله تعالى لآدم، هو الرسالات الإلهية الهادية للصلاح والرشاد والحق والكمال - كما أشار الشيخ محمد عبده إلى ذلك في نهاية النقطة الثالثة - فقد يكون جواباً لسؤال الملائكة؛ لأنّ مثل هذا العلم يمكن أنْ يصلح شأن الإرادة والاختيار، الذي أثار المخاوف ويحد من الفساد وسفك الدماء، ولكن قد يقال: إنّ هذا خلاف الظاهر؛ لأنه يفهم من ذيل هذا المقطع الشريف: ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] أنّ هذا الهدى الذي هو الرسالات الإلهية الهادية، جاء بعد هذا التعليم لآدم.

أمّا لو افترضنا أنّ الذي أثار السؤال لدى الملائكة: هو الإرادة والاختيار فقط ـ كما اختاره أُستاذنا الشهيد الصدر ﷺ أصبح بيان الامتياز بالعلم والمعرفة جواباً للسؤال وتهدئة للمخاوف التي ثارت لدى الملائكة؛ لأنّ هذا العلم الذاتي في الإنسان يهدي إلى الله تعالى، ويتمكن هذا الإنسان بفطرته من أنْ يسير في طريق التكامل الإرادي، الذي هو أفضل ألوان التكامل.

وأمّا العلامة الطباطبائي فقد اعتبر الانتماء إلى الأرض والتزاحم بين المصالح فيها، هو الذي يؤدي إلى الفساد، ويكون العلم بالأسماء - حينئذٍ - طريقاً وعلاجاً لتجنب هذه الأخطار، لأن الأسماء بنظره موجودات عاقلة حية.

وفي النقطة الثالثة يفترض الشيخ محمد عبده أنّ العلم هو الذي جعل الإنسان مستحقاً للخلافة، وهذا العلم ذو بعدين:

أحدهما: العلوم الطبيعية التي يمكن للإنسان أنْ يحصل عليها من خلال

---

(١) البقرة: ٣٨.

التجارب والبحث، والتي يتمكن الإنسان بواسطتها من الهيمنة على العالم المادي الذي يعيش فيه، كما نشاهد ذلك في التأريخ وفي عصرنا الحاضر بشكل خاص.

والآخر: العلم الإلهي المنزل من خلال الشريعة، والذي يمكن للإنسان من خلاله أنْ يعرف طريقه إلى الكمالات الإلهية، ويُشخِّص المصالح والمفاسد والخير والشر.

وهذا التصوّر ينسجم مع إطلاق كلمة العلم في الآية الكريمة، ومع فرضية أنّ الجواب الإلهي للملائكة، إنّما هو تفسير لجعل الإنسان خليفة، لأنّ الجوابَ ذَكَرَ خصوصية (العلم) كامتياز لآدم على الملائكة.

كما ينسجم هذا التصور مع ما أكده القرآن الكريم في مواضع متعددة من دور العقل ومدركاته في حياة الإنسان، ومسيرته وتسخير الطبيعة له، وكذلك دور الشريعة في تكامل الإنسان ووصوله إلى أهدافه.

ولكن هذا التصوّر نلاحظ عليه:

أوّلاً: ما ذكرناه من أنّ الشريعة قد إفترِضَ نزولُها في هذا المقطع الشريف بعد هذا الحوار: ﴿...فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، إذن فهي ليست من العلم الأوّل.

ثانياً: الظاهر أنّ الإرادة والاختيار يمثلان ميزة أخرى لآدم والإنسان على الملائكة، ثم أن وهذه الخصوصية هي التي أثارت مخاوف الملائكة وسؤالهم، كما نبّهنا عليه وأشار إليه الشيخ محمد عبده.

---

(١) البقرة: ٣٨.

وأمّا العلامة الطباطبائي فقد افترض أنّ هذا الاستحقاق للخلافة إنما كان باعتبار العلم بالأسماء وحده، ولكنه فسر الأسماء بأنها موجودات عاقلة لها مراتب من الوجود، حيث يمكن من خلال العلم بها أنْ يسير الإنسان في طريق التكامل.

ولكن هذا التفسير فيه شيء من الغموض، ولعله يعتمد على بعض المذاهب الفلسفية أو العقائدية.

نعم، هناك فرضية تشير إليها بعض الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام - وسبقت الإشارة إلى ذلك - وهي أنّ هذه الأسماء عبارة عن أسماء الأنبياء والربانيين والأحبار، الذين جعلهم الله تعالى شهوداً على البشرية والإنسانية واستحفظهم على كتبه ورسالاته.

والظاهر أنّ هذه الفرضية هي التي ذهب إليها أُستاذنا الشهيد الصدر قدس سره في بحثه عن خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء.

صورة ثالثة

من الواضح أنّ الصورتين السابقتين كانتا على مستوى مدلول المقطع القرآني الشريف الوارد في سورة البقرة.

وأما لو أردنا أنْ ننظر إلى مبرّرات الاستخلاف ونظريته على مستوى آيات الاستخلاف كلها، فقد نرى أمامنا صورةً ثالثةً أكثر وضوحاً وتفصيلاً، وقد نجد عناصر أُخرى تبيّن مبررات هذه الخلافة.

وهذه الصورة هي: أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وميّزه بميزات على بقية المخلوقات في أصل خلقته، وهذه الميزات هي: العلم، والعقل، والإرادة، حيث أودع فيه من المواهب والقابليات ما يمكّنه من التكامل في المصير إلى الله تعالى، وبواسطة هذا العلم والعقل والإرادة، وبالتوفيق والهدي الإلهي، يتهيّأ

للإنسان ما يصل به إلى قاب قوسين أو أدنى في القرب من الله تعالى.

العلم

١) فالعلم: هو الذي يهدي الإنسان إلى الحق والإيمان بالله تعالى، ومعرفة هذا الوجود في مبدئه ومنتهاه، ومعرفة رسل الله ورسالاته وحقوق الله علي عباده، من شكر النعم والتزام الطاعة والوفاء بالعهد والميثاق، وهو: ما يسمى: بـ (العقل النظري).

وقد ركّز المقطع الشريف من سورة البقرة بصورة واضحة على خصوصية (العلم) ودوره في هذا الامتياز، وفي معالجة السؤال الذي أثاره الملائكة، حول جعل الله تعالى للإنسان خليفة في الأرض، مع أنه يتصف بالخصائص الأخرى التي أتصف بها الإنسان.

العقل

٢) والعقل: هو الذي يمكّن الإنسان من تمييز المصالح والمفاسد، ويعطيه القدرة على إدراك الأشياء وتمييزها، فبالعقل يدرك الخير، والشر، والصلاح، والفساد، والحسن، والقبيح.

كما أنه هو الذي يعطي الإنسان القدرة على تسخير الموجودات التي خلقها الله تعالى، لخدمة الإنسان وسدّ احتياجاته المختلفة.

كما أنه بالعقل يثاب الإنسان ويعاقب، وبه يعبد الإنسان الله تعالى، وهو الذي يوصله إلى تقوى الله تعالى، والاعتصام بحبله، وإدراك سبل النجاة، واجتناب طريق الهلاك.

فهو الهداية الذاتية التي أودعها الله تعالى في الإنسان، واستحق بها هذه الخلافة في الأرض.

وهذا هو ما يسمى: بـ(العقل العملي) والفطرة الإنسانية السليمة.

وهذا (العقل) هو جانب من (النفخة الإلهية) التي أودعها الله تعالى في الإنسان، عندما خلقه وأمر الملائكة بالسجود له، كما أنّ (العلم) الذي تحدث عنه مقطع سورة البقرة الشريف، وغيره من الآيات[1]، يمثل الجانب الآخر لهذه النفخة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2]، وبدون العقل يصبح الإنسان كالأنعام، إنْ لم يكن أشر منها وأضل سبيلاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[3].

وبذلك يتميز الإنسان عن الحيوانات التي تشترك معه في الشهوات واللذات، وفي وجود الحواس لديه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[4].

كما أنّ حواس الإنسان تصبح معطلة وغير قادرة على أداء وظيفتها الإنسانية التكاملية في فهم الحياة وآثارها ونتائجها، عندما يفقد الإنسان خصوصية العقل، فيصاب بالعمى الحقيقي.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

---

(١) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق: ١ ــ ٥، وقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ الرحمن: ١ ــ ٤.

(٢) الحجر: ٢٩.

(٣) الأنفال: ٢٢.

(٤) الأعراف: ١٧٩.

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١].

ويبدو من القرآن الكريم أنّ هناك علاقة بين العلم والعقل تتمثل في أنّ العقل والفهم والفقه من صفات العلم، ومن آثاره ونتائجه.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[٢].

وقد ورد في الحديث عن علي عليه السلام أنه قال: ((العقل أصل العلم وداعية الفهم))[٣]، وقال عليه السلام: ((العقل مركب العلم))[٤].

ويظهر من الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ أفضل شيء وهبه الله تعالى للإنسان في أصل خلقته هو العقل، فقد روى الكليني بطريق صحيح، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: ((لمّا خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلاّ فيمن أحب، أما إني إياك آمر وإيّاك أنهى وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب))[٥].

ولعل هذا العقل أو بعض درجاته العالية، هو الذي وصل إليه آدم في جنته الأولى التي أسكنه الله تعالى فيها، وابتلاه واختبره بالتكاليف الإلهية عندما نهاه وزوجه عن أكل الشجرة، فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، حيث وجدت عنده قدرة التمييز بين الحسن والقبيح على ما يظهر من القرآن الكريم، والله سبحانه أعلم.

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

(٣) غرر الحكم١: ١٠٢: ١٩٨٠.

(٤) غرر الحكم١: ١٠٢: ٨٦٦.

(٥) الكافي١: ١٠، ح١.

الإرادة

٣) والإرادة: هي الحرية في السلوك والعمل، فهي تمثّل الميزة والخصوصية الثالثة التي يختص بها الإنسان من بين المخلوقات، وهي تعني الإرادة والاختيار في أنْ يسلك طريق الهدى والصلاح والشكر لله تعالى، فتتطابق إرادته السلوكية مع الإرادة التشريعية لله تعالى فيصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى، أو يختار طريق الضلال والفساد والكفر بالله تعالى، فتختلف إرادته السلوكية مع إرادة الله التشريعية، فيسقط في مهاوي النار.

وهذه الحرية تؤهل الإنسان إلى الامتحان والفتنة والاختبار فيتكامل بذلك، كما تجعله أمام المسؤلية الإلهية والعقاب والثواب، عندما يكون كامل العقل والعلم بلطف الله تعالى.

وبهذه الحرية يواجه الإنسان جهاد النفس، وجهاد العدو، ويتحمل المصاعب والآلام من أجل الأهداف الكبرى.

كما أنّ الإنسان بهذه الحرية، يكون في موضع خطر السقوط، والفساد، وسفك الدماء، والوقوع تحت تأثير الهوى والشهوات.

وهذه الإرادة هي نفحة من الصفات الإلهية، التي اتصف بها الله تعالى، ويمكن أنْ تعبّر عنها الآية الكريمة التي تحدّثت عن النفخ في الإنسان من روح الله.

وقد تحدّثت آيات الاستخلاف عن هذه الصفة - أيضاً - مثل ما سبق من آية سورة يونس، وفاطر، وغيرهما.

كما أنّ القرآن الكريم تحدّث عن هذه الحرية في خلق الإنسان، وقانون الابتلاء الذي يتعرض له في أصل هذا الخلق.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۞ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۞ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ۞ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۞ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۞ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾[٤].

وقد أشير إلى هذا الاختبار في هذا المقطع الشريف في قضية النهي عن أكل الشجرة، وفي آخره؛ بقوله تعالى: ﴿...فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٥].

إن هذه العناصر والميزات الثلاثة أي: العلم، والعقل، والإرادة، هي التي استحق بها الإنسان الخلافة من الله تعالى، كما تحمّل بها المسؤولية العظيمة في العهد والميثاق، وأصبح الإنسان فيها مؤتمناً على هذا العهد والميثاق قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ

---

(١) الملك: ٢.

(٢) الإنسان: ٢ ــ ٣.

(٣) البلد: ٤ ــ ١٢.

(٤) الكهف: ٢٩.

(٥) البقرة: ٣٨ ــ ٣٩.

آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(٢).

ثم منح الله تعالى هذا الإنسان المواهب والقابليات والصفات التي هي من الصفات ذات الطبيعة التكاملية، والتي تتصف بالزيادة والنقصان، والشدة والضعف، من دون أنْ تكون محدودة بحد.

وابتلاه بالهوى والشهوات والميول والغرائز، وجعل طريقه إلى الله تعالى في التكامل والقرب منه، مقروناً بالكدح والبأساء والضراء والفتنة والاختبار، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾(٣).

وقد وضع الله سبحانه ذلك وفق نظام محكم تتأثر فيه الإرادة الإنسانية بالأوضاع الكونية المحيطة بها، ولكن دون أنْ تفقد فيها دورها في الاختيار، كما تتأثر الأوضاع الكونية المحيطة بالإنسان، بالإرادة الإنسانية.

وتتداخل فيه المسيرة السلوكية الفردية للإنسان، بالمسيرة الاجتماعية له، بحيث تنعكس آثار كل منهما على المسيرة الأخرى، دون حيف أو ظلم، فيتكامل المجتمع أو يتسافل بسبب الأوضاع النفسية للأفراد، وتنسحب الأوضاع الاجتماعية للجماعة على الأفراد، حتى لو كانوا خارج دائرة المسؤولية المباشرة لهذه الأوضاع، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ

---

(١) الأعراف: ١٧٢ ــ ١٧٣.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) الانشقاق: ٦ ــ ٩.

ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وعلى أساس هذه الحقائق في هذه الصورة، نجد القرآن الكريم يثبت الآثار والنتائج لهذه الحقائق، على أنها حقائق ثابتة وباقية في حياة الإنسان، وموجبة للتفاضل والتمييز، دون غيرها مما يزول ويرتبط بمرحلة معينة من وجوده.

فأثر العلم هو الإيمان بالله تعالى: وهو حقيقة باقية في حياة الإنسان، كما أنّ أثر الظن والوهم والأماني، هو الكفر والضلال وهو حقيقة باقية في حياة الإنسان.

وأثر العقل هو التقوى لله تعالى: وهي حقيقة باقية في حياة الإنسان، توجب التفاضل والتكريم، وأثر الجهل هو الفسوق والتمرد...[3].

وأثر الحرية والإرادة والإحساس بالمسؤلية، الجهاد في سبيل الله والكدح في مجاهدة النفس وأعداء الله، وفي مقابل ذلك العبودية للهوى والشهوات والوقوع في أسرها، والأثقال في أغلالها، والختم على السمع والقلب، والغشاوة على البصر، وفقدان الرؤية، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[4].

---

(١) الأنفال: ٢٥.

(٢) الأنفال: ٥٣.

(٣) ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديثاً يحدد فيه جنود العقل وجنود الجهل راجع الكافي ١: ٢٠، ح١٤.

(٤) الجاثية: ٢٣.

معنى واقع الخلافة

وأمّا الخلافة التي استحقها هذا الإنسان بهذه المواصفات، فالظاهر منها - كما ذكرنا - هو الخلافة لله تعالى في الأرض، ولكن بمعناها الواسع، بحيث تشمل جميع الأبعاد والصور والاحتمالات التي ذكرت في بيان المذهب الثالث.

١) فهي خلافة لله تعالى في الحكم والفصل بين العباد، عند الاختلاف والنزاع، وهو ما اختص به الله تعالى الأنبياء والربانيين والأحبار من بين الناس، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ...﴾[1].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾[2].

فهي خلافة شهادة على الناس، وفصل للنزاع والخلاف، وقطع لمادة الفساد، ولعل هذا النوع من الخلافة، هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في المقطع الشريف في جواب سؤال الملائكة وإثارتهم لقضية الفساد وسفك الدماء، على ما تشير إلى ذلك بعض روايات أهل البيت عليهم السلام[3]، وبوجود هذا النوع من الناس يفسر استحقاق الإنسان لهذه الخلافة من ناحية، ويعالج المخاوف التي أثارها الملائكة من ناحية أُخرى.

٢) وهي خلافة ـ أيضاً ـ في عمارة الأرض واستثمارها من إنبات الزرع، وإخراج الثمار، والمعادن، وتفجير المياه، وشق الأنهار، وغير ذلك.

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) نور الثقلين ١: ٥١، ح٨٠ و ٥٤، ح٨٧.

ولعل أكثر موارد استعمال (خلائف، وخلفاء، واستخلاف) أُريد منه هذا النوع من الاستخلاف، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

٣) وهي خلافة لله تعالى في الأرض في السلوك والعمل، في علاقته مع الله تعالى، ومع أخيه الإنسان ومع نفسه، ومع الطبيعة والكون المحيط به، حيث يكون مسؤلاً أن يعمل في ذلك بما يوافق المصلحة والحق والعدل، وينسجم مع ما جاء من الله تعالى من هدى ونور وأوامر ونواهي، تتطابق مع المصالح والمفاسد الواقعية، قال تعالى:﴿آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3].

فالإنسان وإنْ كان حراً مختاراً في التصرف والانتخاب، ولكنه يكون مسؤل عن سلوكه أمام الله تعالى؛ لأنَّه مستخلف فيه من قبل الله، وعليه أنْ يمثل المستخلِف، كما أنه هو المسؤل عن أداء هذه الشؤون وتنظيمها؛ لأنَّ ذلك هو طبيعة الاستخلاف فيها.

---

(١) الأعراف: ٧٤.

(٢) الحديد: ٧.

(٣) يونس: ١٤.

الفصل الثاني

مسيرة الخلافة

من الخلق إلى الأرض

تقسيم البحث

وقد تعرض القرآن الكريم - كما ذكرنا - لمسيرة الخلافة وتحققها في الأرض في عدة مواضع، سبقت الإشارة إليها في تمهيد الفصل الأوّل[1].

والحديث بصورة عامة في مسيرة الخلافة من الخلق إلى الأرض يقع في جانبين:

الأوّل: تشخيص مجموعة من المفاهيم والتصورات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه المسيرة، مضافاً إلى ما ذكرناه سابقاً في الفصل الأول.

الثاني: التصور العام لمسيرة الخلافة.

أولاً: تشخيص المفاهيم

١) السجود لآدم

في البداية يواجهنا السؤال عن الأمر الإلهي للملائكة في السجود لآدم، فما هي حقيقة هذا السجود؟ حيث إنّه في الشريعة المقدسة يحرم السجود لغير الله تعالى، فكيف صَحّ أنْ يُطلبَ من الملائكة السجود لآدم؟ وما هو المقصود من هذا السجود؟.

وهذا السؤال ينطلق من فكرة: أنّ السجود بحدّ ذاته عبادة، والعبادة لغير الله تعالى شرك وحرام، حيث تقسم الأفعال العبادية إلى قسمين:

الأوّل: الأفعال التي تتقوم عباديتها بالنية وقَصدِ القُربة، كالإنفاق (الزكاة والخمس) أو الطواف بالبيت الحرام أو القتال، أو غير ذلك، فإنّ هذه الأفعال إذا توفرت فيها نية القربة وقصد رضا الله تعالى تكون عبادة لله

---

(١) البقرة: ٣٠ ــ ٣٩، الأعراف: ١٠ ــ ٢٧، وكذلك راجع الحجر: ٢٨ ــ ٤٣، طه: ١١٥ ــ ١٢٤.

تعالى، وبدون ذلك لا تكون عبادة، ومن ثَمّ فهي تتبع نيتها في تشخيص طبيعتها.

والثاني: الأفعال التي تكون بذاتها عبادة، وهي التي تدل علي التقديس والخضوع المطلق، ويذكر (السجود) منها، حيث إنّه عبادة بذاته، ولذا يحرم السجود لغير الله؛ لأنّه يكون بذاته عبادة لغير الله.

ولكنّ هذا التصور غير صحيح، فإنّ السجود شأنه شأن الأفعال الأُخرى التي تتقوم عباديتها بالقصد والنية، ولذا فقد يكون السجود سخرية واستهزاء، وقد يكون لمجرد التعظيم، وقد يكون عبادة إذا كان بنيّتها.

ولذا نجد في القرآن الكريم في بعض الموارد الصحيحة يستخدم السجود تعبيراً عن التعظيم، كما في قصة أُخوة يوسف، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً...﴾[1].

وإنما كان السجود لغير الله حراماً؛ لأنه يستخدم عادة في العبادة أو يشتبه بها، فأُريد للإنسان المسلم أنْ يتنزه عما يوهم العبادة لغير الله تعالى.

وأمّا إذا كان السجود للتعظيم وبأمر من الله تعالى، فلا يكون حراماً، بل يكون واجباً.

ولكن يبقى السؤال: ماذا كان يعني هذا السجود؟.

فقد ذكر بعض المفسرين - انطلاقاً من فكرة أنّ هذا الحديث لا يراد منه إلاّ التربية والتمثيل، وليس المصاديق المادية لمفرداته ومعانيه - أنّ أمر الملائكة بالسجود يعني طلب خضوع هذه القوى المتمثلة بالملائكة خارجياً

---

(١) يوسف: ١٠٠.

للإنسان، لا قيامهم بعملية السجود المادي الحقيقي، واستخدمت كلمة(السجود) كرمز وكناية لهذا الموضوع، بحيث إنّ الله تعالى أودع في شخصية هذا الإنسان وطبيعته من المواهب ما تخضع له هذه القوى الغيبية حقيقة وخارجاً، وتتأثر بفعله وإرادته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ...﴾[1].

كما أنّه يمكن أنْ يكون هذا السجود سجوداً حقيقياً خارجيا، ولكن بالشكل الذي يتناسب مع الملائكة، ويكون طلب السجود منهم لآدم من أجل أنْ يعبروا بهذا السجود عن خضوعهم النفسي وتقديسهم لهذا المخلوق الإلهي المتميز، بما أودع الله فيه من روحه ووهبه العلم والإرادة والقدرة على التكامل والصعود إلى الدرجات الكمالية العالية.

ولعل المعنى الثاني هو الظاهر من مجموعة الصور والآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الموضوع، حيث نلاحظ أنّ امتناع إبليس عن السجود إنّما كان بسبب الاستكبار - الذي هو عنصر نفسي - على هذا المخلوق الذي فضله الله عليه، حيث كان يطرح في تفسير عدم السجود أنّه أفضل من آدم: ﴿... قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[2]، كما أنّ القرآن الكريم يشير إلى أنّ الإنسان الصالح المخلص يكون خارجاً عن قدرة إبليس ومَكرِه، ومن ثمّ فهو مهيمن على هذه القوة الشيطانية أيضاً ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[3].

---

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) الأعراف: ١٢.

(٣) ص: ٨٢ ــ ٨٣.

٢) ماهية إبليس

وهناك سؤال آخر عن حقيقة إبليس، وأنه من الملائكة أو الجن؟ حيث ورد في القرآن الكريم وصفه بكلا هذين العنوانين:

فإذا كان من الملائكة فكيف يعصي الله تعالى، وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم ﴿... عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[١]، لا يخالفون و﴿... لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢].

وإذا كان من الجن فلماذا وُضِعَ إلى جانب الملائكة في هذه القصة؟ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ...﴾[٣].

وتذكر عادة عدة شواهد للاستدلال على أنّ إبليس من الجن وليس من الملائكة ويختلف عن طبيعة الملائكة، إضافة إلى وصف القرآن الكريم له بذلك، ومن هذه الشواهد أنّ أوصاف الملائكة لا تنطبق على إبليس، حيث إنّهم وُصفوا بالطاعة﴿... لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ووصفوا بأنّهم رسل: ﴿...جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ...﴾[٤]، وقد تمرّد إبليس وكان من الكافرين﴿...إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٥]، ومن هذه الشواهد: أنّ الملائكة لا ذرية لهم، إذ لا يتناسلون ولا شهوة لهم، وأمّا إبليس فله ذرية كما أشار القرآن

---

(١) الأنبياء: ٢٦.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) البقرة: ٣٤.

(٤) فاطر: ١.

(٥) البقرة: ٣٤.

الكريم إلى ذلك: ﴿...أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي...﴾[١].

ولكن هذه الشواهد لا تكفي في عدّ إبليس من الجن في مقابل الملائكة؛ وذلك لأنّ وصف القرآن الكريم لإبليس بأنّه من الجن يمكن أنْ يكون من ناحية أنّ بعض الملائكة يوصف بأنه جن، إنْ لم يكن هذا الوصف عاماً لهم، لأنّ الجن مأخوذ من الخفاء والستر، والملائكة مستورون عن عوالمنا ومشاهدنا.

كما نلاحظ هذا الوصف في نسبة الملائكة إلى الله تعالى عند المشركين، حيث افترضوا أنّ الملائكة هم بنات الله - على ما ورد في القرآن الكريم -، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى﴿أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾[٣]، وفي الوقت نفسه يصف القرآن الكريم هؤلاء الذرية المفترات على الله بأنهم جنة: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً...﴾[٤].

كما أنّ الطاعة ليست صفة لازمة لعنوان الملائكة؛ لأنّ ما ذكر في القرآن الكريم من وصف الملائكة بالطاعة قد يكون خاصاً بالمكرمين منهم، بل نلاحظ في القرآن الكريم حصول التمرد لدى بعض الملائكة، كما في الملكين هاروت وماروت[٥].

---

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) الصافات: ١٥١ ــ ١٥٣.

(٣) الإسراء: ٤٠.

(٤) الصافات: ١٥٨.

(٥) البقرة: ١٠٢.

وكذلك موضوع (الذرية) فإنها يمكن أنْ تكون من الخصوصيات التي اختُص بها إبليس ليقوم بهذا الدور الخاص له في حياة الإنسان.

نعم، يوجد في بعض الروايات ما يشير إلى أنّ إبليس كان من الجن وليس من الملائكة، وإنما كان يعاشرهم وإنهم كانوا يظنون أنّه منهم، ولكن لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الروايات[1].

٣) خلق آدم للأرض

وهناك سؤال آخر: وهو أنّ آدمعليه السلام هل خُلِقَ للأرض؟ كما يبدو ذلك في أول المقطع الشريف: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...**﴾[2]، أو أنه مخلوق للجنة وبعد العصيان طرد للأرض، كما يفهم ذلك من القسم الثاني من هذا المقطع الشريف: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[3].

وقد حاول بعض الملحدين أنْ يثير الشبهات حول هذا الموضوع بدعوى أنّ هذا المقطع القرآني يبدو منه أنّ إدخال آدم للجنة، ثم التوبة عن فعله إنما كان عملية شكلية وصورية لطرده منها وإنزاله إلى الأرض.

ولكن الجواب عن هذا السؤال واضح وهو: إنّ آدم إنّما خُلِقَ للأرض وخلافة الله فيها، وكان وجوده في الجنة هو مرحلة متقدمة (تأهيلية) تؤهله

---

(١) نعم، إذا ثبت أنّ الملائكة غير الجن، فعندئذٍ يثبت أنّ إبليس ليس من الملائكة؛ لأنّ وصفه بأنه كان من الجن صريح في القرآن الكريم، وتعداده مع الملائكة ظاهر في القرآن الكريم، فيقدم الصريح على الظاهر في الدلالة.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) البقرة: ٣٥.

للقيام بدور الخلافة، حيث لم يكن من الممكن لآدم أنْ يقوم بهذا الدور بدون هذا التأهيل والأعداد والتجربة التي خاضها في الجنة سوف نوضح هذا الأمر في بيان الجانب الآخر.

على أنّ هذه الجنة يمكن أنْ تكون جنة أرضية ـ أيضاً - وليست جنة (الخلد)؛ إذ لا يوجد دليل على أنها جنة الخلد، وكان هبوطه وإخراجه منها يعني بداية دور تحمّل المسؤلية والتعب والجهد من أجل الحياة واستمرارها، فهو منذ البداية كان على الأرض ولكن في مكان منها لا تعب ولا عناء فيه، وقد تهيأت له جميع أسباب العيش والراحة والاستقرار وذلك لتأهيله، ولكن بعد المعصية بدأت حياة جديدة تختلف عن الحياة السابقة في خصوصياتها ومواصفاتها وإنْ كانت على الأرض أيضاً.

وبذلك يمكن أنْ نجيب على سؤال آخر هو: أنّه كيف تسنى لإبليس أنْ يغوي آدم في الجنة مع أنّ دخولها محرّم على إبليس بعد أنْ طُرد منها بسبب استكباره ورفضه للسجود؟

الجواب: حيث يمكن أنْ تكون هذه الجنة أرضية، ولم يمنع من دخولها، وأنّ الطرد كان من السماء والعوالم التي جرى فيها الحديث مع الملائكة وطلب السجود لآدم، ولعل ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾[1]، يشير إلى ذلك.

على أنّ عملية الإغواء يمكن أنْ تكون من خلال وجوده في خارج الجنة؛

---

(١) البقرة: ٣٦، قارن هذه الآيات بآيات سورة الأعراف الذي يبدو منها أنّ الطرد كان قبل الأمر لآدم بالسكن مع زوجه في الجنة، ولكن الأمر بالهبوط والخروج كان ــ على ما يبدو ــ من السماء، أي من محل المحادثة، والله العالم.

لأنّ الخطاب بين أهل الجنة وغيرهم ممن هو في خارج الجنة ميسور، كما دل على ذلك القرآن الكريم في خطاب أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

وفي خطاب أصحاب الجنة لأصحاب النار: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2].

٤) خطيئة آدم

والسؤال الآخر هو عن خطيئة آدم وغوايته وعصيانه: ﴿...وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[3].

حيث دلت بعض الروايات على أنّ آدم كان نبياً، وإنْ لم يذكر ذلك في القرآن الكريم، والأنبياء معصومون من الذنب والزلل والغواية منذ بداية حياتهم.

ومع غض النظر عن البحث في صحة هذه الفرضيات (فرضية أنْ يكون آدم نبياً)، و(فرضية أنْ يكون الأنبياء معصومين من الذنب منذ بداية حياتهم)، يمكن أنْ نفسر جدّية هذه المخالفة والعصيان على أساس اتجاهين:

الاتجاه الأوّل: أنْ يكون النهي الإلهي لآدم عن الأكل من الشجرة نهي

---

(١) الأعراف: ٥٠.

(٢) الأعراف: ٤٤.

(٣) طه: ١٢١.

(إرشادي)[1]، أُريد منه الإرشاد إلى المفاسد الموجودة في أكل الشجرة، وليس نهياً (مولوياً) يراد منه التحريك والطلب الجدّي، والمعصية المستحيلة على الأنبياء والمخالفة التي توجب العقاب هي الأوامر المولوية وليست الإرشادية.

الاتجاه الثاني: أنْ يكون النهي الإلهي ـ هنا ـ نهياً مولوياً ـ كما هو الظاهر ـ وحينئذ فيفترض ـ عند من يقول بالعصمة ـ بأنّ الأنبياء معصومون من الذنوب المتعلقة بالأوامر والنواهي التي يشتركون فيها مع الناس، وأمّا الأوامر والنواهي الخاصة بهم فلا يمتنع صدور الذنب بعصيانها وليسوا معصومين تجاهها، وهذا النهي الذي صدر لآدم إنّما هو خاص به، ولذا لم يحرم على ذريته من بعده أكل الشجرة.

ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم ينسب الظلم والذنب أحياناً لبعض الأنبياء باعتبار هذه الأوامر الخاصة، كما حصل لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2]، مع أنّ قتل

---

(١) تقسم الأوامر والنواهي في الشريعة إلى قسمين: مولوي، وإرشادي.

والمراد من (المولوي) ما يصدر من المولى باعتباره مولى له حق الطاعة، ويكون فيه إرادة جدّية للطلب والتحرك نحو المطلوب أو للزجر عن المنهي عنه، كما في أوامر الصلاة والزكاة والجهاد والحج، والنهي عن شرب الخمر والزنا والسرقة، و(الإرشادي) هو الذي يكون للإرشاد وبيان المصلحة أو المفسدة، كما في الأوامر والنواهي الشرعية في موارد المعاملات غالباً، حيث يكون إرشاداً لبطلان المعاملة أو صحتها، أو كما في أوامر الأطباء والمهندسين والعلماء التجريبيين، فإنهم لا يستحقون الطاعة بما هم سادة، وأولو الأمر والولاية، بل لأنّ متعلقات أوامرهم ونواهيهم فيها مصالح ومفاسد، فعندما يأمر الطبيب بشرب الدواء، فهذا يعني أنّ شرب الدواء فيه مصلحة، وكذا عندما ينهى عن أكل شيء فإنه يعني أنّ أكله فيه ضرر ومفسدة.

(٢) القصص: ١٦.

الفرعوني الظالم الكافر ليس ذنباً وحراماً على الناس بشكل عام، وإنما كان حراماً على موسى لخصوصية في وضعه.

ومن هنا ورد (إنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين) باعتبار أنّ لهم تكاليف خاصة بهم تتناسب مع مستوى الكمالات التي يتصفون بها.

وهذا التفسير للعصمة أمر عرفي موجود لدى العقلاء في فهمهم لمراتب الناس، فبعض الأمور هي من العلماء والفضلاء ذنب يؤاخذون عليه، ولكنه ليس كذلك بالنسبة إلى العامة من الناس، وبعض الإنفاقات القليلة ذنب من الأغنياء يؤاخذون عليها، وهي ليست كذلك بالنسبة إلى الفقراء.

ثانياً: التصور العام لمسيرة الخلافة

وهنا نشير إلى تصورين:

التصور الأوّل: ما ذكره العلامة الطباطبائي ﰏ في الميزان، حيث يفترض أنّ هذه المسيرة بدأت من وضع آدم وزوجه في الجنة من أجل أنْ ينتقل إلى الأرض بعد ذلك، وكان لابد له من التعرض إلى المعصية من أجل أنْ يتحقق النزول إلى الأرض، إذ لا يمكن أنْ يحصل على التكامل الإنساني الذي يؤهله لهذه الخلافة ما لم يتعرض إلى المعصية والنزول إلى الأرض بعد ذلك.

وذلك لأنّ تكامل الإنسان إنّما يحصل من خلال توفر عنصرين وعاملين أساسيين:

أحدهما: شعور الإنسان بالفقر والحاجة والمسكنة والذلّة، أو بتعبير آخر: شعور الإنسان بالعبودية لله تعالى الذي يدفعه للحركة والتوجه إلى الله تعالى والمصير إليه.

والآخر: هو عفو الله تعالى ورضوانه ورحمته وتوفيقه لهذا الإنسان،

وإمداده بالعطاء والفضل الإلهي.

فشعور الإنسان بالحاجة يجعله يتحرك لسد هذه الحاجة، والفضل والعطاء الإلهي هو الذي يحقق الغنى النسبي للإنسان ويسد النقص والحاجات لدى هذا الإنسان فيتكامل.

وإذا لم يشعر الإنسان بالحاجة فلا يسعى إلى الكمال حتى لو كان محتاجاً في واقع الحال، وإذا لم يتفضل الله على هذا الإنسان بالعفو والرحمة والعطاء يبقى هذا الإنسان ناقصاً ومتخلفاً في حركته.

وما ذكر في قصة آدم إنما يمثل هذين الأمرين معاً.

فلو لم ينزل الإنسان إلى الأرض لم يشعر بالحاجة، حيث كان يعيش في الجنة يأكل ويشرب بدون تعب أو عناء، فطبيعة هذه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[1].

ولو لم تصدر من آدم المعصية فلا يمكن أنْ يحصل على تلك الدرجات العالية من الرحمة والمغفرة التي يحصل عليها الإنسان في حالات الرجوع والتوبة إلى الله، حيث يفترض العلامة الطباطبائي ﷺ وجود درجات من الرحمة والمغفرة مرهونة بالتوبة والإنابة، قال: (فللّه تعالى صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلاّ المذنبون... فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه وتنظيف المنزل الذي يرجى سكونه، فوراءها تشريع الدين وتقويم الملة.

فالقصة وراءها قضاءان قضاهما الله تعالى في آدم:

القضاء الأوّل: الهبوط والخروج من الجنة والاستقرار على الأرض

---

(١) طه: ١١٨ ــ ١١٩.

وحياة الشقاء فيها، وهذا القضاء لازم حتمي لأكل الشجرة، حيث بدت سوآتهما، وظهور السوءة لا يناسب حياة الجنة، بل الحياة الأرضية، ومن هنا كان إخراجهما من الجنة بعد العفو عنهما، ولولا ذلك لكان مقتضى العفو هو بقاؤهما في الجنة.

القضاء الثاني: إكرام آدم بالتوبة، حيث طيب الله تعالى بها الحياة الأرضية التي هي شقاء وعناء، وبها ترتبت الهداية إلى العبودية الحقيقية، فتألفت الحياة من حياة أرضية وحياة سماوية)(١).

فنزول آدم إلى الأرض وإنْ كان فيه ظلم للنفس وشقاء، إلا أنّه هيّأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل، وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير خطيئة.

التصور الثاني: ما ذكره أستاذنا الشهيد الصدر ﵀: إنّ الله سبحانه قدّر لآدم الذي يمثل أصل الجنس البشري أنْ يمر بدور الحضانة التي يمر بها كل طفل ليتعلم الحياة وتجاريبها، فكانت هذه (الجنة الأرضية) التي وجدت من أجل تربية الإحساس الخلقي لدى الإنسان، والشعور بالمسؤلية وتعميقه من خلال امتحانه بما يوحيه إليه من تكاليف وأوامر.

وقد كان النهي عن تناول الشجرة هو أول تكليف يوجه إلى هذا الخليفة ليتحكم في نزواته وشهواته، فيتكامل بذلك، ولا ينساق مع غريزة الحرص، وشهوة حب الدنيا، التي أودعها الله فيه وكانت الأساس لكل ما يشهده مسرح التأريخ الإنساني من ألوان الاستغلال والصراع.

وقد كانت المعصية التي ارتكبها آدم هي العامل الذي ولّد في نفسه الإحساس

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١: ١٣٤ــ١٣٥ بتصرّف.

بالمسؤلية من خلال مشاعر الندم فتكامل وعيه بهذا الإحساس، في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة من خلال وجوده في الجنة.

وكان الهدى الإلهي يتمثل بخط الشهادة، وهو الوحي الإلهي الذي يتحمل مسؤليته الأنبياء لهداية البشرية.

وبذلك تتكامل المسيرة البشرية، ويتطور الإنسان، ويسمو على المخلوقات من خلال التعليم الرباني والهدى الإلهي، الذي يجسده شهيد رباني معصوم من الذنب يحمله إلى الناس من أجل تحصينهم من الضلال: ﴿.. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

ملاحظات على التصورين

ويمكن أنْ نشير في نهاية هذا العرض لهذين التصورين إلى عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: إنّ المرحلة الأولى من مسيرة الخلافة وإعداد آدم عليه السلام لها هي تعليم آدم الأسماء، بحيث هيأ له ذلك أنْ يستحق هذه الخلافة من ناحية، وأنْ يكون قادراً على أداء حقها والعمل بما يريده المستخلِف منه في هذه الحياة الدنيوية ليتكامل فيها من ناحية أُخرى، ويكون بذلك قادراً على ممارسة دوره في الحياة الدنيوية في إعمارها، وطلب الرزق فيها، وتسخير المخلوقات التي أوجدها الله له في هذا الكون. وبهذا العلم كان يمكن لآدم أنْ يستفيد من التجارب وما تعرّض له من معصية، وما اهتدى إليه من توبة، وما استفاده من العفو والرحمة.

---

(١) البقرة: ٣٨.

الملاحظة الثانية: إنّه يمكن تكميل الصورة: بأنّ الإسكان في الجنة في الوقت الذي يمثل مرحلة الإعداد والتهيؤ يعبر في الوقت نفسه عن هدف إلهي وراء هذا الإعداد والحياة الدنيوية، وهو: إنّ مقتضى الرحمة الإلهية بالإنسان هو أنْ يعيش حياة الاستقرار والسعادة بعيداً عن الشقاء، وأنّ مسيرة الشقاء إنّما هي اختيار الإنسان، أو مقدمة لحصول الاستقرار والسعادة الأبدية من خلال الكمالات الإنسانية في الامتحان والبلاء؛ ولذا بدأ الله تعالى حياة الإنسان بالجنة وشمله برحمته الواسعة من خلال التوبة والسداد الإلهي بالهدى الذي أنزله على الأنبياء.

كما أنّ الخطيئة هي التي فجّرت في الإنسان - إضافة إلى إحساسه بالمسؤلية - إدراكه للحسن والقبح والخير والشر، ولعل هذا هو الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

وكذلك فجرت فيه الأساس بالحاجة والفقر، فلجأ إلى الله تعالى في طلب التوبة.

وكان هذا الإدراك ضرورياً للإنسان من أجل أنْ يكون قادراً على مواجهة مشكلات الحياة وألوان الصراع فيها، وتمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والمصلحة من المفسدة، والمنفعة من المضرّة، ويلجأ إلى الله تعالى في سد حاجاته وفي عبادته، ويخلق فيه حالة التوازن الروحي والنفسي في مقابل ضغوط الشهوات والغرائز.

---

(١) الأعراف: ٢٢.

وقد كان من الممكن أنْ يحصل هذا الإدراك من خلال الحضانة الطويلة والتجربة الذاتية في حياته في الجنة، ولعل هذا هو الهدف من وضعه في الجنة ليمر بهذه الحضانة (الطويلة)، كما يحصل للإنسان في تجاربه في الطفولة، حيث تنمو فيه هذه المعرفة تدريجاً وهو الطريق الطبيعي لذلك، ولكن كان هناك في الوقت نفسه طريق أقصر محفوف بالمخاطر وبالخطيئة والذنب.

ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليختار للإنسان طريق الخطيئة بالرغم من قصره ؛لأنه طريق خطير، ولكن عندما اختار الإنسان ذلك، وأصبح يدرك هذه الحقائق صار مؤهلاً للبدء في الحياة الدنيا.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى أمامه باب التوبة والرجوع إليه؛ ليتمكن الإنسان من مواصلة طريقه عندما يضعف ويقع في الخطيئة، وينمّي فيه الشعور بالحاجة واللجوء إليه في سدها، والتوكل عليه في أموره، وبذلك يتكامل عندما يكون قادراً على التغلب على شهواته والسيطرة على رغباته.

الملاحظة الثالثة: إنّ العلامة الطباطبائي ﵁ لم يوضّح دور الخطيئة في معرفة السوءات، كما لم يوضح عدم انسجام السوءات مع حياة الجنة، ولعله يريد من دور الخطيئة في معرفة السوءات ما أشرنا إليه دورها في إيجاد الإحساس الخلقي للإنسان في إدراكه للحسن والقبح، وكذلك لأنّ حياة الجنة يراها حياة طاهرة ونظيفة لا تنسجم مع السوءات، وهو معنى عرفاني حيث لم يشر القرآن الكريم إلى أنّ آدم ﵇ لم تكن لديه سوءة قبل الخطيئة، أو أنّها وجدت بعد الخطيئة، وإنّما أشار إلى أنّ إدراكه للسوءة إنّما كان بعد الخطيئة والذنب.

الملاحظة الرابعة: إنّ الشهيد الصدر ﵁ لم يذكر في تكون مسار الخلافة على الأرض دور التوبة في هذا المسار، مع أنّ التوبة لها دور أساس – كما أشار العلامة الطباطبائي ﵁- يمكن من خلاله أنْ يستأنف الإنسان عمله

وتجربته في هذه الحياة، ويصعد بسببها في مدارج الكمال.

الملاحظة الخامسة: إنّ الكمالات الإنسانية يمكن أنْ نتصورها بدون خطيئة، ويتكامل فيها الإنسان من خلال الطاعة والإحساس بالعبودية لله سبحانه وتعالى، إلاّ إذا كان المقصود من الخطيئة ليس مجرد المخالفة، وإنما إحساس الإنسان بالحاجة والتقصير في حق الله تعالى وشكره لنعمه، الأمر الذي يدفعه إلى الاستزادة من الأعمال الصالحة والرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه.

الملاحظة السادسة: إنّ العلامة الطباطبائي تصور أنّ الجنة سماوية، والشهيد الصدر تصورها أرضية، وهذا التصور الثاني في الوقت الذي ينسجم مع بعض الروايات، يتوافق مع فرضية خلق الإنسان للأرض كما ذكرنا سابقاً، والله سبحانه أعلم.

الباب الثاني

المجتمع الإنساني ونشوؤه

تمهيد:

التعريف بمصطلح المجتمع

الفصل الأوّل:

عناصر المجتمع الإنساني

الفصل الثاني:

الوحدة الفطرية والاختلاف البدائي

تقسيم البحث

بالإمكان تقسيم البحث في هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأوّل: في عناصر المجتمع الإنساني، ونتناول فيه العناصر الأساسية التي يتشكّل منها المجتمع الإنساني وفق النظرية القرآنية والمادية.

الفصل الثاني: الوحدة الفطرية والاختلاف البدائي، ونحاول فيه تفسير كيفية نشوء مجتمعي الوحدة والاختلاف الفطريين، والعوامل التي سببت ذلك.

ويسبق هذين الفصلين تمهيد، نبحث فيه التعريف بمصطلح (المجتمع)، من خلال التعرض للمفردات اللغوية التي عبّر عنها القرآن الكريم من خلالها عن مفهوم (المجتمع) الإنساني.

تمهيد

التعريف بمصطلح المجتمع

في بداية الحديث عن المجتمع الإنساني لابد من التعرض لمصطلح (المجتمع) وبيان ما يتضمّنه هذا المصطلح من مفاهيم خاصة، حيث إنه قد استُخدِمَ بشكل واسع في أدب هذا العصر عند الحديث عن الإسلام ورسالته الخاتمة، حيث يقال عادة: بأنّ الإسلام رسالة سماوية جاءت لتنظيم المجتمع الإنساني وهدايته وتكامله.

ولم ترد لفظة (المجتمع) بهذه الصيغة في القرآن الكريم، كما يلاحظ عدم استعمالها بصورة واسعة في الخطاب اللغوي العام لعصر نزول القرآن الكريم، الأمر الذي قد يكشف عن استحداثها في اللغة العربية.

وقد عبّر القرآن الكريم عن مفهوم المجتمع بمفردات أُخرى تقاربه في المضمون العام، منها:

الجَمْع

وهي اللفظة الأقرب إلى لفظة (المجتمع) من ناحية المادة والاشتقاق اللغوي، كما أنها قريبة من ناحية المعنى أيضاً، حيث أستخدمها القرآن الكريم في مقام التعبير عن الجماعة والمجتمع في عدة آيات منها:

قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[1]، حيث عبّر بالجمع عن مجتمع المشركين بصورة عامة.

---

(١) القمر: ٤٥.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ...﴾[1]، حيث عبّر عن الجماعتين المتمثلتين لمجتمعين متقابلين متحاربين هما: مجتمع المسلمين، ومجتمع المشركين بـ (الجمعان).

القوم

وهي من أوسع المفردات التي استخدمت قرآنياً للتعبير عن المجتمع، إذ وردت حوالي (٣٨٣) مرة، وبصيغ مختلفة.

وكثر استعمالها عند الحديث عن جماعة الناس الذين ينتمي إليهم النبي بأواصر القربى والنسب، أو بأواصر العلاقات الاجتماعية الواحدة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾[2].

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا...﴾[3].

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾[4].

كما استُعملت كثيراً عند الحديث عن الجماعة التي يوحدها الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - أو الصفات المشتركة من العلم والتقوى والفهم، كما ورد ذلك في سياق الدعوة إلى التفكر في آياته وأخْذ العبرة بما حلّ بالكافرين والمعاندين له عزّ وجل، كقوله تعالى:﴿... وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ

---

(١) آل عمران: ١٥٥.

(٢) إبراهيم: ٤.

(٣) الأعراف: ١٢٨.

(٤) الحج: ٤٢ ـ ٤٣.

وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[١].

﴿... كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٤].

كما استُخدمت للتعبير عن الجماعة البشرية بصورة مطلقة كقوله تعالى:

﴿... لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٥].

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[٦].

﴿... وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[٧].

الشعب والقبيلة

وردت لفظة الشعب والقبيلة في القرآن الكريم في مقام التعبير عن الجماعات البشرية التي يربطها عامل النسب أو اللغة، كما في قوله تعالى. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾[٨].

---

(١) يونس: ٦.

(٢) الأعراف: ٣٢.

(٣) النمل: ٥٢.

(٤) العنكبوت: ٣٤ ـ ٣٥.

(٥) الجاثية: ١٤.

(٦) الدخان: ٢٨.

(٧) محمد: ٣٨.

(٨) الحجرات: ١٣.

حيث قسّمت الآية الشريفة الناس إلى جماعات ترتبط فيما بينها بروابط طبيعية كانت أساس تكوّن المجتمع البشري، مثل: النسب، واللغة، وبيّن أنّ الهدف من هذا التقسيم والاختلاف هو إيجاد التمايز بينها، ولكن بهدف توثيق العلاقات الإنسانية، من خلال التعارف والتعاون على إدارة هذه الحياة والتكامل في مسيرتها.

الأمة

ولعل هذه المفردة هي أقرب المفردات في التعبير عن مضمون مصطلح (المجتمع) بمعناه المعاصر المعروف من الناحية السياسية والاجتماعية.

وقد وردت قرآنياً تارة بمفهومها (اللغوي) بمعنى (الجماعة) أي: المجموعة من الناس التي تربطها رابطة الاجتماع، بحيث يكون معناها مجرد الجماعة فيعبر عنها: بالأمة، ولعل هذا هو الأصل في استخدامها، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً...﴾[1]، أي: قطّعهم الله تبارك وتعالى وجعلهم على شكل جماعات.

﴿...تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ...﴾[2]، أي جماعة أربى[3] من جماعة.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ...﴾[4]، أي وجد عليه جماعة من الناس.

كما وردت لفظة (أُمة) تارة أُخرى في مقام التعبير عن البعد الاجتماعي

---

(١) الأعراف: ١٦٠.

(٢) النحل: ٩٢.

(٣) أي:أكثر عدداً.مجمع البحرين٢ :١٣٨.

(٤) القصص: ٢٣.

المعنوي للجماعة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1]، إذ أشارت الآية الكريمة إلى جماعات من الناس متعددة بحسب الواقع اللغوي والتأريخي والشعوبي، ولكنها ترتبط فيما بينها بروابط فكرية وعقائدية وسلوكية، وأهداف سياسية وحركية، بحيث تعبّر بمجموعها عن مجتمع متكامل، وهذه الجماعات هي جماعة الأنبياء عبر التأريخ الإنساني التي كانت ترتبط فيما بينها برباط الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وبالغيب والوحي الإلهي، وبالدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، والتكامل في السيرة الإنسانية بالرّغم من تَعَدُّدِها في لغتها وقومها وأماكنها وتأريخها، ولعلّ أفضل مقطع قرآني تناول فيه موضوع الأمة، هو ما جاء في مقطع سورة البقرة من الآيات (١٣٠ ـ ١٤٣).

فقد تكرر لفظ الأمّة في هذا المقطع عدّة مرات، وكأنّه يتحدّث عن تأريخ الأمّة الإسلامية وتأسيسها ومعالمها، كما وردت الآية المباركة: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2] مرتين: تارة في معرض الحديث عن عما كان يقوله المشركون الوثنيون تجاه الأمّة الإسلامية، وأخرى في معرض الحديث عمّا كان يقوله اليهود والنصارى من أهل الكتاب والرسالات السابقة للمسلمين، والموقف الصحيح من هذه الأقوال، وعرض العقيدة الإسلامية السليمة، وكان التقسيم على أساس العقيدة والسلوك:

- أمّة كانت على ملّة إبراهيم، قد خلت، لها ما كسبت من عقائد وأعمال وتبعات وآثار تلك الأعمال في مجمل مسيرتها.

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) البقرة: ١٣٤و ١٤١.

- وأمّة أخرى هي التي جاءت بعد تلك الأمّة، والتي اختلفت في الدين، وأصبحت شيعاً من اليهود والنصارى لها ما تكسب أيضاً، ولا تُسأل إحداهما عمّا تفعل الأخرى، فالرابط لهذه الجماعة وتلك هو العقيدة والسلوك والكسب والنتائج والآثار.
- وأمّة أخرى جاءت متميّزة في صيغتها وشعائرها، وهي الأمّة الوسط التي أخذت من جميع هذه الأمم ما تشترك فيه من محاسن.

ومن الواضح أنّ التقسيم هنا ليس تقسيماً قائماً على أساس العلاقات الطبيعية، مثل: الدم، أو التأريخ، أو اللغة، إذ إنّ بعض النصارى واليهود كانوا من العرب ومن سكنة الجزيرة العربية، كما كان بعضهم من غير العرب - أيضاً - وهذا هو حال المسلمين - أيضاً - فإنّ فيهم العربي وغيره، وإنما قام التقسيم بين الأمتين على أساس (الملّة)، والأفكار، والعقائد، والشعائر، والسلوك، وهي أمور تختلف فيها هذه الجماعة عن تلك.

وعلى هذا الأساس أيضاً نرى أنّ القرآن الكريم بعدما طرح معالم الأفكار والعقائد التي تتبنّاها الأُمّة الوسط، والتي تعبر عن طبيعة كسبها وسلوكها في مقابل اليهود والنصارى، من خلال الإيمان بكل الرسالات الإلهية دون فرق، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾[1].

ثم طرح بعد ذلك موضوع القبلة التي هي من الشعائر التي تميّز هذا النوع من الأمم بعضها عن بعض، والتي ترتبط بالجانب السلوكي والمعنوي لعلاقات الناس، وهي قضية كان يشترك فيها المسلمون مع المشركين في

---

(١) البقرة: ١٣٦.

التقديس والاحترام، رتب الله على هذا الموضوع بيان هويّة هذه الأمّة وتمييز شخصيتها بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ...﴾[1].

ومن خلال هذه المقارنة، نستنتج أنّ القرآن الكريم حينما يؤكّد هنا على مفهوم الأمّة يعبّر بها عن الجماعة التي يشترك أفرادها في التأريخ المعنوي (العقائدي والسلوكي): ﴿...بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً...﴾[2]، وفي سورة الحج ﴿... مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ...﴾[3]، وكذلك يشترك أبناءها في العقيدة والسلوك الاجتماعي القائم على هذه العقيدة.

ويؤكّد ذلك ما جاء في الآيات الأخرى التي وردت فيها لفظة (أمة) بمعناها الثاني الاجتماعي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[4]، إذ جعلت الآية المباركة الرابطة بين أفراد هذه الأمّة التي يراد تكوينها، هي سلوكها الاجتماعي العام، وهو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذه الروابط العقائدية والمعنوية تتقوم الأمّة وتترابط فيما بينها.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) البقرة: ١٣٥.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) آل عمران: ١٠٤.

وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١]، فالأجل الذي تتحدث عنه هذه الآية الكريمة ليس الأشخاص أو الموت والحياة الماديين لهم، بل هو الأجل للعلاقات التي تربط بين هؤلاء الأشخاص عقائدياً وسلوكياً، والتغييرات الرئيسية التي تحصل في الجوانب المعنوية للروابط والعلاقات السائدة في تلك الأمم، حيث يترتّب على هذه التغييرات العقائدية والسلوكية التغييرات الاجتماعية، وهو قانون وسنّة إلهية، كما أكّدها القرآن الكريم في مواضع أُخرى ـ كما ذكرنا ذلك من قبل ـ مثل قوله تعالى: **﴿...إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾**[٢].

وقوله تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[٣].

فما يصدر من الناس من أعمال سلوكية واجتماعية، وما يقومون به من نشاطات فكرية ومعنوية صالحة أو طالحة يؤثر بشكل مباشر في حركة التأريخ والأوضاع الاجتماعية للناس وفي تحديد عمر هذه الأُمة أو تلك.

وعلى هذا يكون المقوّم الحقيقي للأُمّة بمعناها الحقيقي والحافظ لكيانها ولوجودها هو الجانب الفكري والمعنوي والسلوكي للجماعة وطبيعة الروابط والعلاقات بين أفرادها.

ومثل قوله تعالى: **﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**

---

(١) الأعراف: ٣٤.

(٢) الرعد: ١١.

(٣) الروم: ٤١.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[1]، حيث نلاحظ في هذه الآية أنها وردت في سياق بيان الأُصول العقائدية والأخلاقية للرسالة الإسلامية، كما أنها تصف الأُمّة المُخَاطَبَة بأنها أُمّة (تكفر بالرحمن) وهي رابطة معنوية.

نعم، قد تُستَخدَمُ الأُمّة في القرآن الكريم - كما ذكرنا - بمعناها اللغوي، وهو مجرد الجماعة من الناس، ولكنّها عندما تُستَخدَمُ بمعناها الاجتماعي يراد منها (المجتمع الإنساني) الذي يشترك بعقيدة واحدة وسلوك اجتماعي عام واحد.

الفرق بين لفظتي (الأمة) و (القوم)

وقد اتضح لنا مما سبق أنْ هناك فرقاً رئيسياً بين لفظتي (الأُمّة) و (القوم).

فلفظة (قوم) تستخدم في الأصل ـ وحسب الظاهر ـ في الجماعة التي تكون الروابط فيما بينها روابط شعوبية ذات علاقة بالدم والتأريخ المادي والأرضي، وقد تتطور فتطلق الكلمة على الجماعة التي تربطها روابط معنوية.

أمّا (الأُمّة) فهي لفظة يراد منها بمعناها اللغوي مجرد الجماعة، ولكنها تطورت في الاستعمال القرآني فأصبحت كلمة تعني الجماعة التي ترتبط فيما بينها بالروابط الفكرية والعقائدية والسلوكية.

اللفظ المختار

على ضوء ما بيّناه من معاني الألفاظ التي استُخدمت قرآنياً للدلالة على الجماعة البشرية من قبيل: الجمع، والقوم، والشعب، والقبيلة، والأمة،

---

(١) الرعد: ٣٠.

اتّضح لنا أنّ لفظ (الأُمة) هو اللفظ القرآني الأقرب مضموناً إلى مصطلح (المجتمع)، وان كان لفظ (الجمع) هو الأقرب لفظاً له.

وحينئذٍ، تكون الآيات التي تناولت موضوع (الأُمّة) هي الآيات التي تناولت موضوع المجتمع الإنساني بشكل عام.

الفصل الأول

عناصر المجتمع الإنساني

أشار السيد الشهيد الصدر ﷺ في محاضراته حول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم من خلال بحثه لآية خلافة آدم عليه السلام[1]: إلى أنّ المجتمع يتقوم بثلاثة عناصر أساسية تشترك بالالتزام بها جميع النظريات الاجتماعية، ويمكن استنباطها من الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[2].

وهذه العناصر الأساسية الثلاثة للمجتمع البشري هي:

الأول: (الإنسان) الخليفة: وهو المحور الأساس، والعنصر الأهم من بين عناصر المجتمع الإنساني الذي خلقه الله تعالى للقيام بهذا الدور الاجتماعي.

الثاني: الأرض والطبيعة: ولا يراد بالأرض هنا خصوص جسم الكرة الأرضية فقط، بل يراد بها جسم الكرة الأرضية وما يحيط بها من عوالم مرتبطة بها وبالإنسان، فهي كل الكون المحيط بالإنسان والذي يتفاعل معه.

الثالث: العلاقة القائمة بين الإنسان والأرض من ناحية، وبين الإنسان والإنسان الآخر من ناحية أخرى.

إنّ هذه العناصر الثلاثة عناصر أساسية، ومقومات ثابتة تتشكل المجتمعات من خلالها، ولا توجد نظرية اجتماعية إلهية أو مادية تتحدث عن المجتمع ولا تفترض فيه العناصر الثلاثة.

الفرق بين النظريتين القرآنية والمادية في تصوير العنصر الثالث

ولكن ما هو الفرق - إذن - بين النظرية الإلهية القرآنية والنظريات المادية في فهم المجتمع الإنساني وحقيقته، إذا كانت جميع النظريات الاجتماعية

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٠٦، الدرس الثامن.

(٢) البقرة: ٣٠.

تؤمن بهذه العناصر الأساسية الثلاثة للمجتمع؟.

وقد تحدث السيد الشهيد الصدر ﷺ عن الفرق الجوهري بين النظرية القرآنية والنظرية المادية في ذلك من خلال افتراض وجود الفرق بينهما في تصوير العنصر الثالث، حيث طرح صيغتين لتصوّر هذا العنصر:

الأولى: الصيغة الثلاثية: وهي الصيغة التي تتبناها النظرية المادية، حيث ترى أنّ أطراف العلاقة هي: الإنسان، والإنسان الآخر، والطبيعة (الأرض).

الثانية: الصيغة الرباعية، وهي الصيغة التي تعبّر عن التصور القرآني لأطراف العلاقة في المجتمع الإنساني وهي: الله سبحانه وتعالى، والإنسان، والإنسان الآخر، والطبيعة.

ثم بين ﷺ: إنّ إضافة الطرف الرابع في التصور القرآني ليس من قبيل الإضافة العددية للأطراف فتصبح الثلاثة أربعة، بل هي إضافة ذات تأثير جوهري على مضمون هذه العلاقة بين الأطراف الأخرى، وعلى ضوئه تتحول العلاقة من علاقة قائمة على أساس الندية والصراع بين الإنسان والإنسان الآخر، وعلى أساس المالكية والقدرة والهيمنة بين الإنسان والطبيعة... إلى علاقة تقوم أساس آخر وهو (الاستخلاف)، حيث يكون فيها أطراف ثلاثة هي:

أ) المستخلِف فيها هو الله سبحانه وتعالى.

ب) والخليفة هو الإنسان.

ج) والمستخلَف عليه هو الطبيعة وبقية الناس.

ثم أضاف إنّ كون الله سبحانه وتعالى الطرف الرابع في هذه العلاقة لا يجعله ـ عزّ وجل ـ جزءاً من المجتمع الإنساني؛ لأنه ليس عنصراً أساسياً فيه، بل هو خارج عنه، غاية الأمر أنّ علاقة الإنسان الاجتماعية التي هي

العنصر الثالث، افترضنا فيها طرفا ثالثا غير الطبيعية والإنسان، وهو الله تعالى، فهي علاقة (الاستخلاف) وهي تتقوّم بوجود المستخلِف وهو الله عزّ وجلّ، فالعلاقة به سبحانه تكون مستبطنة في علاقات الإنسان مع العناصر الأخرى، ويصبح لهذه العلاقة مضمون مؤثّر بشكل أساسي على علاقة الإنسان بالعناصر الأخرى المكوّنة للمجتمع كما سبق ذكره.

وبذلك يصبح الدين سنّة من سنن التأريخ الإنساني الذي يتحكم بمسار حركة الإنسان والتأريخ، وهذا الدين هو الدين الفطري الذي فطر الله تعالى عليه الإنسان، وهو إحساسه بالاستخلاف والاستئمان، والذي كان يوجّه البشرية في حركتها في مقابل الكفر، والوقوع تحت تأثير الشهوات، والطغيان، والشيطان، حيث يتفرّق الإنسان ويختلف.

ومن الممكن أنْ نشير إلى ملاحظتين على هذا العرض الدقيق الرائق للنظرية القرآنية حول المجتمع:

الأولى: إنّ النظريات الاجتماعية المادية أو الإلهية قد تختلف بينها، ولا يمكن أنْ نفسر هذا الاختلاف على أساس البعد الرابع الذي يمثّل إحدى صياغتي العنصر الثالث وحده، ببيان أنّ المادية تلتزم بأبعاد ثلاثة للعلاقة بخلاف النظرية الإلهية التي تلتزم بأبعاد أربعة، بل إنّ هذا الاختلاف يكون منطلقاً من تصورها للنظام العام الذي ينظّم ويصوّر هذه العلاقة ذات الأبعاد الثلاثة أو الأربعة، وهذا النظام هو الذي يمثّل عنصراً رابعاً من عناصر المجتمع الإنساني، إذ إنّ العلاقة تارة: يُنظَر إليها في أصل وجودها مجرّدة عن الصيغة والصورة التي تشكّلها فهي العنصر الثالث في المجتمع، الذي تشترك بالالتزام به جميع النظريات المادية والإلهية؛ وذلك لأنّ الإنسان لّما كان يعيش على الأرض فلابد أنْ تكون له علاقة تكوينية مع هذه الأرض، مع قطع النظر عن صيغتها الاجتماعية، وهكذا عندما يتوالد

الإنسان، ويوجد الإنسان الآخر تتكوّن علاقة تكوينية مع الآخر، مع قطع النظر عن صياغتها الاجتماعية، مثل: علاقات الحيوانات بعضها ببعض، أو الأشجار مع الكون المحيط بها.

وأخرى: يُنظر إليها من خلال الصيغة والصورة التي يحددها النظام الذي يشكّلها، فيصبح هذا النظام والصيغة عنصراً رابعاً في المجتمع الإنساني تختلف فيه النظريات المادية أو الإلهية.

وبعبارة أُخرى: إنّ العلاقة في وجودها الخارجي وإنْ كانت ملازمة لصيغة معينة لا يمكن أنْ تنفك عنها، ولكن من الواضح أنّ أصل العلاقة التي تشترك بقبولها كل النظريات الاجتماعية كعنصر في المجتمع الإنساني هي غير الصيغة الاجتماعية التي تشكّل هذه العلاقة والتي تختلف فيها النظريات الاجتماعية فيما بينها.

كما أنّ النظام والصيغة للعلاقة هي عنصر حقيقي لكل مجتمع إنساني؛ إذ إنّ هوية المجتمع تتكوّن من خلال تصوّر هذا النظام لهذه العلاقة، فهو عبارة عن مجموعة الحدود والأبعاد التي تتصوّر فيها هذه العلاقة بين أطراف المجتمع، لا مجرّد وجودها التكويني، وبذلك يصبح الدين والهدى الذي تشير إليه الآية القرآنية - ﴿... **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1]- جزءاً من المجتمع الإنساني في النظرية القرآنية.

ثمّ إنّ النظام الاجتماعي في نظر القرآن الكريم هو الذي يستبطن فهم العلاقة على أساس الاستخلاف.

---

(١) البقرة: ٣٨.

ولعل هذا هو مراد الشهيد الصدر ﷺ حين أشار إلى البعد الرابع في العلاقة، وأوضح فيه مبدأ الاستخلاف.

الثانية: إنّ البعد الرابع في العنصر الثالث : وهو العلاقة، وإنْ كان أمراً حقيقياً في النظريات الإلهية، حيث يتمثل بالله تعالى، ولكن البعد الرابع يكون موجوداً ـ أيضاً ـ في العلاقة القائمة في المجتمع غير الإسلامي، وذلك من خلال (الشهوات) و(الشيطان) و(الطاغوت)، كما عبّر عنه القرآن الكريم؛ إذ يبدو من القرآن الكريم أنّ المحور والبديل لله تعالى في حياة الإنسان الاجتماعية والسلوكية هو (الهوى) و(الطاغوت) و(الشيطان)، لأنّ مسار الإنسان محدد بينهما ولا خيار ثالث غيرهما، فإمّا مجتمع الله تعالى، وإمّا مجتمع الهوى والطاغوت والشيطان.

وبذلك نرى أنّ العلاقة في حقيقتها ذات أبعاد أربعة، سواء في النظرية الإسلامية الصحيحة، أم في واقع النظريات المادية، أم الغيبية المحرّفة، ويختلف هذان الخطان من النظرية في تشخيص طبيعة البعد الرابع، كما يؤكّد ذلك القرآن الكريم في آيات خلافة الإنسان وغيرها.

وقد يكون منظور السيد الشهيد الصدر ﷺ من كون العلاقة ثلاثية في أحد التصوّرين، هو بيان الفهم الإنساني المادي للعلاقة بين عناصر المجتمع على أنها ثلاثية، حيث لا يدرك التصوّر المادي الطرف الآخر لها عندما يكون خارجاً عن الإنسان، كالشيطان، أمّا الهوى والطاغوت فهو شيء إنساني، ومن ثمّ فهو يرتبط بالعنصر الأول.

وأمّا واقع العلاقة - كما يقتضيه الفهم القرآني للعلاقة - فهي في كل الأحوال رباعية، ولكنها إمّا (إلهية) أو (شيطانية).

ويعرف ذلك - كما أشرنا - من خلال تأكيد القرآن الكريم على طرح الله سبحانه وتعالى مقابل الهوى والطاغوت والشيطان، قال تعالى:

﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ...﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ...﴾(٣).

كما طرح في نهاية آيات الاستخلاف التي وردت في سورة البقرة أتباع الهدى والإيمان في جانب، واتباع الهوى والكفر في جانب آخر، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٤).

وعلى هذا يكون الإنسان من منظور قرآني بين نوعين وصيغتين من العلاقة كليهما رباعي الأطراف، وهما:

الأول: علاقة الاستخلاف، وهي ما نعبّر عنه بالصيغة الدينية للعلاقة ذات الطبيعة الإلهية الحقّة، وبُعدها الرابع هو الله سبحانه وتعالى: وهو المستخلِف للإنسان.

الثاني: علاقة (الهوى) والطغيان: وهي الصيغة الأخرى للعلاقة التي يكون البُعد الرابع فيها هو الشيطان، أو إبليس، وتكون ذات طبيعة شيطانية قائمة على أساس الهوى والغواية والطغيان.

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) النساء: ٧٦.

(٣) الجاثية: ٢٣.

(٤) البقرة: ٣٨ ـ ٣٩.

وعلى هذا تكون عناصر المجتمع الإنساني حسب تصورنا أربعة، وهي:

الأوّل: الإنسان.

الثاني: الأرض والطبيعة.

الثالث: أصل العلاقة التكوينية القائمة بين الإنسان والإنسان من جهة، والإنسان والطبيعة من جهة أُخرى.

الرابع: النظام الاجتماعي الذي يحدد ويشخص شكل هذه العلاقة ولاتختلف المجتمعات البشرية بعضها عن بعض في تعيين العناصر الأساسية للمجتمع، إلاّ في العنصر الرابع: وهو النظام الاجتماعي.

الفصل الثاني

الوحدة الفطرية والاختلاف البدائي

أولاً: الوحدة الفطرية

بعد مرحلة الحضانة التي مرّ بها آدم عليه السلام في الجنة، وهبوطه إلى الأرض مع عدوه إبليس، بدأت مرحلة تكوّن المجتمع البشري، وذلك بوجود جميع العناصر الأساسية التي تكوّن المجتمع: الإنسان، الإنسان والطبيعة، العلاقة بين الإنسان والإنسان الآخر والطبيعة، ولكن ما هو النظام الاجتماعي الذي كان يحكم هذه العلاقة بين عناصر المجتمع، ويصوغ معالمها وحدودها؟

ويبدو من القرآن الكريم أنّ شكل هذا النظام كان يُعبّر عن وحدة المجتمع الإنساني.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فما هي حقيقة هذه الوحدة التي كانت أساس النظام الاجتماعي؟ وما هو النظام العام الذي كان يحكم المجتمع آنذاك ويوحّد علاقات الإنسان؟

النظريات المطروحة لتفسير مرحلة الوحدة

هناك عدة صور ونظريات مطروحة للإجابة على حقيقة الوحدة والنظام الاجتماعي العام الذي كان يحكم المجتمع في بداية نشوئه منها:

---

(١) البقرة: ٢١٣.

النظرية الأولى للشيخ محمد عبده

لقد افترض الشيخ محمد عبده في تصوّره للوحدة إنّ الناس كانوا ولا زالوا أمّة واحدة، لا بمعنى وحدة المجتمع الإنساني لهؤلاء الناس، بل بمعنى أنّ الناس ـ جميعاً ـ يشتركون بحسب طبعهم وخلقتهم في أمرٍ واحدٍ يجمعهم ويوحد اتجاههم وفهمهم للأشياء ويجعلهم أمّة واحدة، وهذا الشيء هو الاتجاه الفطري الموجود في الإنسان بما هو إنسان نحو الاجتماع والترابط والإحساس بحاجة بعضهم إلى بعض، وإلى التعاون بينهم والمشاركة في مختلف الأعمال والنشاطات، فالإنسان بحسب طبعه يكون مدنياً اجتماعياً، وهذه الوحدة هي تعبير عن هذا الاتجاه المدني.

وفسّر الفعل (كان) في الآية المباركة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾[١] بأنه فعل تام، وليس ناقصاً يدل على الزمان الماضي، فـ(كان) هنا بمعنى الثبوت والتحقق لهذا الأمر، أي: إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس وفطرهم على أمر واحد. وهو: أنهم وبحسب طبعهم يكونون مدنيين واجتماعيين ينجذب بعضهم إلى بعض ويحتاج بعضهم إلى بعض، وفعل (كان) هنا من قبيل قوله تعالى: ﴿... وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٢]، إذ يراد من الآية تحقق هذا الأمر لله تبارك وتعالى لا نسبته له في الزمان الماضي[٣].

وقد ناقش العلامة الطباطبائي ﵀[٤] هذا التصور بعدة مناقشات لعلّ

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الفتح: ٤.

(٣) يراجع المنار ٢: ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٤) الميزان ٢: ١٢٦ ـ ١٢٨.

أفضلها وأهمها هو: إنّ هذا التفسير على خلاف ظاهر الآية الكريمة لقرينتين، هما:

الأولى: إنّ (كان) ظاهرة في الفعل الماضي، وإذا أردنا حملها على غير ذلك لابد من قرينة لهذا الحمل كما في قوله تعالى: ﴿... وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[1]، إذ إنّ حمل (كان) على التحقق والثبوت في هذه الآية باعتبار خصوصية الذات الإلهية المقدسة التي لا يحدّها زمان ومكان، وإنّ صفاته كذاته قديمة وأزلية، وإنّ ثبوت العلم والحكمة لها دائماً وأبداً، وفي الآية التي نحن بصدد بحثها فلا توجد هذه القرينة التي تصرف الكلام عن ظهوره.

الثانية: إنّ الآية الكريمة كالصريحة في أنّ الوحدة كانت موجودة في زمان ثم طرأ عليها الاختلاف، وذلك لوجود قرينة في الآية الكريمة نفسها، وهي: قوله تعالى: ﴿... فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾[2]، حيث دلت على حدوث الاختلاف بعد الوحدة بقرينة (الفاء) التي تدل على الترتب الزمني، فبعثة الأنبياء لحل الاختلاف تكون ـ حينئذٍ ـ بعد الوحدة وحين تحقق الاختلاف.

فالوحدة كانت ثم حدث الاختلاف، وهذا لا يناسب أنْ يكون المراد هو قضية الموهبة والطبع المدني الثابت والدائم في الإنسان؛ لأنّ الطبع المدني لا زال ثابتاً وباقياً في هذا الإنسان، والمناسب هنا أنْ تكون الوحدة والاختلاف هما الوحدة والاختلاف الاجتماعيان.

---

(١) الفتح: ٤.

(٢) البقرة: ٢١٣.

النظرية الثانية للعلامة الطباطبائي ﭤ[1]

وفي هذه النظرية افترض العلامة أنّ الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان على مجموعة من الأُمور، منها: التجاء الإنسان إلى استخدام الإنسان الآخر، ذلك أنّ الإنسان في هذه الحياة الدنيا يتحرك نحو الكمال والتصرف في المادة، ووجد أنّ ذلك لا يمكن أنْ يتحقق إلاّ من خلال تسخيره للإنسان الآخر، باعتباره طاقة قادرة على معاونته على التصرف في المادة وهذا الكون، فهو يسخّره لتحقيق أغراضه في التكامل.

ثم يفترض أنّ هذا الاتجاه الفطري جعل الإنسان يتحرك من أجل الهيمنة على الآخرين من أجل استخدامهم والوصول إلى أغراضه، الأمر الذي أدى إلى أنْ يصطدم بالإنسان الآخر الذي يحمل نفس هذا الاتجاه الفطري والتفكير والسعي للأهداف نفسها، فاصطدمت الإرادتان الإنسانيتان والاتجاهان الفطريان.

ثم يفترض ﭤ حصول المصالحة بين الإرادتين والإنسانين الاجتماعيين في بداية الحركة الاجتماعية، حيث اتفق الناس فيما بينهم على أنْ يستفيد بعضهم من بعض ويستخدم بعضهم بعضاً؛ لأنّ الهموم والحاجات محدودة ومصلحة الجميع اقتضت هذا التصالح، وبذلك وُجِدَ (النظام الواحد) الذي يحكم المجتمع من خلال تقسيم المصالح والمنافع المشتركة، فهو نظام يحكم بالعدل، ولكن العدالة الاجتماعية هنا فيه هي (عدالة تصالحية)، كما يُعبّر عنها العلامة ﭤ وليست (عدالة فطرية)، بمعنى أنّ الإنسان مفطور على العدل والإنصاف، بل هي عدالة انتهى إليها الإنسان بسبب فطرته

---

(١) الميزان٢: ١١٨ ــ ١٢٠.

على الاستخدام لتحقيق أغراضه، وتحقيق الأغراض المحدودة، كان من خلال المصالح المشتركة المتساوية.

النظرية الثالثة للسيد الشهيد الصدر ﷺ

تتفق صورة هذه النظرية التي طرحها السيد الشهيد ﷺ مع صورة النظرية التي قدمها العلامة الطباطبائي ﷺ في كون علاقة الوحدة بين أفراد المجتمع، هي علاقة مُصاغَة بصيغة فطرية، وكانت هذه الصيغة عند السيد الشهيد ﷺ ـ منذ البداية ـ صيغة دينية إلهية نابعة من الالتفات إلى البعد الرابع في فهم العنصر الثالث من عناصر المجتمع وهي (العلاقة)، حيث تصورناها بأبعادها الأربعة لا الثلاثة.

لقد كان آدم ؈ ملتفتاً منذ البداية إلى البعد الرابع، وهو أنه خليفة لله على الأرض، وأنّ مهمته هي المحافظة على الأمانة التي وضعها الله تبارك وتعالى في عنقه التي هي مضمون هذا الاستخلاف، وأنّ علاقته بالأرض وبالإنسان الآخر محكومة بهذه الخلافة، فدوره ليس دور السيد أو المالك في الأرض أو للإنسان الآخر، بل دوره دور المستخلَف المستأمن، وهذا الفهم لهذه العلاقة هو (الدين) الذي فطر الله عليه الإنسان، وهو موجود منذ وجود الإنسان وجعله خليفة لله في الأرض.

فللدين ـ في تصور السيد الشهيد الصدر ﷺ ـ دور في صياغة هذه العلاقة ومنذ البدء، والأمر الفطري الموجود في الإنسان ومنذ أول وجوده والذي أطّر هذه العلاقة هو (الدين) لا أمر آخر، ويمكن أنْ يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾[1].

ثم بيّن السيد الشهيد الصدر ﷺ: أنّ فطرة الإنسان على الإحساس بالخلافة لله - سبحانه وتعالى -، والتي كانت أساس الوحدة الاجتماعية في الدور الأوّل من تأريخ الإنسان.. هذه الخلافة تستبطن عدة عناصر فطرية أخرى، وهي:

١) **عنصر التوحيد الخالص**: إذ يستبطن الإحساس الفطري بالاستخلاف الرباني للإنسان والجماعة البشرية على الأرض الإحساس الفطري بانتماء هذه الجماعة إلى محور واحد وهو (المستخلِف) أي: الله - سبحانه وتعالى - الذي استخلفها على الأرض، وتصبح الانتماءات الأُخرى في طول هذا الانتماء وفي طول الإيمان بسيد واحد ومالك واحد وخالق واحد للكون وكل ما فيه.

وهذا هو التوحيد الخالص الذي قام على أساسه الإسلام، وحملت لواءه كل ثورات الأنبياء تحت شعار (**لا إله إلا الله**)، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[2].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[3].

٢) **عنصر الحرية**: إذ تعني عملية الاستخلاف الرباني كذلك إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس العبودية المخلصة لله، وتحرير الإنسان من عبودية الآلهة والأسماء الأُخرى التي تمثل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت، قال تعالى:﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) البقرة: ١٣٨.

(٣) يوسف: ٣٩.

وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١].

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

٣) عنصر الأخوّة العامّة والمساواة: وهو عنصر مستبطن بصورة فطرية في الانتماء إلى الله الواحد الذي لا شريك له، فما دام الله سبحانه وتعالى واحداً ولا سيادة إلاّ له والناس جميعاً عباده ومتساوون بالنسبة إليه في العبودية، فمن الطبيعي أنْ يكونوا أخوة متكافئين بينهم في الكرامة الإنسانية والحقوق، كأسنان المشط على ما عبر الرسول الأعظم ﷺ عن ذلك؛ لأنهم متساوون في الانتماء إليه ولا تفاضل ولا تمييز في الحقوق الإنسانية، ولا يُقوّم التفاضل في مقاييس الكرامة عند الله تعالى إلا على أساس السعي إلى الله تعالى والقرب منه، قال تعالى:﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[٣]، بالعمل الصالح.

٤) عنصر التفاضل بالمقاييس الواقعية التي لها بقاء ودوام واستمرار، وهي:

أ) تقوى الله تعالى في السلوك العام، قال تعالى: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[٤].

ب) العلم بالحقيقة الإلهية والحقائق الشرعية والكونية، قال تعالى:

---

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) الجاثية: ٢٣.

(٣) النجم: ٣٩.

(٤) الحجرات: ١٣.

﴿... يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾[١].

ج) الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿... وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[٢].

حيث إنّ هذه العناوين التفضيلية عناوين حقيقية لها بقاء ودوام، وتعبر عن حركة الإنسان وسعيه في هذه الحياة من أجل التكامل والوصول إلى مقام القرب من الله عزّ وجلّ، فيكون مصداقاً من مصاديق السعي إلى الله تعالى.

وعندما نرجع إلى بداية التأريخ البشري نرى أنّ هذه الحقيقة في التفاضل كانت قائمة أيضاً آنذاك، حيث تحدث القرآن الكريم عن ابني آدم وعن سعيهما، وأنّ الله سبحانه وتعالى كان قد تقبل من المتقي منهما، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

فلم يكن ملاك التفضيل بينهما الانتماء العنصري؛ لأنهما كانا من أب واحد، ولا القوة البدنية؛ لأنّ الآخر كان يبدو أنه أكثر قدرة، كما يشعر بذلك التهديد ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾، بل كان الملاك في التفضيل هو: التقوى ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

فالناس متساوون بينهم في الكرامة وفي الحقوق ويتفاضلون عند الله بالسعي من خلال العمل الصالح.

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) النساء: ٩٥.

(٣) المائدة: ٢٧.

٥) عنصر المسؤلية: وهو عنصر مستبطن في فطرة الإنسان وإحساسه بالاستخلاف، حيث يشعر الإنسان بالمسؤلية في تلك المرحلة الفطرية من خلال إحساسه بأنه خليفة لله تعالى، الأمر الذي يجعله مقيداً بأحكام المستخلِف في حكمه وحركته الاجتماعية وفي إعماره لهذه الأرض واستثمارها والاستفادة منها.

والمسؤلية علاقة ذات حدين:

الحق والمصلحة

الأول: أنْ يكون الإنسان مقيداً بأحكام المستخلِف، وهو الله تعالى، وهي أحكام بالحق، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1].

فلا يحق له أنْ يحكم بهواه ولا برأيه واجتهاده الخاص الخارج عن الضوابط والموازين التي وضعها لله سبحانه وتعالى لعملية الاجتهاد؛ لأنّ العمل بالرأي والاجتهاد الخاص منهي عنه وعلى حد الكفر، كما ورد في المأثور: ((... من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار))[2]، و ((... ومن جادل في آيات الله كفر.. ومن فسّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب..)) الحديث[3].

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) وسائل الشيعة٢٧: ٢٠٤، ح٧٦.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٥٦، ح١، وسائل الشيعة ٢٧: ١٩٠، أبواب صفات القاضي، ب١٣، ح٣٧، وأحاديث عديدة أخرى.

الإسلام والديمقراطية

وتشكل هذه النكتة (الإنسان مقيداً بأحكام المستخلِف) فرقاً أساسياً بين نظرية الحكم الإسلامي وبين الحكم الديمقراطي، ففي كلتا النظريتين تقوم الجماعة الإنسانية بحكم نفسها بنفسها، ولكن في النظرية الإسلامية تحكم نفسها بنفسها مقيدة بالحق وبالحكم الإلهي، بينما لا يُشتَرط شيء من ذلك في النظرية الديمقراطية[1].

وكثير ما تُظلَم الأمة في جزء منها في ظل النظام الديمقراطي، وذلك حينما تكون هناك مصلحة للأكثرية على حساب مصالح الأقلية فتتنازل الأقلية للأكثرية فتُظلَم.

أمّا في ظل النظام الإسلامي فإنّ القانون مقيد بالمصالح الواقعية والحق الذي تبينه الشريعة الإلهية؛ لأنّ الأحكام الإلهية تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية، ولابد للأمّة أنْ تتنازل عن شهواتها ورغباتها غير الحقّة لصالح الحق العام سواء أكثر طلابه ومؤيدوه أم قلّوا.

وقد عبر القرآن الكريم عن الأمّة التي تتنازل عن حقوقها المشروعة في مصالحها العامّة وعن الحق المطابق لهذه المصالح بأنها ظالمة لنفسها، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**

---

(١) قد تحكم النظم الديمقراطية نفسها بخلاف الحق وبما يضرها، كما حدث في الولايات المتحدة الأميركية ذات النظام الديمقراطي، حيث اتخذت المجالس المنتخبة فيها قراراً بمنع الخمور عام ١٩١٩م، لما وجدت فيه من مضار بالغة بمصالح الأمة والشعب، ثم حصلت مشكلات ناشئة من الإدمان والشهوات والهوى، فاضطرت هذه الجماعة إلى التسليم للهوى، ورفعت الحضر المفروض على استخدام الخمور.

فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[1].

حيث عاتبهم القرآن الكريم، وعبّر عنهم بأنهم ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ عندما استسلموا للظلم وقبلوا به ولم يمارسوا حقهم المشروع في مقاومته أو التخلص منه، بل اكتفوا بالتنازل عن الحق والعدل، معتذرين عن ذلك بأنهم كانوا مستضعفين.

مع أنّ الله سبحانه وتعالى أوجب على الجماعة البشرية مواجهة الطغيان والظلم وحالة التمرد على الله تبارك وتعالى؛ لأنّ الأصل في حركة المجتمع هو تحكيم الحق من أجل الوصول إلى مصالح المجتمعات الحقيقية، لا أنْ يتنازل الإنسان عن الحق وعن المصالح المشروعة مباشرة لمجرد الشهوات والميول النفسية، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً﴾[2].

الحرية والاختيار

والثاني: هو حد الحرية والاختيار، وهو مستبطن ـ أيضاً ـ في فطرة الاستخلاف، ذلك أنّ الإنسان لمّا كان مسؤولاً عن التقيّد بأحكام المستخلِف وبالحق والمصالح الواقعية هناك، فإنّ هذه المسؤولية أمام الله تبارك وتعالى لا معنى لها إلا بالحرية والاختيار، وهذه الحرية والاختيار يمكن أنْ تُفْهَم من جعل الإنسان خليفة لله تعالى الذي يتصف بالإرادة والاختيار، وقد أشار

---

(١) النساء: ٩٧.

(٢) النساء: ٧٥.

القرآن الكريم إلى هذه المسؤلية التي تحملها الإنسان في آية (الأمانة) قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(١).

فهو مسؤل عن أداء هذه الأمانة ويعاقب أو يثاب على خيانتها أو حفظها؛ لأنّه مختار وبإمكانه أنْ يختار الصواب والهدى فيسمو ويتكامل ويثاب، أو أنْ يختار الخطأ والضلال والباطل فينحط ويتسافل ويُعاقَب، وهذه الإرادة والاختيار من الأمور الفطرية التي أودعها الله تعالى في الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(٢).

٦) **عنصر وحدة المصالح والأهداف والمصير**

تميّز المجتمع البشري في بداية تكوّنه بكونه مجتمعاً بسيطاً محدوداً، موحد الهدف وهو الوصول إلى الله تبارك وتعالى من خلال توحيده وتحقيق رضاه، ورفض العبودية لغيره عزّ وجلّ.

كما كانت مصالح الناس في حياتهم المادية آنذاك مصالح مشتركة ومحدودة، إذ عرفوا وبفطرتهم آنذاك أنّ عدم تعاونهم وعدم وحدتهم يعني عدم حصولهم على مصالحهم، ومن ثمّ وصولهم إلى حالة العجز التام وعدم إمكانية استمرارهم في البقاء لقلة عددهم ومحدودية مجتمعهم.

وانعكس هذا الواقع والفهم على مصيرهم وحياتهم، فإنّ تعرضهم لأي خطر خارجياً كان أو داخلياً سوف يؤدي إلى القضاء عليهم مرّة واحدة إذا لم يكونوا متعاونين فيما بينهم، الأمر الذي جعلهم يشعرون بوحدة المصير

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) الإنسان: ٣.

- أيضاً - بصورة ملموسة ويومية.

وهذا الأمر هو أمر فطري يرتبط بموضوع الاستخلاف أيضاً، ولا سيما إذا أخذناه بمعناه الواسع الشامل لأعمار الأرض واستثمارها واستمرار الحياة فيها، فإنْ تحقيق مثل هذا الهدف للخلافة لا يمكن إلاّ أنْ يستبطن مثل هذه الاتجاه للتعاون والوصول إلى رضا الله تعالى وإعمار الأرض.

ثانياً: الاختلاف البدائي

تعرّض المجتمع البشري بعد وحدته الفطرية إلى الاختلاف، وكان الاختلاف في دوره الأوّل بدائياً، ثمّ تطوّر بعد ذلك، فأصبح اختلافاً معقّداً.

ويشير القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى هذا الاختلاف في تأريخ البشرية بعد وحدتها، منها قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

والظاهر من خلال هذه الآية والعديد من الآيات القرآنية الأخرى أنّ موضوع الاختلاف كان مطروحاً أمام المجتمع البشري منذ بداية خلق الإنسان لحكمة إلهية، قال تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾[3].

---

(١) يونس: ١٩.

(٢) هود: ١١٨ ـ ١١٩.

(٣) البقرة: ٣٠.

حيث طرح الملائكة من خلال تساؤلهم موضوع إفساد الإنسان في الأرض وسفكه للدماء، وهو ما يُعبّر عن وجود حالة الاختلاف في حياة الإنسان بشكل واضح.

ولم ينفِ الجواب الإلهي لهم عدم حدوث الإفساد منه، ولا نفى دور الاختلاف، وإنّما ذكر المصلحة في تعيين آدم عليه السلام ومن ثَمّ الجنس البشري كلّه خليفة لله تعالى في الأرض.

كما أنّ القرآن الكريم في نهاية القصة يشير إلى عداوة إبليس للإنسان وهبوطه معه إلى الأرض، ليعبّر عن تربصه وعداوته له ويقوم بإغوائه وخداعه وإضلاله، وانقسام الناس إلى متّبعين للهدى وإلى كافرين بآيات الله، وكل ذلك يؤكد أنّ قضية الاختلاف قضية موضوعة أمام حركة الإنسان وفي صلب تأريخه وحياته واختبار إرادته.

وهنا لابد لنا من التعرّض لعدة نقاط:

الأولى: تفسير أصل وجود هذا الاختلاف في المجتمع البشري.

الثانية: بيان الحكمة في وجود الاختلاف.

الثالثة: موازنة حرية الإرادة الإنسانية والاختلاف.

تفسير الاختلاف

النقطة الأولى: تفسير الاختلاف البدائي: هناك نظريات عديدة طُرحت لتفسير حصول حالة الاختلاف في المجتمع البشري، نشير إلى نظريتين أساسيتين، منها:

١) نظرية العلامة الطباطبائي قدس سره[1]:

افترض العلامة قدس سره ـ على ما بيّناه سابقاً ـ أنّ المجتمع البشري قد حكم في بداية نشوئه من خلال نظام واحد قام على أساس تقسيم المصالح والمنافع المشتركة، فهو نظام قام على أساس العدل، ولكن عدالته الاجتماعية تلك كانت عدالة تصالحية، لا عدالة فطرية.

ثم افترض قدس سره أنّ هذا الأمر إنّما تحقق في مرحلة بدائية من مراحل حركة المجتمع البشري، ولكن في مرحلة متقدمة نسبياً، وبسبب أنّ الناس غير متساوين في قدراتهم وإمكانياتهم المادية والعقلية والذهنية، لأنّ بعضهم يولد قوياً وبعضاً آخر يولد ضعيفاً، كما أنّ بعضهم يكون أقوى عقلاً وقدرةً على التصوّر والإبداع، ومن ثمّ يتحرّك من أجل تحقيق تصوراته وبعضاً آخر يتسم بالخمول والتخلّف الذهني، وهكذا نجد بعض الناس يتّصف بالشجاعة والإقدام وروح المغامرة، وبعضهم بالجبن والتردد والاحتياط.

هذا الاختلاف بين الناس في هذه الأبعاد إذا ضممنا إليه فطرة الاستخدام الموجودة في الإنسان والرّغبات الجامحة التي قد يختلف فيها بعض الناس عن بعضٍ، ولا سيّما في بعض الميول والرغبات، أوجب ذلك اختلال موازنة العدالة والتقسيم التصالحي، حيث يأخذ بعض الناس في الحركة بصورة أسرع من الآخرين ويقومون بأعمالٍ من أجل السيطرة والهيمنة عليهم، فيكون على الطرف الآخر ابتداء إمّا الاستسلام لشعوره بالعجز، أو المقاومة حتى يتبيّن له العجز وعدم القدرة على المقاومة أو الاستمرار فيها، وعلى جميع هذه الفروض ينشأ الاختلاف والتفاوت في

---

(١) الميزان ٢: ١١٨.

تقسيم الأشياء وتحدث الفرقة في المجتمع الذي كان مجتمعاً واحداً فيما سبق.

وبذلك نعرف أنّ الوحدة والاختلاف ـ معاً ـ فطريان، إذ إنّ الصيغة التي كانت تنظّم علاقات المجتمع الواحد في بداية تكوّن المجتمع كانت صيغة تصالحية قائمة على (فطرة) الاستخدام التي كانت ترى أنّ أفضل طريقة له هو تقسيم المصالح بصورة متساوية بحيث تحقق العدالة، فالوحدة هنا (فطرية). ولكن باستمرار فاعلية هذه (الفطرة) عند الإنسان بسبب اختلاف الناس في مستوياتهم ومواهبهم المادية والعقلية والروحية، حدث الاختلاف في المجتمع، فالاختلاف فطري أيضاً؛ لأنّه كان بسبب الفطرة نفسها لا غير.

ثم يتحدث ﵀ بعد ذلك عن دور الدين ـ الذي شُرع بنظره منذ زمن نوح ﵇ ـ في رفع هذا الاختلاف الذي أصاب المجتمع، الذي يُعرف من خلال قوله تعالى: ﴿... فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾[1]، وأنه بدون الدين لا يمكن أنْ نجد الحل للاختلاف، وبذلك يصبح وجود الدين ضرورياً في حياة الإنسان[2].

ملاحظات على هذه الصورة

وتوجد هناك عدة ملاحظات على الصورة التي قدمها العلامة ﵀ أهمها: هو ما يتعلق بفترة مجيء الدين، حيث افترض ﵀ أنّ الدين جاء بعد حصول الاختلاف بين الناس وليس في مرحلة الوحدة، كما أنه أرّخ للدين بمجيء

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) يشرح العلامة الطباطبائي ضرورة الدين، وسوف نتناول هذا الموضوع في محله عندما نصل إلى هذه النقطة، إنْ شاء الله.

نوح عليه السلام واستفاد ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً...﴾(١).

مع إننا نلاحظ:

أولاً: وجود آيات متعددة تشير إلى أنّ الدين كان موجوداً منذ بداية حياة الإنسان على الأرض، كما ذكرنا ذلك في تفسيرنا لآيات خلافة الإنسان، وأنّ الخطاب الإلهي للإنسان بالدين تحقق بعد هبوط الإنسان من الجنة إلى الأرض كقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ...﴾(٢).

مما يدل على أنّ الدين والهدى الإلهي كان أمراً قد طُرح أمام الإنسان منذ بداية حركته الاجتماعية على الأرض لا في مرحلة الاختلاف.

ثانياً: وجود قرائن متعددة في القرآن الكريم على أنّ الدين كان قد شرع قبل نوح عليه السلام، وقد تبيّن هذا الأمر بصوره أوضح من خلال الصورة التي قدّمها السيد الشهيد قدس سره لمرحلة الوحدة.

٢) نظرية الشهيد الصدر قدس سره

تعرّض السيد الشهيد الصدر قدس سره إلى تفسير كيفية حصول حالة التشتت والتفرّق في مجتمع الوحدة، فذكر قدس سره أنّ ذلك بسبب تفاوت مستويات مواهب الإنسان الفكرية والعقلية وإمكانياته وقدراته المادية التي تختلف من شخص لآخر وتبرز هذه المواهب والمستويات لها من خلال حركته الاجتماعية.

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) البقرة: ٣٨.

وعندئذٍ قد يحصل الإنسان في حركته الاجتماعية تلك على حصة أكبر من الموارد والثروات والإمكانيات المادية من خلال إعمار الأرض واستثمارها، بسبب هذه القدرات والمواهب.

ثُمْ وبسبب هذا التفاوت في المواهب والقدرات، ومن ثَمْ التفاوت في النتائج والثروات ظهرت قضية (الاستغلال) في المجتمع البشري كنتاج لحركته الاجتماعية.

وقد أدّى ظهور قضية الاستغلال ووجود وتنامي الفرص المتاحة أمام الإنسان وحركته الاجتماعية إلى وجود أُناس يفكرون في استغلال الآخرين ووجود أُناس مستَغَلّين غير قادرين على مقاومة المستغلين أو مستسلمين لذلك، فانقسم المجتمع بعد ذلك إلى عدة أقسام، هي:

الأوّل: قسم المستَغلِّين والمستثمرين والطغاة المهيمنين.

الثاني: قسم المستَغَلّين والمستضعفين والمستسلمين للطغاة.

الثالث: قسم المستغَلّين والمستضعفين غير المستسلمين للطغاة، الذين يؤمنون بمقاومة الظلم ومواجهة الاستغلال.

وبانقسام المجتمع إلى هذه الأقسام الثلاثة، حصلت حالة الاختلاف بعد حالة الوحدة الفطرية، وأصبحت هناك ضرورة لمجيء الشريعة لإعادة المجتمع إلى حالته السليمة مرة أُخرى.

نظريات الوحدة والاختلاف

ومن خلال الاستعراض السابق للنظريات في تفسير الوحدة الفطرية والاختلاف البدائي يتضح أنّ الفرق بين نظرية الشيخ محمد عبده والعلَمين السيدين، العلامة الطباطبائي والشهيد الصدر ﵁ في نقطة أساسية أشرنا إليها، وهي: إنّ الشيخ محمد عبده يفترض أنّ الوحدة هي عنصر ثابت في الإنسان وهو اتجاهه نحو الاجتماع المدني في مقابل الحيوانات التي توجهها الغرائز.

فالوحدة ليست مجرّد مرحلة من مراحل تأريخ الإنسان، بل هي حالة فطرية عبّر عنها القرآن الكريم بالوحدة.

وأمّا نظرية العلمين فإنهما يفترضان الوحدة مرحلة فطرية في تأريخ المجتمع الإنساني.

وقد عرفنا الإشكال والملاحظة الأساسية في هذا الفهم للوحدة عند الشيخ محمد عبده، حيث إنّ الواضح من القرآن الكريم أنّ المراد من الوحدة مرحلة في مقابل الاختلاف.

وأمّا موارد الافتراق الأساسية بين نظريتي السيد الشهيد الصدر والعلامة الطباطبائي ﭭ فهي:

أوّلاً: في تحديد دور الدين في حياة الإنسان، ومتى وجد؟

فبينما ينفي العلامة ﭫ وجود الدين في مرحلة الوحدة وأنّ الفطرة الإنسانية المتمثلة بقضية (الاستخدام)، هي التي كانت توجّه حركة الإنسان الاجتماعية آنذاك، ذهب السيد الشهيد ﭫ إلى إثبات وجود الدين منذ بداية وجود الإنسان من خلال استبطان معنى الخلافة لذلك وإعطاء العلاقة بين الإنسان والإنسان والأرض بُعداً رابعاً يرتبط بالله تعالى، وهو: الاستخلاف والاستئمان.

ويمكن أنْ نضيف على ذلك ما يمكن أنْ نفهمه من استعراض قصة الاستخلاف التي تنتهي إلى فرض وجود الدين منذ بداية وجود الإنسان على الأرض، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1].

---

(١) البقرة: ٣٨.

وجود الدين على مستويين

ويوضّح الشهيد ذلك بأن وجود الدين كان على مستويين خلال مسيرة البشرية هما:

الأوّل: مستوى مواكبة عوامل الفطرة في حركة الإنسان

وقد وجد هذا المستوى منذ بداية وجود الإنسان، حيث واكب الدين في هذا المستوى العوامل الفطرية الستة من خلال شهادة الأنبياء.

فالناس كانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم بتوجيه الفطرة الإنسانية وبإشراف الأنبياء، وكان للدين دور التوجيه العام لهذه الفطرة وعلى مستوى الفطرة.

قال تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾**[1].

الثاني: المستوى الذي واكب حركة الإنسان في دور الاختلاف

وهو مستوى أعلى من المستوى الأوّل، إذ تميّز بمجيء الكتاب والشريعة والأحكام التفصيلية التي تنظّم حياة الناس في دور الاختلاف، إذ لم تعد الفطرة كافية لذلك.

وأول شريعة أُنزلت هي شريعة نوح عليه السلام، قال تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً...﴾**[2].

ثم توالى نزول الشرائع على الأنبياء عليهم السلام بعد ذلك.

ثانياً: إنّ العامل التوحيدي الفطري بنظر العلامة الطباطبائي كان هو الاتجاه للتسخير الذي كان عامل توحيد على أساس العدالة التصالحية، ثم تحوّل بعد ذلك إلى عامل اختلاف.

وأمّا بنظر الشهيد الصدر فإنّ العامل التوحيدي الفطري هو إحساس

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) الشورى: ١٣.

الإنسان بالبُعد الرابع للعلاقة وهو الاستخلاف.

ثالثاً: إنّ الشهيد الصدر يؤكّد في أهداف حركة الإنسان في الحياة الدنيا في دور الوحدة على هدف تحقيق رضا الله إلى جانب هدفه في إدارة شؤون حياته المادية، بخلاف السيد الطباطبائي الذي تحدث عن العامل الفطري، وهو التسخير، وارتباطه بالمصالح المادية للإنسان.

ونلاحظ هنا أيضاً أنّ الشهيد الصدر يكاد يتفق مع العلامة الطباطبائي في عامل الاختلاف، الذي افترضه - أيضاً - تضاد الإرادات بعد نمو الفرص واختلاف مستويات المواهب والنتائج والآثار من خلال الحركة الاجتماعية.

النتيجة

ويمكن أنْ نخرج من خلال هذه المقارنة بهذه النتيجة، وهي: إنّ الصورة التي قدّمها الشهيد الصدر في نظريته أكثر انسجاماً مع الآيات الكريمة وفي فهم دور الدين في الحياة الإنسانية، وأكثر دقّة وتفصيلاً في بيان عوامل الوحدة وركائزها في الدور الأوّل للوحدة.

ولكن مع ذلك قد نحتاج إلى تكميل هذه الصورة بإضافة بعض الخطوط والعوامل الأُخرى، على ما أشرنا إلى ذلك:

١. إنّ الآيات الكريمة قد يبدو منها أنّ (الدين) الذي بدأ مع حياة الإنسان ليس هو مجرد استبطان مضمون الخلافة، بل - هو مضافاً إلى ذلك - يتضمن نوعاً من البيان والشرح لمعالم الطريق الذي لابد للإنسان أنْ يسلكه في هذه الحياة، كما يظهر من قوله تعالى:﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

---

(١) البقرة: ٣٨.

حيث إنّ الإتيان بالهدى - حسب الظاهر - يعني شيئاً أوسع من مجرّد الهداية الفطرية التي فرضت منذ بداية خلق الإنسان، بل هو أمر تفرضه طبيعة الصراع بين الإنسان وإبليس الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿... بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾[1]، ويؤكّده توعّد وتربّص إبليس للإنسان بالغواية منذ بداية الطريق ﴿... لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]. فكانت الهداية لمواجهة هذا العامل الخارجي في حياة الإنسان على الأرض.

نعم، قد يكون مراد الشهيد الصدر من توجيه الأنبياء للفطرة الإنسانية وإدارتها لشؤون الإنسان تحت إشرافها معنى واسعاً يشمل مثل هذا الهدى من أساليب العبادة والأخلاق الفاضلة والقسط بين الناس.

٢. إنّ الشهيد الصدر ومن قبله العلامة الطباطبائي لم يبرزا في هذا الاستعراض دور الهوى والصفات الذميمة لدى الإنسان وطغيان الغرائز في سلوكه، في إيجاد الاختلاف والنزاع، وإنْ كان قد يستفاد ذلك من بعض الإشارات في حديثهما كالتسخير والاستغلال، مع أنّ من الواضح أنّ الخروج عن عوامل الفطرة وركائزها الذي كان يقوم عليه مجتمع الوحدة، إنما كان بسبب الهوى وليس مجرد نمو الفرص والمصالح لدى الإنسان وظهور قابلياته ومواهبه في حركته؛ لأنّ (نمو الفرص) وحده مما يقبل السيطرة عليه واحتواءه بعوامل الفطرة وركائزها التي أشاروا إليها.

وفي قصة ابني آدم يبدو من الواضح أنّ الحسد كان هو العامل الأساس للقتل، وهو صفة ذميمة من صفات الهوى والطغيان،

---

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) الأعراف: ١٦.

ولم يكن لحساب المصالح المادية والتسخير أي دور في هذه الحادثة.

وسوف نشير إنْ شاء الله إلى مزيد من التفاصيل والتوضيح لهذه الأفكار عندما نتناول المرحلة الآتية، وهي دور تطور الاختلاف الإنساني.

الحكمة في وجود الاختلاف

النقطة الثانية: سنّة الابتلاء والامتحان: هناك سؤال يتبادر إلى الأذهان وهو: لماذا جعل الله عوامل الاختلاف في حياة الإنسان، ولم يخلقه منذ البداية إنساناً موحّداً في حياته، كما تقتضي الفطرة ذلك؟

ويبدو من خلال القرآن الكريم أنّ هناك سنّة إلهية فرضها الله تعالى في حياة الإنسان، وهي سنة الابتلاء والامتحان والفتنة، وقد رُبطت عملية تطور الإنسان وتكامله بهذه السنة الإلهية، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً...﴾[1].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[2].

﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[3].

﴿... وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[4].

---

(١) الملك: ٢.

(٢) الإنسان: ٢.

(٣) العنكبوت: ١ ــ ٢.

(٤) المائدة: ٤٨.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(١).

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ...﴾(٢).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ...﴾(٣).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(٤).

فقانون الابتلاء مفروض منذ خلق الله السماوات والأرض، وجعل الله تعالى ما على الأرض زينة لها وللإنسان: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ...﴾(٥)، وآتاها الناس ليبتليهم بها ويختبرهم في حسن عملهم وليتسابقوا في الخيرات، ولو شاء لجعلهم أمّة واحدة دون هذا الابتلاء والاختلاف.

كما أنه تعالى رفع بعضهم فوق بعض درجات عند جعلهم خلائف الأرض ليبلوهم في ما آتاهم وفرض القتال والقتل والمن والفداء لتحقيق هذا القانون الإلهي.

---

(١) الكهف: ٧.

(٢) محمد: ٤.

(٣) الأنعام: ١٦٥.

(٤) البقرة: ٢١٤.

(٥) آل عمران: ١٤.

فالإنسان لا يمكنه أنْ يدّعي الإيمان ولا يمكنه أنْ يتطور ويتكامل ويصل إلى هدفه المقدس - وهو رضا الله تبارك وتعالى، والتسابق في الخيرات ودخول الجنة - إلاّ بعد أنْ يُمتَحَن ويُفتَن وتمسه البأساء والضرّاء حتى تصل الحالة به أحياناً إلى حد الزلزال تعبيراً عن عظم الفتنة وشدّة البلاء، ثم يخرج من ذلك الامتحان وتلك الفتنة بنجاح وقد سلك الطريق الصحيح وعمل العمل الصالح الحسن باختياره وإرادته.

وكلّما يقترب الإنسان من الله تبارك وتعالى، يكون امتحانه أصعب وبلاؤه أشد، وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: ((إنّ أشد الناس بلاءاً الأنبياء ثم الّذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل))[1].((وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:((ان الله عزوجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة،ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض))[2]

وشأن الابتلاء في مسير التكامل الإنساني الذي يقرّب الإنسان إلى الله تعالى شأن من يريد أنْ يرتقي في درجات العلم، فيحتاج إلى التعب والنصب والسهر وتحمل المشاق والامتحانات والاختبارات المتوالية التي تتدرج في الصعوبة والشدة كلما ارتفعت درجة العلم، وبذلك يتطور ويتكامل مستواه العلمي، أو شأن من يريد أنْ يتكامل في (قوة بدنه) فيعرض نفسه إلى التمارين الشاقة والأحمال الثقيلة والمنازلات الشديدة القاسية والاختبارات العسيرة من أجل الوصول إلى الكمال البدني المادي.

نعم، قد يسقط بعض الناس في طريق الامتحان والابتلاء، ولكن هذا لا يضر الحكمة الإلهية ما دام أنّ هذا الطريق هو الطريق الوحيد لتسامي

---

(١) الكافي ٢: ٢٥٢ ـ ٢٥٣،ح١ و٢.

(٢) الكافي ٢: ٢٥٥، ح١٧.

الإنسان وتكامله، وبسقوط البعض وباختلاف درجات رقي البعض الآخر يقع الاختلاف في المجتمع البشري وتتكامل حالة الوحدة الفطرية السابقة.

فالحكمة الإلهية اقتضت وجود ظاهرة الاختلاف في المجتمع البشري، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿...وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1].

وقد كان من الممكن ـ كما تشير الآيات ـ في القدرة الإلهية أنْ يكون الناس أمّة واحدة، ويبقون أمة واحدة، لا اختلاف بينهم ولا فساد ولا سفك للدماء ولا ارتفاع لبعضهم على بعض في الدرجات.

والسر وراء ذلك كله، هو ان الله تعالى ميّز الإنسان بالعلم والإرادة، وعندما يكون الإنسان مريداً فلابدّ أن يتكامل بهذه الإرادة، بحيث تصبح مسيرتها متطابقة مع إرادة الله تعالى وبالاختيار، ولا يكون ذلك إلاّ من خلال الاختيار والابتلاء، وإلاّ لتحوّل الإنسان إلى موجود مقهور يسير حسب قوانين قهرية، كالشمس، والقمر، والأشجار، والنباتات.

الاختلاف والإرادة

النقطة الثالثة: موازنة حرية الإرادة والاختلاف: إذا عرفنا أنّ الاختلاف ظاهر ولازم للحياة الإنسانية؛ لأنّه أحد مصاديق الامتحان الإلهي لإرادة الإنسان، فهل أنّ ذلك يبرر نتائج الاختلاف في حياة الإنسان والأضرار البالغة التي تنشأ عنه وتجعل الإنسان معذوراً أمام الله تعالى والتأريخ، وغير مسؤول عن هذه النتائج، أو تبقي الإنسان مسؤلاً تجاهها؟.

وبصدد الجواب عن هذا السؤال لابدّ أنْ نعرف أنّ الإنسان في عملية الابتلاء والامتحان هذه يبقى مريداً ومختاراً في عمله، ولذا يحاسب عليه،

---

(١) هود: ١١٨.

ويثاب ويعاقب به، وبهذه المسؤلية يتحقق التكامل للإنسان في حركته، فالامتحان لا يشل الإرادة ولا يقهر الإنسان على العمل والالتزام بالطريق الصحيح أو غيره، ولا يوقف لديه الاختيار، فهو امتحان وابتلاء وشدّة وعسر في إطار الاختيار وحرية الإرادة الإنسانية، ولذا كان سبباً للتكامل، وبدون هذه الحرية في الإرادة والاختيار يفقد الامتحان أثره ونتائجه، ولذا أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة مرّات عديدة بعد إشارته لقانون الامتحان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[1].

الموازنة والرحمة الإلهية

ومن أجل أنْ تكون إرادة الإنسان متوازنة في قدرتها على الانتخاب والاختيار في الامتحان والالتزام بالمسير والطريق المستقيم الموصل إلى الله تعالى ـ وذلك كله مقرونا بالرحمة الإلهية - خلق الله في الإنسان أمرين إلى جانب الإرادة، وهما:

الأوّل: العقل الذي يهديه إلى معرفة الحق والصواب والأهداف التكاملية في مسيرة الإنسانية، ويوصله إلى طريق الهدى ويدلّه على العمل الصالح والمنهج الموصل إلى الله.

الثاني: الهوى الذي يدفعه نحو الطغيان في الأخذ بالزينة والخروج عن الحدود الصحيحة في حركته، ويتجاوز الالتزامات التي وضعها الله تعالى له في فطرته أو شرّعها له بعد ذلك في شرائعه.

ولكن إلى جانب هذه الموازنة جعل الله برحمته (فطرة الإنسان) إلى

---

(١) الإنسان: ٢ ـ ٣.

جانب عقله في حركته نحو الله سبحانه وتعالى في المرحلة الأولى (مرحلة الوحدة الفطرية)، وأرسل إليه الهدى الإلهي(الدين) بمستوى الفطرة، ثم لما أشتد الخلاف، وأصبح الإنسان غير قادر على أنْ يحسم هذا الخلاف بعقله وفطرته (الهدى الإلهي العام) تفضّل الله سبحانه وتعالى عليه بإرسال الأنبياء عليهم السلام وإنزال الكتب والشرائع السماوية، لدعم حركة العقل البشري نحو الله سبحانه وتعالى، ودعوة الفطرة الإنسانية للتوجه إليه، وللوقوف بوضوح بوجه (الهوى) الذي يعتبر السبب الأساسي في انحراف الإنسان وتسافله وسقوطه.

الهوى هو العامل الأصلي في الاختلاف

وبذلك نعرف أنّ (الهوى) هو العامل الأعظم في وجود الاختلاف في المجتمع الإنساني وسببه الرئيس، وقد كان له دور كبير وتأثير مهم على العناصر الفطرية لوحدة المجتمع التي تحدثنا عنها سابقاً، ومن خلال هذا التأثير حصل الاختلاف في المجتمع الإنساني، وهذا ما سوف نفصّله في بحوث آتية إنْ شاء الله تعالى.

الباب الثالث

أثر الهوى والدين في المجتمع

الفصل الأوّل:

الهوى وأثره في حصول الاختلاف

الفصل الثاني:

معالجة الاختلاف بالدين والشريعة

الفصل الأول

الهوى وأثره

في حصول الاختلاف

مرّ المجتمع الإنساني في بداية تكونه بدورَين، أشرنا إليهما سابقاً، وهما:
- دور الحضانة الذي يمثل دور وجود الإنسان في الجنة - ودور الوحدة الفطرية الذي عاش فيه الإنسان بعد أنْ أُخرِجَ من الجنة على شكل مجتمع واحد، معتمداً في وحدته تلك على العناصر التي تهدي إليها الفطرة التي فطره الله تعالى عليها؛ وكانت مهمة الدين والأنبياء عليهم السلام أثناءه هو التوجيه والإرشاد إلى الهدى الإلهي والإشراف على حركة المجتمع الفطرية تلك.

كما أشرنا، إلى أنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع في الإنسان العقل والهوى جنباً إلى جنب، وجعل له الإرادة والاختيار، فاختار بإرادته طريق الهوى وقدمه على ما تدعو إليه الفطرة السليمة وما يحكم به العقل.

كما ألمحنا إلى أنّ السبب الرئيس في حدوث الاختلاف داخل المجتمع ـ على ما يبدو من القرآن الكريم ـ هو: الهوى والطغيان الذي أودعه الله تعالى سبحانه في نفس الإنسان، وجعل العقل والفطرة والهدي الإلهي مسيطراً عليه؛ ومن خلال تأثير الهوى انتقل المجتمع الإنساني من دور الوحدة إلى دور الاختلاف.

سبب تأثير (الهوى) على عناصر الوحدة

ولكن كيف أمكن للهوى أنْ يؤثر على عناصر الوحدة الفطرية مع وجود العقل والفطرة الإنسانية والهدي الإلهي؟.

من الواضح أنَّ الهوى لا يتحرّك في الإنسان، ولا يؤثّر في عوامل الوحدة إلاّ من خلال وجود الأرضية المناسبة لذلك.

وقد بيّن العلامة الطباطبائي والسيد الشهيد الصدر قدس سرهما: أنّ هذه الأرضية قد نشأت بسبب التطور الذي حصل في المجتمع من خلال الاختلاف في المواهب المكتسبة، والظروف المحيطة، والفرص التي يحصل

عليها الإنسان في حركته الاجتماعية، ومن ثمّ المواقع والقدرات والإمكانيات التي يتفوّق فيها على الآخرين في الخبرة والتجربة، أو في قوته البدنية، أو اكتشاف بعض الموارد الطبيعية، أو السيطرة عليها دون الإنسان الآخر، والتي تفتح أمام الإنسان أبواب الاستغلال والاستثمار.

وحينئذٍ يبرز دور الهوى في هذا الإنسان الذي يحصل على هذه القدرات والإمكانيات، فيتحول إلى إنسان لا يفكر إلاّ في الحصول على رغباته والإغراق في إشباع غرائزه، فينساق مع هواه من خلال السيطرة على الآخرين وتسخيرهم واستغلالهم ليزداد مالاً وولداً أو قدرة وقوة، ليصبح ذا سلطة وجاه وسيادة، وبذلك تتمزق وحدة المجتمع ويتحول إلى مجتمع صراع وتناحر واختلاف بينه وبين من يرفض سيطرته وهيمنته.

قال العلامة ﷺ: (ومن هنا يعلم أنّ قريحة الاستخدام - في الإنسان[1] - بانضمامها إلى الاختلاف الضروري بين الأفراد من حيث الخلقة[2]، ومنطقة الحياة والعادات والأخلاق المستندة إلى ذلك، وإنتاج ذلك للاختلاف الضروري من حيث القوة والضعف يؤدي إلى الاختلاف والانحراف عمّا يقتضيه الاجتماع الصالح من العدل الاجتماعي، فيستفيد القوي من الضعيف أكثر مما يفيده، وينتفع الغالب من المغلوب من غير أنْ ينفعه، ويقابله الضعيف المغلوب ما دام ضعيفاً مغلوباً بالحيلة والمكيدة والخدعة، فإذا قوي وغلب قابل ظالمه بأشد الانتقام، فكان بروز الاختلاف مؤدياً إلى الهرج والمرج، وداعياً إلى هلاك الإنسانية، وفناء الفطرة، وبطلان السعادة)[3].

---

(١) يعني: فطرة الإنسان على استخدام الآخرين وتسخيرهم.

(٢) وإنْ كانوا بحسب الصورة الإنسانية متساويين.

(٣) الميزان:٢: ١١٨.

كما عبّر قدس سره عن ذلك في مكان آخر من كتابه: (عن أن دار الدنيا دار تزاحم وتناقض في المصالح، وعندئذ يبرز الهوى من خلال هذا التزاحم ليحصل بسببه الاختلاف في المجتمع البشري)[١].

وقد أشار السيد الشهيد الصدر قدس سره إلى مثل هذا بقوله: (... وبعد أنْ مرّت على البشرية فترة من الزمن وهي تمارس خلافتها من خلال مجتمع موحّد تحققت نبوءة الملائكة، وبدأ الاستغلال والتناقض في المصالح والتنافس على السيطرة والتملّك، وظهر الفساد وسفك الدماء؛ وذلك لأنّ التجربة الاجتماعية نفسها وممارسة العمل على الأرض نمّت خبرات الأفراد ووسّعت إمكانياتها، فبرزت ألوان التفاوت بين مواهبهم وقابلياتهم، ونجم عن هذا التفاوت اختلاف مواقعهم على الساحة الاجتماعية، وأتاح ذلك فرص الاستغلال لمن حظي بالموقع الأقوى وانقسم المجتمع بسبب ذلك إلى أقوياء، وضعفاء، ومتوسطين، وبالتالي إلى مستَغلّين، ومستَضعَفين، وفقدت الجماعة البشرية بذلك وحدتها الفطرية، وصدق قول الله تعالى في آية تحمّل الإنسان للأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٢]...)[٣].

تأثير الهوى على عناصر الوحدة

سنحاول في هذا البحث ـ بعد هذا التوضيح ـ أن نتعرف على الصورة التفصيلية لتأثير الهوى على عناصر الوحدة الفطرية.

---

(١) المصدر السابق ١: ١١٧.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) الإسلام يقود الحياة: ١٤٦.

لقد استطاع الهوى أنْ يؤثر على وحدة المجتمع بعد أنْ توفرت الأرضية المناسبة له، وذلك من خلال تأثيره على مبادئ وعناصر وحدة المجتمع، الواحد تلو الآخر، وهذا ما سنوضحه فيما يلي:

اولاً: تأثير (الهوى) على عنصر (التوحيد)

يمثّل (توحيد الله) أحد العناصر الفطرية الأساسية في المجتمع الإنساني ؛ ولذلك فإنَّ ظاهرة (الشرك) التي تمثّل العنصر المضاد للتوحيد تعتبر عنصراً طارئاً من عناصر اختلاف المجتمع ـ أيضاً ـ شأنها في ذلك شأن تأثيرها في أصل الخلقة ووجود الكون، كما يشير القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿... **لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**...﴾[١].

ويمكن بيان تأثير الهوى على عنصر التوحيد من خلال الإشارة إلى أنَّ المدلول الاجتماعي للتوحيد هو مدلول انتماء الإنسان والبشرية ـ في علاقاتها وسلوكها ـ إلى محور واحد: وهو الله تعالى، ونلاحظ أنَّ الإنسان من خلال مسيرته الاجتماعية في المرحلة الفطرية تأثّر بعدة قضايا، جعلته يتّجه إلى الشرك والتعدد في الانتماء.

ونشير هنا إلى قضيتين أساسيتين كانتا ـ منذ البداية ـ ولا زالتا تؤثّران على هذا الانتماء الواحد لله تعالى.

القضية الأولى: الشهوات والميول النفسية والاجتماعية التي أودعها الله في الإنسان.

القضية الثانية: القوى المادية الكونية والاجتماعية.

---

(١) المؤمنون: ٩١.

١) الشهوات والميول

أودع الله تعالى في الإنسان الغرائز وحب الشهوات والميول، وزيّن له في هذه الحياة الدنيا أموراً عديدة، جعلت الإنسان يتجه نحو إشباعها لوجود هذه الغرائز المؤثرة تجاهها، وشعور الإنسان بالحاجة إليها، ولتوفر الأرضية لبروزها في حياته، وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود هذا الاتجاه الداخلي في نفس الإنسان في عدة مواضع: منها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١].

غير أنّ الإنسان ـ في حركته لإشباع هذه الغرائز ـ جنح ـ بصورة عامة ـ إلى تجاوز الحدود المعقولة في إشباع حاجته، أو تحقيق الغاية منها، وانساق مع الهوى فيها، ثم تحوّل (الهوى) بعد ذلك تدريجياً عنده إلى إله ينتمي إليه سلوكيا من دون الله تبارك وتعالى، فأخلد إلى الأرض، وتسافل والتصق بهذه الشهوات حتى كذّب بآيات الله، عندما جاءت تهديه إلى دور الفطرة في العدل والرشد والاستقامة والميزان في تناول حاجاته، وحوّل بظلمه ـ لنفسه من خلال هذا الطغيان والتجاوز ـ المجتمع من مجتمع وحدة، قائم على توحيد الله تبارك وتعالى والانتماء إليه، والإيمان به، واتّباع آياته، إلى مجتمع اختلاف وظلم، وأشرك مع الله تعالى هواه في الانتماء والطاعة[٢]، وأصبح شقياً بهذا الطغيان، ضالاً في مسيرته، ناسياً لله تعالى، فهو يركض ويلهث للإشباع، فلا يصل إلى الغاية والنهاية، قال تعالى: ﴿... وَمَنْ أَضَلُّ

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) وهذا هو من الشرك في الطاعة في مقابل التوحيد لله تعالى فيها، وهو شرك في العبادة بمعناه العام الشامل للأتباع والطاعة.

مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

﴿... وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[٢].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

٢) تأثّر الإنسان بالقوى المادية الكونية والاجتماعية

لقد أودع الله تعالى في الإنسان الإحساس بالفقر والحاجة والضعف وفطره على ذلك، ليلجأ إلى قوته تتبارك وتعالى، ويستمد العون منه، ويتوكل عليه، فيعبده ويتكامل بالغنى والقوة من خلال هذه العبادة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر الفطري في الإحساس بالفقر في الإنسان، مقروناً بالغنى والقدرة الإلهية في عدة مواضع:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ * وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ * وَمَا يَسْتَوِي

---

(١) القصص: ٥٠.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

الأعمى والبصير﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[٢].

كما أشار القرآن الكريم إلى الإحساس الفطري بالحاجة إلى الله تعالى بعرض عدة صور يتحدث عن لجوء الإنسان إلى الله سبحانه والاستعانة به عند التعرض للشدائد والأهوال، ومنها قوله تعالى: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض...﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾[٦].

وقد ربط القرآن الكريم موضوع الاستعانة بالعبادة في كثير من المواضع، قال تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين۞ اهدنا الصراط المستقيم﴾[٧].

---

(١) فاطر: ١٥ ــ ١٩.

(٢) النساء: ٢٨.

(٣) الأنعام: ٦٣.

(٤) يونس: ١٢.

(٥) النمل: ٦٢.

(٦) النحل: ٥٣.

(٧) الفاتحة: ٥ ــ ٦.

وقد جعل القرآن الكريم الاستعانة هذه مظهراً من مظاهر العبادة وتجسيداً لها، قال تعالى: ﴿... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١].

ومن هنا حث القرآن الكريم على الدعاء قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٢].

كما ربط القرآن الكريم هذا الموضوع (الفقر والضعف الإنساني والغنى والقدرة الربانية) بموضوع العبادة وتوحيدها، ورفض الشرك والأنداد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ۞ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[٤].

ومن ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى رفض الأنداد بسبب عجزهم وعدم قدرتهم على النفع والضر والنصرة، ودعوة القرآن الكريم إلى التوكل على الله تعالى؛ لأنه القادر القوي على تلبية حاجات الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) يس: ٢٢ ــ ٢٣.

(٤) الملك: ٢٠ ــ ٢١.

ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[5].

ولكن الإنسان من خلال تأثير (الهوى) وحركته على الأرض يغفل عن هذه الحقيقة، ويشعر بأنَّ القوة التي وهبها الله تعالى له هي التي مكنته من تسخير الكثير من معالم الطبيعة وإخضاعها لإرادته، كما استطاع ومن خلال تلك القوة أنْ يخضع الإنسان الآخر الضعيف لإرادته، ويسخره

---

(١) المائدة: ٧٦.

(٢) الرعد: ١٦.

(٣) الزمر: ٣٨.

(٤) آل عمران: ١٦٠.

(٥) الطلاق: ٣.

لتحقيق أغراضه، ويسيطر عليه ليستعبده بما يمتلكه من إمكانات وقدرات وقوة.

وقد أدى ذلك إلى انعكاس هذا الأمر على علاقته بما حوله من الأمور الكونية، فأصبحت القوة والقدرة مثالاً يُقتدى به ويتبعه ويحس بالخضوع والتسليم له.

إنّ شعور الإنسان الفطري بالفقر والحاجة والضعف، ووجوده أمام مخلوقات تمتلك من الميزات والصفات ما لا يمتلك، وذلك كالقوة العظيمة والعمر الطويل أو التدخل المباشر القوي الذي لا يقهر في حياته وما شابه ذلك، كل ذلك جعل نظره ينشد إلى هذه الموجودات وان ينبهر بها ويخضع لها.

فمثلاً: عبد الإنسان الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب ذات التأثير البالغ على مجريات حياته؛ لأنّه وجدها أقوى منه، وأعظم من حجمه وقدرته، وأطول عمراً، وأكثر دواماً، فخضع لهنّ وعبدهن.

كما وجد الإنسان نفسه في بعض المراحل والأوقات ضعيفاً أمام الطغاة والجبابرة الذين قهروه بقدراتهم وسطوتهم، وهيمنوا عليه بأموالهم وثرواتهم وإمكاناتهم، فاتخذهم أرباباً له من دون الله تبارك وتعالى.

كما ارتبط الإنسان بأولياء وصالحين فاحترمهم وكرّمهم، وبعد أنْ أطلّع على أحوالهم وصفاتهم وقدراتهم، وجد نفسه ضعيفاً وعاجزاً أمام ما عندهم من صفات الكمال والسمو، انحرفت علاقته بهم، فعبدهم من دون الله تعالى.

وقد ذُكر في تأريخ الأقوام الذين سبقوا نوحاً عليه السلام: أنّ هناك مجموعة من الأولياء الصالحين تحركوا في المجتمع لهدايته، فأثروا عليه، بحيث شعر الناس بالضعف المعنوي أمامهم، فأخذوا يكرمونهم ويقدّسونهم، غير أنّ هذا التقديس والاحترام المأذون به شرعاً تطور إلى حالة من الخضوع والتقديس

إلى درجة العبادة، واتخاذهم آلهة من دون الله باعتقاد تأثيرهم المستقل عن الله تعالى، مع أنّ الخلق والقوة لله جميعاً والعبادة لله تعالى دون غيره، وهي محرمة لغيره كائناً من كان[١].

وبهذا الشكل تطور إشباع الإحساس بالفقر والحاجة والضعف من عبادة الله تعالى والانتماء إليه، إلى عبادة غيره من الأقوياء بسبب الهوى وتجاوز الحدود الفطرية التي أكّدتها الهداية الإلهية، انسياقاً مع هوى الإنسان في استخدام القوة للتسخير والاستغلال، وهذا نوع من الشرك بالله تعالى على مستوى العبادة بالمعنى الأخص التي تعني الخضوع المقرون بالتقديس والإيمان بالتأثير المطلق في الخلق والكون.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الشرك وتعدد الانتماء في عدة مواضع:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ فَإِنِ اسْتَكْبَرُواْ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ

---

(١) إنّ موضوع العبادة غير موضوع الاستشفاع وطلب الشفاعة من الصالحين، أو إكرامهم ولاحترامهم وتقديسهم، فإنّ هذا الأمر قد حث عليه الشارع المقدس، ورغب فيه في بعض الموارد، حيث جعل الله سبحانه وتعالى الشفاعة والمقامات العالية المحمودة لمن ارتضى منهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾، طه:١٠٩.
وقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ الإسراء:٧٩.
ولذلك لابد في هذا الموضوع من التقيد بالنصوص الشرعية القرآنية والنبوية، التي توضح موارد ومصاديق هذا الاحترام والتقديس والاستشفاع لضمان عدم الانحراف في ذلك.

(٢) فصلت: ٣٧ ـ ٣٨.

يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

تدخل الوحي الإلهي لمعالجة حالة الشرك

ويؤكّد هذا الفهم في التحول الاجتماعي لحركة الإنسان التي أدّت إلى الاختلاف، وإنّ الشرك بالله تعالى على مستوى طاعة الهوى في اللذات والشهوات، وعلى مستوى عبادة الأنداد الوهميين في القدرة والقوة، كان سبباً مباشراً في هذا الاختلاف.

إننا نلاحظ أنّ الدعوة الأولى للأنبياء جميعاً وقبل كل شيء كانت إلى توحيد الله تعالى؛ لأنّ ذلك يمثل الأساس في بناء المجتمع الصالح المنسجم مع الحقيقة ومع الفطرة الإنسانية والتكامل الإنساني، وبناء المجتمع الواحد القادر على تحقيق أهدافه في العزة والكرامة الإنسانية وفي القوة والمنعة والتعاون بين أطرافه على البر والتقوى والانسجام في حركته.

ومن هنا نلاحظ في القرآن الكريم أنّ القضية الأولى التي طرحها الأنبياء عليهم السلام، قبل عهد نوح عليه السلام وبعده[٣]، هي قضية إعادة التوحيد إلى

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) يمثل نوح عليه السلام أول نبي جاء برسالة سماوية عالجت حالة الاختلاف الاجتماعي بعد أن سيطر الاختلاف على المجتمع، وخرج الإنسان من نور الوحدة الفطرية. ويذهب إلى ذلك العلامة الطباطبائي قدس سره الذي يرى أنّ الرسالات بدأت من نوح عليه السلام، ويستشهد بما ورد في القرآن الكريم من ذكر نوح عليه السلام كأول رسول من أولي العزم.

المجتمع البشري، وأنْ يقولوا للناس: اعبدوا الله وحده الذي لا إله إلا هو، من خلال شعار (لا إله إلا الله)، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ...﴾[١].

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ...﴾[٢].

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ...﴾[٣].

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ...﴾[٤].

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۞ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[٥].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٦].

ثانياً: الهوى وتأثيره على العلاقات الاجتماعية

للهوى تأثير مباشر على عنصر إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس العبودية المخلصة لله تعالى وحده، وتحرير الإنسان من عبودية الأسماء.

فقد ينحرف الإنسان في سلوكه الشخصي عن توحيد الله تعالى بتأثير الهوى، فيعبد أو يطيع غير الله تعالى من الآلهة الوهميين أو الشهوات واللذات، فيضع بذلك بذرة الاختلاف في المجتمع ـ كما ذكرنا في الحديث

---

(١) الأعراف: ٥٩.

(٢) الأعراف:٦٥.

(٣) الأعراف: ٧٣.

(٤) الأعراف: ٨٥.

(٥) هود: ١ ـ ٢.

(٦) الأنبياء: ٢٥.

السابق ـ ولكن عندما يتطور هذا الأمر فتصبح العلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس، أو علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، ومع الكون والطبيعة، قائمة على أساس الشرك بالله تعالى والعبودية لغير الله سبحانه، فإنّ ذلك يؤدي حتماً إلى تمزق المجتمع وتعدّده.

لذا طرح القرآن الكريم ـ كما عرفنا سابقاً ـ مسألة وجوب إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس العبودية لله تعالى الواحد القهار، باعتبارها عنصراً من عناصر وحدته الاجتماعية، وهي ضمانة أساسية من ضمانات وحدة المجتمع الإنساني، حتى لو انحرف الإنسان في سلوكه الشخصي عن ذلك أحياناً، ونهى الجماعة الإنسانية عن اتخاذها للأرباب المتعددة التي عبدتها والتي سمتها بأسماء مختلفة لم ينزل الله بها من سلطان، قال تعالى: ﴿... أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ما أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَان...﴾[2].

غير أنّ الإنسان وتحت تأثير الهوى، قد ابتدع أسساً باطلة أخرى لعلاقاته الاجتماعية أوجد من خلالها وجودات مزيفة، جعلها شريكاً مع الله تعالى في هذه العلاقات، بدلاً من العبودية الخالصة لله وحده، فتفرّق المجتمع واختلف بسببها.

ظواهر الشرك الاجتماعي

ويمكن أنْ نشير بهذا الصدد إلى عدة ظواهر اجتماعية تعبّر عن هذا النوع من الشرك في العلاقات الاجتماعية، تحدث عنها القرآن الكريم، يمكن أنْ

---

(١) يوسف: ٣٩.

(٢) النجم: ٢٣.

نشاهدها في مختلف أدوار التأريخ الإنساني، حيث كان لها اثر مهم في بروز حالة الاختلاف:

الظاهرة الأولى: الطاعة للطغاة والسادة والكبراء.

الظاهرة الثانية: الطاعة للشهوات والميول النفسية.

الظاهرة الثالثة: تعدد الولاءات.

١) الطاعة للطغاة والسادة والكبراء

جعل الإنسان ـ بعد أنْ انحرف عن فطرته في الطاعة لله تعالى واللجوء إليه واتباع أمره ونهيه ـ الطاعة للطغاة والمستكبرين والمتسلّطين أو للسادة والكبراء من القوم المقتدرين مادياً أساساً جديداً لعلاقاته الاجتماعية، فضلّ عن الطريق المستقيم وتدهورت علاقات المجتمع تبعاً لذلك، واختل ميزان الوحدة فيه وحدث الاختلاف، قال تعالى: **﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾**[1].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

وقال تعالى: **﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾**[3].

---

(١) الأحزاب: ٦٧ ــ ٦٨.

(٢) القصص: ٤.

(٣) الزخرف: ٥١ ــ ٥٤.

وقال تعالى: ﴿... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ...﴾[1].

فبعد أنْ أتّهم المستضعفون المستكبرين بأنهم الذين أضلوهم وأخرجوهم من الإيمان بسبب طاعتهم إياهم، ردّ المستكبرون القول عليهم بأنهم وبسبب إجرامهم واتباعهم للهوى، ضلوا عن الهدى، بعد أنْ جاءهم من الله تبارك وتعالى، ولكنّ المستضعفين ردوا هذا الاتهام وحمّلوا المستكبرين مسؤولية ضلالهم، وإنهم هم الذين كانوا وراء كفرهم، من خلال مكرهم في الليل والنهار، وحثهم إياهم على الكفر والشرك بالله تبارك وتعالى، وجعل الأنداد له تقدست أسماؤه.

ويؤكّد حقيقة علاقة الطاعة بالوحدة، الآيات القرآنية الكريمة التي ربطت الوفاق والنجاح بالطاعة لله تعالى ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[3].

---

(١) سبأ: ٣١ ــ ٣٣، أنظر ــ أيضاً ــ إبراهيم: ٢١ ــ ٢٢، وغافر: ٤٧ ــ ٤٨.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) النساء: ٥٩.

وقال تعالى: ﴿... فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ...﴾[1].

ويمثل اتجاه الطاعة للطغاة والمستكبرين في الحياة الاجتماعية، الحكم القائم على أساس الاستبداد والقهر المعبر عنه بـ (الدكتاتورية) سواء كان ذلك طغيان الفرد أم العشيرة أم الجماعة أم الطبقة أم الحزب أم غير ذلك من المصاديق والأمثلة. ولاشك ان طاعة الطاغية أو المستكبر أما ان يصطدم بطاعة طاغية ومستكبر أخر فتقسم المجتمع إلى طوائف مستضعفة، أو أنها تقسم المجتمع مباشرة إلى طوائف مستكبرة ومستضعفة، كما سوف نشرح ذلك إنشاء الله.

٢) الطاعة للشهوات والميول النفسية

يرافق مسيرة الإنسان الاجتماعية، أمران لابد منهما:

الأوّل: الحق المحيط به، والعدل الذي يمثّل المصالح القائمة في نفس الأمر والواقع، سواء كانت المصالح الخاصة به، أم بالجماعة بعد موازنتها، ليتحقق العدل والقسط.

الثاني: الرغبات والشهوات والميول الموجودة في نفس الإنسان التي أشرنا إليها سابقاً.

وقد يجعل الإنسان، الحق والعدل هو الأساس في علاقاته الاجتماعية، وحينئذٍ يصل إلى عبادة الله وحده، من خلال هذا الحق؛ لأنّه سبحانه هو الحق المطلق المبين، كما أنّ طاعته سبحانه وتعالى هي التي تحقق المصلحة للإنسان، لما يتّصف به الله سبحانه من أسماء حسنى، ولقاعدة(إنّ الأحكام

---

(١) الأنفال: ١.

الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية المتعادلة) كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في عدد من الموارد.

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً...﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ...﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿... وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[8].

---

(١) المائدة: ٦٥ ــ ٦٦.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) الأنفال: ٢٩.

(٤) الأنفال: ٤٦.

(٥) النحل: ٩٠.

(٦) الشعراء: ١٥٠ ــ ١٥٢.

(٧) الطلاق: ٢ و ٤.

(٨) الطلاق: ٢ و ٤.

ثـم إنّه بإقامة العلاقات على أسـاس هـذا الحق والعـدل والعبـادة لله تبـارك وتعالى وحـده واتباع الحق وجعلـه محور حركة الإنسان، يتوفر للمجتمـع أحـد عناصـر وحدتـه المهمـة؛ لأنّ الحـق والعـدل واحـد لا يتعـدد، وأمّـا عنـدما يقـيم علاقاته على أساس الميول والرغبات الخاصة أو الجماعة المحدودة، فهي متعـددة ومتضادة، ولا يكون أثرها في المجتمع الا التعدد والاختلاف والتضاد.

ثـم إنّـه بوجـود الحـق يزهـق الباطـل، وينهـزم الاخـتلاف والتمـزق، قـال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[1].

ومن هنا نجد القرآن يطرح الحق في مقابل الـهوى، ويطرح الصلاح والخير مع الحق، والفساد والشر مع الباطل؛ لأنّ الحق لا يجتمـع مـع الـهوى أبـداً، ولن يحصل مع الـهوى إلاّ الضـلال والبطلان، قـال تعـالى: ﴿... فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ...﴾[2].

ولو افـترض أنّ الحـق كـان مـع الـهوى وتابعـاً لـه، أو تطـابق معـه، لأدى ذلك إلى فساد عام في السماوات والأرض وما فيهن، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ...﴾[3]، ويتحقـق الفساد في الأرض وما فيها، يحصل الاختلاف والفرقة وسفك الـدماء، قـال تعالى، حكاية عن مخاوف الملائكة من آدم عنـدما وجـدوا فيـه هـذه الميـول والرغبات والإرادة الحرة: ﴿... قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾[4].

---

(١) الإسراء: ٨١.

(٢) يونس: ٣٢.

(٣) المؤمنون: ٧١.

(٤) البقرة: ٣٠.

ولن يكون هذا الخوف من الإفساد والاختلاف والفرقة وسفك الدماء إلاّ نتيجة طبيعية للخوف من وقوع إرادة الإنسان وعلاقاته تحت تأثير الميول والشهوات والرغبات واتباع الهوى واتخاذه محوراً لحركته الاجتماعية.

وبعبارة أُخرى: فإنّ الناس وبعد أنْ تفضل الله تعالى عليهم بمختلف النعم، وأنزل عليهم من رحمته الواسعة، وحباهم بالإمكانيات والقدرات المتنوعة، انقسموا إلى قسمين:

الأوّل: وهو الذي بقي يذكر الله تعالى ويتبع أوامره ونواهيه، فيما يجده من نِعَم وخيرات ورحمة واسعة، ولم يتخلّ عن إرادة الله تعالى وشريعته، التي تمثل الحق والعدل، وجعلها محوراً لعلاقاته مع الكون ومع أخيه الإنسان من خلال كونه مستخلَفاً في هذه النعم من قبله تبارك وتعالى في ذلك.

الثاني: وهو الذي نسي الله (عزّ وجل)، فاتبع ميوله ورغباته وشهواته، فيما وجد من الأموال والأولاد والراحة والدعة، وما إلى ذلك من النعم التي أفاضها الله عليه، واتخذ هواه إلهاً وقائداً له وأساساً ومحوراً لعلاقاته الاجتماعية.

وبسبب وجود هذا القسم من الناس في المجتمع، اختلف الإنسان مع أخيه الإنسان، لتعدد الميول والشهوات وتضاربها وتضادها في الواقع الخارجي، إذ لا يوجد لدى هؤلاء ما يحفظ وحدتهم وانسجامهم، كالحق، والعدل كما في القسم الأوّل.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة الاجتماعية وأسبابها وآثارها في عدة مواضع، ونشير هنا إلى مقارنة بين بعض الآيات التي وردت في سورتي (الأنبياء) و (المؤمنون)، وبعض الآيات الأُخرى التي وردت في سورة الروم والتي تهدينا إلى هذه الظاهرة الاجتماعية الإنسانية.

فقد ورد في سورة الأنبياء والمؤمنون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٢).

حيث نلاحظ في كلا هذين الموردين أنهما وردا في سياق الحديث عن حركة الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم إلى توحيد الله، فكانت هذه الوحدة في الأمّة، وأنّ الدعوة إلى عبادة الله وحده وتقواه دون غيره، جاءت بعد تأكيد وحدة الأمّة والجماعة أيضاً، الأمر الذي يدل على وجود الارتباط الوثيق بين هذه الوحدة والإخلاص في العبودية والطاعة.

كما نلاحظ في كلا الموردين من جانب أخر، أنّ القرآن الكريم يعقب على ذلك، بأنّ الإنسان عندما اختار طريق الشهوة والأموال أصيب بالتقطّع في أمره والتفرق والتمزق في مجتمعه؛ ولم تتم الإشارة إلى العامل المؤثر في هذا الاختيار الإنساني في المورد الأوّل منها بصورة واضحة، ولكن في المورد الثاني منها جاءت الإشارة إلى هذا السبب بصورة واضحة في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾(٣).

ويؤكّد ذلك بالموقف من (المترفين)، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾(٤).

---

(١) الأنبياء: ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) المؤمنون: ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) المؤمنون: ٥٤ ـ ٥٦.

(٤) المؤمنون: ٦٤.

ثم يذكر القاعدة التي تتحكم في هذه العلاقات الاجتماعية وارتباطها الحقيقي بالله وأثرها على الأوضاع الاجتماعية والكونية، وهي قاعدة الحق في مقابل الهوى والشهوات والميول النفسية، قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

وتصبح الصورة أكثر وضوحاً عندما نقارن هذا بما ورد في سورة الروم التي يتحدث فيها القرآن الكريم ـ فيما يتحدث ـ عن النعم الجزيلة التي تفضّل بها على الإنسان، فيستعرضها كآيات على وحدانية الله وقدرته[2]، حيث يختم ذلك بقوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۞ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۞ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[3].

فهذا المقطع القرآني الذي يتحدث عن نِعَم الله التي هي آياته الهادية إلى وحدانيته وألوهيته وضرورة عبادته، قد اتبع فيها الذين ظلموا أهواءهم التي هي شهواتهم وميولهم النفسية، فأضلهم الله سبحانه بسبب ذلك فلا هادي لهم ولا ناصر.

---

(١) المؤمنون: ٧١.

(٢) راجع الآيات ١٨ ــ ٢٨ من سورة الروم.

(٣) الروم: ٢٩ ــ ٣٤.

ثم يؤكّد القرآن الكريم ضرورة التزام منهج الفطرة الإلهية، الذي يؤكّد العبودية الخالصة لله تعالى والرجوع إليه، ويحقق الوحدة لهم، والتزام منهج التقوى والعبادة الخالصة لله تعالى دون الشرك.

وهنا يشير القرآن الكريم إلى طبيعة هذا الشرك وآثاره - فهو (شرك اجتماعي) في مقابل (التوحيد الاجتماعي) - لأنه شرك يؤدي إلى التفرق في العبادة له تعالى وفي العمل، ويؤدي إلى تقسيم المجتمع إلى طوائف وشيع وأحزاب، وهو شرك يقوم على قاعدة التحزب لما يفرح الإنسان، ويرضي شهواته وميوله في هذه الدنيا.

ولا يكتفي القرآن الكريم بهذه الإشارة إلى طبيعة الشرك وآثاره حتى يوضح سببه الذي يرتبط بموضوع البحث، وهو عبادة الشهوات والميول والركون إلى الرحمة والنعمة المادية، فهو شرك اجتماعي يتخذ مظهر الركون إلى هذه الرحمة، وذلك ببيان تأثير الضر والرحمة على الإنسان نفسياً واجتماعياً ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[1] ويؤكّد القرآن الكريم بعد ذلك أنّ هذا الركون في حقيقته كفر بهذه النعم الإلهية، وينذرهم بالتمتع بها قليلاً فسوف يعلمون مصيرهم في المستقبل.

ولعل من أفضل مصاديق هذا الشرك الاجتماعي الذي يجسّد هذه الظاهرة في إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس الرغبات والميول والأهواء الذاتية، هو الأنظمة (الرأسمالية) التي تؤمن بالحرية الشخصية والمصلحة الخاصة ومقياس المنفعة المادية، وتدعو للاستزادة منها، والطغيان فيها، واتخاذها أساساً للعلاقات

---

(١) الروم: ٣٣.

الاجتماعية، مدعية أنّ هذه المصالح الخاصة قادرة على تنظيم هذه العلاقات، وتوجيهها بما يحفظ وحدة المجتمع الإنساني ومصالحه.

٣) تعدد الولاءات

وينتج بسبب هذا التفرق والاختلاف في المجتمع الإنساني ـ سواء كان ذلك بسبب الطاعة للسادة والكبراء والخضوع والتقديس لهم، أم بسبب الأتباع للميول والشهوات ـ ظاهرة اجتماعية، ترسّخ حواجز الاختلاف، وتعمق جذوره، وهي ظاهرة (تعدد الولاءات) في المجتمع بصورة متباينة ومتضادة.

فإنّ الولاء للشيء يبدأ من العلاقة الوثيقة بالشيء وحبه، حتى يصبح الشيء جزءاً من ذات الإنسان ووجوده، ويتطور إلى حد الشعور والإحساس بوجود التعهد والميثاق مع الشيء والاعتقاد بوجوب حمايته ونصرته والدفاع عنه، ثم يتطور ذلك إلى ظاهرة اجتماعية و(قاعدة) تقوم عليها العلاقات الاجتماعية في المجتمع وتصنّف على أساسها، بدلاً من الولاء للحق والعدل والقيم والمثل والمبادئ.

والولاء في حده الأولي الفطري من حب الآباء والأبناء والأخوان والأزواج والعشيرة والمال والوطن... أمر طبيعي وجائز، بل هو أمر محبوب لدى الشارع المقدس؛ لأنّ الله تعالى زين للإنسان حب هذه الأمور، وحبّب له ذلك في بعض الموارد، وأجاز له ذلك في بعض الأمور الأُخرى، مثل قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٤.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾[1]، كما أنه وردت نصوص في حب الآباء والأبناء والعشيرة والأوطان...

ولكن هذا الحب عندما يكون في إطار حب الله تعالى والحق والعدل وامتداداً له، فهو ولاء لله، ومنسجم مع الفطرة، وينتهي بالإنسان إلى الوحدة الاجتماعية، ولكن لا يصح أنْ يكون أساساً للعلاقات الاجتماعية العامة في المجتمع الإنساني، أمّا إذا كان هذا الولاء في مقابل الولاء والحب لله تعالى والحق والعدل، أو تحوّل إلى أساس مستقل للعلاقات الاجتماعية، فهو ولاء منحرف عن الفطرة الإنسانية ومقتضياتها العبادية في الخضوع والتقديس لله تعالى وحده، وإقامة العلاقات الاجتماعية على أساس هذه العبودية ويؤدي بطبيعة الحال إلى تفرق المجتمع وانقسامه بسبب تعدد هذه الولاءات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

وبهذا البيان تتضح حقيقة ما أشار إليه القرآن الكريم من وحدة (حزب الله) الذي يعني الولاء لله تعالى، لأنّ معنى الحزب هو هذا الولاء، لأنّ الله واحد والحزب واحد، وتعدد (أحزاب الشيطان والباطل) بسبب تعدد هذه الولاءات، حيث نلاحظ أنّ القرآن الكريم لا يتحدث عن حزب الله إلاّ بصيغة المفرد، ولكن عندما يتحدث عن حزب الشيطان والباطل يتحدث عن أحزاب متفرقة ومتعددة.

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) التوبة: ٢٣.

كما يتضح بذلك - أيضا - تفسير وجود ظواهر الولاء السياسي (أي على مستوى العلاقات الاجتماعية العامة)[1] - للقوم، والعشيرة، والوطن، ورأس المال، أو غيرها من الولاءات الأرضية.

فقد أشار القرآن الكريم في عدة مواضع، إلى أنّ أساس (الجماعة المؤمنة) هو (الولاء) لله تعالى، وكذلك الولاء لما أمر الله تعالى بولائه اجتماعياً وسياسياً؛ لأنّه امتداد للولاء الإلهي، كالولاء للرسول ولأولي الأمر وللمؤمنين، أو لما أمر الله بولائه، في حد الحب والنصرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[4].

وقال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ

---

(١) وردت كلمة الأحزاب في القرآن الكريم أحد عشرة مرة وكلها في موارد الولاءات المنحرفة.

(٢) المائدة: ٥٥ ــ ٥٦.

(٣) التوبة: ٧١.

(٤) النساء: ٥٩.

أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[١].

وأكّد القرآن الكريم بالإشارة إلى ضرورة البراءة من أعداء الله ومن يتولاهم، كما جاء في ـ قصة إبراهيم عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ۞ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ۞ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ۞ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾[٢].

وأنكر القرآن الكريم على الناس أنْ يتخذوا (الولاءات الأخرى) أساساً للعلاقة الاجتماعية السياسية وأخرجهم من صفة الإيمان بالله تعالى إلى الكفر والضلال بخلاف أولئك الذين يتخذون الولاء لله تعالى قاعدة لعلاقاتهم الاجتماعية العامة، فإنهم المؤمنون حقاً المؤيدون بروح الله تعالى الصائرون إلى الجنان والرضوان الإلهي، وهم حزب الله المفلحون.

قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الممتحنة: ١ ـ ٤.

وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

كما أنّ القرآن الكريم أشار إلى ضرورة تقديم الولاء لله تعالى على جميع الولاءات الأُخرى ـ حتى الولاءات الصالحة ـ في حركة الإنسان الاجتماعية، وبدون ذلك يخرج الإنسان عن مقتضيات الفطرة الإنسانية الحقّة إلى الحالة التي يعبر عنها القرآن الكريم: بالفسق، ويعيش حالة الحيرة والضلال.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٢).

وبذلك تختلف (الجماعة المؤمنة) عن (الجماعة الكافرة) الظالمة الفاسقة التي تتخذ الولاءات الأُخرى أساساً لعلاقاتها الاجتماعية العامة من دون الله، وتتحول إلى (أحزاب) وشيع تفرح بما لديها من هذه الولاءات، ولكنها تتعرض إلى التمزق والتفرق، وتصبح زبراً وجماعات، وتتحول إلى حزب الشيطان، وتتصف بالخسران والذل، وتلاقي العذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) التوبة: ٢٤.

وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۞ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٢).

وقد وصف الله تعالى الاختلاف في عيسى عليه السلام وبعده: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٣).

وهكذا تعبّر ظاهرة تعدد الولاءات عن اختلال واضح في المبدأ التوحيدي للمجتمع، وهو اتخاذ العبودية لله تعالى والطاعة له محوراً لحركة الإنسان الاجتماعية، هذا المبدأ الذي كان من عوامل الوحدة الفطرية للمجتمع، وتبرز بذلك مظاهر الفرقة والاختلاف.

ثالثاً: تأثير الهوى على عنصر (المساواة)

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الناس من أصل واحد، فهم جميعاً من تراب وطين لازب، كما أنهم جميعاً من ذكر وأنثى، وقد كرمهم وفضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته، كما شرحنا ذلك في الباب الأوّل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٥).

---

(١) المجادلة: ١٩ ــ ٢٠.

(٢) المؤمنون: ٥٢ ــ ٥٣.

(٣) مريم: ٣٧، وبهذا المضمون ــ أيضاً ــ وردت الآية ٦٥ من سورة الزخرف.

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) الإسراء: ٧٠.

و ورد عن النبي ﷺ: **((...كلكم من لآدم وآدم من تراب... وليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى))**[(١)].

وقد كان ذلك سبباً في شعور الإنسان بالمساواة تجاه أخيه الإنسان في بداية أمره، دون امتياز أو تعالٍ.

ولا يعني هذا الشعور بالمساواة ـ بطبيعة الحال ـ عدم حصول امتيازات لبعض الناس على بعض، من خلال صفات مكتسبة ذات حقيقة ثابتة أو مؤثرة، وضعها الله تعالى في حركة الإنسان ونشاطه ـ كما أشرنا سابقاً ـ والتي يمكن تصنيفها إلى مجالين:

الأوّل: المجال المادي الدنيوي، الذي يقتضي فيه أنّ سعي الإنسان في الكسب، وبذل الجهد والنشاط في إعمار الأرض، وحيازة المال وإنتاجه، يكون سبباً في حصوله على مزيد من المال والثروة، بمقتضى القانون الإلهي الذي يفرض للإنسان نتاج سعيه وعمله، وأنْ يأخذ الساعي أكثر من المهمل الخامل الكسول، فيمتاز عليه بذلك.

قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾**[(٢)].

وقال تعالى: **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾**[(٣)].

وقال تعالى: **﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ**

---

(١) تحف العقول: ٢٤.

(٢) المُلك: ١٥.

(٣) الزخرف: ٣٢.

فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾(١).

الثاني: المجال المعنوي، وهي قضايا حقيقية دائمة البقاء والثبوت في الدنيا والآخرة، وتوجب الفضل والامتياز في الكمال الإنساني، من قبيل الإيمان والعلم، قال تعالى: ﴿... يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ...﴾(٣).

والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿... وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(٤).

والطاعة، قال تعالى: ﴿...وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾(٥).

والتقوى، قال تعالى: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾(٦).

وأمّا في غير هذين المجالين، أعني: السعي في المجال المادي والقضايا المعنوية الحقيقية الموجبة للامتياز، فلا امتياز لأحد على أحد، وقد أشرنا سابقاً إلى ذلك.

ولكن هذا الامتياز المكتسب لا يعطي امتيازاً في الهوية الإنسانية، ولا

---

(١) النحل: ٧١.

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) النساء: ٩٥.

(٥) الأحزاب: ٧١.

(٦) الحجرات: ١٣.

يصنّف الناس إلى طبقات اجتماعية، بحيث يصبح ذلك أساساً للعلاقات الاجتماعية، باستثناء امتياز (الإيمان) الذي يرجع إلي قضية إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس توحيد الله تعالى وعبادته الخالصة

نعم، قد تعطي هذه الامتيازات حقوقاً في الاحترام والتكريم.

ولكن نلاحظ أنّ الإنسان ومن خلال حركته داخل المجتمع، وبسبب انسياقه مع الهوى، أختل لديه هذا الشعور والإحساس بالمساواة مع أخيه الإنسان، واتخذ لنفسه عوامل وأسباباً أُخرى خاطئة للتفاضل والامتياز، لم يجعلها الله سبحانه وتعالى، ولم يقبلها منه.

وبهذا الصدد نشير إلى ثلاثة عناصر، وجدت بتأثير الهوى، أثرت على إحساسه بالمساواة مع أخيه الإنسان،وغيرت معادلات التفاضل:

١) كثرة الأموال والأولاد

لقد حصل بعض الناس من خلال عمله وحركته في الحياة على الأموال والأولاد ـ كما ذكرنا - فازدادت أمواله وكثر أولاده (ذريته)، بينما لم يحصل على ذلك آخرون، فوجد بسبب ذلك تفاوت بين أفراد الناس في المجتمع، وبدلاً من أنْ يبقى بعض هؤلاء الناس على شعوره بالمساواة تجاه أخيه الإنسان، ويشكر الله تعالى على هذه النعمة، فينفق من ماله، ويصلح من أولاده، بدأ يشعر هؤلاء الأفراد ومن خلال حبهم للأموال والأولاد، وما منحه ذلك من قدرة مادية بالامتياز والفضل، قال تعالى: ﴿... فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾[1]، وتجاوز بعضهم الحد في علاقاته الاجتماعية بسبب هذا الغنى والمال، حتى أُصيب بالطغيان

---

(١) الكهف: ٣٤.

على بقية بني جنسه ﴿...إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ❁ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[1]، بل قد يصل الأمر به إلى الشعور بأنّ أمواله سوف تكون سبباً لخلوده! ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ❁ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ❁ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[2]، أو أنّ كثرة ماله سوف تنجيه من العذاب عند الانحراف وتشفع له عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[4].

إنّ هذا الاتجاه الاجتماعي القائم على أساس الهوى في الشعور بالامتياز على أساس الأموال والأولاد، يدعو الإنسان أولاً إلى المزيد من الاستثمار والاستغلال، ليحقق المزيد من التفاضل، مما يؤدي إلى نشوء طبقتي المستغِل والمستغَل في المجتمع الإنساني، وبالتالي حصول حالة التمزق والاختلاف فيه.

وما الصراع المعروف في عالمنا اليوم بصراع الجنوب والشمال في حقيقته، إلاّ صراع بين الدول الغنية التي استأثرت بالإمكانيات والقدرات والثروات، والدول الفقيرة المحرومة المستغلَة.

وقد تناول القرآن الكريم هذه المسألة من خلال جوانب متعدّدة، ونبّه إلى بعض موارد الاستغلال والظلم التي يمارسها الإنسان في هذا المجال، والتي تنتهي عادة إلى إيجاد حالة الصراع والتناحر والاختلاف داخل المجتمع، فمثلاً قضية إرث الأموال التي شهدت ألواناً من الظلم، وتناول الفئات

---

(١) العلق: ٦ ــ ٧.

(٢) الهمزة: ١ ــ ٣.

(٣) سبأ: ٣٥.

(٤) الليل: ١١.

المستضعفة عقلياً التي لم تبلغ الرشد، أو بدنياً من الناس، كاليتامى، والنساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً...﴾(١).

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُواْ النِّسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ...﴾(٣).

أو من قبيل أخذ الربا، أو أكل أموال الناس بالباطل، كالميسر، والغش، وتحريف الدين والمتجارة به، قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ...﴾(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ...﴾(٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ...﴾(٦).

ولا يكتفي بعضهم بأكل مال الناس بالباطل مباشرة، بل إنَّ بعضهم يستخدم المال ليستعين على أكل أموال الآخرين بالباطل، فيأكل باطلاً في باطل. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا

---

(١) النساء: ١٠.

(٢) الأنعام: ١٥٢.

(٣) النساء: ١٩.

(٤) النساء: ١٦١.

(٥) النساء: ٢٩.

(٦) التوبة: ٣٤.

إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

وتبدو أهميّة هذا العنصر في التأثير على وحدة المجتمع، وإيجاد الاختلاف بين الناس من خلال تأكيد القرآن الكريم وبيانه لموقفه من الأموال والبنين بصورة عامة، وحقيقة الدور الذي يمكن أنْ يقوما به في حركة الإنسان الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٣].

بل جعل التكاثر في الأموال والأولاد من شؤون متاع الدنيا الزائل والتي وصفها تعالى في مواضع عديدة من القرآن الكريم، بأنها لهو ولعب، وزهّد الإنسان فيها قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٤].

وأنّ هذا المال الذي يجمعه الإنسان ليتفاخر به لا يغني عنه إذا تردى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[٥]، بل لا ينفع في ذلك اليوم إلاّ من أتى الله

---

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) الأنفال: ٢٨.

(٣) المنافقون: ٩.

(٤) الحديد: ٢٠.

(٥) الليل: ١١.

بقلب سليم ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١].

وأنّ الدور الحقيقي الباقي للمال هو إنفاقه في سبيل الله والجهاد به، من أجل تحقيق الآم الفقراء والمساكين، أو إعلاء كلمة الله تعالى والدين.

ومن الواضح أنّ هذه الآيات القرآنية قد استهدفت تصحيح تصورات الإنسان حول المال والأولاد، وأنّ هذه الأمور لا قدرة حقيقية لها على إعطائه أي امتياز أو فضل واقعي، وأنّ اتخاذها أساساً للتمايز والتفاضل يعتبر أحد أسباب بروز التناحر الطبقي، والاختلاف بين المستغِل والمستغَل في المجتمع الإنساني، كما بيناه سابقاً.

وأنّ المال ليس إلاّ مجرّد وسيلة يستخدمها الإنسان للوصول إلى رضوان الله تعالى أو الحصول على عذابه، حسب طبيعة استخدامه، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الحديد السابقة: ﴿... وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ...﴾[٢].

٢) القوة

تمنح القوة وبأي شكل كانت، بدنية أو مالية أو نفوذ اجتماعي أو اقتصادي أو قدرة علمية مؤثرة أو كثرة أولاد وأتباع، شعوراً لدى صاحبها بالامتياز على الآخرين يجنح به إلى استغلال الآخرين واستخدامهم وتسخيرهم بقوته لمآربه، بل وظلمهم أيضاً، ويكون ذلك سبباً لوجود حالة من الاختلاف بسبب هذا الشعور بالامتياز، في مجتمع تسوده مثل هذه الظاهرة الاجتماعية.

وقد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة وتأثير هذا العامل في الشعور

---

(١) الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) الحديد: ٢٠.

بالامتياز من خلال آيات عديدة، منها: ما ورد على لسان قوم ملكة سبأ، قال تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾[1]، إذ إنهم لم يطرحوا أي قضية للتعبير عن موقفهم تجاه الدعوة الإلهية التي ذكرها لهم النبي سليمان عليه السلام في رسالته إليهم، إلاّ شعورهم بالامتياز بسبب القوة والقدرة التي يملكونها، والبأس الشديد.

وأوضح من ذلك ما ورد على لسان قوم هود من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2].

حيث اتخذ قوم عاد ما لديهم من قوة مبرراً لاستكبارهم ومخالفتهم للدعوة الإلهية وشعورهم بالامتياز والرفعة، غير ملتفتين إلى أنّ الله تعالى الذي خلقهم هو الأشد قوة، وهو القاهر فوق عباده.

ومثلها قوله تعالى في الحديث عن هذه الظاهرة التي كانت تؤثر في مختلف أدوار التأريخ، كسبب من أسباب وجود الاختلاف والاستكبار والانحراف قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

والقرآن الكريم يضرب بهذه الآية المَثل، ويقدم العبرة للجماعة التي كانت تعايش الرسول صلى الله عليه وآله من أنْ تتخذ ما لديها من قوة مبرراً وأساساً

---

(١) النمل: ٣٣.

(٢) فصلت: ١٥.

(٣) الروم: ٩.

للتكذيب والجحود بآيات الله، فقد كذّب من قبلهم من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً، ولكن الله أخذهم بظلمهم فأهلكهم، ولم تُغْنِ عنهم قوتهم شيئاً، وأنّ هذا الشعور بالامتياز يعبر عن الانحراف في العلاقات الاجتماعية، كما أنّه شعور وهمي بإزاء قدرة الله تعالى وقوته.

٣) العلو في الأرض

ويعتبر العلو في الأرض وملك زمام السلطة والهيمنة على الناس في إدارة شؤونهم، أحد المظاهر المهمة لهذا الشعور بالامتياز وفقدان الإحساس بالمساواة بين أفراد المجتمع الإنساني، بل يمكن أنْ نعتبره تطوّراً لظاهرتي الإحساس بالامتياز من خلال كثرة الأموال والأولاد والإحساس بالقوة والمنعة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة وآثارها الاجتماعية، وحذّر من التأثر بهذا العامل الاجتماعي نفسياً، وما ينتج عن ذلك من آثار اجتماعية خطيرة، مثل: الاختلاف والتمزّق، والفساد داخل المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾[1].

ويشير القرآن الكريم إلى أنّ ظاهرة العلو ظاهرة تعتبر متطورة للإحساس بالقوة والقدرة، ولابد من وجودها عند وجود هذا الإحساس، ويوضح ذلك عندما يتحدث عن التوحيد وضرورة الإله الواحد، فيذكر أنّ تعدد الآلهة يعني بطبيعة الحال تعدد القوة، ويكون نتيجة لذلك وجود ظاهرة العلو في الأرض، قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَد وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه إِذاً

---

(١) الإسراء: ٤.

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

ولعلّ المَثَل الفرعوني لهذه الظاهرة أهم مثال طرحه القرآن الكريم وكان تأكيد القرآن الكريم وتكراره لهذا المَثَل، تنبيهاً إلى الآثار الخطيرة لهذا السبب الاجتماعي، حيث جسّد فرعون حالة العلو في الأرض تجسيداً متميزاً في التأريخ البشري، وقاد مجتمعه بسبب ذلك إلى الاختلاف والصراع والفساد والدمار. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

وهنا يربط القرآن الكريم التمزّق في المجتمع الإنساني، وتحوله إلى جماعات وشيع بظاهرة العلو في الأرض.

وقد أوصل شعور فرعون بالعلو إلى إدّعاء الربوبية والألوهية﴿فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[3]، بعد أنْ تطلّع إلى بلوغ الأسباب والهيمنة على السماء بعد الأرض والوصول إلى إله موسى. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾[4].

وتحوّل شعوره بالامتياز من كونه متميزاً على غيره من البشر، إلى

---

(١) المؤمنون: ٩١.

(٢) القصص: ٤.

(٣) النازعات: ٢٣ ـ ٢٤.

(٤) غافر: ٣٦ ـ ٣٧.

الاعتقاد بأنّه المالك المطلق لهم ولأموالهم، وأنّ له حق التصرف في كل ذلك لربوبيته، الأمر الذي يقود قهراً إلى خروج المجتمع من حالة وحدته إلى حالة تمزّقه واختلافه، ووجود الطبقات الاجتماعية فيه، من طبقة الأشراف و(الملأ) حسب تعبير القرآن إلى طبقة المستضعفين المسحوقين المقهورين.

ونجد في تأريخنا المعاصر أمثلة بارزة لهذا الشعور بالامتياز، منها: ما شهده العالم في الحرب العالمية الثانية من الشعور بالامتياز والعلو من قبل ألمانيا النازية. ومنها: ما يشهده العالم من طغيان الحضارة المادية الغربية حالياً، ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية. ومنها: طغيان بعض الطغاة والحاكمين بدرجة عالية، مثل: ما عرفته أوربا في فرانكو في أسبانيا، وتشاويشسكو في رومانيا، وستالين في الاتحاد السوفياتي السابق، أو الشرق الأوسط كصدام في العراق، أو رضا خان في إيران، أو مصطفى كمال في تركيا.

وقد تسببت مثل هذه الأمثلة والظواهر في كوارث إنسانية مروعة.

رابعا: تأثير الهوى على عنصر (الشعور بالمسؤلية)

كان الإنسان في مرحلة الوحدة الفطرية يرى في نفسه أنّه مستخلَف من الله تعالى في الأرض، وقد استبطنت هذه الخلافة فيما استبطنت شعوره بالمسؤلية تجاه مَنْ استخلفه، وهو الله سبحانه وتعالى، لأنّ الخليفة يشعر بالمسؤلية تجاه المستخلِف، وقد أشرنا سابقاً إلى تضمّن هذه المسؤلية التي حفظت وحدة المجتمع آنذاك، لبعدين أساسين:

الأوّل: بُعد التزام المستخلَف بالحق الذي وضعه المستخلِف والأحكام التي سنها له، وعدم صحة الانسياق مع الهوى والرغبات والميول.

الثاني: بُعد والاختيار والإرادة في القرار والعمل، إذ لا معنى للإحساس

بالمسؤلية مع الاعتقاد بأنه مجبور على العمل، بل لا بد من كونه حراً يختار الفعل أو الترك، ليصح تحمله فيما بعد لمسؤلية ما فعله أو تركه، فيثاب أو يعاقب على ذلك. بل إنّ هذا الاختيار في الإنسان هو الذي أثار مخاوف الملائكة، عندما أخبرهم الله تعالى باستخلاف الإنسان في الأرض؛ لأنّ الاختيار يعني القدرة على فعل الخير والشر، وهذا مما يمكن أنْ يؤدي إلى الفساد في الأرض بعد أنْ كان الإنسان موجوداً ناقصاً، وعلى ذلك يترتب العقاب والثواب، وهي فكرة أساسية في العقيدة الإسلامية، وترتبط بهذه المسؤلية، على ما ذكرناه في محله.

وهنا لا بد أنْ ننظر في الصورة التي أثّر فيها الهوى على هذا الإحساس والشعور بالمسؤلية بكلا بعديه، الأمر الذي أدّى إلى تمزق المجتمع والإخلال بوحدته.

مظاهر انعدام الشعور بالمسؤلية

ويمكن أنْ نرى هذه الصورة في الأمور التالية:

أوّلاً: إنّ الإنسان من خلال تأثير الهوى وانشداده والتصاقه بالشهوات والرغبات والميول والأمور المادية الأرضية، تعرّض إلى الغفلة عن ذكر الله تعالى ونسيان أوامره ونواهيه، بل نسيان الله تعالى نفسه.

وقد تحدث القرآن الكريم في مواضع عديدة عن تأثير الهوى أو ميول النفسية – بدرجات متفاوته – في نسيان الله، والغفلة عن ذكره أو تكاليفه، وآثار ذلك في حياة الإنسان، بدءً من آدم عليه السلام ومن بعض أصحاب الرسالات الإلهية الذي لا يصل إلى حد المعصية والتمرّد، وانتهاءً بالدرجات العالية في التأثير، فيما نراه في بعض مصاديق المنافقين والمشركين بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ...﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿... وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿... نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٤].

وقد بين القرآن الكريم التلازم بين الغفلة عن ذكر الله واتّباع الهوى، قال تعالى: ﴿... وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[٥].

ثانياً: إنّ نتيجة الغفلة عن الله تعالى والوظيفة الإلهية ـ عندما تستمر وتتعمق ـ تختل عند الإنسان موازين المعرفة والإدراك للحق والمصالح والرؤية للأشياء على حقيقتها، والتي كان يتبع فيها طريق العلم والهدي الإلهي، فيطبع على قلبه وسمعه وبصره، ويفقد الخوف من الله تعالى ورجاء ثوابه، ويصبح متبعاً للأماني والوعود الشيطانية والإغراءات الدنيوية، وتكون حاله في الضلال كالأنعام أو أضل.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ

---

(١) طه: ١١٥.

(٢) المجادلة: ١٩.

(٣) الفرقان: ١٨.

(٤) التوبة: ٦٧.

(٥) الكهف: ٢٨.

(٦) النحل: ١٠٧ ــ ١٠٨.

الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2].

ثالثاً: إنَّ الإنسان بعد أنْ أتبع طريق الظن والأماني والشهوات، ظهر الفساد في الأرض، وفقد الشعور بالمسؤلية تجاه الله تعالى، وتبدلّت لديه النظرة إلى الحياة والمصالح والى المفاسد والى الغايات والأهداف، حتى وقع الاختلاف والنزاع بين الناس، وتعرضوا للهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[4].

وبهذا الصدد يمكن أنْ نتبيّن مجموعة من العوامل والظواهر التي تجسّد هذه الصورة:

١) النظرة إلى الحياة الدنيا

الظاهرة الأولى: اختلاف النظرة إلى الحياة الدنيا، فقد أشار القرآن الكريم في مجموعة واسعة جداً من الآيات إلى وجود نظرتين إلى الحياة

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الأنعام: ٤٤ ــ ٤٥.

(٤) الأعراف: ٥١.

الدنيا بصورة عامة، وهما:

النظرة الأولى: وهي الحق الذي لا ريب فيه، وتتلخص: بأنَّ هذه الحياة الدنيا ما هي إلاَّ حياة محدودة الوقت، وقصيرة الأمد، ولا تمثل الحقيقة بوجودها الكامل إلاَّ بمقدار صلتها بالحياة الأُخرى، بل وصفها القرآن الكريم بأنّها حياة لهو ولعب وفتنة وزينة وتفاخر في الأولاد والأموال، قال تعالى: **﴿اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ.. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾**[1].

وإنَّ هذه الحياة هي دار ممر لا مقر، وإنّها مزرعة الآخرة التي هي الحياة الحقيقية، التي يجب أنْ يعمل الإنسان من أجل الفوز بها، قال تعالى: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ۞ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾**[3].

الثانية: وهي النظرة التي تبناها الماديون الدنيويون (الكافرون، والمشركون، وأتباع الهوى والشهوات)، وتقوم على الاعتقاد بأنَّ الحياة الدنيا هي حياة حقيقية فآثروها على الحياة الأُخرى؛ لأنّهم كانوا يرونها ـ كلما توسعت وامتدت ـ أنّها الحياة الأهم أو الوحيدة في وجود الإنسان، فلم يؤمنوا بالدار الآخرة أو لم يعبأوا بها، وبعضهم كان يرى بأنه يكفي في الآخرة الإيمان القلبي بالله تعالى، وأنّه لا حساب على الأعمال التي تصدر

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) النجم: ٣٩ ــ ٤٢.

منهم في هذه الدنيا، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[4].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هاتين النظرتين سوية، عندما تحدث عن قاصدي البيت الحرام من عموم الناس ودعائهم ومسألتهم من الله تعالى.

وذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[5].

إنّ تحديد المجتمع للنظرة التي يتبناها تجاه الحياة الدنيا والآخرة بوضوح،

---

(١) الأنعام: ٢٩.

(٢) النازعات: ٣٧ ــ ٣٩.

(٣) الأعلى: ١٦ ــ ١٧.

(٤) الأعراف: ١٦٨ ــ ١٦٩.

(٥) البقرة: ٢٠٠ ــ ٢٠١.

وكذلك دورها في الدار الآخرة والعلاقة بينهما، أمر أساسي في الحفاظ على وحدته وعدمها.

فلو تبنى الإنسان النظرة الأولى وأنّ الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية، فإنه سيعكس هذا الأمر:

١. على موقفه قبال المصالح والمفاسد الخاصة والعامة، ويقارن بين مصالحه في الدنيا والآخرة.

٢. وعلى موقفه تجاه اللذات والشهوات الدنيوية المحدودة، ويتنازل عن الكثير من المصالح الفردية الخاصة لغيره من المستحقين لها بدافع الإيثار، ومن أجل أنْ يحصل على اللذات والشهوات الأُخروية الأعظم والمنافع الأبدية والثواب الإلهي العظيم الدائم.

ومن الطبيعي أنْ يؤدّي مثل هذا الفهم والسلوك الاجتماعي النابع من الإحساس بالمسؤلية إلى وحدة المجتمع وبنائه بناءً متماسكاً محكماً.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ

---

(١) الصف: ١٠ ـ ١٣.

اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[1].

وقال تعالى في تأكيد هذه النظرة إلى الدنيا: ﴿... فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[2].

وأمّا لو نظر الإنسان إلى الحياة الدنيا من خلال النظرة الثانية، فسوف يتحرك على أساس المنافع والمضار الخاصة الدنيوية المحدودة التي يراها أمامه، ومن الطبيعي أنْ تتعارض منافعه ورغباته مع منافع ورغبات الآخرين، فيختلف معهم بسببها، ويبدأ الصراع والنزاع معهم، لأنّه لا يمتلك أي مبرر للتنازل عنها لهم، وببروز مثل هذه الحالة تتفكك عرى وحدة المجتمع الذي يعيش في داخله مثل هذا الإنسان وتتزعزع عوامل تماسكه، ويتحول إلى حالة الفوضى والاختلاف كأمر لا بد منه.

٢) لبس الحق بالباطل

الظاهرة الثانية: لبس الحق بالباطل، فقد قلنا: إنّ للشعور بالمسؤلية جانبين: أحدهما: إحساس الإنسان باستخلافه عن الله تعالى، والثاني: كونه حراً مختاراً مريداً؛ ليتحمّل بذلك مسؤلية ما يصدر عنه من خير أو شر.

وإذا أُريد للإرادة أنْ تصل إلى الحق والحكم الإلهي، فلابد أنْ تحكم العقل فيما تريد من عمل والتزام، وما نريده بـ (العقل) هنا: هو السلوك العملي القائم على أساس العلم والمعرفة بالمصالح الواقعية، وما يهدي إلى الحق والواقع والصواب، وما يقابله (الجهل): وهو السلوك العملي الفاسد

---

(١) النساء: ٧٧.

(٢) التوبة: ٣٨.

البعيد عن الحق والصواب، كما عبّرت عنه الآيات الكريمة والروايات الشريفة.

ومن الطبيعي أنّ الحق والواقع ـ الذي يُعبّر العقل عن الالتزام به ـ واحد غير متعدد، وأنّ هيمنته على مجتمع ما تؤدّي إلى تكامل المجتمع ووحدته وعدم فرقته.

وأمّا لو حكّم الإنسان غير العقل والعلم فيما يريد، ومال إلى أتباع الأماني والظنون والأوهام، فإنه سيضل في طريقه ويقود مجتمعه إلى حالة الاختلاف والفساد والباطل؛ لأنّ الأماني والأوهام والظنون متعددة ومختلفة ومتضاربة فيما بينها ولا تغني عن الحق والحقيقة ﴿...إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً...﴾[1]، ولا توصل الإنسان إلى الصواب وما يصلحه وينفعه، الأمر الذي يؤدي إلى وقوع الاختلاف والاضطراب بين من يحملها أيضاً، فينعكس الأمر على المجتمع كله لينتهي به إلى حالة الفرقة والاختلاف لا محالة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى علاقة الاختلاف بالعقل في عدة آيات:

منها: قوله تعالى: ﴿... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[2].

كما أنّ الإنسان الذي يعمل بالظن والوهم يعمل بهما وهو مدرك ـ على الأغلب ـ لمدى الفارق بين العلم والواقع، وبين الظن والوهم، ولكن الهوى وما يكتنفه من ميول ورغبات يرجّح له ذلك الجانب على هذا فيسلكه غير آبهٍ لما سيحدث في مجتمعه من خراب ودمار ومتناسياً مسؤليته التي يجب

---

(١) يونس: ٣٦.

(٢) الحشر: ١٤.

عليه تحملها.

ومن هنا كانت المسؤولية في النظرية الإسلامية مقرونة بالعقل والعلم، ونلاحظ في ذلك تأكيد القرآن الكريم على دور العقل والعلم في معرفة الكون والحياة الإنسانية وفي الشعور بالمسؤولية في عشرات من الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[3].

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ۞ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُواْ بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۞ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4].

---

(١) فاطر: ٢٧ ــ ٢٨.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

(٣) الأنفال: ٢٠ ــ ٢٢.

(٤) المُلك: ٦ ــ ١١.

كما أنّ القرآن الكريم بسبب ذلك قد أكّد أهمّية العمل بالعلم دون غيره والسؤال من أهل الذكر للوصول إليه عند الحيرة، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**... فَسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ**﴾(٢).

وقد ورد في الحديث الشريف الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**لَمّا خلق الله العقل استنطقه، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال: وعزّتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليّ منك، ولا أكملتك إلاّ فيمن أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب**))(٣).

وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة من خلال حديثه عن عدة ظواهر خطيرة ظهرت في المجتمعات الإنسانية، بسبب ضعف أو فقدان الشعور بالمسؤلية وعدم التزام منهج العلم والعقل في التحرك:

١. مثل ظاهرة (لبس الحق بالباطل) مع معرفة الحق وكتمانه، والتي أنكرها القرآن الكريم بشدة على أهل الكتاب في عدة آيات:

قال تعالى ـ مخاطباً بني إسرائيل ـ: ﴿**وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى**

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) النحل: ٤٣.

(٣) الكافي ج١: ١٠، ح١.

(٤) البقرة: ٤٢.

الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

٢. ومثل ظاهرة القول على الله، ونسبة الأشياء إليه بدون علم، والتي أنكرها القرآن الكريم أيضاً.

قال تعالى: ﴿...قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

٣. ومثل ظاهرة خيانة الأمانات والعهود والمواثيق مع العلم بالحقيقة ومعرفتها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

ويلاحظ هنا أنّ الآية الثانية تؤكد دور الهوى والميول في الانحراف عن طريق العلم والوقوع في خيانة الله والرسول والأمانة.

٤. ومثل ظاهرة أكل أموال الناس بالإثم والعدوان والباطل انسياقاً مع الشهوات والرغبات مع العلم بالعدوان والظلم.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤].

٥. ومثل ظاهرة اتخاذ القرار والموقف والمجادلة بدون علم ولا برهان ولا سلطان.

---

(١) آل عمران: ٧١ ــ ٧٢.

(٢) الأعراف: ٢٨.

(٣) الأنفال: ٢٧ ــ ٢٨.

(٤) البقرة: ١٨٨.

قال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

٦. ومثل ظاهرة تفويت الكثير من المصالح المادية والمعنوية بسبب جهلها وعدم معرفتها والتعامل معها على أساس الميول والشهوات والإحساسات.

حيث أشار القرآن الكريم إلى كثير من هذه الموارد لمعالجتها، كما في الصوم، قال تعالى: ﴿... وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾[3].

وكما في القتال، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[5].

وكما في الخمر والميسر، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا...﴾[6].

---

(١) آل عمران: ٦٦.

(٢) يونس: ٦٨.

(٣) البقرة: ١٨٤.

(٤) البقرة: ٢١٦.

(٥) الأنفال: ٢٤.

(٦) البقرة: ٢١٩.

حيث عرضت الآية حيرة السائل تجاه الخمر والميسر، وما فيهما من منافع يحصل عليها الإنسان من راحة، أو مكاسب مادية يتبع فيها هواه، وتقوده إليها غرائزه، ويعمل بما يوحي إليه ظنه، مع أنّ الواقع هو أنّ الإثم والمفسدة فيهما أكبر من هذه المنافع.

وكما في (قوانين الإرث) التي جاء بها الإسلام، حيث يشير قوله تعالى - الذي ورد في سياق الحديث عن توزيع الإرث حسب الموازين الإسلامية - ﴿...آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً...﴾[1]، إلى نفس الحقيقة فقد نعى القرآن الكريم على الجاهليين طريقتهم في توزيع الإرث، إذ كانوا يحرمون البنت أو الزوجة من الإرث بتوهم أنّ هذه الطريقة هي الطريقة المثلى والصحيحة في حفظ المال لدى الورثة، أو بتصور أنّ الولد الحقيقي هو الابن لا البنت التي قد تتزوج من الغريب، ولذلك نبههم القرآن الكريم إلى أنّ صلاح الوريث وعدمه سواء كان الوريث والداً أم ولداً، هو الملاك في كونه نافعاً أو ضاراً، لا كونه ذكراً أو أنثى، وأنّ الإنسان إذا مات انقطع إلاّ من ثلاث، أحدها هو: الولد الصالح - كما ورد في المأثور[2] - فالوريث الذي لا يكون صالحاً يكون ضاراً، ذكراً كان أو أنثى، ولا مجال لما توهمه الجاهليون في تقسيمهم للإرث حسب الجنس.

وكما في الصدقة التي يكون فيها بذل وتضحية، ويتوهم الإنسان بذلك خسارة في ماله أو بعض شؤونه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ

---

(١) النساء: ١١.

(٢) بحار الانوار ٢:٢٣، ح٧٠.

صَدَقَات فَإِذْ لَمْ تَفعَلُواْ وَتَابَ اللهُ عَلَيكُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعمَلُونَ﴾[1].

ويمكن أنْ نلاحظ موارد كثيرة لمصاديق هذه الظاهرة عند مراجعة القرآن الكريم[2].

إنّ عدم اتّباع الحق والقانون الإلهي والذي يمثل العقل والعلم في قبال الجهل أو الظن والوهم في هذه الموارد، ومن ثمّ ضعف أو عدم تحمل المسؤلية في هذا المجال، يُفقد المجتمع عنصراً مهماً من عناصر وحدته، ويتحول من مجتمع الوحدة والاتفاق إلى مجتمع الفرقة والاختلاف.

٣) الظلم والعدوان

الظاهرة الثالثة: شيوع الظلم والعدوان، حيث يتحول هذا التلبيس للحق بالباطل، ومخالفة العقل والعلم، واتباع الظن والوهم والشهوات والميول في معرفة الحق، وضعف أو فقدان الإنسان للشعور بالمسؤلية بسبب ذلك، إلى وجود ظاهرة خطيرة شهدتها المجتمعات الإنسانية منذ بداية وجودها، ولكنها عندما تتحول إلى ظاهرة عامة تنقسم هذه المجتمعات على نفسها، وتتمزّق الجماعة الإنسانية، وهذه الظاهرة هي ظاهرة الظلم والتجاوز على حقوق الآخرين والعدوان عليهم، بل تتحول هذه الظاهرة بسبب عدم الشعور بالمسؤلية تجاه الاستخلاف وفقدان أو ضعف وجود العامل المسيطر على الإرادة والهوى إلى ظاهرة ظلم الإنسان لنفسه وإلى الكون والطبيعة، الأمر الذي يستنزل الغضب الإلهي بحد ومستوى، بحيث يتصور الإنسان أنّ

---

(١) المجادلة: ١٢ ـــ ١٣.

(٢) من باب المثال يمكن مراجعة مادة خير في المعجم المفهرس، لنجد أمامنا موارد كثيرة، تحدث فيها القرآن الكريم عن خير واقعي، وقد لا يراه الإنسان خيراً بموجب هواه ورغباته وشهواته.

الله تعالى قد ظلمه بما أنزل عليه من عذاب وهلاك.

ولذا جاء التأكيد مرات عديدة في القرآن الكريم لمضمون قوله تعالى: ﴿... وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

إنّ ظاهرة الظلم الخطيرة هذه تعبر بصورة واضحة عن تخلي الإنسان عن شعوره بالمسؤلية تجاه الله تعالى الذي استخلفه على الأرض، فبظلمه وعدوانه يكون قد تجاوز الحدود، وتخلّى عن عبوديته لله تعالى أو ضعف إحساسه بالاستخلاف والتزامه بأمانة الخلافة، وأصبح شريكاً لله تعالى في تصرفه في هذا الكون، وفي والحياة الاجتماعية، وفي نفسه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا البعد في ظاهرة الظلم في موارد عديدة: منها: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَكُم من مَا مَلَكَتْ أَيمَانُكُم مِن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، حيث يفهم من هذا المَثَل إنكار الظلم بكل صوره؛ لأنه تصرف من العبد المملوك لله تعالى والمخلوق له، في خلقه. وهذا من قبيل أنْ يتحول العبد المملوك للإنسان - بغير حق - إلى شريك له في رزقه وملكه ويتعامل معه الإنسان على أساس الندّية، كما يتعامل مع المالك الفعلي.

ثم يؤكّد القرآن هذه الحقيقة ببيان أنّ ذلك كله بسبب إتباع الظالم للهوى وانصرافه عن الأخذ بالعلم والمعرفة، لذا يعقّب على هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ

---

(١) النحل: ١١٨.

(٢) الروم: ٢٨.

الله وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[1].

وتبدو الصورة أكثر وضوحاً حين يربط القرآن هذه الحقيقة بموضوع الفطرة الإنسانية ومقتضياتها من الالتزام بعبادة الله تعالى والشعور بالمسؤلية الكاملة تجاهها، وأنّ هذا هو مقتضى العلم والمعرفة في الإنسان، وبدون ذلك سوف يقع الإنسان في الظلم والانحراف.

قال تعالى ـ بعد الآيتين السابقتين ـ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]، وبذلك يحاول القرآن الكريم إعادة الإنسان إلى حالة الوحدة التي فقدها من خلال إشعاره بالمسؤلية تجاه الحق الذي شرعه وقرّره الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان من خلال الدين القيم، مؤكّداً بعد ذلك على النهي عن الفرقة والاختلاف، ﴿...وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

أبعاد الصورة القرآنية للظلم

وقد تحدّث القرآن الكريم عن مفردات كثيرة لهذا الظلم وبصورة واسعة، من أجل توضيح هذه الظاهرة الخطيرة وآثارها، ومعالجة هذه الظاهرة وتداعياتها، ونشير هنا إلى بعض معالم الصورة:

١. اعتبر القرآن الكريم كل أنحاء الظلم وألوانه ظلماً للنفس، مثلما يكون

---

(١) الروم: ٢٩.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) الروم: ٣١ ــ ٣٢.

ظلماً لأي أحد، حيث تكون خسارة الإنسان في ذلك أعظم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(١).

٢. ذكر القرآن الكريم للظلم مصاديق عديدة، ترتبط بالإنسان ذاته وبعلاقته بالله تعالى وبالكون والطبيعة وأخيه الإنسان، ولكن اعتبر الشرك بالله تعالى أشد وأعظم ألوان الظلم، حيث نص القرآن أنّ كل ذنب وظلم يمكن أنْ يغفر للناس ما عدا الشرك بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ...﴾(٢).

٣. إنّ الله سبحانه وتعالى فتح باب التوبة والاستغفار ـ واسعاً ـ من الظلم وجعل الرجوع عنه إلى الله تعالى ممكناً، وحثّ على ذلك وأمر به.

قال تعالى: ﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾(٣).

٤. أجاز القرآن للإنسان أنْ يدفع عن نفسه الظلم بمثله، وفرّق في هذا المجال بين الظلم في الشؤون الشخصية، حيث حبب للإنسان العفو والصفح فيه، وبين الظلم في الأمور الاجتماعية العامة، حيث طلب من الإنسان أنْ يدفعه ويتحمل مسؤليته في ذلك.

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۞ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن

---

(١) يونس: ٥٤.

(٢) النساء: ٤٨.

(٣) النساء: ٦٤.

سَبِيل﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿...فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً﴾[٣].

٥. مضافاً إلى ذلك كله، أشار القرآن الكريم في عدة موارد إلى أنّ الظلم عندما يتحول إلى حالة عامة في المجتمع، وتتعطل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يضعف الإحساس بالمسؤلية أمام الله تعالى، فسوف يؤدي ذلك إلى هلاك المجتمع ونزول العذاب الدنيوي فيه وظهور الفساد في البر والبحر.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ

---

(١) الشورى: ٣٩ ـ ٤٣.

(٢) البقرة: ١٩٤.

(٣) النساء: ٧٥.

(٤) الروم: ٤١.

مُجْرِمِينَ ۞ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1].

وإلى ذلك تشير الكثير من قصص الأنبياء وأقوامهم.

٤) الاستسلام للظلم

الظاهرة الرابعة: الاستسلام للظلم والقبول بالاستضعاف، فقد عرفنا في ظاهرة الظلم، أنّ ظلم الإنسان قد يتعلق بذاته، وقد يتعلق بالكون والطبيعة، أو بعلاقته بالله تعالى، وقد يتعلق - هذا الظلم - بأخيه الإنسان، ومن ثم نجد أمامنا ظاهرة المظلومين والمستضعفين في المجتمع الإنساني.

وقد ينتصر المظلوم لنفسه ويدافع عن حقه، عندما يكون الظلم للجماعة الإنسانية، فيتحمل المسؤلية أمام الله تعالى، ويتحقق بذلك العدل في الخارج، وتأخذ الحياة مجراها الصحيح، ويتوقف الانحراف، كما أشرنا إلى ذلك.

ولكن قد يتخلّى المظلوم المستضعف عن مسؤليته في إقامة العدل والحق وفي الخلافة لله تعالى، أو يفقد الشعور بها؛ بسبب هواه وحبه للراحة والدعة والدنيا وشهواتها ولذاتها وقبوله بالحظ الأدنى منها،أو بسبب الخوف و إيثار العاجلة على الآخرة، فيقبل بالظلم والفساد، ويسكت عنه، ويرضاه لنفسه ولغيره، بل قد يساهم فيه بأنْ يتحول إلى تبع وعون للظالم، ملقياً بالتبعة والمسؤلية على الظالم المستبد المستكبر.

وبذلك نواجه ظاهرة أخرى في المجتمع الإنساني، وهي ظاهرة (الاستضعاف المستسلم) في العلاقات الاجتماعية، وهي ظاهرة خطيرة ترتبط بموضوع تأثير الهوى وحب الدنيا على الشعور بالمسؤلية أمام الله

---

(١) هود: ١١٦ ــ ١١٧.

تعالى.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه الظاهرة في بعدين:

الأول: ما أشرنا إليه في ظاهرة الظلم من وجوب تحمل المسؤلية من قبل الناس جميعاً، لمقاومة ظاهرة الاستضعاف، ولو عن طريق القتال.

الثاني: بُعد مسؤلية المستضعَف نفسه أمام هذه الظاهرة ووجوب مقاومته لهذا الظلم ورفضه للقبول بها، وبدون ذلك يتحول هذا المستضعَف إلى مصداق من مصاديق الظالم لنفسه.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾[1].

وقد أشار القرآن في مواضع أخرى إلى أنّ الإنسان المستضعَف الراضي بالظلم، يتحمل مسؤلية هذا الظلم يوم القيامة، ولا عذر له في ذلك بتبرير هذا الموقف بالتبعية للظالم والمستكبر، فإنّ ذلك لا يغني عنه من العذاب شيئاً، كما أنّ الظالم المستكبر لا يتحمل عنه العذاب.

قال تعالى: ﴿...**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا**

---

(١) النساء: ٩٧.

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعندما يتخلّى المجتمع بصورة عامة عن الشعور بمسؤوليته تجاه الظلم، سواء أكان مستكبراً أم مستضعفاً، يتحوّل إلى مجتمع ظالم لنفسه، فيحق عليه القول في العذاب والتدمير، ويؤدي ذلك إلى تفرق المجتمع إلى طبقات مستكبرة، ومستضعفة، ومرتزقة، ومحرومة ـ كما سوف نشير إلى ذلك بصورة تفصيلية ـ، ويفقد قوته وقدرته على التكامل والنمو وتحقيق العدل والاستقرار.

٥) استحسان الظلم

الظاهرة الخامسة: استحسان الظلم، وذلك أنّ الظلم عندما يستحكم في المجتمع الإنساني ويستمر لفترة من الزمن، ويأخذ أشكالاً اجتماعية تعبّر عنه، يتحوّل إلى قانون اجتماعي وأخلاق إنسانية سيئة، وتقاليد وأعراف يتمسّك بها الإنسان ويعتبرها جزءاً من وجوده ومثلاً أعلى لحركته.

وهذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم في موارد ومفردات عديدة:

١. مفردة عبادة الأوثان ومظاهر الكون والطبيعة، حيث بدأت كحالة انحرافية في حركة الإنسان، ثمّ استقرّت بعد ذلك حتى أصبحت جزءاً من حياته ووجوده، يستحسنها ويدافع عنها، مع أنّها من أعظم أنحاء الظلم كما ذكرنا.

٢. مفردة الاقتداء بالطغاة والمستكبرين والتبعية لهم، كما أشرنا إلى ذلك في بعض الآيات الكريمة.

٣. مفردة السلوك الاجتماعي المنحرف، كالقتل، والفساد في الأرض، والتسلّط على الضعفاء واستغلالهم، وتصوّر أنّ ذلك حق طبيعي أو صلاح في الأرض.

وهذه الظاهرة هي التي يشير إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ

---

(١) سبأ: ٣١ ـ ٣٣، راجع أيضاً الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨، والأعراف: ٣٨ ـ ٣٩.

نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[١].

خامساً: تأثير الهوى على عنصر الشعور بوحدة المصالح والمصير والهدف

كان الإنسان في مرحلة الوحدة الفطرية يشعر ـ بصورة واضحة ـ بأنّ أهدافه ومصالحه ومصيره هي أمور مشتركة ومتبادلة مع غيره من بني جنسه، وذلك لأنّ المجتمع الإنساني كان محدوداً، مما يمكّن الإنسان أنْ يرى بوضوح هذا الاشتراك في الأهداف والمصالح والمصير وهذا التبادل في المنافع، بل يكاد أنْ يلمس ذلك بيده، فعمل على تجسيد هذا الشعور المتبادل اجتماعياً وعملياً، من أجل ضمان هذه الأهداف والمصالح والمنافع، فتحقّقت بذلك وحدة المجتمع وتماسكه.

غير أنّ تطور المجتمع الإنساني ومن خلال تأثير الهوى، أصيب هذا العامل بالضرر أيضاً، لينتقل المجتمع بفعل ذلك إلى مرحلة التضاد والتصارع والاختلاف.

ويوجد تصوران لبيان آلية تأثير الهوى ونتائجه:

أحدهما: للعلامة الطباطبائي، والآخر للشهيد الصدر ﷺ.

تصور العلامة الطباطبائي ﷺ

أمّا العلاّمة الطباطبائي ﷺ لقد انطلق في تصوره من خلال فكرة ونظرية (الاستخدام) الفطري والتي توصل إليها والتي سبقت الإشارة إليها[٢]، فبين أنّ شعور الإنسان الفطري بعجزه عن الإيفاء بكل حاجاته إلاّ

---

(١) الكهف: ١٠٣ ــ ١٠٤.

(٢) سبق أنْ نقلنا تصور العلامة ﷺ هذا انظر الميزان ٢: ١١٨.

من خلال استخدام الآخرين، دعاه إلى التفكير في تبادل المنفعة مع غيره من بني جنسه، وذلك من خلال عملية الاستخدام المتبادلة فيما بينه وبينهم، وقام نتيجة ذلك مجتمع متجانس متعاون وموحد.

غير أنّ نفس هذا العامل الفطري،أعني: عامل (الاستخدام) تحوّل في مرحلة تالية إلى عامل من عوامل الاستغلال أدّى بالمجتمع إلى الفرقة والاختلاف، وذلك لأنّ تطور حركة الإنسان الطبيعية والاجتماعية من جهة، واختلافه مع غيره في مستوى الإمكانيات والقدرات ونحوها من جهة أخرى، جعل الإنسان الأقدر - وبدافع من العامل الفطري في الاستخدام- قادراً على استغلال الآخرين، بحيث يأخذ من الآخرين أكثر مما يعطيهم، وبذلك تحوّل المجتمع الإنساني إلى مجتمع استغلال واختلاف بعد وحدته.

وإلى مثل هذا أيضاً أشار بقوله ﷺ: (فهذا الحكم،اعني حكمه بالاجتماع المدني والعدل الاجتماعي، إنما هو حكم دعا إليه الاضطرار، ولولا الاضطرار المذكور لم يقضي به الإنسان أبداً، وهذا معنى ما يقال: إنّ الإنسان مدني بالطبع، وأنّه يحكم بالعدل الاجتماعي، فإنّ ذلك أمر ولّده حكم الاستخدام المذكور اضطراراً على ما مرّ بيانه، ولذلك كلّما قوي إنسان على آخر ضعف حكم الاجتماع التعاوني وحكم العدل الاجتماعي فلا يراعيه القوي في حق الضعيف، ونحن نشاهد ما يقاسيه ضعفاء الملل من الأمم القوية، وعلى ذلك جرى التأريخ إلى هذا اليوم الذي يدّعى أنّه عصر الحضارة والحرية.

وهو الذي يستفاد من قوله تعالى ﴿... إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[1]، وقوله

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿... إِنَّ الإِنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿...إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[3])[4].

خلاصة ما يقدّمه العلاّمة قدس سره في هذا المجال: إنّ الجهل والظلم الذي يتّصف به الإنسان والذي يؤدّي بالتالي إلى حدوث الاختلاف في المجتمع، إنّما ينشأ من حالة تمادي الإنسان في استخدام الآخرين من جهة، وبسبب التفاوت في الإمكانيات والقابليات والمواهب الموجودة بين أبناء البشر، والتي تتيح لبعضهم استخدام بعض واستغلاله.

تصور الشهيد الصدر قدس سره

وأمّا السيد الشهيد الصدر قدس سره فقد ذكر هذا التصوّر بشكل أكثر عمقاً ووضوحاً، فيما نقلناه عنه سابقاً في بداية هذا الفصل أيضاً[5].

كما تعرّض قدس سره لهذا الموضوع أيضاً في الأساس الأوّل للثورة عند بحثه لأسس الثورة، حيث قال: (وقد شهد التأريخ البشري منذ أقدم عصور الاستغلال، أساسين مختلفين للثورة:

الأساس الأول: ما تزخر به قلوب المستضعفين والمضطهدين من المشاعر الشخصية المتّقدة، بسبب ظلم الآخرين واستهتارهم بحقوق الجماعة ومصالحها.

وهذا الشعور يتكوّن ويمتد في المستضعفين تدريجياً كلّما ازدادت حالتهم

---

(١) المعارج: ١٩.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

(٣) العلق: ٦ ـ ٧.

(٤) الميزان ٢: ١١٧.

(٥) انظر الإسلام يقود الحياة: ١٤٥ ـ ١٤٧.

سوءاً، وازداد المستغلون لهم عتواً واستهتاراً بهم، ولكي يتحوّل هذا الشعور إلى ثورة لابد له من بؤرة تستقطبه وتنبثق عن هذه البؤرة التي تستقطب هذا الشعور، القيادة التي تتزعم المستضعفين في كفاحهم ضد المستغلين والثورة عليهم.

وإذا لاحظنا هذا الأساس بعمق، نجد أنه يتعامل مع نفس المشاعر الشخصية والمادية التي خلقتها ظروف الاستغلال، فالاستغلال يكرّس في جميع أفراد المجتمع الشعور الشخصي بالمصلحة، وينمي فيهم الاهتمام الذاتي بالتملك والسيطرة)[1].

وقد بيّن السيد الشهيد ﴿ﷺ﴾ ومن خلال هذين النصين، أنّ حالة الاستغلال الاجتماعي التي يعيشها الإنسان في حركته الاجتماعية تولّد لديه صفة نفسية وروحية نعبر عنها بصفة (الأنا) التي يحاول من خلالها تأكيد ذاته وشخصه، فلا يتعامل مع القضايا التي تواجهه بعد ذلك من خلال المصالح والمفاسد الاجتماعية العامة، بل وحتى الخاصة به منها، بل يتعامل معها من خلال الهوى (الأنا) وتأكيد الذات والشخصية والذي هو عبارة عن الرغبات والميول الشخصية التي أودعت فيه، أو الاندفاعات الانفعالية والغضبية، دون رعاية المصالح.

ثم تستفحل هذه الحالة في الإنسان إلى أنْ يصل إلى الدرجة التي يمارس فيها عملية الاستغلال، لمجرد الاستغلال ولتأكيد الذات و(الأنا) أو التسلّط والتملّك لمجرد ذلك، وبدون أنْ تكون لديه أية حاجة لإشباع أي غريزة أو شهوة خاصة، بل يصبح الاستغلال والتسلّط والتملّك بنفسه رغبةً وميلاً ذاتياً.

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤٨.

وهذه الصفة يمكن أنْ يراها القارئ في القرآن الكريم، من خلال الحديث عن المفسدين في الأرض والمسرفين، في تناول الحاجات، أو في علاقاتهم مع الناس والطغاة في الحكم والبغي في العمل.

ولنضرب مثلاً لذلك بقصة قارون، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۞ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ۞ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[1].

فإنَّ هذه الآيات تشير إلى الأموال والكنوز التي كان يملكها قارون، والتي أحسن الله تعالى إليه بها، بحيث لا يمكن أنْ نتصور وجود حاجة له في المال والجاه، فيتمنى الجميع أنْ يكون قد أُوتي ما أُوتيه، كما تشير الآيات إلى نصيحة قومه له في الإحسان، كما أحسن الله له، وان يكون متزناً في تعامله مع المال بين الآخرة والدنيا وفي الكف عن البغي والفساد في الأرض، ولكنه مع كل ذلك يستمر في بغيه وفساده وإجرامه تأكيداً لذاته وقدرته.

---

(١) القصص: ٧٦ ــ ٨١.

كما يمكن أنْ نضرب مثلاً لذلك بقوم عاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۞ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۞ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۞ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[1].

فحالة الطغيان، والإكثار من الفساد في الأرض التي سادت هذه المجتمعات، ونشأت من استكبار البعض وإسرافهم وفسادهم وطغيانهم بدافع الهوى والذات والاستغلال، انتهت بهم وبمجتمعاتهم إلى الاختلاف والتمزّق والهلاك.

وهناك عشرات الأمثلة القرآنية التي يمكن أنْ يشاهدها القارئ في القرآن الكريم التي تتحدث عن حالات الإسراف والطغيان والفساد والبغي، بحيث تتحول إلى صفة متأصّلة وملكة لازمة للإنسان، يؤكّد فيها من خلال سلوكه ذاته وشخصه.

وبذلك يتحوّل الإنسان في سلوكه من العمل على أساس الشعور بوحدة المصالح والأهداف والمصير للجماعة إلى العمل على أساس الشعور (بالأنا) والاهتمام بالمصالح الخاصة الذاتية، الأمر الذي يؤدي إلى الاستغلال والفساد في الأرض والعدوان، ومن ثم تفكّك المجتمع وتمزقه وانهدام وحدته وهلاكه.

---

(١) الفجر: ٦ ـ ١٣.

الفصل الثاني

معالجة الاختلاف

بالدين والشريعة

تمهيد[١]

١) تطوّر الاختلاف

بعد نشوء الاختلاف في المجتمع الإنساني بسبب تأثير ضغوط الهوى على عناصر وحدته الفطرية، بدأت عناصر هذه الوحدة تفقد تأثيرها في المجتمع الإنساني، ولا سيما بعد أنْ تطور هذا المجتمع وازداد نمواً وتعقيداً، سواء في فعالياته أم مصالحه وأهدافه، أم الإمكانيات والفرص المتوفرة للاستغلال وأشكاله، أو في عمق التأثر على هذه العناصر وتفاقمه إلى أنْ انتهى الأمر يفقد ان هذه العناصر لتأثيرها في المحافظة على هذه الوحدة، لأنّ هداية هذه العناصر وتأكيد الدين لها كانت هداية عامة لا تتناول هذه التفاصيل، ولا يمكنها أنْ تعالج هذه الحالات والظواهر الاجتماعية والنفسية التي تحدّثنا عنها في الباب السابق، ولاسيما وأنّ بعض هذه الظواهر فيها كثير من اللبس والغموض من ناحية، وفيها شيء من الحداثة والخبرة من ناحية ثانية، وفيها مجال للتأويل والتبرير والتفسير من ناحية ثالثة.

وبسبب هذا التطوّر الاجتماعي العميق، جاء دور التغيير بالدين وحلّ الاختلاف به على مستوى الشريعة وإقامة المجتمع على أساسها، وذلك من أجل الرجوع بالمجتمع إلى وحدته مرّة ثانية، ولكن على أساس جديد أكثر وضوحاً وانسجاماً مع تطوّر الحياة الإنسانية الجديدة، ويكون فيه إعادة

---

(١) اعتمدنا بصورة أساسية في هذا الفصل على ما طرحه أستاذنا الشهيد الصدر في كرّاسه (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) وفي محاضراته حول التفسير الموضوعي (عناصر المجتمع الإنساني)، كما يحسن مراجعة بعض فصول (اقتصادنا) في فهم نظريته، وقد أضفنا لها بعض التمهيد والتوضيحات والأمثلة، وسجلنا عليها بعض الملاحظات والإضافات.

لدور الفطرة أيضاً، ولكن انطلاقاً من أساس أقوى من أساس الفطرة وحدها الذي أمكنه تحقيق الوحدة في الدور الأول من حياة الإنسان على الأرض، وهذا الأساس الجديد هو الدين بمستوى (الشريعة).

والظاهر من خلال ما يطرحه القرآن عن الواقع الذي شهده التأريخ الإنساني، أنّ هذا الدور هو الدور الرئيس في تأريخ وحركة البشرية بصورة عامة.

ومن هنا دعت الحاجة إلى دراسة مميزات هذا الدور وخصائصه وتحديد الظواهر الأساسية فيه والأركان المقومة له.

٢) الدين بمستوى الشريعة

يبدو من القرآن الكريم، أنّ الدين تطوّر بصورة واضحة عندما تطوّر الاختلاف، وذلك من خلال وجود ظاهرتين متلازمتين رئيسيتين في نزول الدين الإلهي الذي جاء لمعالجة المجتمع الإنساني والتطوّر الاجتماعي فيه، وكذلك الاختلاف المتطوّر والعمل على حل الاختلاف فيه. وهاتان الظاهرتان هما: الشريعة، والإمامة.

أ) ظاهرة الشريعة

لقد اقتصرت مهمّة الوحي الإلهي والنبوة (الدين) في دور الوحدة الفطرية على توجيه الفطرة وهدايتها وتوضيح معالمها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولكن عندما تطوّر المجتمع - كما ذكرنا - وتطوّر تأثير الهوى على عوامل الوحدة الفطرية، واجهت الرسالات الإلهية مهمّة جديدة، حيث اتسعت مهمّة الدين، وأصبحت أكثر شمولية في مرحلة الاختلاف المتطوّر هذا، وتطوّر الوحي الإلهي إلى مجيء (الشريعة) وجاءت (النبوة) بـ (الكتاب)،

من أجل أنْ يشرّع للناس منهاج حياتهم الاجتماعية، وتحل لهم مشاكلهم، ويقنّن لهم أعمالهم وتصرّفاتهم، ويحدد معالم العلاقات المطلوبة في مجتمعاتهم، ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه من ذلك.

وهكذا امتاز الدور الجديد للمجتمع الإنساني بظاهرة وجود الشريعة كإطار وحالة متميزة لتنظيم الحياة الاجتماعية في داخل المجتمع الإنساني، بحيث مارست الشريعة دور الموجّه والمحدّد للعلاقات المختلفة والمتنوعة في داخل المجتمع.

ب) ظاهرة الإمامة

ولكن ظاهرة الشريعة وحدها لا تكفي في حل الاختلافات؛ لأنّ مجرد توضيح المنهج والطريق وتشخيص معالم السلوك لا تكفي إلاّ في معالجة بعض المشاكل والأسباب، مثل: لبس الحق بالباطل، أو الأوهام والظنون والأسباب الأخرى، بل تحتاج إلى وجود قيادة ميدانية لتطبيق الحق والعدل، ودفع الظلم والعدوان، وكان ذلك في (ظاهرة الإمامة) وتطوّر النبوة إلى (النبوة القائدة) التي نعبر عنها بـ (الإمامة)، وهذه الظاهرة هي: الظاهرة الأساسية الثانية التي يمتاز بها مجتمع الاختلاف المتطوّر، الذي يقود فيه النبي عملية التغيير وحل الاختلاف على أساس الشريعة والدين.

ومن أجل ذلك نعبّر عن هذه الظاهرة بظاهرة (النبوة القائدة)، حيث يأخذ فيها النبي دور (الإمام) والقائد الذي يقوم بإدارة عملية التغيير الاجتماعي وإدارة تنظيم العلاقات الاجتماعية خارجياً على أساس الشريعة، أو الإشراف عليها مباشرة وتشخيص التطبيقات الاجتماعية للدين، فهو المباشر لقيادة عملية التغيير والتنفيذ والتوجيه والتنظيم للمجتمع، لا مجرّد النبوة التي تعني البلاغ والتوجيه والإرشاد والهداية

لمقتضيات وحالات الفطرة.

كما يمكن التعبير عن هذه الظاهرة ـ أيضاً ـ بظاهرة السعي لإقامة (الدولة الإلهية) والمجتمع الإنساني المرتبط بالوحي الإلهي، وبذلك يكون وجود (الدولة) فكرة رسالية أصلية، إنْ لم نقل: بأنّ فكرة وجود الدولة ـ في أصل وجودها الاجتماعي والتأريخي ـ كانت فكرة نبوية ورسالية، وأنها جاءت لمعالجة ظاهرة الاختلاف في تطورها الإنساني المعقّد.

ومن الواضح أنّ هاتين الظاهرتين ترتبط إحداهما بالأُخرى بصورة أساسية، لأنّ الدولة الإلهية أو الإمامة أو النبوة التي يكون فيها النبي إماماً وقائداً، إنّما تحكم وتحدد علاقات المجتمع الذي تديره من خلال (الشريعة)، التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على هؤلاء القادة الأنبياء عليهم السلام.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هاتين الظاهرتين، وإلى العلاقة بينهما، بقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ومن أجل أنْ نوضح هذين الأمرين: (تطوّر الاختلاف الاجتماعي)، و(الدين بمستوى الشريعة) نعقد بحثين للحديث فيها، ونتعرّض فيهما إلى ما ذكره السيد الشهيد الصدر قدس سره بصددهما، حيث ذكر الشهيد الصدر وجود الارتباط الوثيق بين تطوّر الاختلاف

---

(١) البقرة: ٢١٣.

الاجتماعي، وضرورة وجود (الدين بمستوى الشريعة) لحل هذا النوع من التطوّر، كما ذكرنا.

البحث الأول: تطوّر الاختلاف الاجتماعي

لقد ذكرنا آنفاً: أنّ الاختلاف بدأ من خلال تأثير الهوى على عوامل الوحدة الفطرية، ولكنّ الاختلاف بين الناس تطوّر بعد ذلك من خلال عاملين رئيسين:

أحدهما: التطوّر الاجتماعي.

والثاني: تطوّر عمق تأثير الهوى في عوامل الوحدة الفطرية، وقد أخذ هذا التطوّر شكلاً اجتماعياً في العلاقات الاجتماعية ومفردات النظام الاجتماعي بصورة عامة، كما أنّه أصبح بحاجة إلى المعالجة بأسلوب ومنهج جديد.

ولتوضيح ذلك نحتاج إلى أن نذكر عدة نقاط:

انقسام المجتمع إلى طوائف

الأولى: إنّ المجتمع الإنساني قد أخذ شكلاً جديداً اجتماعياً في العلاقات الاجتماعية الإنسانية، وفي مفردات المجتمع العام. وهذا الشكل الجديد هو وجود الانقسام في المجتمع الإنساني إلى عدة طوائف نذكر منها الطوائف الرئيسية الثلاثة الآتية[1].

---

(١) قد أشرنا في (الفصل الأول) إلى أسباب وجود هذا الانقسام والاختلاف، وهنا نستعرض مرّة أخرى هذه الظاهرة تمهيداً للدخول في بحثها وبحث آثارها، وطريقة معالجتها قرآنياً، راجع في عرض هذه الطوائف للدرس الثالث عشر من المدرسة القرآنية، للشهيد الصدر: ١٧١.

طائفة المستكبرين

١ـ طائفة المستكبرين، وهم: الذين يهيمنون على مجتمعاتهم أو الشعوب الأخرى، ويحكمونها وفق رغباتهم وميولهم ومصالحهم، بحيث يكون دورهم هو دور الاستكبار على عموم الناس، والاستغلال لهم ولطاقاتهم في خدمة مصالحهم الخاصة، والاستئثار بالقدرات والإمكانيات المتاحة في الطبيعة والكون، والموجودة داخل مجتمعاتهم أو المجتمعات الأخرى، دون رعاية العدالة، أو مصالح هؤلاء الناس، انطلاقاً من إدعاء (الامتياز) بالاستحقاق أو القدرة والقوة، أو الامتياز بالطبقة أو العِرق أو القيمومة بمعرفة المصالح دون الله والناس، ويضعون أنفسهم موضع الإله في عناصر النظام الاجتماعي.

ويُعبّر عن هذه الطائفة في الأدبيات السياسية لهذا العصر بـ (المستغِلّين) و (المستبدين).

وقد عبر القرآن الكريم عن هؤلاء المستكبرين بتعابير مختلفة ترتبط بطبيعة سلوكهم في المجتمع أو آثاره على الناس، يمكن أنْ نتبينها من خلال بعض العناوين، مثل:

● (المفسدين)، كقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾[2].

---

(١) القصص: ٤.

(٢) البقرة: ٢٠٥.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[2].

● و(المترفين)، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[5].

● و(المسرفين)، كقوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ● الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾[7].

---

(١) محمد: ٢٢.

(٢) ص: ٢٨.

(٣) الإسراء: ١٦.

(٤) سبأ: ٣٤.

(٥) الزخرف: ٢٣.

(٦) يونس: ٨٣.

(٧) الشعراء: ١٥١ ــ ١٥٢.

● و(الطاغوت)، حيث طُرح هذا العنوان في القرآن الكريم في مقابل الله تعالى وعبادته، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[3].

كما يُعبر - أيضا - عن هذا العنوان في القرآن الكريم: بالطاغي والطاغية، كما في قوله تعالى:﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِن رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ● أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[5]، وما شابه ذلك من العناوين الأخرى.

والجامع لكل هؤلاء وأمثالهم هو تجاوزهم لحدود الله تبارك وتعالى في حركتهم، وبتجاوزهم لهذه الحدود الإلهية (أسرفوا) و(أفسدوا) و(استكبروا) و(طغوا) واتصفوا بكل عنوان يعبر عن حالة التجاوز هذه، أو يشير إليها.

---

(١) الزمر: ١٧.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) النساء: ٧٦.

(٤) الذاريات: ٥٢ ــ ٥٣.

(٥) الحاقة: ٥.

ومن خلال هذه الأوصاف، وما نتج عنها من سلوك تحدّث عنه القرآن الكريم، نعرف طبيعة العلاقة بين هذه الطبقة من ناحية، وسائر الناس من ناحية أخرى، والأرض والطبيعة من ناحية ثالثة، فهي علاقة تسلّط وطغيان وهيمنة واستئثار وظلم وإفساد في الأرض.

طائفة الأتباع

٢ـ طائفة الأتباع، وهم: تلك الجماعة من الناس الذين يتعرّضون للاستضعاف والاستغلال وتتضرر مصالحهم. ولا يتمكنون من الحصول على حقوقهم الطبيعية داخل مجتمعاتهم بسبب استضعافهم واستغلالهم من قبل المستغلّين والسادة والمستكبرين، ولكنّهم في الوقت نفسه استسلموا لهذا الوضع الاجتماعي، ورضوا به وتحولوا إلى مجرد أتباع لأولئك المستكبرين.

وقد تحدّث القرآن الكريم ـ كما ذكرنا سابقاً ـ عن هذه الطائفة، عندما قسم المستضعفين إلى قسمين:

أحدهما: الجماعة التي استُضعِفت اجتماعياً، ولكنّها استسلمت لهذا الواقع الاجتماعي دون مقاومة أو رفض، فكانت بذلك ظالمة لنفسها؛ لأنّها ليس لها أية مصلحة في هذه الحالة الاجتماعية وهذا الوضع الاجتماعي الخاص، بل تحولّت إلى أدوات تابعة للمستكبرين والمستغلّين والمسرفين والمفسدين في ظلمهم وطغيانهم فيهم، ومن خلالهم وبواسطتهم، بل تمكنوا من إفسادهم وإضلالهم، حتى أصبحوا يمارسون الظلم والطغيان بالرغم من استضعافهم[1].

---

(١) يلاحظ نماذج بشرية لهؤلاء في عالمنا اليوم يتمثل ببعض عناصر الأجهزة القمعية، أو بعض عناصر الشرطة والجيش في بعض الدول وبعض عناصر الأجهزة الإدارية الحكومية، بل يلاحظ ذلك في بعض العناصر الحزبية السياسية والإعلامية التابعة للطغاة.

ولذلك كانت هذه التبعية تستحق العذاب والعقاب الأخروي، لأنّ هذا النوع من الاستسلام والقبول للظلم- فضلاً عن الإعانة عليه - يمثل حالة من ظلم الإنسان لنفسه أيضاً، كما هو ظلم للآخرين بتمكين المستكبرين والطغاة من الهيمنة على شؤون المجتمع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ۝ وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾[٢].

وقد وصف القرآن الكريم في مشاهد أخرى حالة هؤلاء المستضعفين الذين وصفهم بالظالمين أيضاً، وهم يخاصمون المستكبرين ويلقون باللوم عليهم في يوم القيامة، بل يلوم بعضهم بعضاً، انظر إلى هذا المشهد القرآني، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

ولكن المستكبرين استنكروا على المستضعفين قولهم هذا، واتهموهم بأنهم نتيجة لاستسلامهم وقبولهم بما كان سائداً في مجتمعهم تحملوا الإثم وتحولوا إلى قوم مجرمين، حيث يقول تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ

---

(١) النساء: ٩٧.

(٢) الأحزاب: ٦٦ ــ ٦٧.

(٣) سبأ: ٣١.

استُضعِفُوا أَنَحنُ صَدَدنَاكُم عَنِ الهُدَى بَعدَ إِذْ جَاءَكُم بَل كُنتُم مُّجرِمِينَ﴾[1].

ولكن هذا الجواب لم يُسكت المستضعفين، بل كان جوابهم هو: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ استُضعِفُوا لِلَّذِينَ استَكبَرُوا بَل مَكرُ الليلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأمُرُونَنَا أَن نَّكفُرَ بِاللهِ وَنَجعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ وَجَعَلنَا الأَغلَالَ فِي أَعنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَل يُجزَونَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾[2].

والمستكبرون وإنْ كانوا يستحقون العقوبة الأكبر؛ لأنَّ ذنبهم أعظم، إلاّ أنهم جميعاً يتعرّضون إلى العذاب ويحشرون في صف واحد كأمّة ضالّة، ولذا وصفهم القرآن الكريم جميعاً:

- بكونهم ظالمين: ﴿...وَلَو تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِم...﴾[3].
- ومستحقين للعذاب جميعاً: ﴿... وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ...﴾[4].

المستضعفون الأباة

٣ـ طائفة المستضعفين الأعزاء الأباة: الذين يرفضون الظلم والطغيان، ويأبون القبول به كواقع اجتماعي ويتطلّعون ويسعون للخلاص منه، سواء بالدعاء واللجوء إلى الله تعالى بالخلاص، أم بالهجرة والخروج من الديار، وهذه هي الجماعة الأخرى من المستضعفين.

وقد ذكرهم القرآن الكريم بوصف الاستضعاف، ولكنه أشار إلى موقفهم هذا في العزة والإباء ومحاولة الخلاص من الاستضعاف: ﴿وَمَا لَكُم

---

(١) سبأ: ٣٢.

(٢) سبأ: ٣٣.

(٣) سبأ: ٣١.

(٤) سبأ: ٣٣.

لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾[١].

ولذلك نجد أنّ القرآن الكريم يشير - أيضاً - إلى استثنائهم من العذاب الذي يلحق بالطائفة الأولى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ۞ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[٢].

ومن هذه الطائفة جماعة المستضعفين المهاجرين في سبيل الله، والذين يُعبّرون عن رفضهم وإبائهم بالهجرة، وتغيير الأوطان، والذين لا يهتدون سبيلاً إلى ذلك، كما أشار القرآن الكريم في آخر الآية السابقة، بل يصرح القرآن الكريم في الآية اللاحقة بها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[٣].

ومن الواضح أنّ هذا القسم من المجتمع هو قسم قليل ومحدود جداً في مجتمع الاختلاف الذين يهيمن عليه المستكبرون، وليس له القدرة على تغيير مجمل الأوضاع الاجتماعية التي يعيشها.

كما أنّه وبسبب ما يقوم به المستكبرون من محاولات للتسلّط على مجتمعهم، ولإخضاع الناس لهم من خلال قدراتهم وإمكانياتهم من ناحية،

---

(١) النساء: ٧٥.

(٢) النساء: ٩٨ ــ ٩٩.

(١) النساء: ١٠٠.

والخضوع وخنوع أغلب المستضعفين واستسلامهم للمستكبرين ولواقعهم من ناحية أخرى، ولمحدودية إمكانياتهم وعدد الرافضين منهم وعدم قدرتهم على التغيير من ناحية ثالثة، بسبب كل هذا يتحوّل المجتمع إلى مجتمع استكباري يتسلّط فيه الطغاة والمستكبرون على مقدّرات المجتمع وإمكاناته، ويخضعون لسيطرتهم وسلطتهم ويسومون الناس فيه ألوان الذل والهوان.

ضرورة التغيير

الثانية: إنّ الرؤية السابقة للمجتمع الإنساني الطبقي تفرض على الإنسان نظاماً جديداً يتجسّد فيه الباطل بأوضح صوره، كما أنّه لا ينسجم مع مبدأ وقانون خلافة الإنسان لله تعالى، ومع هدف إقامة مجتمع الحق والعدل الذي يجعله مجتمع الاستخلاف الإلهي، ولا يكون منسجماً مع نظام العبودية والتسبيح الكوني لله تعالى.

ومن هنا تبرز ضرورة عودة هذا المجتمع إلى موقعه الطبيعي وإلى الوحدة المطلوبة، مجتمع الحق والعدل وأصوله الفطرية التي فطره الله تعالى عليها، والتي تجعله مجتمع الاستخلاف الإلهي ومجتمع الوحدة المطلوبة، ولا يمكن أنْ تتحقق هذه الوحدة من خلال عناصر الفطرة وحدها، بل لابد من حصول تغيير جذري في هذا المجتمع ينتصر فيه المستضعفون الأباة الذين رفضوا كل هذه الأوضاع الجديدة المنحرفة على المستكبرين.

وهذه الضرورة تنطلق من سنن إلهية متعددة في حركة التأريخ الإنساني ذكرها القرآن الكريم، وهي:

١. سنّة غلبة الحق على الباطل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[١].

---

(١) الإسراء: ٨١.

٢. سنّة الهدف الذي وضعه الله تعالى أمام مسيرة التأريخ الإنساني، وهو: هدف التكامل في المسيرة الإنسانية في إقامة الحكم والعدل والعبادة لله تعالى في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

أساس التغيير

الثالثة: هل يمكن للتغير الجذري أنْ يأتي من داخل المجتمع، أو لابد، أنْ يكون بعوامل من خارجه؟ والجواب عن ذلك هو: إنّ هذا التغيير إذا أريد له أنْ يكون تغييراً جذرياً واقعياً وصحيحاً يحقق الأهداف المطلوبة، فلا يمكن أنْ يأتي من داخل المجتمع ذاته؛ لأنّه مجتمع ـ على الفرض ـ منحرف يسيطر عليه الانحراف والاستكبار بصورة عامّة، ويهيمن على جميع فئاته وطوائفه، فلابد للتغيير حينئذٍ أنْ يأتي من خارجه.

وقد تعرّض السيد الشهيد ﷺ إلى شرح فكرة التغيير الخارجي هذه، حيث بيّن: إنّ التأريخ البشري قد شهد ومنذ أقدم عصور الاستغلال أساسين مختلفين للتغيير الاجتماعي والثورة:

التغيير البشري

الأول: الأساس البشري، وهو: مجموع المحتوى الداخلي الذي تزخر به قلوب المستضعفين من المشاعر والأحاسيس الشخصية المتّقدة، كرد فعل نفسي وفهم عملي للحياة، بسبب ما لاقوه من صنوف العذاب والآلام والمعاناة والمشقّة على أيدي الآخرين واستهتارهم بحقوق الجماعة ومصالحها، حيث يمتد ويتكوّن هذا الشعور في المستضعفين

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

تدريجياً، كلّما ازدادت حالتهم سوءاً وازداد المستغلّون لهم عتواً واستهتاراً بهم وإمعاناً في استغلالهم والإضرار بهم، وعندئذ يعمل هؤلاء المستضعفون؛ وبسبب مشاعرهم تلك على القيام بأعمال ونشاطات كرد فعل تجاه كل تلك الممارسات التي تصدر ضدهم، ويحاولون الانتقام لأنفسهم من ظالميهم، واسترجاع حقوقهم المصادرة والحصول على منافعهم المسلوبة، والخروج من حالة الاستضعاف التي يعيشونها.

ولكي يتحوّل هذا الشعور إلى ثورة، لابد له من وجود بؤرة استضعافية تستقطب هذه المشاعر، وتنبثق من هذه الثورة القيادة التي تتزعم المستضعفين في كفاحهم ضد المستغلين والثورة عليهم[1].

وكل هذا يتم من خلال عدة مراحل: تبدأ من المرحلة التي تتراكم فيها حالة الاستغلال والاستضعاف في نفوس هؤلاء المستضعفين أوّلاً.

ثم تتوسّع دائرة المستضعفين حتى يتحقق تغيّر نوعي في هذه الحالة الاجتماعية من خلال تمركز حالة الاستكبار في أفراد وأشخاص معيّنين، فيبدأ المستضعفون بالتحرك والمقاومة لذلك، من أجل الحصول على حقوقهم ومصالحهم، ومن أجل الخروج من حالة استضعافهم،لا بد من افتراض وجود (بؤرة) في مثل هذه العملية النفسية والروحية والاجتماعية، بحيث تتحول هذه (البؤرة) إلى (قيادة) لهذا التحرّك في ما بعد، فتأخذ بالتخطيط لهؤلاء المستضعفين الذين يتحولون إلى (قاعدة) لها من أجل الحصول على حقوقهم والدفاع عن مصالحهم، وبدون هذه البؤرة القيادية

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤٨.

يبقى المستكبرون يمارسون دورهم في الاستغلال والاستضعاف والهيمنة، بسبب تشتت المستضعفين وتمزّقهم وضعفهم، كما سوف نوضح ذلك في الفصل الآتي.

ثم يحدث التغيير ـ المقصود هنا ـ من خلال انقضاض المستضعفين على المستكبرين وتحطيم كيانهم وأخذ مواقعهم.

وقد شهد التأريخ الإنساني في بعض أدواره هذا النوع من التغيير، حيث نجد ـ وعلى سبيل المثال ـ أنّ العبيد في بعض الأدوار وباعتبارهم الطبقة المستضعفة في مجتمعاتهم، قد تحركوا وفي مقاطع عديدة من التأريخ واتحدوا فيما بينهم وتمحوروا حول بؤرة معينة تحولت فيما بعد إلى قيادة لهم، قادتهم في تحرّكهم من أجل التغيير والسيطرة على الحكومة، وأخذ مواقع الحاكم الظالم المتسلّط الذي استرقّهم واستعبدهم واضطهدهم وأذاقهم صنوف العذاب وحرمهم حقوقهم وامتيازاتهم.

ومن الأمثلة التي تذكر أيضاً، كمثال على هذا النوع من التغيير، هو ما حصل في الثورة البلشفية في روسيا، حيث انقض المستضعفون على القياصرة، وحطموا الوجود القيصري هناك واستولوا على الحكم خلفاً له[1].

وقد تعرّض السيد الشهيد الصدر ﴿رض﴾ إلى هذا الأساس بالنقد والتحليل، حيث بيّن أنّ التغيير الذي يحصل وفق هذا الأساس لا يعبر عن تغيير حقيقي داخل المجتمع الإنساني، لأننا إذا لاحظنا هذا الأساس بعمق فسوف نجد أنّه يتعامل مع نفس المشاعر الشخصية والمادية التي خلفتها ظروف الاستغلال،

---

(١) ولكن يمكن أنْ يناقش في تطبيق هذا العامل على الثورة البلشفية، باعتبار أنها كانت تستند إلى نظرية فكرية وسياسية، وتحولت بعد ذلك إلى حزب قاد العملية، وليست مجرّد تجمّع لعواطف ومشاعر، وإنْ كان العامل فيها داخلياً.

ذلـك أنّ الاسـتغلال يكـرّس في جميـع أفـراد المجتمـع الـشعور الشخـصي بالمصلحة، وينمّي فيهم الاهتمام الـذاتي بالتملـك والسيطرة الـذي يمكن أنْ يعبر عنه بـ (الهوى)، غير أنّ هـذا الشعور والاهتمـام ينعكس إيجابياً في المستغلّين على صـورة الاسـتيلاء المحموم علـى كـل مـا تمتـد إليـه أيـديهم، وتسخير كل الإمكانيات من أجل إشباع هـذه المطامع، وينعكس الشعور والاهتمـام نفسه سـلبياً في المستضعَفين علـى صـورة المقاومـة العامّـة أوّلاً، والمتحركة ثانياً، والثائرة ثالثاً على المستغلّين، كما أشرنا.

ولكنها مقاومة تحمل نفس الخلفية النفسية التي يحملها المستغلّون، وتنطلق من المشاعر والأحاسيس التي خلقتها ظروف الاستغلال، وهـذا وإنْ كـان يؤدي إلى الثورة والتغيير الاجتماعي، ولكنهـا في الحقيقـة ليست ثورة على الاستغلال وجذوره، بل هي ثورة على هـذه الجماعـة من المستغلّين، وهي لـذلك لـن تعيـد المجتمـع إلى مسيرته الرشيدة ودوره الـصالح في الخلافـة لله تعالى وإقامة الحق والعدل، ومن هنا كانت مجرد تغيير لمواقع الاستغلال[1]، أو تقلـيص لدائرتـه في المـساحة الفرديـة، ويبقـى الاستغلال والاسـتثمار والطغيـان والتعـدي علـى حقـوق الآخـرين قائمـاً، وغايـة مـا في الأمـر أنّ مستكبري المرحلة السابقة ـ وهم (القلة) ـ أصبحوا مستضعَفين للـ(كثرة) في المرحلة اللاحقة، وقد يصاحب ذلك أنْ يعاني هؤلاء المستضعَفون الجدد من الظلم والاضطهاد أكثر مما عانى سابقون، وذلك لأنّه أضيف عامل جديد إلى الاستضعاف والاضطهاد، وهـو: عامـل القـدرة وروح الانتقـام وأخـذ الثأر، مع تأكيد العامل الشخصي في التملك والسيطرة والاستغلال.

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤٨، بتصرف.

وأمّا الحق والحقيقة والعدل فلا دور له، ولا مجال له في هذه العملية التغييرية أساساً.

وبطبيعة الحال، سوف تفرز هذه الحالة وجود طبقة جديدة من خلال الفئة المستضعفة تهتم بمصالحها الخاصة، وتستأثر بالمناصب والأموال والإمكانيات، انطلاقاً من عوامل الاختلاف بسبب الهوى، وهذا كله في أحسن الأحوال.

أمّا إذا افترضنا ـ كما حدث ذلك في حالات كثيرة ـ أنّ المستضعفين بسبب هذه المشاعر وانخفاض الوعي السياسي والاجتماعي، تعرّضوا إلى عملية تضليل وخداع وتزييف يستغل فيها بعضهم بعضاً، أو يستغلهم المستكبرون عندما يتنازعون ويتصارعون فيما بينهم، فسوف تكون النتائج الاجتماعية أسوأ بكثير.

وذلك لأنّ عامل الزيغ والخداع كان ولا يزال يواكب مسيرة الإنسان في الأدوار إلى جانب عامل الهوى، وهذا ما أكده القرآن الكريم، وأذن الله تعالى به لإبليس في حياة الإنسان وحركته، وهو من العوامل التي لا بد من إبرازها في تحليل وفهم التحولات الاجتماعية.

ومن هذا المنظور يمكن أنْ نناقش في انطباق فكرة التغيير بسبب تراكم المشاعر لدى المستضعفين على الثورة البلشفية، حيث إنها ثورة انطلقت من نظرية فكرية قادها حزب تمكن من تضليل المستضعفين بها، وقادهم لأحداث التغيير الاجتماعي، مستغلاً مشاعرهم المتراكمة والظروف السياسية، ليمارس - بعد ذلك دور المستغلّين - ولكن تحت شعار وعنوان الطبقة العاملة المستغلّة -، ويحطّم المجموعة القيصرية التي كانت تمارس الاستغلال ويحل محلّها.

نعم، قد يتشابك ويختلط تأثير العوامل هذه في التأريخ البشري للثورات

بتأثير عوامل أخرى، وهي عوامل الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فيتحرك بعض الناس للثورة من أجل إقامة العدل والقسط بين الناس.

وهذا هو الذي يفسر وجود بعض العناصر غير المستضعفة والمتضررة - أحياناً - إلى جانب الثوار المستضعفين، عندما تكون على أساس العامل البشري، ولكن لا يمكن أنْ تتجرد الثورة على هذا الأساس من عاملي الهوى والخداع والتضليل، بعد أنْ كان الحاكم في المجتمع الإنساني العوامل والمؤشرات ذات العلاقة بهما، مما أدى إلى تمزق مجتمع الوحدة الفطرية.

الثاني: الأساس الرسالي الإلهي، حيث شهد التأريخ البشري - أيضاً - وفي بعض أدواره محاولات وعمليات تغييرية، انطلقت في حركتها من فكرة استئصال المشاعر التي خلقتها ظروف الاستغلال، واعتماد مشاعر أخرى أساساً للثورة، تستهدف تحقيق العدل والخير والوصول إلى منافع ومصالح كل المجتمع الإنساني، وبكل عناصره وأفراده مستكبرين ومستضعفين.

وبكلمة أُخرى: تطوير مشاعر المستضعَف على نحو تمثل الإحساس بالقيم الموضوعية للعدل والحق والقسط، وبالكرامة الإنسانية والإيمان بعبودية الإنسان لله تعالى وتحريره من كل عبودية أُخرى.

وبذلك يمكن لهذه المشاعر أنْ تخلق القاعدة التي تتبنى تصفية الاستغلال والاستكبار جنباً إلى جنب، مع إلغاء حالات الاستضعاف والاستسلام، باعتبار أنّ ذلك لا يمس مصالحها الشخصية فحسب، بل لأنه - أيضاً - يمس المصالح الحقيقية للمجتمع وللظالمين والمظلومين معاً على السواء، وتنتزع وسائل السيطرة من المستغلّين، لا طمعاً فيها، ولا حرصاً على احتكارها، بل إيماناً بأنّها من حق الجماعة كلها، وتُلغي العلاقات الاجتماعية التي نشأت على أساس الاستغلال؛ لأنّها تمثل حالات الظلم داخل المجتمع، سواء كانت حالات استكبار أو حالات استضعاف، ولا تنشئ علاقات

مماثلة من الاستغلال لفئة أخرى من المجتمع، بل لتعيد إلى المجتمع البشري الشروط الضرورية لممارسة الخلافة العامة لله تعالى على الأرض، وتحقق أهدافها الرشيدة[1].

هكذا يؤدي هذا الأساس إلى تحقيق العدالة والمساواة، وحدوث التغيير المنشود من خلال محاربة الظلم بكل أنواعه، ظلم المستكبر؛ لأنّ المستكبر ظالم في استكباره لتجاوزه حدود الحق الذي لا يسمح له باستغلال الآخرين، والمستضعَف؛ لأنه ظالم في استسلامه لتجاوزه حدود الحق الذي لا يسمح له بالسكوت على استغلاله من قبل الآخرين،وظلم المستضعف حينما يثور ويتبوأ موقع المستكبر السابق، فكل منهم ظالم؛ لأنّه على خلاف الحق والعدل والمساواة، والتغيير الحقيقي: هو في عودة الحق إلى نصابه.

المقارنة بين الأساسين

إنّ المقارنة بين الأساسين السابقين، تبيّن أنّ الثاني منهما هو الذي يمكنه أنْ ينتج ثورة حقيقية، وأنّ الرصيد الروحي لها هو القادر على الاستمرار بها حتى تحقيق الهدف الكامل الذي يرجع المجتمع من خلاله إلى مجتمع الاستخلاف الإلهي الذي لا محور له إلاّ الله سبحانه وتعالى، ولا أساس لعلاقاته ولا حدود لها إلاّ الحق والعدل الذي يرتضيه سبحانه وتعالى.

بينما لا ينجز الأساس البشري إلاّ ثورة نسبية تتجمد في منتصف الطريق، أو صورية وشكلية تتغيّر فيها مواقع الاستكبار والاستغلال بين معادلات

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤٩.

المستكبرين أنفسهم أو بينهم وبين المستضعَفين، وتختلف فيها آثار الانتهاك للحقوق في جانب الكم والكيف، مع بقاء أساس الظلم والعدوان في المجتمع الإنساني.

غير أنّ هذا التقييم لهذين الأساسين، لا يكفي بمجرد إدراكه والعلم به لاختيار الأساس الثاني الرسالي من قبل المستضعفين، واعتمادهم عليه في كفاحهم، بل لابد من أمرين مهمين:

الأول: التربية الصحيحة والتزكية الروحية العالية للمحتوى الداخلي للثائرين أنفسهم، من أجل أنْ يتبنوا بإرادتهم هذا الأساس الصحيح، ويجاهدوا من أجله، ويطهرهم من كل مشاعر الاستغلال والانتقام والحرص على الحياة الدنيوية المادية.

والثاني: الوعي والإدراك الصحيح للمبادئ التي يقوم عليها مجتمع العدل والمنهج الأصيل، الذي لابد من أتباعه في عملية التغيير.

البحث الثاني: الشريعة والإمامة

الرسالة والرسول

بعد أنْ أصبح التغيير الاجتماعي لحل الاختلاف من داخل الجماعة متعذّراً، يأتي دور الشريعة (الرسالة) ودور الأنبياء القادة (الإمامة) لحل الاختلاف وتحقيق هذا الهدف الإلهي السامي، وذلك لأنّ كلاً من هذين الأمرين لا يمكن إيجادهما من داخل الجماعة نفسها، بل:

الرسالة

أوّلاً: لابد من تربية تتلقاها من خارج إرادتها الضعيفة، ومن هدى تتلقاه من خارج وعيها المُتَخلّف. وهذه هي (الرسالة).

أمّا ضرورة التربية والتغيير النفسي والروحي الخارجي؛ فلأنّ الجماعة -

بصورة عامة ـ قد تمزّقت وحدتها، وضعفت إرادتها، وهيمنت عليها الظروف النفسية التي تعيق حركتها، ولا يمكن لمجتمع الاختلاف والضعف بعد أنْ أصبح مجتمعاً ظالماً لنفسه، أنْ يتحرك أحد من داخله نحو الحق والعدل؛ إذ كيف يمكن للظالم نفسه أنْ يطلب العدل والحق ويقيمه في مجتمعه؟!.

ومن هنا كان لا بد لهذه التربية أنْ تأتي من خارج هذا المجتمع، وهو (النبي القائد) الذي يكون قد تربّى من قبل الله سبحانه وتعالى، وعن طريق الوحي الإلهي.

(فالوحي (الإلهي) وحده هو القادر على أنْ يؤمّن التربية الثورية والخلفية النفسية الصالحة التي تنشئ ثائرين لا يريدون في الأرض علواً ولا فساداً، وتجعل من المستضعَفين أئمة لكي يتحمّلوا أعباء الخلافة بحق، ويكونوا هم الوارثين ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2])[3].

وأمّا ضرورة الهدى الإلهي؛ فلأنّ إقامة مجتمع الحق والعدل يحتاج إلى معرفة الحق والعدل بتفاصيله في البناء والعلاقات والمنهج الذي يوصل إليه، ولا يمكن للمجتمع الذي تخلّف في وعيه أنْ يصل إلى هذا الهدى والتفاصيل، بعد أنْ فقدت الفطرة الإنسانية فاعليتها، من خلال سيطرة

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) القصص: ٥.

(٣) الإسلام يقود الحياة: ١٥٠.

الاستغلال وردود الفعل لدى المستغلَين، وبعد أنْ أصبح الهوى والمصالح المادية هي التي تهيمن على مسيرة الإنسان، وبعد أنْ أصبح الإنسان في معرض الإضلال والتحريف والتزوير والزيغ.

والوحي الإلهي وحده هو القادر على هداية الإنسان إلى هذه الحقيقة، ويرشده إلى هذا الطريق، وهذا ما وعد به سبحانه وتعالى عباده في قصة آدم عند هبوطه إلى الأرض، من قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

الإمامة

ثانياً: ولابد من قائد يقود عملية التغيير بكلا بُعْدَيها، ولا يمكن أنْ يكون هذا القائد قد تربى أو تمّ إعداده نفسياً أو عرف الحقيقة من خلال هذا المجتمع المنحرف؛ لأنه حينئذٍ إمّا أنْ يكون مستكبراً يحاول الحصول على المزيد من المصالح والإمكانيات، أو مستضعفاً يريد الانتقام لنفسه، أو مضلّلاً لا يهتدي إلى الحق سبيلاً، وهؤلاء لا يتحركون باتجاه الحق ومن أجله، ولا يصلحون للقيام بعملية التغيير المنشود، لكل هذا وجب أنْ يكون القائد لهذه العملية التغييرية (نبياً) أو (إماماً)، قد تربى من خلال الاصطفاء، وبُني بناءً ربانياً في إرادته، وعرف الهداية من ربه، لمعرفة طريقه، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾[2]، مما يجعله قادراً على تربية مجتمعه وقيادته وهدايته، لتحقيق مجتمع الحق والعدل.

---

(١) البقرة: ٣٨.

(٢) الضحى: ٧.

قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1].

ضرورة العصمة

ومن هنا اشترطنا الوحي و(العصمة) في الأنبياء عليهم السلام، والعلم الإلهي الكامل والعصمة في الأئمة عليهم السلام، وذلك لأنّ النبي هو حامل رسالة الهدى من السماء، والإنسان المبني ربّانياً لكي يبني للثورة قواعدها الإنسانية والمعنوية الصالحة ويعيد للجماعة الشروط الحقيقية لاستعادة دورها الخلافي الصالح؛ ولأنّ الأئمة هم أولئك الأشخاص الذين يقودون المجتمع قيادة ربّانية نحو الحق والعدل، وهم يمثّلون الامتداد لحركة الأنبياء، بعد أنْ تربّوا في مدرستهم تربية كاملة في العلم والعمل وأُعدوا إعداداً ربانياً، بحيث لا يتأثرون بالأوضاع الاجتماعية السائدة في مجتمع الظلم ذاك، وإلاّ فلو كانوا ممن يتأثرون بذلك فسوف يتعرّضون إلى الانحراف أو الضلال، ولن تكون عملية التغيير حينئذ التي يقودونها في نتائجها إلاّ عملية تبديل للمواقع وعملية استغلال جديدة، ولن تتحقق مجتمع الخير والصلاح والحق، ولن توجد التوازن الاجتماعي المطلوب، الذي أشار القرآن الكريم له، عند الحديث عن هدف بعثة الأنبياء وإنزال الكتب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾[2].

عناصر التغيير الرسالي

ومن أجل أنْ يتحقق ما يهدف إليه الدين والأنبياء والأئمة عليهم السلام معاً، من إيجاد التغيير الجذري، والثورة الواقعية، واستعادة الجماعة الصالحة لدورها الحقيقي

---

(١) الرعد: ٧.

(٢) الحديد: ٢٥.

في الخلافة الصالحة على الأرض، نجد الأنبياء والأئمة عليهم السلام قد دعوا أتباعهم والناس - بصورة عامة - إلى عدة أمور أساسية، يمكن تلخيصها بالأمور التالية[1]:

الأول: العلم بالله تعالى، والمعرفة للحقائق الكونية والسنن الإلهية، من أجل أنْ يُعْرَفَ الهدي الإلهي، وبدون ذلك يقع الإنسان تحت تأثير عمليات الإضلال والخداع.

الثاني: الجهاد الأكبر الذي يلتزم به الإنسان بالأحكام الشرعية والحدود الإلهية والأخلاق الربّانية، وذلك من أجل أنْ يكون المستضعفون قادرين على الانتصار على شهواتهم، ويبنوا أنفسهم بناءً ثورياً صالحاً، يتحركون من خلاله باتجاه الحق والعدل، وبدون هذا البناء النفسي والروحي يسقط الإنسان في حركته الاجتماعية، ويضعف أمام ضغوط الهوى والميول والشهوات، ويتجه نحو مصالحه الخاصة والاستغلال.

الثالث: الجهاد الأصغر وهو: بذل الجهود المادية، من أجل إزالة المستغلِّين والظالمين عن مواقعهم التي يتمسّكون بها عادة، ويستخدمون القوة لمنع تحقق التغيير الاجتماعي الجذري، ويصبح القتال في سبيل الله ضرورة من أجل كسر شوكة المستكبر الذي يعيق حركة دعوة الحق، لأنّها تعارض مصالحه، ويمثّل القتال في سبيل الله أحد مفردات الجهاد الأصغر، لأنّ مفهوم الجهاد الأصغر مفهوم واسع يتضمّن كل الجهود والمحاولات المضنية والنشاطات والأعمال الصعبة التي يقوم بها الإنسان الصالح، من أجل تغيير المجتمع وصياغته صياغة صالحة تتطابق مع

---

(١) يراجع: الإسلام يقود الحياة: ١٥١، في توضيح الثاني والثالث، ولم يؤكد الشهيد الصدر قدس سره هنا على الأمر الأول، مع أنه أمر ضروري يرتبط بالوحي الإلهي وبعملية التغيير الحقيقي.

الشريعة الإلهية[١].

وهنا لابد أنْ نؤكد أنّ عمليتي الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر في ثورة الأنبياء متلازمتان تسيران جنباً إلى جنب، فالنبي ينتقل بأصحابه دائماً من الجهاد الأكبر إلى الأصغر، ومن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، بل إنهم يمارسون ـ أحياناً ـ الجهادين في وقت واحد، وحتى عندما يخوضون المعارك في ساحات القتال وفي أحرج لحظات الحرب[٢].

---

(١) ورد مصطلحا (الجهاد الأكبر) و(الجهاد الأصغر)، فيما روي عن رسول الله ﷺ من أحاديث شريفة، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: ((إنّ النبي بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس))، بحار الأنوار١٩: ١٨٢، ح٣١.

حيث عبرّ ﷺ عن جهاد النفس بالجهاد الأكبر وأراد بالجهاد الأصغر: القتال في سبيل الله، أو المعنى الأعم الذي يشمل كل مجاهدة من أجل إقامة الدين وتحقيق أهدافه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ...﴾، الحج: ٧٨، حيث أعطت الآية معنىً عاماً للجهاد يشمل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله، بل ويشمل كل ما يرتبط ببذل الجهد من أجل إقامة المجتمع الإسلامي الصالح، كما ورد عن أبي الحسن الأول عليه السلام: **((من طلب هذا الرزق من حله ليعود به على نفسه وعياله كان كالمجاهد في سبيل الله...))**، بحار الأنوار١٠٣: ٣، ح ٦، وهكذا في الروايات الدالة على أنّ إقامة أحكام الله أو إيجاد المجتمع الصالح، وما شابه ذلك هي من أنواع الجهاد في الإسلام.

(٢) من الأمثلة البديعة التي تعبر عن ذلك في صدر الإسلام موقف الإمام علي عليه السلام عند مبارزته لعمرو بن عبد ود، الذي كان يعتبر رجل الحرب الأول لدى المشركين، واعتبر الناس هذه المبارزة نوعاً من الانتحار شبه المحقق، ثم حين أطاح به الإمام علي عليه السلام في المبارزة، أمسك عن قتله بضع لحظات، وعندما سُئل عن ذلك، أجاب عليه السلام: بأنّ عمرو أثار فيّ مشاعر الغضب، فأمسكت من أجل أنْ أقتله غضباً لله تعالى، لا تعبيراً عن مشاعر الغضب الشخصي، وإنّما دفاعاً عن الإسلام، وليس دفاعاً عن كرامتي.

خلاصة أركان التغيير الرسالي

من خلال هذا العرض، يمكن أنْ نصل إلى الخلاصة في تحديد القضايا والأركان الأساسية المهمة في حركة التأريخ الإنساني، والتي لا بد منها في إيجاد عملية التغيير الجذري، وهي العناصر الأربعة في هذا الدور، وهي:

١. الدين: بمعنى الشريعة، وذلك من أجل معرفة معالم الهدى والحق والعدل الإلهي لمواكبة تطور المجتمع الإنساني، وتصحيح ما تعرضت له من تحريف أثناء فترات الاختلاف.

٢. الإنسان المعصوم: نبياً كان أو إماماً جنباً إلى جنب مع الدين، من أجل قيادة عملية التغيير والثورة.

٣. الجهاد الأكبر: وهو جهاد النفس وتزكيتها والأمر بالتقوى وتقوية الإرادة للالتزام بها، من أجل أنْ يكون الإنسان مؤهّلاً للقيام بدور إقامة الحق والعدل ووراثة الأرض وحمل الأمانة، كما وعد الله سبحانه وتعالى.

٤. الجهاد الأصغر: ببذل كل الجهود، ومنها: القتال في سبيل الله من أجل إزالة الطاغوت أو أي عائق آخر يقف أمام حركة إحقاق الحق وإقامة مجتمع العدل.

ولابد أنْ نعرف أنّ هذه الأركان والعناصر الأربعة والتي يتم من خلالها إقامة المجتمع الموحّد على أساس الشريعة وبقيادة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هي عناصر مترابطة فيما بينها يكمّل بعضها بعضاً وتشكلّ نظرية متكاملة تبين النظرية الإسلامية في إيجاد عملية التغيير الاجتماعي من ناحية، كما تبين طبيعة الموقف الذي يجب أنْ يتخذه الإنساني تجاه مجتمعه وتجاه حركة التأريخ من ناحية أخرى.

كما توضحَ بأنّ المحور الأساس في التغيير الاجتماعي والمؤثّر في حركة التأريخ الإنسان، هو المحتوى الداخلي للإنسان من ناحية ثالثة.

وبذلك نعرف أنّ الثورة الحقيقية لا يمكن أنْ تنفصل بحال عن الوحي والنبوة ومالها من امتدادات روحية ومعنوية وعقائدية في حياة الإنسان، كما أنّ النبوة والرسالة الربّانية لا تنفصل بحال عن الثورة الاجتماعية على الاستغلال والترف والطغيان ومقاومته[1].

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٥١.

الباب الرابع

النظرية القرآنية في حركة التأريخ

الفصل الأول:

العوامل المؤثرة في حركة التاريخ

الفصل الثاني:

أقسام المَثَل الأعلى

الفصل الأول

العوامل المؤثرة
في حركة التأريخ

تمهيد

بعد أنْ عرفنا العناصر والأركان الأساسية في التغيير، وهي: الشريعة، والنبوة، والهدى، والجهاد الأكبر، والأصغر، يحسن بنا أنْ نعرف النظرية القرآنية في التغيير وحركة التأريخ، ومن أين يبدأ التغيير في نظر القرآن؟ وكيف يتم؟ وما هي أهدافه؟ وما هو شكله وصورته؟

العوامل المؤثّرة في حركة التاريخ

وفي البداية، لابد أنْ نعرف أنّ حركة التأريخ الإنساني تتميّز عن غيرها من الحركات الكونية، بأنها حركة تتسم ـ بصورة واضحة - بأنها (غائية) لا سببية فحسب[1]، فهي ليست مشدودة إلى سببها المؤثر في وجودها وإلى ماضيها، بل هي مشدودة ـ أيضاً - إلى الغاية فيها؛ لأنّها حركة هادفة لها علة غائية متطلّعة إلى المستقبل، وليست كحركة النجوم والكواكب التي تبدو أنّها قهرية.

المستقبل عامل محرك

فالمستقبل هو عامل محرّك لأي نشاط من النشاطات التأريخية، وهذا قد

(١) مصطلح غائي وسببي من المصطلحات الفلسفية، فالغائي هو: الذي يتحرك لهدف وغاية، بحيث يكون الهدف والغاية لها علاقة وتأثير في حركته، مضافاً إلى الأسباب المؤثرة في وجود حركته، بخلاف السببي الذي تكون حركته مرتبطة بالعوامل المؤثرة في وجود حركته، والحركة الغائية غالباً ما تكون في الحركة الإرادية كحركة الإنسان، وإنّما قيدناها بصورة واضحة، حيث قد تكون هناك حركات كونية أُخرى غائية لا ندركها في عملنا، وهي موجودة في علم الله تعالى.

يثير سؤالاً، وهو: أنّ المستقبل إذا كان لا وجود له ومعدوماً فعلاً، فكيف يكون سبباً محركاً وعلة للوجود؟!

والجواب: إنّ ذلك يمكن أنْ نتصوره من خلال الالتفات إلى أنّ الوجود الذهني للمستقبل هو أمر موجود بالفعل، حيث يتمثّل فيه هذا المستقبل على شكل صورة ذهنية والوجود الذهني يقوم بدور التحريك، وهذا هو حقيقة تأثير العلة الغائية في الأشياء.

والوجود الذهني المحرِّك للتأريخ يتمثل في جانبين:

الأوّل: الفكر

ونعني به: الجانب الذي يضم تصورات الهدف والرؤية للمستقبل، أي: الوجود الذهني للأهداف وللمستقبل لدى الإنسان؛ لأنّ المستقبل أمر غير موجود بشكل مادي فعلاً - كما أشرنا إلى ذلك - وإنّما يوجد في الإنسان من خلال الصورة الذهنية المرتبطة به، فهو أمر موجود أذن - في داخل الإنسان لا خارجه.

الثاني: الإرادة

ونعني بها: الطاقة التي تحرّك الإنسان نحو الأشياء، من أجل إيجادها وتحقيقها في الخارج، سواء كانت هذه الأشياء أفعالاً وممارسات وسلوكاً للإنسان نفسه، أم أشياء مادية خارجية منفصلة عنه.

ومن الواضح أنّ الإرادة ـ كالفكر ـ ليست وجوداً مادياً خارجياً، بل هي أمر موجود خلقه الله تعالى في داخل الإنسان لا في خارجه، وبها كرّمه وميّزه على كثير من المخلوقات.

وقد تكون الإرادة قوية قادرة على تحقيق الأُمور الصعبة، وتحمّل المشكلات، وقد تكون ضعيفة تخضع للمؤثرات الخارجية والداخلية وتضعف أمامها، فهي تتأثّر بالعوامل الخارجية، وإنْ كانت أمراً داخلياً في الإنسان.

المحتوى الداخلي: الفكر والإرادة

ومن هنا يتبين أنّ (الفكر) و(الإرادة) هما في الحقيقة من المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان.

وأنّ هذا المحتوى الداخلي، والذي عبرنا عنه في بداية البحث: بالوجود الذهني، هو أساس حركة التأريخ؛ لأنّه يصنع الغايات، ويجسد الأهداف من خلال مزجه بين الفكر والإرادة، فيتحرّك الإنسان أولاً ومن ثمّ يتحرّك التأريخ الإنساني ككل بعد ذلك.

وهذا التفسير لحركة التأريخ، وإنْ كان صحيحاً ودقيقاً، ولكن لا بد في الوقت نفسه من الإشارة إلى عنصرين مهمين رئيسيين لهما تأثير مهم على هذا المحتوى الداخلي للإنسان، ومن ثمّ يكون لهما تأثير على حركة التأريخ، أكّدهما القرآن الكريم في مواضع عديدة، لما لهما من الأهميّة، وقد أشرنا إليهما في الفصول السابقة:

الأوّل: الغرائز والميول التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، وما زُين للإنسان من الشهوات في هذه الدنيا، والتي يكون لها تأثير خاص على رؤيته للأشياء وعلى فاعلية إرادته وقوتها وضعفها، وهو ما يُعبرّ عنه القرآن الكريم بـ (الهوى).

الثاني: الضغوط الخارجية التي يتعرّض لها الإنسان، ولاسيما من قبل الطغاة والمستكبرين أو المبتدعين المضللين أو شياطين الجن والإنس الذين يخدعون الإنسان في رؤيته للأشياء ويضللونه. والإنسان وإنْ كان في أكثر هذه الموارد لا يفقد إرادته، إلاّ أنّ هذه الإرادة تتأثّر إلى حدٍّ كبير بهذه العوامل التي لابد من إحصائها ومعرفتها، وقد أشرنا إليها في الفصل

السابق[1].

المحتوى الداخلي وأثره في البناء الفوقي

وبناءً على هذا الفهم، يمكن أنْ نُقَدم التفسير المنطقي الإنساني لما ذكرناه في المدخل لهذا البحث بعد تفسير أهميّته، من أنّ المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التأريخ والبناء الاجتماعي العُلوي بكل ما يضم من علاقات وأنظمة وأفكار وتفاصيل، وهذا البناء العُلوي مرتبط بهذه القاعدة، بل إنّ الكون المحيط بالإنسان يتأثر ـ أيضاً ـ بهذا المحتوى والعلاقات الاجتماعية التي تقوم على أساسه، كما أشرنا سابقاً.

ويكون تغيّر وتطوّر هذا البناء العلوي والفوقي والكون المحيط به تابعاً لتغيّر هذه القاعدة وتطوّرها، فإذا تغيّر الأساس تغيّر البناء العُلوي، وإذا ثبت الأساس بقي ذلك البناء ثابتاً.

(فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان والبناء الفوقي والتأريخي للمجتمع، هذه العلاقة، هي علاقة تبعية، وعلاقة سبب بمسبب)[2].

وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه العلاقة بوصفها سنّة تأريخية ـ كما أشرنا سابقاً ـ من خلال قوله تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾[3] فهذه الآية واضحة جداً في أنّ المحتوى الداخلي للإنسان

---

(١) لم يصرح السيد الشهيد الصدر ﷺ بهذين العاملين، وإنّما لمّح إلى ذلك - في بحثه هذا - عندما تحدّث عن تأثير للطغاة وللجهاد الأكبر والأصغر، ولكن بدون إبراز دور هذين العاملين بصورة واضحة، وبدون ذلك لا تكتمل الصورة في عرض هذه النظرية.

(٢) المدرسة القرآنية: ١١٦، الدرس التاسع.

(٣) الرعد: ١١.

هو الأساس للبناء العلوي وللحركة التاريخية، لأنّ الآية تحدثت عن تغييرين:

أحدهما: تغيير القوم ﴿...إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ...﴾، أي: تغيير أوضاع القوم وشؤونهم والأبنية العلوية لهم وظواهرهم. وهذا التغيير لا يتم الا ان يتم التغيير الآخر. والتغيير الآخر: هو تغيير ما بأنفس القوم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (حيث عبرّ القرآن الكريم عن تغيير المحتوى الداخلي للقوم بتغير ما بأنفسهم.

ومن الواضح أنّ المقصود من تغيير (ما بالأنفس) تغيير ما بأنفس القوم، بحيث يكون المحتوى الداخلي للقوم كقوم وكأمّة متغيراً، وإلاّ فإنّ تغير الفرد الواحد أو الفردين أو الأفراد الثلاثة لا يشكّل الأساس لتغيّر ما بالقوم بصورة عامّة.

فالمحتوى الداخلي للأمّة كأمّة، لا لهذا الفرد أو ذاك هو الذي يعتبر أساساً وقاعدة للتغيّرات في البناء العلوي للحركة التاريخية كلها.

بل تشير بعض الآيات القرآنية إلى ارتباط تغييرات أوسع من ذلك بهذا المحتوى الداخلي، وذلك في الكون المحيط بالإنسان نفسه، وتؤكّدها كسنّة من سنن التاريخ، وقاعدة من قواعده، بحيث تعمم هذا التأثير إلى المحيط بالإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، حيث ربط القرآن الكريم بين الإيمان والتقوى، وهي من الأمور النفسية الموجودة داخل الإنسان، وبين التغيير الذي يحصل في مجمل الأوضاع التي ترتبط بهؤلاء

---

(١) الأعراف: ٩٦.

القوم، نحو الخير والصلاح أو الشر والفساد في حياة الإنسان الاجتماعية والحياة الكونية المحيطة به.

فكما أنّ للتقوى والإيمان أثراً إيجابياً في التغيير الذي يحصل في المجتمع، كذلك لهما أثر في التغييرات في الكون والطبيعة المحيطة به، وكذلك للتكذيب والفساد والخروج عن التقوى وارتكاب الذنوب أثر سلبي في الكون والطبيعة وبالاتجاه المعاكس، وإلى هذا أشارت آيات أُخرى، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

فما يكسبه الناس من ذنوب وما يمارسونه من أعمال طالحة، أثر في ظهور الفساد في البر والبحر معاً[3].

المحتوى الداخلي والخارجي متلازمان

وبذلك نعرف أنّ هناك ترابطاً أساسياً في الرؤية القرآنية بين حركة المحتوى الداخلي للإنسان والمحتوى الخارجي أو البناء الفوقي له، ولذلك يجب أنْ تسير عملية التغيير في المحتوى الداخلي للإنسان إلى جنب عملية التغيير في البناء الخارجي له، وإلى هذا أشار الشهيد الصدر ﵀ بقوله:

---

(١) النحل: ١١٢.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) لقد سبق الحديث عن هذه السنة في بداية الحديث، وتمت إعادة الإشارة إليه هنا لربط الموضوعات بعضها مع بعض.

(والإسلام والقرآن الكريم يؤمن بأنّ العمليتين يجب أنْ تسير جنباً إلى جنب، عملية صنع الإنسان لمحتواه الداخلي وبنائه لنفسه ولفكره ولإرادته ولطموحاته، هذا البناء الداخلي يجب أنْ يسير جنباً إلى جنب مع البناء الخارجي، ومع الأبنية العُلوية له، ولا يمكن أنْ نفرض انفكاك البناء الخارجي عن البناء الداخلي إلاّ إذا بقي البناء الخارجي بناءً مهزوزاً متداعياً.

ولهذا سمّى الإسلام عملية بناء المحتوى الداخلي إذا اتجهت اتجاهاً صالحاً بـ (الجهاد الأكبر) وسمّى عملية البناء الخارجي إذا اتجهت اتجاها صالحاً بعملية (الجهاد الأصغر)، واعتبر أنّ الجهاد الأصغر إذا فُصل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه ومضمونه وقدرته على التغيير الحقيقي على الساحة التأريخية والاجتماعية)[1].

ومن هنا لو فرضنا أنّ الإنسان قام بعملية التغيير الداخلي وترك التغيير في البناء الفوقي، فإنّه سيعيش حالة من الانطواء الداخلي والعزلة الاجتماعية (الرهبانية) التي رفضها الإسلام والتي تجسّدت في ظواهر اجتماعية وأخلاقية عديدة في التأريخ الإنساني، ووجدت لها بعض الأمثلة في التأريخ الإسلامي في بعض طرق التصوف والعرفان، قال تعالى: ﴿... وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2].

فقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ الجهاد الأكبر وإنْ كان واجباً مفروضاً على الإنسان، ولكنه حينما يقتصر عليه الإنسان في حركة ذاتية معزولة عن

---

(١) المدرسة القرآنية: ١١٧، الدرس التاسع.

(٢) الحديد: ٢٧.

المجتمع الإنساني، ويترك عملية البناء الفوقي الاجتماعي، يصبح ذلك بدعة وانحرافاً عن عملية التغيير المطلوب في تطبيق هذا الواجب الإلهي ولا يراعيه حق رعايته وأهدافه.

وهكذا لو اهتمّ بالبناء الفوقي والحياة المدنية له فقط، وترك التغيير في المحتوى الداخلي النفسي، فسيحصل التناقض في حركته ـ أيضاً ـ ولا تتكامل هذه الحركة، بل قد تتحول هذه الحركة إلى حركة مدمرّة للإنسان نفسه وللمجتمع.

وأشار القرآن الكريم إلى بعض نماذج هذه الحالة، حينما تحدث عن بعض المرتدين أو المنافقين الذين تخلّوا عن المحتوى الداخلي أو الذين يختلف محتواهم الداخلي عن مظهرهم الخارجي، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[3].

---

(١) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) المنافقون: ٤.

(٣) البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

فالإنسان إذا لم ينفذ بعملية التغيير إلى قلبه، وإذا لم يبن نفسه بناءً صالحاً، لا يمكنه أبداً أنْ يطرح الكلمات الصالحة في مجتمعه، بل قد يتحوّل إلى شخصية مزدوجة ومتناقضة بين ظاهره الحسن وكلماته التي تثير الإعجاب، وباطنه السيّئ المقيت المدمر ـ كما تشير الآيات إلى ذلك ـ وإنّما يمكن أنْ تتحول هذه الكلمات إلى بناءٍ صالحٍ في المجتمع إذا انبعثت عن قلب يعمر بتلك القيم التي تدل عليها تلك الكلمات[1].

ومن هنا نجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يعطون معنىً واسعاً يستوعب الجهاد الأكبر والأصغر معاً، ويعطون الجهاد الأصغر معنىً يشمل كل البناء الفوقي لحركة الإنسان لا مجرد القتال في سبيل الله، كل ذلك لوجود الارتباط العميق بين هذه المصاديق.

ومن هذه الروايات الدالة على هذا المعنى الواسع للجهاد، ما ورد عن فضيل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام ـ في تقسيم الجهاد ـ قال: سألته عن الجهاد أسنة هو أم فريضة؟ فقال عليه السلام: ((الجهاد على أربعة أوجه: فجهادان فرض، وجهاد سنّة لا يقام إلاّ مع فرض،وجهاد سنه، فأمّا أحد الفرضين فمجاهدة الرّجل نفسه عن معاصي الله عزّ وجلّ، وهو من أعظم الجهاد، ومجاهدة الذين يلونكم من الكفار فرض، وأما الجهاد الذي هو سنة لا يقام الا مع فرض، فان مجاهدة العدوّ فرض على جميع الأمّة، ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب، وهذا هو من عذاب الأمّة، وهو سنّة على الإمام أنْ يأتي العدوّ مع الأمّة فيجاهدهم، وأمّا الجهاد الذي هو سنّة فكلّ سنّة أقامها الرّجل، وجاهد في إقامتها وبلوغها

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٨٨، الدرس التاسع.

وإحيائها فالعمل والسّعي فيها من أفضل الأعمال؛ لأنّه إحيّاء، سنّة، قال النبي ﷺ: من سنّ سنّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أنْ ينتقص من أجورهم شيء))[1].

نرى في هذه الرواية أنّ الإمام يعطي جهاد النفس صفة (من أعظم الجهاد)، ويعطي كل أعمال الخير والصلاح التي يحققها الإنسان بجهده وتعبه معنى (الجهاد) وهو عبارة عما يبذله الإنسان من جهد في البناء الفوقي والتغيير الاجتماعي العام.

البداية من المحتوى الداخلي

بعد أنْ عرفنا ـ فيما سبق ـ أنّ الأساس والقاعدة في حركة التأريخ الإنساني هو المحتوى الداخلي للإنسان الذي يتركّب من عنصرين وركنين هما: (الفكر) والصورة الذهنية التي يرسمها للمستقبل الذي يسعى لتحقيقه، و(الإرادة) التي يملكها الإنسان والتي من خلالها يقوم بنشاطه وسلوكه وحركته باتجاه هذا المستقبل، ومن هنا كان الارتباط بين الداخل والخارج في النتائج والآثار.

نتساءل ـ الآن ـ عن نقطة البدء في بناء هذا المحتوى، وما هو المحور الذي يستقطب عملية بنائه؟

ونجد أمامنا في تفسير ذلك اتجاهين:

أحدهما: الاتجاه المادي الذي يحاول أنْ يفسّر المحتوى الداخلي بالعوامل المادية في داخل الإنسان أو المحيطة به، فالإنسان كائن مادي ينفعل بالعوامل

---

(١) الخصال: ٢٤٠، ح٨٩.

المادية التي يتكون منها وجوده أو التي تحيط به ويتفاعل معها ويؤثر فيها، ومن مصاديق هذا الاتجاه، ما نطلق عليه نظريات العامل الواحد التي هي من النظريات المعروفة في تفسير التأريخ والمجتمع.

والآخر: هو الاتجاه الروحي الذي تبناه القرآن الكريم، الذي يرى بأنّ الإنسان يمثّل المحور الرئيس في هذه الحياة، ومن ثَمّ فهو العنصر المؤثّر والفاعل، وأنّه كائن مركب من روح ومادة، وإنّ الجانب الروحي هو الجانب الأهمّ في الإنسان والذي امتاز به على بقية الكائنات المادية الحية، ومن هذا المنطلق لا بد أنْ تكون نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي ذات علاقة بهذا الجانب الروحي والمعنوي له.

وهذا الاتجاه هو الذي يتبنّاه القرآن الكريم، ويمكن أنْ نطلق على النظرية التي تمثله نظرية (المَثَل الأعلى).

أولاً: نظريات العامل الواحد[1]

ويحسن في البداية أنْ نشير أولاً إلى نظريات العامل الواحد، كأحد المصاديق المهمة للاتجاه الأول، ثم نذكر نظرية (المَثَل الأعلى) الإسلامية.

ترى هذه النظريات إنّ المؤثر في بناء محتوى الإنسان الداخلي هو العوامل المادية المحيطة بالإنسان، كما تحاول أنْ تُرجع العوامل المادية جميعها إلى عامل رئيس واحد، وأمّا باقي العوامل فإنّها مؤثرات ثانوية تتبع هذا العامل الرئيس في وجودها وتطورها.

ومن أهمّ هذه النظريات:

---

(١) للمزيد من الاطلاع يراجع اقتصادنا ١: ٤١.

أ) النظرية الماركسية

والتي تقول: أنّ المحتوى الداخلي للإنسان يتأثّر بالعامل الاقتصادي وتطورّه، والذي ينتج بدوره الصراع الطبقي بين الجماعات الإنسانية، حيث تفترض هذه النظرية أنّ المجتمع الإنساني بسبب العامل الاقتصادي ووسائل الإنتاج يتحوَل إلى مجموعة من الطبقات التي تتصارع فيما بينها، ومن خلال هذا الصراع الطبقي تتكوّن العلاقات الاجتماعية، وعندما تتغير وسائل الإنتاج في المجتمع الإنساني ينعكس ذلك على هذا الصراع الطبقي الذي ينعكس بدوره على المحتوى الداخلي للإنسان، ومن خلال انعكاسه تبدأ حركة الإنسان، ومن ثم حركة التأريخ الإنساني.

ب) نظرية فرويد

والتي تقول: بأنَ المحتوى الداخلي للإنساني يتأثّر بالغريزة الجنسية التي أودعت في داخل الإنسان باعتبارها التعبير المادي عن عامل بقاء الإنسان واستمراره، وسبب وجود العلاقات الإنسانية في المجتمع الإنساني، وهي بذلك تصبح نقطة البداية في بناء المحتوى الداخلي والوضع الروحي والنفسي للإنسان، وبالتالي فكل بناء اجتماعي وحركة اجتماعية للإنسان ترتبط بهذه الغريزة وتداعياتها، وبعبارة أُخرى: إنّ وجود الإنسان وتوالده على الأرض وعلاقاته فيها تتأثر بهذه الغريزة.

ج) النظرية العرقية

وترى هذه النظرية: أنّ المحتوى الداخلي للإنسان يتأثر بعامل الدم والعنصر والقوم وهذا العامل يمثّل حقيقة مادية في شخصية الإنسان ويتأثر بها في سلوكه، فإذا كان الإنسان من عنصر نظيف وصاف ولم يتأثّر بدماء أُخرى فإنّه يكون على مستوى نفسي وروحي يختلف عن المستوى النفسي

والروحي للإنسان الآخر الذي اختلط دمه بدماء أُخرى، وبذلك تختلف طاقات الإبداع والبناء بينهم، فالجنس النقي هو القوي، ومبعث كل مظاهر الحياة في المجتمعات الإنسانية، وليس التأريخ إلاّ سلسلة مترابطة من ظواهر الكفاح بين الأجناس التي تخوض معركة الحياة في سبيل البقاء، فيكتب النصر فيها للدم النقي القوي، وتموت خلال ذلك الشعوب الأُخرى وتنتهي.

وقد تبنّى (النازيون) هذه النظرية خلال حكم (هتلر) وحاولوا تطبيقها على مجرى التأريخ.

د) نظرية العامل الجغرافي

وتعتبر هذه النظرية العامل الجغرافي وظروف البيئة الكونية والجغرافية العامل المؤثر في بناء المحتوى الداخلي للإنسان، ومن ثَمّ تعتبره العامل الأساس لتأريخ الأمم والشعوب، حيث يختلف تأريخ الناس باختلاف العوامل الجغرافية والطبيعية التي تحيط بهم؛ لأنّها هي التي توفّر لهم أسباب المدنية وتفجّر في عقولهم الأفكار البنّاءة، فيتقدّمون ركب البشرية أو تمنع عنهم كل ذلك، فيتخلّفون.

ثانياً: نظرية المَثَل الأعلى القرآنية

وترى هذه النظرية أنّ المحتوى الداخلي للإنسان ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ يتأثّر بالصورة الذهنية التي يكونها الإنسان في فكره وذهنه للمستقبل، والتي يتّخذها غاية وهدفاً ومثالاً أعلى له يتحرّك نحوه بإرادته، ومن أجل الوصول إليه تكون إرادته إرادة للأعمال والنشاطات التي توصله إليه.

فالصورة الذهنية أو (المَثَل الأعلى) الذي يكوّنه الإنسان في ذهنه عن المستقبل

هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للإنسان وللجماعة البشرية، فإذا كان هذا المَثَل مثلاً صالحاً ومطلقاً وغير محدود بحدود فإنّ المحتوى الداخلي للإنسان يتغيّر في صورة هذا المَثَل اللامحدود، وكذلك إذا كان هذا المَثَل مثلاً منخفضاً ومحدوداً وقاصراً فإنّ محتواه الداخلي يتغيّر تبعاً لهذه الصورة أيضاً.

بهذا العرض يمكن أنْ نستنتج أحد الجوانب التي تختلف فيها النظرية القرآنية في حركة التأريخ عن النظريات المادية التي حاولت أنْ تربط حركة التأريخ بعامل آخر غير المحتوى الداخلي للإنسان. وبذلك يكون تأثيره قهرياً لا إرادياً، وتكون حركة التأريخ جبرية لا اختيارية.

ولكن مضافاً إلى ذلك سوف نجد جانباً آخر تختلف فيه النظرية القرآنية عن النظريات المادية حتى بعد أنْ وصلنا إلى هذه الحقيقة، وهي: إنّ نقطة البداية في حركة التأريخ هو تغيير المحتوى الداخلي للإنسان، وهذا جانب آخر يرتبط بشكل ومضمون التغيير في المحتوى الداخلي، والذي يكون له علاقة ـ بطبيعة الحال ـ بأهدافه.

فقد ذكرنا ـ سابقاً ـ أنّ الحركة التأريخية تتميّز عن أية حركة أُخرى في الكون بأنها حركة (غائية)، ولذلك فهي تتمايز بعضها عن بعض بمُثُلها العليا التي تعبّر عن هذه الغاية والمستقبل، فلكل حركة تأريخية مَثَلُها الأعلى.

وهذا المَثَل الأعلى يتحدد من قبل كل جماعة بشرية على أساس وجهة نظرها العامة إلى الحياة والكون ومن خلال رؤيتها الفكرية، ويتجسّد خارجاً بإرادتها من خلال الطاقة الروحية التي تملكها بما يتناسب مع ذلك المَثَل الأعلى والتي تحرّكها باتجاهه.

والمثل الأعلى في الوقت نفسه، الذي يحدّد الغايات والأهداف التفصيلية لحركة الإنسان. وهذه الأهداف والغايات هي التي تحدّد النشاطات والتحركات ضمن مسار ذلك المَثَل الأعلى.

الإله والمثل الأعلى

ويُطلق على المَثَل الأعلى في القرآن الكريم وفي التعبير الديني - في جملة من الحالات - اسم الإله، باعتبار أنّ المَثَل الأعلى هو الهدف والغاية ذات التأثير على حركة الإنسان.

إذن، فهو القائد الآمر المطاع والموجّه، وهو الذي يصنع نشاط الإنسان وحركاته ومسار التأريخ، ولذا نجد القرآن يعمم مصطلح الإله، فيطلقه على (الهوى) عندما يكون له هذا التأثير، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾[1]، حيث عبّر عن الهوى بأنّه إله، حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعداً مصطنعاً، فيصبح هو المَثَل الأعلى، وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو ذاك[2].

وقد بيّنت قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، هذا التصور (للمثل الأعلى) بشكل واضح، حيث تذكر أنّ إبراهيم عليه السلام حينما كان يفتّش عن هذا المَثَل والإله، وأراد الله تعالى له أنْ يصل إلى الحقيقة من خلال هذا البحث، أثار في ذهنه عدداً من الافتراضات لهذا المَثَل الأعلى، قال تعالى متحدثاً عن تلك الحالة النفسية التي كان يعيشها إبراهيم عليه السلام أول الأمر: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي...﴾، فأول ما بدأ إبراهيم عليه السلام بالتفكير بدأ يفكر بالإله بهذه الصورة الذهنية، فافترض أنّ هذا الكوكب هو (الإله)، لأنّه شيء بعيد ومنيع وعالٍ، ﴿... فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[3]، لأنّ المَثَل الذي قد توصل إليه وكان يسعى عليه السلام إلى تشخيصه هو المَثَل المطلق، السامي، العالي،

---

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) المدرسة القرآنية: ١٢٠، الدرس التاسع.

(٣) الأنعام: ٧٥ ــ ٧٨.

والممتد الذي لا يعتريه الأفول أو النهاية.

ثم يستمر القرآن الكريم في وصف حالة إبراهيم عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي...﴾، وذلك باعتبار أنَّ القمر أكبر من الكوكب والنجم السابق، ولعل كبره هذا يعطيه القدرة على الامتداد والبقاء: ﴿... فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[1].

وهكذا ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَر...﴾، فقد تكون فعاليتها ونشاطها وقدرتها على البقاء أكبر من القمر؛ لأنّها أكبر منه، وحينئذ تستحق ـ فرضاً ـ أنْ تكون هي الرب من دونه: ﴿...فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2].

وهكذا خلص القرآن الكريم إلى بيان أنَّ كل المُثُل العليا المفترضة التي كانت مطروحة آنذاك بين الناس، كانت مُثُلاً باطلةً ومزيفةً ومعرَّضةً للأفول والزوال، ولذا لم يقبلها إبراهيم عليه السلام ـ في هذا المشهد القرآني ـ آلهة له؛ لأنّه عليه السلام كان يتطلع إلى مثال أعلى له امتداد وإطلاق ولا حدَّ له في حركته ولا في وجود، ومن هنا قال تعالى حاكياً عنه عليه السلام التوجّه إلى هذا المَثَل الأعلى المطلق: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

ومن هنا ـ أيضا ـ نجد أنَّ القرآن الكريم حينما يتحدّث عن الله سبحانه وتعالى كمثل أعلى يذكره بالأسماء الحسنى بصورة إجمالية: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾[4]، أو يصفه

---

(١) الأنعام: ٧٥ ــ ٧٨.

(٢) الأنعام: ٧٥ ــ ٧٨.

(٣) الأنعام: ٧٩.

(٤) الإسراء: ١١٠.

بأوصاف الكمال المطلق فيقول: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

حيث يتحدّث عن علمه وقدرته ورأفته ورحمته وباقي صفاته، ويريد من ذلك كلّه أنْ يُبيّن للإنسان مثله الأعلى الحقيقي والمطلق، ويحدّد له معالم هذا المَثل ـ أيضاً ـ لا أنْ يتركه يتخبّط في تصوراته له، من أجل أنْ يتخذه إلهاً ومثلاً أعلى له، وليبني محتواه الداخلي ـ وبصورة واضحة ـ وفق هذا الاختيار، وليتحرّك باتجاهه حركة واعية ومسؤولة، وليتحرّك مجتمعه تبعاً لذلك أيضاً.

---

(١) الحشر: ٢٢ ـ ٢٤.

الفصل الثاني

أقسام المَثل الأعلى

ومن أجل بيان نظرية (المَثَل الأعلى) بصورة أتم، لابد من التعرض إلى أقسام المَثَل الأعلى المختلفة وتحديد معانيها وأثرها على حركة الإنسان.

والظاهر من خلال البحث أنّ هناك ثلاثة أقسام للمَثَل الأعلى، هي:

القسم الأول: المَثَل التكراري

وهو عبارة عن رؤية المستقبل من خلال الواقع الذي يعيشه المجتمع الإنساني، أي: أنّ الوجود الذهني الذي يصوغ المستقبل - هنا - لا يستطيع أنْ يرتفع على واقعه الحاضر ولا يتجاوزه، بل ينتزع مثله الأعلى منه وبحدوده وقيوده وشؤونه، وبذلك يصبح هذا المَثَل الأعلى محاولة لتجميد هذا الواقع وحمله إلى المستقبل بدلاً من التطلع إلى مستقبل جديد، ويتحوّل هذا الواقع من حالة نسبية ترتبط بظروف الإنسان الفعلية ـ والتي من المفروض أنْ يعمل الإنسان على تغييرها ـ إلى أمر مطلق يعمل الإنسان على تجميده، فتكون حركة التأريخ حركة تكرارية؛ لأنّ المستقبل سوف يكون تكراراً للواقع والماضي.

ولذا عبّرنا عن هذا (المَثَل) بأنّه (مثل تكراري)؛ لأنّ رؤيته للمستقبل وحركته باتجاه هذه الرؤية هي تكرار لحاضره الذي يعشيه، وهذا الحاضر هو ـ أيضاً ـ تكرار لماضيه ولأوضاعه السابقة التي كان يعيشها، فيكون هذا المَثَل الأعلى مثلاً تكرارياً حقيقة.

وقد شهد التأريخ الإنساني في مختلف أدواره وجود مثل هذا المَثَل التكراري في حياة الناس، حيث عاش الإنسان ولفترات عديدة هذا النوع من المَثَل في حياته الاجتماعية.

اسباب وجود المثل التكراري

وبالإمكان إرجاع السبب لوجود المَثَل التكراري في المجتمعات الإنسانية إلى أحد عاملين رئيسين: أحدهما داخلي، والآخر خارجي، وهما:

الألفة والعادة

أمّا الأوّل: فهو عامل الألفة والعادة، ومرجع هذا العامل داخلي نفسي يرجع إلى الحالة النفسية والروحية الداخلية للإنسان التي تعبّر عن ميل داخلي فيه للتمسّك بالماضي والحاضر لمعرفته به في مقابل التغيير المجهول، وتؤدي الألفة والعادة التي عاشها الإنسان في بعض أدوار حياته وركونه إلى الوضع الاجتماعي المعيّن إلى حصول حالة الخمول والضياع داخل مجتمعه، ويصبح مثل هذا إنساناً ضائعاً لا يهتدي طريقاً إلى الحق ولا يعرف سبيلاً إلى التطور والتكامل والرقي.

بل يصبح إنساناً يعيش ضمن الأطر والحدود الاجتماعية التي تعوّد عليها، فيتحوّل (الوضع النسبي)- الذي يعيشه والذي ينسب إلى حاضره وماضيه... - إلى (وضع مطلق) وكأنّ هذا الشيء الذي اعتاده والذي يعيشه ويحياه هو كل شيء في حياته الماضية والحاضرة والمستقبلة، بل وفي الحياة الإنسانية ومسيرتها كلّها.

وقد بيّن القرآن الكريم هذه الظاهرة في كثير من الآيات التي تحدّثت عن الأقوام الذين رفضوا دعوة الأنبياء عليهم السلام، عندما جاءوا لهم بمثل عليا حقيقية ترتفع عن الواقع، وتريد أنْ تحرّكه وتنتزعه من حدوده النسبية إلى مستقبل أفضل، أو تخرجه من حالة التردّي والفساد إلى حالة الإصلاح والترقّي، وإنّما رفضوا ذلك لأنّها دعوة تخالف العادة والألفة وما كانوا قد وجدوا آباءهم عليه، لا لإيمانهم بهذا الواقع والاعتقاد بصلاحه، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[1]، فقضيتهم

---

(١) الزخرف: ٢٢.

الأساسية ودليلهم الوحيد الذي قدموه قبال دعوة الأنبياء عليهم السلام هو: أنهم وجدوا آباءهم على هذه السنّة والطريقة ليس إلاّ.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾[1]، حيث يستنكر القرآن الكريم على هؤلاء الأبناء اتّباع آبائهم الذين يصفهم بأنّهم لا يرون إلاّ ما هم عليه ولا يمتلكون القدرة على التفكير والرؤية الصحيحة للمستقبل، فتجمّدوا في واقعهم، مع أنّه واقع فاسد اتّخذه الآباء بسبب خروجهم عن طريق العقل والهداية، فهم ﴿...لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق ولا إلى الصراط المستقيم.

ثم بيّن القرآن الكريم، أنّ هذه الظاهرة والعامل النفسي كان يحكم الحالة العامة لكل المواجهات التي كان يواجهها الرسل عليهم السلام من قبل المشركين والمنكرين لنبوّاتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[3].

تسلط الطاغوت

والعامل الآخر: هو تسلّط الطاغوت، وهو عامل اجتماعي خارجي أدّى إلى ظهور المَثَل التكراري في مراحل متعددة من مراحل التأريخ البشري.

---

(١) البقرة: ١٧٠.

(٢) الشعراء: ٥.

(٣) إبراهيم: ١٠.

وذلك لأنّ الطاغوت ـ أحياناً ـ لا يرى المستقبل والحياة إلاّ من خلال نفسه ووجوده، ويعتبر أي تغيير في الحياة خروجاً على هيمنته وسلطته، لأنّ معنى التغيير هو إزاحة المعالم الموجودة الحاضرة والتي يشكّل الطاغوت أبرز وأوضح مفرداتها.

ومن هنا يتمسّك الطاغوت في كثير من الأحيان وبكل ما أوتي من قوّة وسلطة من أجل إبقاء المجتمع بخصوصياته ومواصفاته الفعلية القائمة، وفي نفس الأُطر والظروف والأوضاع الاجتماعية التي يعيشها الناس حتى يبقى مهيمناً عليه.

نعم، قد نلاحظ في بعض الأحيان خروج الطاغوت عن العادة والأُلفة، فيسعى لتغيير المجتمع الإنساني وصياغته بطريقته الخاصة، ولكن ذلك لا يخرج ـ على أي حال ـ عن هذه القاعدة ما دام الطاغوت يمثّل جزءاً مهماً من الواقع، ويحاول أنْ يصوغه على طبق مواصفاته الخاصة، فهو تكرار للواقع، ولكن من خلال هذا العنصر المتسلّط.

وهكذا يعيش المجتمع نتيجة لذلك حالة التكرار التي تحدّثنا عنها سابقاً؛ لأنّ مستقبله الذي تدخّل الطاغوت في تحديده ما هو إلاّ نسخة من حاضره، كما كان حاضره ـ أيضاً ـ نسخة من تأريخه وماضيه.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا العامل وتأثيره في بعده الإيجابي، عندما يرفض الإنسان هيمنة الطاغوت فيصل إلى المستقبل الأفضل - بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[1]، حيث ذكر سبحانه وتعالى صفة أساسية لمن يجتنب عبادة الطاغوت، وهي: استماعهم للقول واتّباعهم لأحسنه، وهذا

(١) الزمر: ١٧ ـــ ١٨.

يعني أنهم لم يجعلوا قيداً على أذهانهم وإرادتهم، ولم يجعلوا لها إطاراً لا يمكنهم أنْ يتجاوزوه، بل جعلوا الحقيقة هدفهم ومدار همّهم، فهم في حالة طموح وتطلّع ونظرة موضوعية إلى الحياة، تسمح لهم بأنْ يجدوا الحقيقة من خلال استماعهم للقول واتّباعهم لأحسنه.

وأمّا لو كانوا يعبدون الطاغوت فإنّهم لن يكونوا إلاّ في إطار الواقع الذي يريده هذا الطاغوت ولن يستطيعوا أنْ يكونوا في موقع أنْ يستمعوا إلى القول فيتّبعون أحسنه، بل إنّهم سوف يعرضوا عن كل قول ويتّبعون ما يراد لهم أنْ يتّبعه الطاغوت فقط، حيث يخرجهم من النور إلى الظلمات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بصورة واضحة، حينما تحدّث عن الظاهرة (الفرعونية) التي طرحها بشكل واسع وشامل.

ولعلّ المراد من ذلك ـ والله العالم ـ هو إبراز هذه الظاهرة،وتعريفها كقضية رئيسية يواجهها المجتمع الإنساني في كل أدوار تأريخه الطويل، من أجل أنْ يحذّر من الوقوع تحت تأثيرها أو الانسياق معها.

ففرعون هنا، وإنْ كان عنواناً للحاكم الذي عاصره موسى عليه السلام فهو إنسان معيّن واجه موسى عليه السلام، ولكنّ القرآن الكريم طرحه بهذه السعة، لبيان أنّ الظاهرة (الفرعونية) هي أبرز ظاهرة اجتماعية (طاغوتية) تحكم المجتمعات الإنسانية، حتى يصل (فرعون) فيها إلى حدّ ادّعاء الألوهية والربوبية، ويفرض نفسه المَثَل الأعلى للمجتمع الإنساني، ويعلن عن ذلك بشكل واضح.

فهو الرب الذي تجب عبادته من دون الله ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1]،

---

(١) النازعات: ٢٤.

وإنّه لا يعلم للناس من إله غيره ولا وجود للإله الذي يدعيه موسى عليه السلام، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[١]، وأنّ المجتمع لا يحق له أن يرى إلاّ ما يراه هو له دون غيره، وأنّه هو الذي يهدي إلى سبيل الرشاد ﴿... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[٢]، إلى غير ذلك من المدعيات الباطلة والمزيفة.

وهكذا يحشد (فرعون) وباعتباره طاغوت عصره كل طاقاته، من أجل الهيمنة والسيطرة على مجتمعه، وبذلك الشكل المطلق من أجل أن يصوغه على طبق رؤيته للأشياء، ويجمّده في هذا الواقع الفاسد، ويمنعه من الحركة نحو تطوّره وتكامله، بل ويمنعه من التفكير في ذلك أيضاً، لكي يعيش حالة تكرار حاضره في مستقبله، كما عاش ماضيه في حاضره[٣].

سيطرة الشهوة عامل آخر

ولكن من الممكن أن نضيف ـ لما ذكره الشهيد الصدر ـ سبباً آخر للمثل التكراري، وهو سيطرة الشهوات المادية على إرادة الإنسان وحياته واستسلامه لها، والتي تعبر هذه الشهوات عن الرغبات والميول المودعة في نفس الإنسان، فيحاول أن يتمسّك بها الإنسان في مستقبله، عندما لا يرى غير هذه الشهوات والغرائز أمامه.

---

(١) القصص: ٣٨.

(٢) غافر: ٢٩.

(٣) راجع المدرسة القرآنية: ١٢٤، الدرس التاسع.

وبذلك يصبح لهذه الشهوات الدور نفسه الذي تؤديه الألفة والعادة داخلياً.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في موارد عديدة، عندما تحدث عن المقاومة للرسالات الإلهية التي كان يبذلها الكافرون في رفضهم لدعوات الأنبياء ﷺ بسبب المحافظة على هذه الحياة الدنيا وشهواتها ولذاتها، وتأكيد القرآن الكريم لدور الحياة الآخرة والتزهيد بالحياة الدنيا وقيمتها.

نعم، إذا أرجعنا هذا السبب إلى النوع الثاني من المَثَل الأعلى - الذي سوف نشير إليه - وهو المَثَل المحدود، فلا يكون سبباً آخر.

ثمّ إنّ هذه الأسباب قد يكون لها تأثير في المَثَل التكراري بصورة مجتمعة، فيستغل الطاغوت الألفة والعادة والشهوات والميول، لتحقيق هدفه من فرض الهيمنة والتسلّط على الناس، ورسم مستقبلهم على أساس الحاضر، أو تكون العادة والألفة سبباً لظهور حالة الطغيان والقبول بها والاستسلام لها، كواقع قائم في المجتمع الإنساني.

المَثَل التكراري سبب للتمزق

وينتج المَثَل التكراري ومن خلال أحد العوامل أو جميعها التي تكون سبباً في وجوده، ظاهرة التفرّق والتشتت والتمزّق في حركة المجتمع الإنساني.

فلو أخذنا هذا المَثَل من خلال العامل الأوّل الذي يسببه ونعني به العادة والألفة، فسنجد أنّ جمود الإنسان على (مَثَله)، سوف يجعل من هذا (المَثَل) جزءاً من واقعه ولمدة طويلة، وسوف يفقد وبالتدريج قدرته على التحريك والتغيير والعطاء، بعد أنْ كان مغيراً للإنسان والمجتمع.

وعندما يفقد (المَثَل) قدرته على التحريك والتغيير بشكل كامل، فإنّ

ولاء الأُمّة له كأمّة سوف يهتز ويضعف تدريجياً وينتهي إلى نقطة الصفر، ومن ثمّ تفقد ولاءها لهذا المَثَل بصورة كاملة، لأنّها والته والتزمت به في البداية وجعلته أمامها في حركتها المستقبلية، باعتبار ما كان يعطيها إيّاه من طاقته ـ في ذلك الوقت ـ في حركتها التغييرية وتطوّرها، وما أنْ يفقد هذا المَثَل القدرة على العطاء، فسوف يفقد العنصر الأساس في وجوده، ولا يكفي للعادة وحدها أنْ تبقي ولاء الأُمّة له؛ لأنّ حاجات الإنسان متغيّرة ومتطوّرة وتطلّعاته نحو المستقبل كذلك، فتتحوّل العادة إلى مجرّد عامل معيق لهذه الحركة والتطوّر، وبذلك تفقد الأمّة ولاءها له.

ثمّ إنّ الأُمّة إنّما تتوحدّ كأُمّة ويتفاهم أبناؤها ويتعاونون فيما بينهم بما يجمعهم من وضع اجتماعي ومن علاقات اجتماعية، وإنّما يتمّ ذلك من خلال (مَثَلها الأعلى الواحد)، ومن خلال رؤيتها الواحدة لمستقبلها التي كانت تجمعها وتوحدّها، فإذا فقدت ولاءها لذلك (المَثَل) وتلك (الرؤية)، فقد فقدت عامل وعنصر وحدتها وتحوّل اهتمام كل واحد منها في داخلها إلى أوضاعه وحياته الخاصة، وأصبح يعيش حالته وهمومه الشخصية: (كيف يصبح؟ وكيف يمسي؟ وكيف يأكل ويشرب؟ وكيف يوفّر الراحة والاستقرار له ولأولاده ولعائلته؟ وأي راحة وأي استقرار؟

الراحة بالمعنى الرخيص للراحة، والاستقرار بالمعنى القصير للاستقرار، يبقى كل إنسان سجين لحاجاته ورغباته الخاصة، يدور حولها ولا يرى غيرها، إذ لا يوجد له مثل بعد أنْ ضاع مثله وتفتت وسقط، وفي مثل هذه الحالة تتحوّل الأُمّة إلى شبح أمّة ولا تبقى أمّة حقيقية)[1].

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٢٧، الدرس العاشر.

وحينئذ، ينقسم ذلك المجتمع وتلك الأمةّ إلى أمم وجماعات، بل ويصبحون أفراداً متشتتين ومتفرقّين متصارعين في مصالحهم الخاصة وأهدافهم المحدودة، لا محالة لتعدد مصالحهم وتضاربها وتضادّها، مع فقدان من يجمعها ويحلّ تناقضها، وينطبق ذلك مع وصف القرآن الكريم لهذه الحالة، بقوله تعالى: ﴿... بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾[1]، بأسهم بينهم شديد باعتبار وجود التناقضات بينهم، وإنْ كانوا في المظهر الخارجي يمثّلون أمّة واحدة فتحسبهم جميعاً، ولكنّ قلوبهم متفرّقة؛ لأنّ مصالحهم وأرواحهم متبعثرة.

وأمّا لو أخذنا (المثّل التكراري) من خلال العامل الآخر المسبب له، ونعني به: تسلّط الطاغوت والفراعنة وسيطرتهم على المجتمع، فستجد أنْ الطاغوت يبدأ أول ما يبدأ من خلال كونه فرداً من أفراد الأمةّ يعيش همومها ومثلها، ثمّ يبدأ بفرض طغيانه عليها من خلال الاستغلال وبما يملك من قدرات وإمكانات، وبالتدريج حتى يتجاوز الحد المعقول في ارتباطه بالأمّة، فلا يرى بعد ذلك أي امتياز للأمّة، إلاّ من خلال شخصه، ولا يرى لها أي رؤية إلاّ من رؤيته ﴿...قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[2]، وبذلك تفقد الأمّة ولاءها لهذا الطاغوت أيضاً.

ومن الطبيعي عندئذ أنْ تتفرز في الأمّة جماعة ترفض سلوك الطاغوت ورؤيته المطلقة تلك، لتفتش عن مصالحها الخاصة، ويصبح الطاغوت يميز ـ أيضاً ـ بين جماعات الأمّة بمقدار انسجامها مع رؤيته للأشياء وعدم انسجامها وتبدأ بهذا الرفض وعدم الانسجام حركة الصراع والتمرّد على الطاغوت داخل

---

(١) الحشر: ١٤.

(٢) غافر: ٢٩.

المجتمع، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، فلأنَّ هؤلاء الناس رفضوا فرعون ورفضوا أنْ يعيشوا وفقَ رؤيته الخاصة، وتمرّدوا عليه، عاقبهم بذبح الأبناء واستحياء النساء، مما أدّى إلى ظهور الصراعات والتنازعات والاختلافات داخل المجتمع، الذي تحوّل نتيجة لذلك إلى فرق وجماعات متشتتة ومتناحرة ومتصارعة فيما بينها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2]، بيان لنتيجة هذا الصراع والاختلاف الذي وجد بسبب وجود هذا الطاغوت وتسلّطه على مقدرات المجتمع، حيث سيكون الفوز والانتصار في نهاية المطاف من نصيب المستضعفين الذين سيجعلهم الله تعالى الأئمة الوارثين.

وكذلك إذا أخذنا المَثَل التكراري، من خلال العامل الثالث وهو الشهوات والمصالح الخاصة التي كانت توحّد الأمّة في بعض مراحلها، فإنّها تتحوّل بالتدريج إلى عامل يفرق الأمة ويومزقها؛ لان هذه الشهوات والمصالح متضاربة ومتضادّة، كما شرحنا ذلك في بيان أسباب الاختلاف في الخروج من وحدة مجتمع الفطرة.

الإجراءات التاريخية التي تواجه مجتمع الاختلاف[3]

لقد علّمنا التأريخ أنّ المجتمع الإنساني والأمّة، إذا تعرضت إلى حالة

---

(١) القصص: ٤.

(٢) القصص: ٥.

(٣) المدرسة القرآنية: ١٣٠، الدرس العاشر.

التشتت والفرقة والتمزق، ستكون أمام ثلاث حالات، وبدائل، وإجراءات تأريخية، يمكن مواجهتها في مثل ظروفها هذه:

تعرّض الأمة للغزو الخارجي

الأوّل: هو أنْ تتداعى هذه الأمّة، وتنهار أمام تعرّضها إلى الغزو والهيمنة الخارجية، فإنّ الأمّة بعد أنْ تختلف فيما بينها ويتشتت أمرها بسبب فقدانها لمَثَلها الأعلى الذي كان يوحد صفوفها، تتحوّل إلى أفراد أو جماعات صغيرة كل منها يفكّر في حاجاته الخاصة وهمومه المحدودة، وتكون بسبب ذلك أمّة ضعيفة وممزّقة، وتصبح محطاً لأنظار الغزاة الأجانب وللقوى الخارجية الطامعة التي سرعان ما تهاجمها، لتجعلها تحت هيمنتها وسيطرتها، من أجل أنْ تستغل خيراتها وتستثمر طاقاتها.

وقد شهد التأريخ الإنساني أمثلة كثيرة على هذه الحالة، ومن جملة ذلك ما عرفناه نحن في تأريخنا الإسلامي كشاهد على ذلك، في قضيتين رئيسيتين، هما:

الأولى: سقوط الأمّة الإسلامية على يد الغزاة التتر، خلال القرن (السابع) الهجري والقرن (الثالث عشر) الميلادي.

الثانية: الغزو الغربي للأمّة الإسلامية، في الثلث الأول من القرن (الرابع عشر) الهجري، وأوائل القرن (العشرين) الميلادي.

وما سقطت الأمّة الإسلامية ـ بصورة عامّة ـ في هاتين الحالتين، إلاّ بعد أنْ أصبحت أمّة ممزّقة ومشتتة يحكمها الطغاة والمستبدّون، أو ذوي الشهوات والمصالح الضيقة الخاصة، وتتعامل مع الإسلام كعادة وتقليد أخذوه عن آبائهم وأمهاتهم، ويتحكّم فيها الظالمون والجائرون، والنزعات القومية أو الفردية، وحب الدنيا، وأدّت بها هذه الحالة إلى الفرقة والتمزّق، فضعفت

وأصبحت لقمة سائغة للغزاة الأجانب.

التقليد والتبعية للآخرين

الثاني: الذوبان والانصهار في مثل أعلى أجنبي عن تأريخها ووجودها مستورد من الخارج، فإنّ الأمّة حين تفقد ولاءها للمَثَل الذي تبنّته وتتشتت، قد تبدأ بالتفتيش مرّة أخرى عن مَثَل أعلى آخر يوحدّها.

وحينئذٍ، قد تقع أثناء تفتيشها عن (المَثَل الأعلى) في خطأ كبير، فتتبنّى (مثلاً أعلى) لأمّة أخرى أقوى منها، متوهمّة بأنّ عظمة هذه الأمّة وقدرتها إنّما هي بسبب ذلك المَثَل الأعلى، فتتبناه هي - أيضاً - على أمل أنْ تستعيد قوّتها وقدرتها ووحدتها وموقعها الذي تطمح إليه.

وقد تبنّى بعض الأشخاص والجماعات في عالمنا الإسلامي هذا النوع من التصوّر، فدعوا إلى تبنّي المَثَل الأعلى الغربي المتمثل (بفصل الدين عن السياسة) والالتزام بمبدأ الحرية الشخصية والعصبية القومية والمصالح الخاصة الدنيوية والقوى المادية، باعتباره السبب وراء كل تلك الإمكانيات والقدرات التي يتمتّع بها الغربيون والتي قهروا بها الأمةَ الإسلامية وتغلّبوا عليها وهزموها بها.

ومن هؤلاء (رضا خان بهلوي) في إيران الذي حاول تطبيق المَثَل الغربي (شكلياً) على أمتنا الإسلامية في إيران.

وهكذا (الكمالية) التي تمثّلت في شخص (مصطفى كمال) في تركيا، والذي تبَنى المَثَل الغربي شكلياً في فصل الدين عن الحياة، إلى الحد الذي غيّر فيه الحرف العربي الذي كانت تكتب به ثقافة أُمتنا الإسلامية في تركيا إلى الحرف اللاتيني، من أجل أنْ يقطع الأجيال التركية عن كل جذورها الإسلامية وثقافتها الرسالية وعن العالم الإسلامي، حيث تصبح عاجزة عن

قراءة ثقافتها التأريخية التي كتبت له اللغة التركية بالحرف العربي، ويقربها إلى حركة الأمم الغربية، ولو من حيث الشكل والصورة.

وهكذا وجدنا كتّاباً ومفكرين من هنا وهناك في عالمنا الإسلامي يدعون وبشكل واضح وصريح إلى تبنّي المُثل الغربية، والى تحويل الأمّة الإسلامية إلى أمّة غربية، في كل تفاصيلها وخصوصياتها وشؤونها، كما في (سلامة موسى) المصري وأمثاله...

العودة إلى الحق

الثالث: أنْ تنشأ في أعماق الأمّة بذور العودة إلى المَثَل الأعلى المطلق الحق من جديد، ولكن بمستوى العصر الذي تعيشه الأمّة.

حيث تبدأ الأمّة بالتحرّك من جديد، وتبرز فيها بذور نهضة حقيقية، من أجل العودة إلى مَثَلها الأعلى المطلق المتمثل بالله سبحانه وتعالى، والذي سنتحدث عنه في القسم الثالث من أقسام المَثَل الأعلى، إنْ شاء الله تعالى.

وقد وقفت أُمتنا الإسلامية ـ في عصر الاستعمار ـ على مفترق طريقين:

أحدهما: هو تبنّي منهج التبعيّة والانصهار بالمَثَل الغربي، والذي زادها بعد ذلك تمزقاً وتشتتاً وضعفاً.

والآخر: هو تبنّي منهج العودة إلى الإسلام الحقيقي، وتقديمه إلى الأمّة الإسلامية بلغة العصر، وهذا ما تبنّاه روّاد النهضة الإسلامية في نهايات فترة الضعف وبداية عصر الاستعمار[1].

اجراء تأريخي

الرابع: ولكن يمكن أنْ نُضيف إلى ما ذكره الشهيد الصدر من الإجراءات

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٣٠ – ١٣١، الدرس العاشر.

التأريخية الثلاثة، إجراءاً رابعاً تتخذه الأمّة عند تعرّضها إلى التمزّق والتشتت، وهو اتخاذها للمَثَل الأعلى المحدود والذي تستنبطه الأمّة من تجاربها وواقعها، ويمثّل خطوة إلى الأمام في مسيرتها، ويعبّر عن بُعد من الابتكار والإبداع في حركتها، كما حدث ذلك في أوربا في النهضة الصناعية والثورة السياسية، وفي أمريكا في الحروب الداخلية والتحوّل من عصر الاستعمار والاستعباد، إلى الديمقراطية والليبرالية... أو ما حدث في الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية.

وهذا ما أشار إليه الشهيد الصدر ﷺ وشرحه في حديثه الآتي عن المَثَل المحدود، ولعلّه إنّما لم يشر لهذا الإجراء الرابع؛ لأنّه اكتفى عنه بالحديث عن المَثَل الأعلى المحدود.

القسم الثاني: المَثَل الأعلى المحدود

وهو المَثَل الذي تتخذه الجماعة الإنسانية حين تعيش تصوّراً لمستقبلها، يمثّل خطوة أُخرى إلى الأمام في حركتها مشتقّة من طموحها نحو الإبداع والتجديد والارتفاع بالأُمّة من واقعها الفاسد.

وهذا الطموح للإبداع، وإنْ كان يمثّل خطوة صحيحة، وفيه جانب موضوعي، غير أنّ هذه الخطوة تكوّن خطوة محدودة منتزعة عن جزء من طريقها المستقبلي الطويل، وإنّ هذا الطموح الذي انتزعت منه الأُمّة مَثَلها مهما كان طموحاً واسعاً، ولكنّه يبقى طموحاً محدوداً ـ أيضاً ـ لأنّه نابع من نفس الإنسان ذاته، الذي مهما أُوتي من قدرة على التصوّر والإبداع والرؤية للمستقبل، فلا بدّ أنْ تكون رؤيته تلك محدودة بحدود وجوده وتصوّراته وواقعه، ولا يمكنه أنْ يتجاوز هذا الواقع بأي حال من الأحوال.

وقد يقال: إنّ الله سبحانه وتعالى قد أعطى للإنسان موهبة وقدرة عظيمة

على التركيب بين الصورة الواقعية والخروج بصورة جديدة أفضل من خلال ذلك، وبالتالي بإمكانه أنْ يركّب صورة لمستقبله الأفضل تتقدّم على واقعه الفعلي من خلال هذا التركيب.

كما أنّ الإنسان بفطرته يدرك وجود الله تعالى، وهو المَثَل الأعلى، فلماذا لا يكون قادراً على تصوّر هذا المَثَل الأعلى الكامل؟

والجواب على ذلك: إنّ هذه الصورة التي يتصوّرها الإنسان من خلال عملية التركيب هذه، وإنْ كانت أفضل من الواقع وتتجاوزه نحو الأمام، ولكنّها مع ذلك كلّه ما هي إلاّ نتيجة إدراكاته ورؤيته المادية للأشياء المحدودة سواء في رؤيته لها أم للمستقبل، وهذا لن يبدّل من الحقيقة شيئاً، في أنّ الرؤية لن تكون إلاّ رؤية محدودة لمحدوديته من جهة، ولمحدودية المادة التي انتزعت منها هذه الصورة من جهة أخرى، ويبقى الفاصل بينه وبين الكمال فاصلا كبيرا.

كما أنّ إدراك الإنسان لوجود الله تعالى لا يجعله قادراً على معرفة الطريق الموصل إلى الله تعالى، إلاّ من خلال الهداية الإلهية، فتبقى هذه الرؤية محدودة عندما تكون ذاتية، ولا سيما مع ما أودع الله تعالى في الإنسان من حب الشهوات والهوى وما جعل في طريقه من زيغ الشيطان وإضلاله للإنسان، فهو يحتاج إلى الهداية الربّانية في كل الأحوال.

ولذلك فإنّ الإنسان وحينما يتحرّك باتّجاه هذا (المَثَل الأعلى)، قد يكون عمل شيئاً صحيحاً في تحرّكه هذا؛ لأنّه تحرّك نحو الأفضل الصحيح - مثلاً - الذي تصوّره في هذه الخطوة، ولكنّه في ذلك يكون قد واجه إمكانيات خطر كبير - أيضاً - بعد أنْ لم يكن قادراً على استيعاب الصحيح المطلق والكمال الأمثل لوجوده، وهذا الخطر الكبير هو أنْ يحوّل هذا القدر المحدود من الصحيح الذي تصوّره للمستقبل، إلى مَثَل أعلى مطلق يعمّمه إلى المستقبل

ويعبده من دون الله، وعندئذ يمكن لهذا الصحيح المحدود أنْ يخدمه في المرحلة الأولى للمستقبل؛ لأنّه صحيح محدود، ولكنّه سوف يصبح قيداً لحركته فيما بعد، بسبب هذا التعميم، فيجمد على هذا المَثل بعد أنْ تحرّك في أول الأمر لتطوير المستقبل، وبذلك يرتد المَثل الأعلى المحدود إلى مَثلٍ تكراري مرّة أُخرى، ومن هنا نعرف أنّ المَثل الأعلى (المحدود) يُمثّل الأصل والجذر للمثَل (التكراري) في حركة التأريخ عادة(١).

ما هو الخطأ في تبنّي المَثل المحدود؟

ويمكن أنْ نوضّح معالم هذا الخطأ في بعدين أساسيين، ومن خلال مِثالين واقعيين شهدتهما حركة التأريخ الإنساني:

خطأ التعميم الأفقي

البعد الأول: إنّ الإنسان قد يرى شيئاً صحيحاً أثناء حركته ورؤيته للمستقبل، فيسعى لتحقيقه.

ولكنّه قد يُعمّم هذا الشيء الصحيح على كل الأشياء، بحيث يفترضه مثلاً لكل شيء صحيح في هذا الوجود، مع أنّه شيء صحيح في مصداق واحد، وحينئذٍ، فإنّه يقع في خطأ كبير التحويله المحدود إلى مطلق أفقياً.

وهذا ما حصل في أوربا أثناء الثورة الصناعية فيها، فإنّ المجتمع الأوربي كان مقيّداً ـ آنذاك ـ بقيدين رئيسيين:

أحدهما: قيد الكنيسة الذي كان يقيّد عقائد الإنسان وفكره، إذ كانت الكنيسة ومن خلال التزاماتها وبعض مدّعياتها الباطلة ترفض كل عقيدة تخالف تلك المدّعيات والالتزامات، بل وترفض كل فكرة علمية ـ أيضاً ـ

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٢٧، الدرس العاشر.

فيما لو خالفت هذه المدّعيات.

ومن أجل فرض هذه القيود الفكرية على المجتمع أنشأت الكنيسة محاكم التفتيش، والتي تذكر بعض الأرقام التأريخية بأنّ أكثر من ثلاثين ألف عالم قد قتلوا، وأنّ أكثر من مائة ألف آخرين قد تعرّضوا للتعذيب في تلك الحقبة، بسبب تبنّيهم لأفكار علمية أو عقائدية تتنافى والتزامات الكنيسة آنذاك[١].

وثانيهما: الإقطاع الذي كان يمثّل الطغيان الاجتماعي، والذي فرض القيود على الأوضاع السياسية والاقتصادية في المجتمع، وصادر كل الطاقات والإمكانيات.

وعلى هذا فقد رأى المجتمع الأوربي أنّ مستقبله في (الحرية) والتخلّص من هذه القيود بكسر قيود (الكنيسة) في الجانب الفكري والعلمي، وقيود (الإقطاع) في الجانب السياسي والاقتصادي، من أجل أن يتحرّك ويتطوّر ويتقدّم باتّجاه الأمام، وهذا شيء صحيح في هذا الجانب الموضوعي.

إلاّ أنّ الأمر الذي أخطأ فيه الإنسان الأوربي هو تصميمه لفكرة الحرية، واعتبارها أمراً مطلقاً وكل شيء في حياته ومجتمعه، وأصبحت هي المَثَل الأعلى والهدف له، مع أنّ الحرية عبارة عن (كسر القيود)، وكسر القيود لا يمثّل صورة المجتمع المطلوب، بل يمثّل عملية فتح الطريق أمام حركته، فالحرية مجرّد وسيلة على أفضل تقدير للوصول إلى صورة المجتمع الإنساني الصالح، وأمّا محتوى هذه الحرية وشكل هذه الحركة الاجتماعية وأهدافها ومضمونها وصورتها المستقبلية وغير ذلك من الأمور، فلا تتضمّنها فكرة

---

(١) وهذا إمّا أنّه يمثّل نوعاً من الطغيان الديني، أو نوعاً من العادة والأُلفة.

(الحرية)، كما هو واضح.

كما أنّ الحرية إذا جردت عن محتواها وبقيت بلا مضمون، فسوف تؤدي إلى الويل والدمار، وهو ما تواجهه الحضارة الغربية اليوم، التي صنعت للبشرية ـ من خلال هذه الحرية ـ كل وسائل الدمار والآلام[1].

خطأ التعميم العمودي

البعد الثاني: وقد يتحرّك الإنسان خطوة محدودة من خلال المَثل المحدود الذي يتّخذه، وتكون هذه الخطوة فكرة صحيحة في حركته في ذلك الزمان، غير أنّ تحويل هذه الفكرة إلى فكرة عامّة لكل الأزمنة، يجعلها فكرة خاطئة لا محالة.

فعلى سبيل المثال، بدأ الإنسان حركته من (أسرة صغيرة)، من آدم عليه السلام وحواء، ثم من أسر صغيرة بعدهما.

إنّ فكرة الأسرة هذه كإطار للمجتمع الإنساني فكرة صحيحة في زمانها، وقد تحولت وتطوّرت في رؤية مستقبلية لحركة الإنسان، إلى فكرة العشيرة والقبيلة التي تجعل الجماعة والأسر المتعدّدة، ترتبط فيما بينها برابطة واحدة، يقوم على أساسها البناء الاجتماعي.

وهذه الفكرة (فكرة العشيرة) فكرة صحيحة في ذلك الزمان ـ أيضاً ـ؛ لأنّها توحّد تلك المجموعات الأسرية الصغيرة ضمن إطار واحد لتشكّل منها مجتمعاً (واحداً) بعد ذلك.

ثمّ إنّ هذه الفكرة تطوّرت فيما بعد إلى فكرة القوم والجماعة التي تضم القبائل والعشائر المتعدّدة التي تتوحّد بميزات عديدة، من جملتها ـ مثلاً ـ

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٢٧، الدرس العاشر.

اللغة الواحدة.

وهذه الفكرة الأخيرة، قد تكون صحيحة أيضاً، وفي مقطع زمني معيّن؛ لأنها ـ وعلى كل حال ـ توحّد هذه الجماعات الإنسانية المتعدّدة في صيغة واحدة، وهي صيغة القوم الواحد والجماعة والأمّة الواحدة.

ومن هنا، فإنّنا لو أردنا أنْ نعمّم أية فكرة من تلك الأفكار المحدودة، ولنفترضها فكرة العشيرة مثلاً، والتي كانت صحيحة في زمان معيّن، بحيث نجعلها مطلقة، من خلال افتراض أنّ حركة الإنسان في عمود الزمان المستقبلي كلّها تقوم على هذه الفكرة، فإنّ هذه الفكرة تصبح فكرة خاطئة؛ لأنّ هذا التعميم الزماني الذي جعل من المحدود زمانياً أمراً مطلقاً في عمود الزمان، تعميم خاطئ.

وهكذا فكرة (القوم)، وإنْ افترضنا صحتّها في زمان ما، إلاّ أنّ تعميمها إلى كل الأزمنة ـ كما هو مطروح في عصرنا الحاضر ـ بحيث نجعل حياة الإنسان مقسّمة على أساس اللغات والأقوام وعنصر الدم وما أشبه ذلك، وعلى مدى التأريخ، هذا التعميم يجعل منها فكرة خاطئة وغير صحيحة.

ولذلك وجد الإنسان نفسه في كثير من الأدوار ـ ومنها هذا العصر ـ تجاه هذه الأفكار مقيّداً ومحدوداً في حركته، الأمر الذي جعله يبدأ برفض هذه الأفكار ـ بعد طول المعاناة ـ والتوجّه إلى الوحدة الإنسانية العامة.

فخطأ التعميم الزماني خطأ آخر، يقع فيه ـ عادة ـ مَنْ يتخذ من المَثَل المحدود مَثَلاً أعلى له.

إذن، لابد للإنسان الذي يقف على طريق التأريخ الطويل أنْ يعرف بأنّ له أفق تأريخي محدود بحكم قصور ومحدودية ذهنه البشري، وعليه أنْ يتعامل مع هذا الأفق، كأفق محدود ليس إلاّ، وأنْ لا يحوّله إلى مثل أعلى له، وإلاّ كان حاله حال من ينظر إلى الأفق الجغرافي فلا تساعده عينه إلاّ

على النظر إلى مسافة محدودة، فيتخيّل له بأنّ الدنيا تنتهي عند الأُفق الذي يراه، وأنّ السماء تنطبق على الأرض على مسافة قريبة، أو يكون حاله من قبيل مَنْ يطلب الماء فيسير نحو السراب عندما يحسبه ماء، كما أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

ومن أجل ذلك عبّر القرآن الكريم عن هذه المُثُل المصطنعة المحدودة التي يتخذها الإنسان إلهاً له من دون الله سبحانه، بأنها في الوهن والضعف كبيت العنكبوت الذي لا يصمد أمام حركة التأريخ، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2] [3].

وقد يقال هنا: إنّ الإنسان يتمكّن من خلال التجربة الإنسانية الاجتماعية أنْ يتوصّل دائماً إلى أخطائه في المَثَل المحدود، فينتقل مرّة أُخرى خطوة إلى الأمام في مثل محدود آخر، حتى ينتهي به الحال إلى الكمال المنشود، ولكن بصورة تدريجية، كما هو الحال في التجارب الطبيعية التي تتكامل فيها معرفة الإنسان.

ولكنّ هذا الكلام يشتمل على الكثير من الخطأ، فإنّ التجارب الإنسانية في المجتمع تختلف عن التجارب الإنسانية في الطبيعة؛ لأنّ التجارب الإنسانية في الطبيعية يتخذ منها الإنسان ـ عادة ـ موقفاً موضوعياً غير متحيّز، فيصل

---

(١) النور: ٣٩.

(٢) العنكبوت: ٤١.

(٣) المدرسة القرآنية: ١٣٦، الدرس العاشر.

إلى التكامل فيها، وأمّا التجارب الإنسانية في المجتمع، فهي مضافاً إلى أنّها تجارب مدمّرة للمجتمع الإنساني؛ لأنها لا تكون محصورة في داخل المختبر، وقد تبقى آثارها وتفاعلاتها خارج السيطرة ومجرى التجربة، مضافاً إلى هذا لا يكون الإنسان تجاهها ـ عادة ـ موضوعياً؛ لوجود المؤثرات الداخلية والخارجية، كالعادة، والشهوات، والطغاة، وغيرها من العوامل التي أشرنا إليها في حديثنا عن دور الاختلاف في مجتمع الفطرة[1].

العلاقة بين المَثَل التكراري والمحدود

ذكرنا سابقاً أنّ المَثَل المحدود يمثّل الأصل والجذر للمَثَل التكراري، حيث يعتبر (المَثَل التكراري) في حقيقته ـ في كثير من الأحيان ـ مرحلة وخطوة أخرى، بل نتيجة (المَثَل المحدود)؛ لأنّه ـ أي المَثَل التكراري ـ يبدأ بمثل وطموح محدود يتحرّك فيه الإنسان نحو صورة مستقلّة، ولكن حينما يتحقق هذا الطموح إلى المستقبل، وتصل البشرية إلى النقطة التي أثارت هذا الطموح، يتحوّل هذا المَثَل وهذه الصورة إلى واقع محدود، وحينئذٍ يبدأ دور المَثَل التكراري.

وبعبارة أخرى: إننا لو رجعنا إلى الوراء بالنسبة إلى آلهة النوع الأوّل لوجدنا آلهة النوع الثاني، فالمسألة تبدأ وفي كثير من الأحيان، بمثل أعلى وإله، له طموح مشتق من طموح مستقبلي، ثمّ يتحول هذا المَثَل الأعلى وهذا الإله إلى مَثَل وإله تكراري.

ثمّ ما يلبث هذا المَثَل التكراري أنْ يتمزّق وتتحوّل الأُمّة نتيجة لذلك إلى

---

(١) راجع اقتصادنا: ٣١٧ ـ ٣٢٩، لتوضيح الفرق بين التجربة الطبيعية، والتجربة (المصالح) الاجتماعية.

أمة ممزّقة أيضاً، تخضع لأحد الإجراءات التأريخية السابقة، ويمكن أنْ يكون المَثَل المحدود أحد هذه الإجراءات التأريخية، فتبدأ دورة جديدة[1].

مراحل تحوّل المَثَل المحدود إلى تكراري

وتمرّ الأمّة والمجتمع خلال الفترة الزمنية التي يتبادل فيها المَثَل المحدود والتكراري المواقع بأربع مراحل:

مرحلة فاعلية المَثَل الأعلى

الأولى: إنّ الإنسان وحينما يكوّن صورة عن المستقبل تمثّل خطوة إلى الأمام في مسيرته، فإنّه يتحرّك وبطبيعة الحال نحو تحقيق هذه الصورة الخارجية، وبهذا تكون هذه الصورة فاعلة ومؤثرّة في حركته تلك، ولكن هذه الصورة باعتبار أنها مأخوذة من داخل حياة الإنسان، فهي مرتبطة بالحياة الدنيا، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم: بـ (العاجلة)، فهي ذات تأثير محدود، ومن هنا عبّر عن هذا المَثَل بأنّه محدود، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد صوّر القرآن الكريم في آيات عديدة، حالة مثل هذا الإنسان وحركته التي يستهدف بها العاجلة وما يحققه من هذه الحركة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾[2]، فمن يرى أهدافه في حدود هذه الدنيا العاجلة، قد يعجّل الله له ما يريد، فيحصل على المكاسب الآنية المحدودة التي يطمح إليها، غير أنّها مكاسب عاجلة دنيوية، يعقبها العذاب

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٣٧، الدرس العاشر.

(٢) الإسراء: ١٨.

والخسران، وهو ما يمكن أنْ نعبّر عنه بجهنم في الدنيا، حيث تشيع المظالم ويعمّ الفساد ويتحقّق الدمار، ويعيش فيها الإنسان حياة الشقاء والمعاناة والضرر، كما نشاهد ذلك الآن في كثير من أرجاء الدنيا المختلفة.

كما يعيش عذاب الآخرة ـ أيضاً ـ وهي جهنّم الآخرة، لأنّ الله سبحانه وتعالى قد أعدّ لهؤلاء الدنيويين الذين لا يرون إلاّ هذا المَثَل العاجل من المشركين بالله والمرتدين على الفطرة الإنسانية، والذين اتّخذوا غير الله تعالى آلهة لهم، أعدّ لهم الخزي والعذاب الأليم في الآخرة أيضاً.

ثم تشير الآية إلى سعي المؤمن المشكور: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾[1]، لتبين أنّ للمؤمنين مثلاً أعلى ـ أيضاً كما سوف نشير إلى ذلك ـ وأنّ لهذا المَثَل فاعلية ومحركيّة تجعل المؤمن متحركاً وساعياً، باتّجاه مَثَله الأعلى الحق وبصورة مستمرّة وغير منقطعة ولا محدودة، ومن هنا استحقّت هذه الحركة وهذا السعي المدح والثناء والشكر.

وهكذا تُعطي الآية المباركة القاعدة العامة المتعلّقة بهذه المرحلة (مرحلة فاعلية المَثَل الأعلى)، من خلال قوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[2]، فسواء كان مثل الإنسان الأعلى حقاً أم باطلاً، وسواء كانت أهدافه متعلّقة بالعاجلة أم بالآخرة، فإنّها تكون مؤثرة في حركته، وأنّ الله تعالى لن يقطع عطاءه عنها، ولكنّها ستكون من حيث الحدود والنتائج لا محالة مختلفة ومرهونة بالمَثَل الأعلى نفسه.

ومثل الآية السابقة في الدلالة، قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ

---

(١) الإسراء: ١٩.

(٢) الإسراء: ٢٠.

الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١]، فلهذه الصورة الذهنية المتمثّلة بالعاجلة وبالحياة الدنيا تأثير على حركة الإنسان وعلى حركة الكون ككل، كالغيث الذي ينزل فينبت النبات بسببه، فيكون موجباً لإعجاب الكفّار، ثمّ يصفرّ، فيكون له هذا الدور في الهيجان والحركة والفاعلية، ولكنّها حركة وفاعلية محدودة بحدود العاجلة، لا أكثر من ذلك[٢].

مرحلة الانقسام

الثانية: انقسام المجتمع، فبعد أنْ كان كل المجتمع في المرحلة الأولى، القادة فيه وجمهور الأمّة يشاركون في تحقيق الصورة المستقبلية والمَثل الأعلى الذي يطمحون إليه، انقسموا في هذه المرحلة إلى قسمين:

- قسم السادة والكبراء الذين كانوا قادة لحركة مجتمعهم في المرحلة السابقة
- وقسم المطيعين والمنقادين لأولئك السادة، وهؤلاء هم جمهور الأمّة الذين فقدوا القدرة على الحركة باتجاه مَثلهم الأعلى، وأصبحوا مجرّد أتباع لأولئك السادة الكبراء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة أو الحالة، بقوله تعالى: **﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾**[٣].

وما حدث هذا التقسيم في المجتمع، إلاّ لأنّ المَثل الأعلى المحدود في هذه

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) لابدّ من الانتباه هنا إلى أنّ حياة الإنسان ليست محدودة بهذه الحياة الدنيا، ولذلك فحديث القرآن الكريم هو حديث عن ذلك المَثل الأعلى، العاجل والأجل، بملاحظة هذا الامتداد الواسع لحياته.

(٣) الأحزاب: ٦٧.

المرحلة قد أصبح غير قادر على التأثير على الأمّة ككل وعلى حد سواء، بل انحصر تأثيره في أولئك الذين هم على رأس الهرم والسلطة؛ لارتباط مصالحهم به، وأمّا بقية الأمّة فقد تكون قد فقدت أية مصلحة لها بهذا المَثل، ومن هنا فَقَدَ قدرته على التأثير في حركتها، فتحوّلت إلى مجرّد طبقة مطيعة ومنقادة وتابعة للسادة والكبراء ليس إلاّ[1].

وقد يقال: إنّ السادة والكبراء أقدر على إدارة المجتمع واستثماره وإعماره، وتحقيق المصالح العامة له وللأمّة، لولا أنْ نفترض بهم عنصر الاستغلال والاستكبار من ناحية، ونفترض بحياة الأمّة التي يراد إيجاد التأثير بها الحياة الطويلة المتمثّلة بالحياة الدنيوية والأخروية معاً.

مرحلة الامتداد التأريخي

الثالثة: نشوء الطبقة السياسية، فإنّ سلطة السادة الكبراء، تتحوّل إلى سلطة طبقية تتوارث مقاعدها عائلياً أو طبقياً أو وراثياً بشكل من أشكال الوراثة، وحينئذٍ، تصبح هذه الطبقة هي الطبقة المترفة المنعّمة الخالية من الأغراض الكبيرة المشغولة بهمومها الصغيرة.

ثمّ إنّ هذه الطبقة المترفة، سوف تتمسك بالمَثَل الأعلى المحدود داخل المجتمع لارتباط مصالحها به. فتحوّله إلى مَثَل تكراري فيما بعد.

كما تكون هناك طبقة أُخرى من الناس مستضعفة ومستغلّة تألف هذه الحالة، ولا دور لها في الحياة، إلاّ الطاعة والانقياد لتلك الطبقة الحاكمة والمترفة.

وبهذا يتحوّل المجتمع إلى طبقتين: طبقة مترفة، وأُخرى مستضعفة، ويستمر هذا التقسيم الاجتماعي تأريخياً.

---

(١) المدرسة القرآنية: ١٣٨، الدرس العاشر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1]، فهؤلاء المترفون هم نتاج آبائهم، وهم الامتداد التأريخي لهم، وكذلك يكون غيرهم من المستضعفين نتاجاً لوضع آبائهم الاجتماعي وامتداداً تأريخياً لهم أيضاً[2].

مرحلة الطغيان والصراع

الرابعة: وجود الطغيان، لأنّ الأمّة بعد أنْ تتفتّت وتتمزّق وتتحوّل إلى طبقات وتفقد ولاءها لمَثَلها التكراري تدريجياً ـ كما ذكرنا ـ تدخل في المرحلة الرابعة التي يسيطر فيها المجرمون على مقاليد الأمّة ـ بصورة مطلقة ـ أولئك الذين توارثوا الاستغلال والاستكبار حتى تحوّل إلى حالة ثابتة، تعبّر عن الطغيان والاستبداد والإجرام والاستهتار بكل المحرّمات والقيم والمُثل، ولا يرعون للأمّة عهداً ولا ذمةً ولا حرمةً ولا حقاً من حقوقها، وقد أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[3][4].

وبذلك يحدث الصراع في المجتمع، ليأخذ المستكبرون ـ حينئذٍ ـ دور التدمير والقمع والإفساد المطلق في الأرض، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ

---

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) المدرسة القرآنية: ١٣٨، الدرس العاشر.

(٣) الأنعام: ١٢٣.

(٤) المدرسة القرآنية: ١٣٩، الدرس العاشر.

عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[١].

إنّ هذه المراحل الأربع ـ التي أشرنا إليها ـ نجدها واضحة في مجمل حركة التأريخ البشري التي أشار إليها القرآن الكريم.

كما شاهدناها ـ أيضاً ـ في بعض الأمثلة من تأريخنا المعاصر حين سيطر النازيون ـ إبّان الحرب العالمية الثانية ـ كطبقة تحكّمت في مصالح المجتمع وكيف أنّهم حاولوا تدمير كل المُثُل التي تمّسك بها المجتمع الأوربي، من خلال حرب عالمية شاملة شنوّها على كل الأوضاع القائمة آنذاك.

وتصوّر هذه المرحلية، وإنْ كان أمراً منطقياً في حركة التأريخ وتطوّره، ولكنّه ليس أمراً ضرورياً في حركة التأريخ، بل يخضع هذا التطوّر ـ أحياناً ـ لعوامل ذات طابع فردي وذاتي في هذا الإنسان الحاكم أو هذه الجماعة من الناس، ويرتبط ذلك بالعوامل الثلاثة السابقة واجتماعها أو انفرادها في التأثير.

القسم الثالث: المَثَل الأعلى المطلق

وضع القرآن الكريم اللهَ سبحانه وتعالى أمام حركة الإنسان الاجتماعية، وجعله مَثَلاً له في هذه الحركة، فهو يصير إليه في حركته ويلاقيه في الحساب، والثواب والعقاب، والدرجات العالية من الرضوان الأكبر، أو العذاب الأليم في جهنّم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[٢]، فالإنسان ـ حسب التصوّر القرآني ـ لابد أنْ ينتهي في حركته

---

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) الانشقاق: ٦.

إلى الله تعالى: ﴿... وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[١].

وخلاصة هذا السير إلى المَثَل الأعلى وحقيقة المَثَل الأعلى ونتائجه وآثاره، والفرق بينه وبين القسمين الآخرين من المَثَل يمكن أنْ نجده في النقاط التالية[٢].

السير والكدح إلى الله تعالى

١ ـ الإنسانية كجماعة ومجتمع تسير نحو الله سيراً مقروناً بالتعب والجهد والمجاهدة، وهو ما يسمى بالمصطلح القرآني بـ (الكدح)، كما أشارت إليه الآية الكريمة السابقة، وذلك لأنّ هذا السير ليس سيراً عادياً، بل هو سير ارتقائي، لذا كان مقروناً بالتعب والنصب[٣].

العبادة لله تعالى

٢ ـ والآيات الكريمة، ومنها الآية الشريفة السابقة تدل على وجود حقيقة ثابتة في الخارج تسير إليها الإنسانية، وإنّ هذه الإنسانية تتقدّم إلى الله تعالى في مسيرتها، سواء كانت تؤمن بالمَثَل الأعلى المطلق، أم كانت تؤمن بالمُثُل الأُخرى المحدودة أو التكرارية.

غاية الأمر أنّ الفرق بينهما ـ كما سوف يتبين ـ أنّ السير إذا كان واعياً ومدرِكاً للمَثَل المطلق، فهو سير عبادة الله تعالى بلغة الفقه والشريعة؛ لأنّه سير نحو الله ومدرِكاً لذلك، بخلاف الآخر، فإنّه لا يكون عبادة؛ لأنّه ليس واعياً لله تعالى ومدرِكاً له في هذا السير، فالذي

---

(١) آل عمران: ٢٨.

(٢) هذه النقاط استخلصت من الدرس الحادي عشر من المدرسة القرآنية للشهيد الصدر: ١٤١.

(٣) ولكنّه ليس من الضروري أنْ يكون ارتقائياً، بل قد يكون تسافلياً، والظاهر أنّ النصب والتعب باعتبار وجود قانون الامتحان والابتلاء الذي وضعه الله تعالى الإنسان في إطاره: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ الإنسان: ٢.

يميِّزه هو الوعي للمَثَل الأعلى، وأنّه سير في إطاره[1]، وإلاّ فإنّ السير في كل الأحوال لابد أنْ ينتهي إلى هذه الحقيقة الثابتة، ويقترب منها تدريجياً.

وهذا المسير الواعي هو الذي يُعبِّر عنه القرآن الكريم بـ(سبيل الله) و(الصراط المستقيم).

المسير الواعي للإنسان

٣ ـ وإذا كان السير واعياً للمَثَل الأعلى المطلق ـ وهو الله تعالى، فسوف تترتّب عليه مجموعة من الآثار والنتائج:

أ ـ المسؤلية أمام الله تعالى، لأنّه حقيقة ثابتة يسير الإنسان إليها، فلا بد أنْ يكون مسؤلاً أمامها، كما سوف نشرحه إنْ شاء الله.

ب ـ إنّ المَثَل الأعلى المطلق (وهو الله) ليس له حدود أو نهاية جغرافية؛ لأنّه المطلق الحقيقي، وبذلك فهو موجود على طول الطريق وليس في نهايته أو وسطه فحسب، وبقدر ما يتقدّم الإنسان في هذا الطريق يجد مَثَله الأعلى بصورة أوضح وأكمل.

وفي المثل الأعلى غير الله تعالى، وإنْ كان الله موجوداً في الطريق أيضاً، كما أشارت إلى ذلك (آية السراب)، حيث يجد الله عنده فيوفّيه حسابه، لأنّ الله حقيقة ثابتة في الوجود، ولكنّ الفرق في طبيعة السير أنّه عبادة أو غير عبادة، فيتكامل به أو يتسافل، ويقترب به من الله تعالى أو يبتعد عنه، ومن ثمّ فحجم وشكل اللقاء بالله تعالى يكون مختلفاً في المَثَل الإلهي عن المَثَل الأعلى غير الإلهي.

---

(١) وبذلك يكون السير سيراً ارتقائياً وتكاملياً، وإلاّ فإنّ السير يكون تسافلياً، وإنْ كان ينتهي في كل منهما إلى الله تعالى ليلاقي الإنسان بذلك جزاءه.

ج ـ ولمّا كان الهدف هو الله سبحانه وتعالى وهو المطلق، فالسير إليه سوف يكون سيراً مطلقاً لا نهاية له، ويكون الاقتراب منه مستمراً بقدر التقدّم في الطريق إليه، ولكنّه يبقى ـ بطبيعة الحال ـ اقتراباً نسبياً ومجرّد خطوات طويلة أو قصيرة على الطريق إليه، دون أنْ يتمكّن الإنسان اجتياز الطريق كله؛ لأنّ الإنسان محدود، ولا يمكن للمحدود أنْ يصل إلى اللامتناهي، وهو الله بصورة مطلقة.

وبذلك ينفتح أمام الإنسان باب الإبداع والتطوّر المستمر الذي لا يتوقف، عندما يكون واعياً لهذه الحقيقة الكونية الثابتة اللامتناهية، ويعمل على التوفيق بين وعيه لها، وبين حقيقتها اللامتناهية.

د ـ ويتحقّق بذلك تحوّل وتغيير (كمّي) في هذه المسيرة، حيث يقوم الإنسان ـ مضافاً إلى ما يتّصف به من عنصر الإبداع وروح التقدّم المستمر في الطريق ـ عند اجتيازه لهذا الطريق بإزالة كل الآلهة المزورة، وكل الأصنام والأقزام الموضوعة في طريقه، والتي تقف عقبة بينه وبين الله تعالى وتقدّمه في هذه المسيرة اللامتناهية.

وهذا هو ما يفسّر لنا ظاهرة تأريخية أشار إليها القرآن الكريم على شكل سنّة من السنن التي تتحكم في مسيرة التأريخ الإنساني.

وهذه الظاهرة هي أنّ الأنبياء كانوا يواجهون دائماً بموقف الطغاة المترفين في مجتمعاتهم، كقطب معارض لهم؛ لأنّ الأصنام والأقزام الموضوعة في طريق الإنسان حينما تتحوّل إلى تمثال، تجد مجموعة من الناس مدافعين طبيعيين عنها ـ كما أشرنا ـ لارتباط مصالحهم وشهواتهم وكيانهم المادي بها، بحيث يصبحون هم المستفيدون منها على حساب هؤلاء الناس المساكين، الذين جعلوا هذا التمثال إلهاً لهم ومبرراً لوجودهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى

أمّةٍ وإِنّا على آثارِهم مُقتدُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أرسَلنَا في قرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ إلاّ قالَ مُترَفُوهَا إنّا بِمَا أرسِلتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَومِهِ الّذينَ كَفَروا وكَذّبُوا بلِقَاءِ الآخرةِ وأترفْنَاهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنيَا مَا هَذا إلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم يأكُلُ مِمّا تأكُلونَ مِنْهُ ويَشْرَبُ مِمّا تَشرَبُونَ﴾[3].

هـ - وإلى جانب هذا التغيير (الكمّي)، يتحقّق تغيير وتحوّل (كيفي) في حركة الإنسان، وهو تقديم الحل الموضوعي الوحيد للتناقض الإنساني الذي يعيشه بين المصالح المادية الخاصة ورغباته وميوله التي تدفعه إلى الاستقلال والطغيان والإخلاد للأرض والالتصاق بها، والمصالح العامة للجماعة والمجتمع الإنساني ومسيرة التكامل الروحي الأخلاقي في حركته المعنوية والروحية؛ لأنّ الإنسان مركّب من حفنة تراب وروح، والتراب يشده إلى الأرض والشهوات والغرائز، والروح تشده إلى الله تعالى والتكامل والأخلاق الإلهية، ويمكن حل هذا التناقض من خلال الشعور بالمسؤلية الموضوعية، حيث ينشأ لديه لأوّل مرّة في تأريخ المُثل البشرية التي حرّكت البشر على مرّ التأريخ شعور معمّق بالمسؤلية تجاه المَثل الأعلى، بعد أنْ يدرك أنّ هذا المَثل الأعلى له واقع موضوعي خارجي.

لأنّ المسؤلية الحقيقية لا تقوم إلاّ بين جهتين: مسؤل، ومسؤل لديه أعلى. وبدون ذلك لا يمكن أنْ يكون شعوره بالمسؤلية موضوعياً؛ لأنّ المُثل

---

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) سبأ: ٣٤.

(٣) المؤمنون: ٣٣.

الأخرى إنّما هي إفراز بشري ونتاج للإنسان نفسه، ولا يمكن للإنسان أنْ يشعر بصورة موضوعية بالمسؤلية تجاه ما ينتجه ويفرزه بنفسه.

نعم، قد يشعر بذلك بصورة وهمية وخيالية، سرعان ما تتبدد لأي طارئ، فهي كما قال القرآن الكريم عنها: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾[1]، فقد يصنع المَثل المحدود قوانين وعادات وأخلاقا، ولكنّها مجرّد غطاء ظاهري يتحلّل الإنسان من التزاماتها كلّما وجد مجالاً لذلك، بخلاف المَثل الأعلى الإلهي الذي يعمّق الشعور بالمسؤلية، بحيث يحسّ الإنسان من خلاله أنّه بين يدي إله قادر سميع بصير، يحاسب ويعاقب على الظلم، ويجازي ويثيب على الإحسان والعدل.

وهذا التغيير الكيفي (الشعور بالمسؤلية) ليس مجرّد أمر عرضي وثانوي وأخلاقي في مسيرة الإنسان، بل هو شرط أساسي في إمكان نجاح هذه المسيرة، لما يقدّمه من حل موضوعي للتناقض الإنساني الدائم بين روحه وجسده، وبين حفنة التراب والنفخة الإلهية فيه، كما تشير إلى ذلك الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾[2]، فالإنسان مجموع نقيضين في محتواه النفسي، وبحسب تركيبته الداخلية يضعه في موضع الفتنة والابتلاء ليتكامل من خلالها، ولا يمكن أنْ يتحقق هذا التكامل الذي يحل هذا التناقض إلاّ من خلال الشعور بالمسؤلية الموضوعية

---

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) السجدة: ٧ - ٩، راجع الحجر: ٢٨ ــ ٢٩، وص: ٧١ ــ ٧٢.

المنفصلة عن ذاته.

العصمة واستقامة الأنبياء

وهذا التغيير الكيفي هو الذي يفسّر لنا ظاهرتين: اجتماعية، وعقائدية.

أمّا الظاهرة الاجتماعية، فهي ظاهرة صمود واستقامة الأنبياء على مرّ التأريخ، فقد كانوا ـ دائماً ـ أصلب الثّوار وأنظفهم وفوق كل مساومة ومهادنة وتأرجح يميناً أو يساراً، بل كانوا مثال الصبر والصمود والاستقامة، ولم يعرف تأريخهم أنّ أحدهم تعرّض للانهيار أو التراجع، مع أنّ التأريخ الإنساني شهد أمثلة على انهيار الكثير من الثوّار والمصلحين، والسبب في صبرهم وصمودهم واستقامتهم، هو أنّ شعورهم بالمسؤلية الموضوعية كان عالياً، تجّسد في كل كيانهم ومشاعرهم وأفكارهم وعواطفهم.

وأمّا الظاهرة العقائدية، فهي ظاهرة اشتراط العصمة في الأنبياء، فإنّ العصمة هي: عبارة عن هذا الشعور العالي الواعي الراسخ في الإنسان، بحيث يعصمه عن الأخطاء أو الانحراف أو الضعف أمام الضغوط الداخلية والخارجية.

دور آخر للدين في المجتمع الإنساني

٤ ـ وبهذا الفهم يمكن أنْ نعرف دوراً آخر للدين في المجتمع الإنساني: هو عبارة عن تنمية الحركة الاجتماعية كمّاً وكيفاً، وذلك من خلال:

أ) فتح آفاق وأبواب الإبداع أمام مسيرة الإنسان في هذا الطريق اللامتناهي، بحيث تتحوّل هذه المسيرة إلى تقدّم مستمر في التكامل الروحي والمعنوي.

ب) تعبيد الطريق الطويل أمام هذه المسيرة بإزالة الالتباس وجميع

العوائق من الأصنام المزيفة والآلهة المصطنعة والمُثُل المنخفضة التكرارية أو المحدودة، التي تحاول أنْ تجمّد حركة الإنسان أو توقفه في وسط الطريق، وبذلك يصبح دين التوحيد حامل لواء المعركة ضد هذه الآلهة، وضد جميع القيود الأُخرى التي تُفرض على العقل أو الإرادة، ومنها: الطغاة، والمستبدين، والمترفين، ليطلق حركة الإنسان من قيودها وحدودها الضيقة، ويستأصل من خلال تلك الحركة نحو المطلق مصالح الطغاة والمترفين.

ج) حل التناقض القائم في الإنسان بين روحه وجسده، وبين ميوله وشهواته ومصالحه المادية الضعيفة، وبين التكامل الروحي والأخلاقي في مسيرته إلى الله تعالى، وذلك من خلال الشعور بالمسؤلية الموضوعية أمام الله تعالى الذي هو المَثَل الأعلى الحقيقي المطلق، وطرح فكرة التعويض بالأجر والثواب على الطاعة والتزام حدود الله، والعقاب على الإثم وتجاوز الحدود الإلهية والمصالح الاجتماعية الحقّة.

عناصر العقيدة الاجتماعية

٥ ـ وتبني المسيرة البشرية لهذا المَثَل الأعلى الحق يتوقّف على عدة أمور، وهي:

التوحيد

أ) الرؤية الواضحة الفكرية لهذا المَثَل الأعلى، وهو ما يتمثّل بعقيدة التوحيد التي تنطوي على الإيمان بالله سبحانه، الذات التي تتحد فيها كل صفات الكمال، من العلم والقدرة والعدل... التي تمثل الغايات والطموحات والتطلعات البشرية.

وهذه العقيدة تعلّمنا كيف نتعامل مع صفات الكمال هذه، لا بوصفها حقائق عينية ثابتة في الواقع منفصلة عن حياتنا فحسب، بل بما هي صفات

وأخلاق تمثل الغاية والهدف للمسيرة العملية والسلوك الإنساني التكاملي، وبما هي ـ أيضاً ـ هداية في الطريق الطويل للإنسان نحو الله سبحانه.

المعاد

ب) طاقة روحية ومعنوية مستمدَة من هذا المَثل الأعلى تكون رصيداً ووقوداً مستمراً للإرادة البشرية على مرّ التأريخ، وهي مستمّدة من الله تعالى ـ كما ذكرنا ـ وهذه تتمثّل بـ (عقيدة يوم القيامة) عقيدة (الحشر والامتداد والبقاء)، حيث يتعلم الإنسان أنّ هذه الساحة الصغيرة الدنيوية مرتبطة مصيرياً بساحات أخرى (برزخية) عالم البرزخ و(حشرية) عالم الحشر والنشور والآخرة، وهي ساحات عظيمة، وهذه العقيدة تعطي تلك الطاقة الروحية والوقود الرباني، الذي ينعش إرادة الإنسان، ويحفظ له قدرته على التجديد.

النبوة

ج) إنَ هذا المَثل الأعلى لما كان منفصلاً عن الإنسان، وله وجود عيني واقعي في كل زمان ومكان، فهو يفرض ضرورة وجود صلة موضوعية حقيقية لا مزيّفة بين الإنسان وهذا المَثل الأعلى، وهذه الصلة تتجسّد في النّبي ودور النبوّة.

فالنبيّ هو ذلك الإنسان الذي يركّب بين الرؤية الواضحة للمَثل الأعلى في عقيدة التوحيد والطاقة الروحية المستمدّة من الإيمان يوم القيامة، ثمّ يحمل ذلك إلى البشرية ليكون الوسيلة والصلة مع الله تعالى، والبشير والنذير من الله تعالى لها.

ولابد له من إقامة الدليل والحجة على ذلك، في مقابل بعض الأدعياء والطغاة الذين نصبوا أنفسهم وسطاء.

الإمامة

٥ ـ إنّ البشرية بعد أنْ تأتيها الرسالة الإلهية، قد تختلف في هذه الرسالة ـ كما يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة وتحدثّنا عنها ـ فلا يكفي البشير والنذير لها، لأنّ مرحلة الاختلاف تعني مرحلة وجود الآلهة المضلّلة على الطريق وانتصاب المُثُل المنخفضة أو التكرارية المحرّفة، ولا بدّ لها من أجل الخلاص أنْ تخوض معركة ضد الآلهة المخادعة، فتحتاج إلى قيادة تتبنّى هذه المعركة، وهذه القيادة هي: (الإمامة).

فالإمام هو القائد الذي يتولّى هذه المعركة، ودوره يندمج مع دور النبوّة في مرحلة من مراحل النبوّة ـ هي في أكبر الظن بدأت مع نوح عليه السلام ـ ولكن دوره يمتد حتى بعد النبيّ إذا خلت الساحة منه، وبعد لا تزال المعركة قائمة، من أجل القضاء على تلك الآلهة المصطنعة، أو كان يتوقّع عمليات الخداع والتضليل والتحريف.

أصول الدين الخمسة

وعلى ضوء هذه الأمور، يمكن أنْ نكوّن رؤية واضحة لما نسميَه بأُصول الدين الخمسة على مذهب أهل البيت عليهم السلام:

١ ـ (التوحيد) الذي هو: عبارة عن رؤية واضحة للمَثَل الأعلى، ورؤية واضحة للطريق إليه.

٢ ـ (العدل) الذي هو: صفة من صفات المَثَل الأعلى، على حدّ صفات الكمال الأُخرى، كالعلم، والقدرة، وغيرها، ولكنّه اختص من دونها بالذكر والتأكيد، لأنّ العدل هو: الصفة التي تعطي للمسيرة الاجتماعية مسارها العملي التربوي المطلوب في التكامل الاجتماعي، ولذا كان له مدلوله الأكبر في الجانب العقائدي.

٣ ـ (النبوّة) التي هي: الصلة الضرورية الموضوعية بين الإنسان والمَثل الأعلى.

٤ ـ (الإمامة) التي هي: القيادة للمسيرة في مواجهة الآلهة المزيفة أو المحرّفة، وهي تكون موجودة مع النبوّة وبعدها، إذا كانت المعركة قائمة أو متوقعّة.

٥ ـ (المعاد) والإيمان بيوم القيامة وهو: الذي يمثّل الطاقة الروحية والوقود الربّاني والامتداد في الحياة والمسيرة، والشعور بالمسؤلية والضمانات الموضوعية.

وبذلك يمكن أنْ نعرف بأنّ أُصول الدين تساهم في تركيب المَثل الأعلى، وفي تقديم صورة العلاقة الاجتماعية ذات الأبعاد الأربعة ـ كما ذكرناها آنفاً ـ (الإنسان، والإنسان الآخر، والطبيعة والله المستخلِف لهذا الإنسان).

كما اتضح ـ أيضاً ـ دور الإنسان في المسيرة التأريخية، فهو مركز الثقل فيها من خلال وجوده الروحي والنفسي، وأنّ الأساس في بناء الوجود الروحي والمحتوى الداخلي له، هو المَثل الأعلى الذي يتبنّاه.

وأنّ التغيير الاجتماعي، إنّما يتحقّق بتغيير هذا المحتوى الداخلي، أي: بتغيير المَثل الأعلى للإنسان، وأنّ المَثل الأعلى الحق للإنسان هو الله تعالى الذي يمثّل بُعداً رابعاً في العلاقة الاجتماعية الصحيحة، في قبال (الهوى، والشيطان، والطاغوت) الذي يمثّل البُعد الرابع في العلاقة الاجتماعية الضالة المنحرفة.

الباب الخامس

الدين
والعلاقات الاجتماعية

الفصل الأول:
الدين وعلاقة الإنسان بالطبيعة

الفصل الثاني:
الدين وعلاقة الإنسان بالإنسان

الفصل الثالث:
الدين والعلاقات الاجتماعية المتبادلة

توطئة

ذكرنا - سابقاً - أنّ النظريات الاجتماعية ترى ـ وبصورة عامة ـ أنّ الأركان والعناصر الأساسية التي يتألّف منها كل مجتمع إنساني، هي: الإنسان، والأرض، والعلاقة بينهما، والنظام الذي يحدّد شكل هذه العلاقة، وأنّ النظرية القرآنية تمتاز عن غيرها من النظريات بإضافتها لركن آخر هو: بُعد علاقة الإنسان بالله سبحانه تعالى وعلاقته بالمَثَل الأعلى، وقلنا: بأنّ إضافة هذا البُعد ليست مجرد إضافة رقم إلى الأرقام الماضية، بل لهذا البُعد أثر مباشر ومهم في الأبعاد الأُخرى ـ أيضاً ـ بحيث إنّ نظرة الإنسان إلى عناصر مجتمعه سوف تختلف من خلال هذا البُعد الجديد تماماً، وذلك لأنّ القرآن الكريم ينظر إلى الإنسان من خلال هذا البُعد باعتباره (مستخلَفاً) من قبل الله سبحانه وتعالى (المستخلِف)، وينظر إلى الطبيعة باعتبارها (مخلوقة) لله سبحانه وتعالى، كما ينعكس أثر هذا البُعد ـ أيضاً ـ على العلاقة القائمة بين الإنسان والطبيعة من جهة، وبينه وبين الإنسان الآخر من جهة أُخرى.

وقد تحدثنا ـ سابقاً ـ عن علاقة هذا البُعد بركني (الإنسان) و(الطبيعة)، وبقي علينا أنْ نتحدّث عن علاقته بركن (العلاقة) القائمة بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان الآخر، والتأثير المتبادل بين هاتين العلاقتين، فموضوع البحث هو: (العلاقات الاجتماعية في إطار نظرية الاستخلاف) التي هي نظرية الدين والقرآن في هذه العلاقات.

وسوف يكون البحث في هذا الباب على ثلاثة فصول

الأول: الدين وعلاقة الإنسان بالطبيعة.

الثاني: الدين وعلاقة الإنسان بالإنسان.

الثالث: الدين والعلاقات الاجتماعية المتبادلة.

الفصل الأول

الدين
وعلاقة الإنسان بالطبيعة

يتحرّك الإنسان في الطبيعة من أجل أنْ يسدّ حاجاته منها، ومن ثمّ فهو يعمل من أجل أنْ يهيمن على هذه الطبيعة، ويسخرها لخدمته.

ولكنّ الإنسان ومن خلال حركته هذه لتسخير الطبيعة يواجه مشكلة أساسية، تتمثّل في احتمال عدم استجابة الطبيعة لحاجاته وتمرّدها على إرادته، وذلك لأنّها تخضع لنظام كوني واسع، يكون في أكثر الأحيان أقوى وأقدر من قدرة الإنسان وحركته.

فقد يجد نفسه وجهاً لوجه أمام هذه المشكلة، وهو يحاول أنْ يسدّ حاجته من الأكل والشرب مثلاً، فيهرب الحيوان الذي يحاول اصطياده من أجل توفير لقمة الغذاء لسد جوعه، فلا يستطيع اللحوق به لسرعته، ويتعسّر عليه الحصول على الماء لوجوده في جوف الأرض، أو في موضع عالٍ لا يستطيع الوصول إليه.

أو يجد الإنسان نفسه في مواجهة مخاطر من نوع آخر، تواجهه بها الطبيعة، وتحاول من خلالها أنْ تستهدف وجوده مباشرة، من قبيل الفيضانات، والكوارث الطبيعية، والحيوانات المفترسة وما شابه ذلك.

بل قد تواجهه الطبيعة بالتمرّد والعصيان، وهو يحاول إعمارها وزراعتها لصعوبة تضاريسها ووجود الأحجار والصخور والمرتفعات التي تمتنع على الإعمار والزراعة، أو الآفات والأمراض المدّمرة لها وغيرها.

والخلاصة: إنّ الإنسان يواجه وبصورة دائمة مشكلة تمرّد الطبيعة عليه، سواء في سدّ حاجاته منها، أو عيشه فيها، أو إعماره لها، فكيف ينظر القرآن الكريم والدين إلى هذه المشكلة؟ وما هي الحلول التي وضعها بين يدي الإنسان من أجل حلّها؟

إنّ فهم هذه المشكلة ومعرفة الحلول التي وضعها القرآن الكريم والدين لعلاجها، يتطلّب منّا البحث في بُعدين أساسيين هما:

الأوّل: هل أنّ الله سبحانه وتعالى قد خلق هذه الطبيعة، بحيث تفي بكل احتياجات ورغبات الإنسان، وإنْ كان يتكاثر ويتزايد بأعداد كبيرة ومستمرّة؟

الثاني: كيف يتمكّن الإنسان من السيطرة على هذه الطبيعة، ومن إخضاعها لسد حاجاته ورغباته؟

أمّا بالنسبة للبُعد الأول: فقد تعرّضت الكثير من الآيات المباركة للإجابة على هذا التساؤل المطروح فيه، من قبيل قوله تعالى: **﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا...﴾**[1]، حيث أكّد القرآن الكريم على أنّ هذه الطبيعة تؤمّن للإنسان كل ما يحتاجه، إذ الظاهر من قوله تعالى: **﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ...﴾** لا يراد منه السؤال عند الدعاء، لأننا نجد في كثير من الأحيان أنّ الإنسان يُؤتى ما يحتاجه دون أنْ يسأل الله تعالى بالدعاء، وقد لا يُؤتى ما يسأله بالدعاء، فالمراد ـ والله العالم ـ من السؤال هنا ـ بقرينة صدر الآية التي تتحدّث عن التسخير ـ هو السؤال الحقيقي المعبّر عن حاجة موضوعية في حياة ووجود الإنسان، فكل ما يسأله الإنسان ويحتاجه في حركته الوجودية، آتاه الله تعالى إيّاه، وحققّه له يؤكّد هذا المعنى ـ أيضاً ـ قوله تعالى: **﴿...وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا...﴾**، إذ خرجت هذه النعم الإلهية عن حدّ الإحصاء، فهي محيطة بكل حاجات الإنسان وملبية لكل رغباته.

وهكذا نلمس مثل هذا المعنى في مثل قوله تعالى: **﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾**[2].

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) الذاريات: ٢٢.

وقوله تعالى: ﴿... هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1]، وغيرها من الآيات.

وأمّا بالنسبة للعبد الثاني: فالذي يتبيّن من القرآن الكريم، أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الطبيعة بصورة جعلها مسخّرة للإنسان وتحت قدرته وسيطرته، إذا أراد الإنسان ذلك، بحيث إنّ مسألة ترويض الطبيعة والسيطرة عليها قد تُركت للإنسان نفسه، الذي حباه الله تعالى بالعقل والإرادة والقدرة على اكتساب العلم والخبرة من التجربة، كما تشير إلى ذلك آيات خلافة الإنسان على الأرض التي سبق الحديث عنها، وآيات تسخير الطبيعة للإنسان.

فمن خلال ممارسة الإنسان العملية في الطبيعة ذاتها يكتشف وبالتدريج أسرار وقوانين السيطرة عليها، لأنّه ومن أجل الحصول على حاجاته، لابد وأنْ يمارس عملاً ما، ويقوم بتجربة ما، فيحصل على خبرة لا محالة، الأمر الذي يدفعه لأنْ يفكر في ممارسات أخرى وتجارب أخرى، وفي ميادين أُخرى لتزداد قدراته وإمكاناته التي يهيمن من خلالها على الطبيعة بصورة أوسع وأكبر، وهكذا كلما اكتسب الإنسان خبرة من خلال تجربة اندفع لكي يمارس تجربة أخرى من أجل خبرة أخرى، فهو يعيش حالة التبادل المستمر بين التجربة والخبرة، الأمر الذي يؤدي إلى نمو معرفة الإنسان وزيادة خبرته العملية في كيفية السيطرة على الطبيعة وتذليل صعابها، من أجل أنْ تلبّي حاجاته الكثيرة وتشبع رغباته المختلفة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة من خلال الآيات التي تحدّثت عن خلق السماء، والأرض وتسخير ما فيهما جميعاً، كالسحاب، والمطر،

---

(١) فاطر: ٣.

والبحار لتجري الفلك فيها، والأنهار، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، وغيرها، كما شهد التأريخ البشري بذلك - أيضاً - وذلك لما حبا الله تعالى به الإنسان من القدرات والإمكانيات التي تجعله قادراً على الاستفادة من هذه المخلوقات قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ...﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً...﴾[3].

وقال تعالى: ﴿...سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[4].

وتظهر المعادلة واضحة بين هذين البُعدين (الوفاء بالحاجات الإنسانية، والتسخير) في آيات سورة إبراهيم عليه السلام السابقة - كما أشرنا إلى ذلك - مما يؤكد الترابط بينهما، ولا سيما إذا لاحظنا أنّ هذه الآيات جاءت في سياق الحديث عن الإيمان والإنفاق والعمل الصالح، مما يلقي الضوء على الشروط المطلوبة في هذا التسخير.

نعم، قد تتدخل السماء في الموارد التي يعجز فيها الإنسان عن الاهتداء ومعرفة الطريق بنفسه لسدّ حاجاته من الطبيعة ويصل إلى طريق مسدود، فيأتي

---

(١) إبراهيم: ٣٢ ــ ٣٤.

(٢) الجاثية: ١٣.

(٣) النحل: ١٤.

(٤) الزخرف: ١٣.

دور السماء ودور الأنبياء والرسل ﷺ كحالة استثنائية لهدايته في حلّ هذه المشكلات وتذليل مثل هذه الصعاب، مثل ما حدث لأبني آدم ﵇ حين قتل قابيل هابيل واحتار في جثّته، فبعث الله تعالى غراباً ليُري قابيل كيف يدفن جثّة أخيه ويواري سوءته، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1].

ويمكن أنْ يحمل على ذلك ـ أيضاً ـ ما تشير إليه بعض (الآيات الكريمة) من تدخّل إلهي مباشر في تعليم بعض الأنبياء، كما في قضية داود ﵇ حيث علّم كيفية صنع الدرع، وألين له الحديد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾[3].

ومع كل هذا، فإنّ القاعدة والسنّة الإلهية هي أنّ التجربة والممارسة البشرية هي الأساس في معرفة وسائل تسخير الطبيعة والاستفادة منها، وأمّا التدخّل الإلهي في مثل هذه الأُمور فهو تدخّل استثنائي فقط.

يبقى لدينا سؤال لا بدّ من معالجته ـ أيضا ـ وهو: لماذا ترك الله تعالى شؤون السيطرة على الطبيعة وتسخيرها إلى الإنسان وعقله وتجاربه، ولم يقدّم له المعرفة الكاملة التفصيلية فيها، كما صنع ذلك بشأن سلوك الإنسان

---

(١) المائدة: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سبأ: ١٠.

(٣) الأنبياء: ٨٠.

وعمله وطريقة وصوله إلى الآخرة، حيث قدّم له الطريق والمنهج، وأبان له سبيل الهداية والمعرفة لذلك؟

أليس مقتضى الرحمة الإلهية واللطف الرباني أنْ يصنع الله في الإنسان بشأن الدنيا، كما صنع ذلك بشأن الآخرة؟

والجواب: عن هذا السؤال واضح بقليل من التأمّل والتفكير، وقد أشرنا إلى بعض أبعاده سابقاً:

أوّلاً: إنّ الله خلق في الإنسان العقل والقدرة على الاستنتاج والتفكير، ممّا يؤهلّه لاكتساب العلم ونمو التجربة، بحيث يهتدي إلى تسخير الطبيعة، وأضاف إلى ذلك من لطفه بتذليلها له إذ اتصف الإنسان بالإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...﴾[1]، ومن ثمّ فلا يواجه الإنسان مشكلة حقيقية في هذا الطريق.

وهذا بخلاف الآخرة والدين، فإنّها ممّا لا يمكن للإنسان أنْ يصل فيها إلى الحقيقة الكاملة بما يسدّ حاجاته بالتجربة والعقل وحدهما، لأنّ الآخرة (غيب) هذا من ناحية.

ومن ناحية أُخرى فإنّ (التجربة) الاجتماعية تختلف عن التجربة العلمية في دوافعها، فقد يصل الإنسان في التجربة الاجتماعية إلى الحقيقة، ولكن لا يعمل بها لوجود التضاد فيها بين المصالح الخاصة والعامة أو بين مصالح القوي والضعيف.

كما أنّ التجربة الاجتماعية لا تتراكم وتتطوّر كالتجربة العلمية، لاحتياج

---

(١) الأعراف: ٩٦.

التجربة الاجتماعية إلى وقت طويل لا يسمح بتراكم التجربة، كما في التجربة العلمية التي تتراكم في المختبر، بل قد تتراجع التجربة الاجتماعية بسبب موت وفناء أصحاب التجربة أنفسهم، وتبدّل الفهم والمصالح، أو بسبب عدم وصولهم إلى النتائج النهائية فيها.

وثانياً: إنّ الحياة الدنيا بنظر الدين هي: لهو، ولعب، وزخرف، وغرور، فهي ليست بذات أهميّة إلاّ بقدر علاقتها بالآخرة، ودورها في البلاء والامتحان والفتنة، ولذلك فإنّ الخطأ فيها أو عدم الوصول إلى النتائج المطلوبة لا يؤثّر على مصير التكامل الإنساني، بخلاف الآخرة فإنّها الحياة الحقيقية للإنسان، وإنّ الضلال أو عدم الوصول إلى الأهداف المطلوبة فيها يكون هلاكاً حقيقياً للإنسان.

وثالثاً: إنّ الحكمة الإلهية ـ والله العالم ـ اقتضت أنْ يكون أحد مجالات الامتحان والابتلاء والفتنة هو مجال تعامل الإنسان مع الطبيعة، من خلال جهده وتعبه، ليكون له بذلك مزيد من الأجر والثواب، أو علامة للخسران والعقاب، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[1]. وبهذلك يتبيّن الفرق بين الأمرين.

ويهذا نعرف أنّ نظرة الدين إلى العلاقة بين الإنسان والطبيعة هي:

أ) وفاء الطبيعة بحاجات الإنسان الدنيوية دون بؤس أو فقر.

ب) سيطرة الإنسان على الطبيعة من خلال تسخيرها، من قبل الله تعالى للإنسان بعقله وتجاربه أو بالفضل والرحمة الإلهية.

---

(١) الملك: ١٥.

ج) تدخّل عامل السلوك والإرادة الإنسانية في هذه العلاقة، بحيث تصبح علاقة بركة وأمن واستقرار وصلاح مع الإيمان والتقوى، وعلاقة عذاب واضطراب وفساد مع الكفر والعصيان والآثام.

الفصل الثاني

الدين

وعلاقة الإنسان بالإنسان

مشكلة الصراع بين القوي والضعيف

وتواجه هذه العلاقة ـ أيضاً - مشكلة حقيقية تنبع من نزعات الشيطان وهوى النفس الإنسانية وتغذية الغرائز التي أودعها الله في الإنسان، فتتجاوز وتطغى في تأثيرها، وتنعكس في بعض مظاهرها على العلاقات بين الإنسان والإنسان، فتتحوّل العلاقات إلى علاقات الصراع والتضاد في المصالح بين القوي والضعيف، حيث فضّل الله تعالى بعض الناس على بعض في الخلق، من حيث القدرة والفرصة، ومن حيث النتائج في الرزق والإمكانيات، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك[1].

حينئذٍ يحاول القوي الاستئثار بالمنافع، أو الإسراف في الشّهوات والملذّات، وحرمان الضعيف منها، أو التسلّط والهيمنة عليه وعلى المقدّرات، حيث يعبّر من خلال ذلك عن حالة الهوى والطغيان التي يعيشها.

وتعتبر هذه المشكلة إحدى المشاكل الأهم والأساس من بين المشاكل التي اهتمت بها الرسالات السماوية والمدارس والفلسفات الاجتماعية الأخرى، وحاولت كل منها أنْ تطرح الحلول التي تراها مناسبة لمعالجتها.

إنّ التدقيق في هذه المشكلة وبحثها بصورة عميقة وواسعة، يظهر لنا تعدد الأسباب واختلاف المجالات والأشكال التي تظهر فيها:

---

(١) ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...﴾، النحل: ٧١

تعارض المصالح بين القوي والضعيف

١ ـ أمّا على مستوى المجالات، فيمكن ملاحظة المجالات الثلاثة التالية:

المجال الأول: مجال توزيع الثروة الطبيعية

ففي الطبيعة ـ كما ذكرنا ـ طاقات وإمكانيات وثروات هائلة وكافية لسدّ حاجات الإنسان إذا وُزعت من خلال علاقات اجتماعية متوازنة وعادلة، غير أننا نجد بروز مشكلة استغلال القوي للضعيف في هذا المجال بصورة واسعة، وذلك حينما يستأثر القوي بحصة الأسد من هذه الثروات، أو يقوم بهدر الطاقات والإمكانيات وتبذيرها بسبب نزغات الشيطان والهوى وطغيان غريزة التملّك، ومحاولته لإشباع حاجاته في الأكل والشرب والملبس والمسكن، والاستزادة من الأموال لزيادة القدرة والقوة، فيختلّ التوازن في المجتمع، ويواجه ظاهرة الجوع والمرض والجهل، وهذه ظاهرة شهدها التأريخ في مختلف أدواره، وقد لا نجد مرحلة تأريخية لم تعش البشرية فيها هذه الظواهر بسبب هذه المشكلة.

المجال الثاني: مجال العلاقات الجنسية والأسرة

وقد أودع الله تعالى في الإنسان غريزة الجنس والرغبة في الاتصال الخاص بين الرجل والمرأة ـ كما أودعها في الحيوان أيضاً ـ وكان من وراء ذلك أهداف إنسانية وحيوانية مشتركة، ترتبط بوجود الإنسان واستمرار بقائه على الأرض، ولذلك خلق منه زوجه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ

عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[١].

كما أنّ وراء ذلك ـ أيضاً ـ أهدافاً اجتماعية ترتبط بالعلاقات الإنسانية نفسها، حيث يختلف الإنسان فيها عن الحيوان، وهي وجود العلاقات الشعوبية والقبائلية (الأرحام) فيما بين أفراده، وقد أشارت الآية الكريمة السابقة وما بعدها إلى ذلك من خلال الحديث عن علاقات الأرحام وحقوقهم، وهكذا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[٢].

كما تحدّث القرآن الكريم عن ذلك في مواضع عديدة، عندما تناول موضوع الأسرة بمختلف أبعاده وأحكامه وحقوقه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]، حيث تعرّضت الآية المباركة لموضوع الأسرة بمختلف أبعاده وأحكامه.

ولكن هذه الغريزة والعلاقات الجنسية أصبحت مجالاً آخر من مجالات ظهور المشكلة في العلاقات الإنسانية، ووجهاً آخر للتعبير عن مشكلة العلاقات بين القوي والضعيف، وذلك حينما ينساق الإنسان مع هذه الغريزة ومع حبّه للعلاقات الجنسية بدرجة كبيرة، فيتجاوز في ممارسته لها الموازنة الطبيعية والعدالة الاجتماعية فيسعى للاستزادة منها في كثرة الأزواج والأولاد، كمظهر من مظاهر طغيان الشهوة والحصول على

---

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) الروم: ٢١.

القوة والقدرة، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع عدة، منها: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1].

وهنا يصبح للقوي القدرة على تجسيد هذا الانسياق خارجياً على حساب الضعيف، فيكون ذلك أحد مظاهر اختلال التوازن في علاقات المجتمع وإشاعة الفساد والانحراف الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي فيه.

وقد شهدت البشرية مظاهر تجارة الرقيق الأبيض والدعارة، بل الحروب بسبب الاعتداء على الحرمات والأعراض، مما سبّب هذا الطغيان الذي يؤدّي إلى سقوط المجتمعات الإنسانية.

مضافاً إلى ذلك ظاهرة طغيان الرجل القوي بصورة عامة بالنسبة إلى المرأة، وانتهاكه لحرماتها باعتبارها الطرف الضعيف في العلاقة، ومصادرته لحقوقها واستغلالها، سواء في إطار العلاقات الإنسانية العامة، أم في العلاقات الخاصة في داخل الأسرة والعائلة، بحيث تتحول إلى ما يشبه السلعة والمال في بعض الأحيان.

المجال الثالث: مجال السلطة والجاه والمقامات الاجتماعية

يعيش الأفراد داخل المجتمع طبيعياً حالات الاختلاف في القدرات والإمكانيات، وهنا يحاول القوي بدافع غريزة حب الجاه والمقام والسلطان، أنْ يستخدم كل قدراته وإمكانياته العالية والكبيرة من أجل الوصول إلى الهيمنة والتسلّط على المجتمع، وادّعاء الجاه والمقام والرئاسة حتى ينتهي به الأمر ـ أحياناً ـ إلى ادعاء الربوبية، كما

---

(١) سبأ: ٣٥، وراجع أيضاً الإسراء: ٦٤، والحديد: ٢٠، والتوبة: ٦٩.

تحدّث القرآن الكريم عن ذلك في سلوك الكافرين والمشركين وفي الظاهرة الفرعونية.

وهكذا يتأجّج الصراع بين القوي والضعيف المحروم من أغلب احتياجاته ومتطلّبات عيشه، وقد عبّر القرآن الكريم عن حالة حرمان القوي للضعيف بالطغيان والإسراف والاستكبار[1].

أشكال الصراع

٢ ـ وأمّا على مستوى أشكال الصّراع، فإنّنا إذا انتقلنا من المجالات التي تظهر فيها مشكلة الصراع بين القوي، الضعيف إلى الأشكال التي تتخذها، نجد بأنّها يمكن أنْ تظهر على عدة أشكال أيضاً:

الشكل الفردي

أوّلاً: الشكل الفردي، وذلك من خلال الطاغية الذي يظهر على مسرح الحياة الاجتماعية، فيمارس ألوان الظلم والطغيان والاستكبار من خلال القوة التي تجمعت لديه بسبب استئثاره بإمكانات وقدرات مجتمعه، فيذيق أهله وقومه أو مجتمعه ومن تصل يده إليهم ألوان الشقاء وصنوف العذاب، وبذلك تبرز الحالة (الفرعونية) في المجتمع الإنساني متمثّلة بالطغاة، أمثال فرعون، ونمرود، وقارون، ويزيد، وتيمورلنك، وهتلر، وستالين، ورضا بهلوي، ومصطفى كمال، وصدام، وكل طاغية عرفته المسيرة البشرية في حاضرها أو ماضيها أو ستعرفه في الآتي من أيامها ومستقبلها.

---

(١) لقد عالجنا هذه الأسباب والدوافع والعوامل عندما تعرّضنا إلى عوامل الاختلاف وأسباب تفكّك الوحدة الاجتماعية الفطرية.

الشكل الجماعي

ثانياً: الشكل الجماعي، وذلك من خلال جماعة أو عشيرة تشترك في مصالح معيّنة أو طبقة اجتماعية، حيث تصبح طبقة معينة من طبقات المجتمع، كطبقة النبلاء في المجتمع الأوربي، أو الروماني، أو الفارسي سابقاً، أو عشيرة قريش في مكة في العصر الجاهلي، أو بني إسرائيل في عصره عيسى عليه السلام، أو طبقة (الكهنوت) في عهود سيطرة الكنيسة، أو طبقة أصحاب رؤوس الأموال، أو ملاّكي الأراضي، أو الشركات الكبيرة الاقتصادية متعددة الجنسيات، أو الطبقات السياسية في الأحزاب والمجتمعات أو المؤسسات الإعلامية، حيث تصبح هذه الطبقات السياسية والاجتماعية قويّة في مقابل الطبقات الأُخرى المستضعفة في المجتمع، بسبب احتكارها واستئثارها بثروات وقدرات مجتمعها، وهيمنتها وتسلّطها بغير حق على الآخرين.

الشكل الأممي

ثالثاً: الشكل الأُممي والعالمي، وذلك من خلال سيطرة أُمّة على أُمّة أو أُمم أخرى وهيمنتها وتسلطّها عليها، واستئثارها بالثروات والإمكانيات المتاحة لها ومحاولة احتكارها والسيطرة عليها دون غيرها من الأُمم، كما شاهدنا ذلك في بعض الأُمم الغربية في عهود الاستعمار الحديث العسكري والسياسي والاقتصادي، وبذلك تتحوّل الأُمّة كأُمّة إلى فرعون، أو نمرود، أو طاغوت من الطواغيت يحاول إخضاع العالم لهيمنته ولسلطته الغاشمة الظالمة.

حل مشكلة الصراع بين القوي والضعيف

الحل الرسالي (القرآني)

لقد تعرّض القرآن الكريم إلى طرح الحل المناسب لمشكلة الصراع بين القوي والضعيف، بالرغم من سعة مجالاتها وتعدد أشكالها، واعتمد في

طرحه هذا على نظرته الواسعة والمتفتحة والعميقة لهذه المشكلة، إذ إنّ الإسلام، بل الرسالات السماوية بشكل عام، تختلف في رؤيتها لهذه المشكلة عن رؤية النظريات المادية والوضعية لها.

فلم يحصر الإسلام هذه المشكلة في صراع معيّن بين فرد وآخر، أو طبقة وأخرى، كما فهمت الماركسية، أو عرق وآخر، كما فهمت النازية، كما لم يحصرها في مجال معيّن، كالمجال الاقتصادي، أو مجال الأسرة، أو الأمّة، بل نظر إليها باعتبارها مظهراً لحقيقة تمثّل السبب لكل هذه الصراعات وأمثالها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإنّ الإسلام لم ينظر إلى مشكلة الصّراع بين القوي والضعيف على أنها مشكلة تخصّ أمّة من الأمم ومجتمعاً من المجتمعات البشرية، أو في مرحلة تأريخية لها، بل اعتبرها مشكلة تشمل كل المجتمعات الإنسانية الغربية والشرقية، في ماضي المسيرة البشرية وحاضرها ومستقبلها إلى أنْ تصل إلى الوحدة المنشودة.

كما أنّه لم ينظر إليها نظرة سطحية، بل نظر إليها نظرة معمّقة تستهدف كشف أصول ومنابع هذا الصراع القائم بين القوي والضعيف، حيث ربطه بصراع أعمق موجود في نفس الإنسان ذاته، وهو صراع (الهوى) مع (العقل) والرسالة الإلهية مع الشيطان؛ لأنّ الإنسان ـ وعلى ما سبق بيانه ـ يعيش في داخله صراعاً بين شهواته ورغباته وميوله التي أودعها الله تعالى فيه، وبين العقل الذي يهديه إلى الحق من خلال اتّصاله بالمَثَل الأعلى سبحانه وتعالى، هذا الحق الذي يجعل الإنسان متكاملاً وسائراً في الطريق إلى الله تعالى.

كما يتعرّض الإنسان ـ أيضاً ـ إلى التضليل ونزغات الشيطان ووساوس إبليس، فكان أنْ أرسل الله إليه الهداية على يد الأنبياء عليهم السلام؛ لتوضح له

الطريق وتزيل عنه الأوهام: ﴿...فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وهكذا ربط الإسلام حلَّ مشكلة الصراع بين القوي والضعيف، بحلِّ مشكلة الصراع في الإنسان نفسه الذي ينشأ من عامل داخلي هو الهوى والعقل، وعامل خارجي هو الشيطان والهداية الرسالية، فطرح مسألة أنْ يعيش الإنسان نوعين من الجهاد ـ كما ذكرنا في البحث السابق ـ ليحلَّ بها ويعالج هذا الصراع:

الجهاد الأول: الجهاد الأكبر الذي يحلّ به الصراع على مستوى النفس البشرية، وعلى مستوى داخل الإنسان، وهو صراع الهوى مع العقل من خلال تربية الإرادة الإنسانية، وجعلها قادرة على سيطرة طغيان الغرائز والشهوات وتوجيهها باتجاه الحق من خلال الهداية الربّانية، وبذلك يعالج الأسباب الموضوعية لهذا الصراع في داخل النفس الإنسانية.

والجهاد الثاني: الجهاد الأصغر الذي يحاول أنْ يحل به الصراع على مستوى التناقض الاجتماعي الموجود في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، عندما يتطوّر الصّراع ويتحوّل إلى حالة اجتماعية يتمرد فيها الإنسان الطاغي وينساق مع الغرائز والشهوات بسبب الهوى ونزغات الشيطان، فيحدث الاختلال في التوازن الاجتماعي للعلاقات، فيحتاج إلى معالجة خارجية.

إذن، فالفهم الرسالي والإسلامي حاول أنْ يعالج أصل المشكلة وأسبابها الذاتية والداخلية من خلال الجهاد الأكبر الذي يهيمن به الإنسان على

---

(١) البقرة: ٣٨.

هواه، مما يجعله سائراً في طريق الحق، وملتزماً بمنهج الهداية. كما حاول أنْ يعالج المشكلة خارجياً عندما تتحوّل إلى حالة اجتماعية لا ينفع العلاج الأوّل معها، بل يحتاج علاجها إلى الجهاد الأصغر أيضاً.

وقام الإسلام من أجل ذلك بسن القوانين والأحكام الشرعية التي حددت السلوك الإنساني في العلاقات الاجتماعية وطبيعتها وشكلها، ليوضح المنهج والطريق في معالجة كلا الجانبين.

وبهذا اختلف هذا المنهج عن المناهج المادية، كالمنهج الأوربي ـ مثلاً ـ الذي حاول أنْ يعالج هذه المشكلة، إمّا باعتبارها جزءاً منفصلاً عن المشكلات الأخرى الروحية والمعنوية الموجودة في العالم. أو باعتبارها مشكلة خاصة بوجود فئة أو طبقة ما، يمكن معالجتها عن طريق القضاء على هذه الفئة والطبقة نفسها. أو عالجها على أساس معالجة الصورة والشكل وحدهما، دون معالجة الأسباب والمضمون والمحتوى، ودون الغوص إلى أصل المشكلة وأساسها.

الحلول المادية الوضعية للصّراع

ولبيان الفارق ـ بصورة أوضح ـ بين المعالجة القائمة على أساس رسالي لهذه المشكلة عن غيرها من المعالجات، نشير إلى نموذجين رئيسيين عرفهما إنسان العصر الحاضر، وانطلق فيهما من خلال النظريات المادية الوضعية، لمعالجة هذه المشكلة:

الحل الماركسي

الأوّل: وقد تبّنت هذا المثال وهذه المعالجة دول عديدة في عصرنا الحاضر، وعلى الأخص دول المعسكر الاشتراكي الذي انهار في التسعينات

من القرن السابق، لعدم قدرته على معالجة المشكلات التي تبنّى حلّها، بل أدّى العلاج إلى تفاقمها، ولكن بشكل آخر.

وملخّص ما تقدّمه النظرية الماركسية بهذا الخصوص هو: محاولة تشخيص المشكلة أوّلاً، وطرح العلاج ثانياً.

فقد شخّص (ماركس) بأنّ (المشكلة) القائمة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان ترتبط بظاهر (الصراع الطبقي)، وأنّ العامل الاقتصادي (مالكية وسائل الإنتاج) هو العنصر الأساس للمشكلة الذي يؤدّي إلى وقوع الصراع الطبقي بين طبقة المالكين لوسائل الإنتاج و(المستغلّين) والمستثمرين والمستأثرين بفوائد ومنافع هذه الوسائل، وطبقة العمّال أو الفلاّحين التي لا تملك شيئاً والتي تتحوّل بالتدريج إلى طبقة (مستغَلّة) ومستثمرة ومضطهدة ومحرومة، لا تحصل إلاّ على ما يجود به مالكي تلك الوسائل من الأجور التي لا تمثّل إلاّ الحد الأدنى لما يحتاجون إليه لاستمرار حياتهم، بل لولا حاجة المالكين لبقاء العمّال أحياء لكي يستمر الإنتاج وجني الفوائد والأرباح، جادوا عليهم حتى بهذا المقدار من الأجور.

كما أنّ تطوّر وسائل الإنتاج ونموّها يؤدي بصورة طبيعية إلى زيادة الإنتاج وجودته، ومن ثمّ ينعكس هذا التطوّر على الطبقة المالكة، فتزداد أرباحها ويرتفع مستوى معيشتها، بينما يتدنّى مستوى معيشة الطبقة العاملة، وذلك لأنّ زيادة الإنتاج تؤدي إلى زيادة عرضه في السوق فتنخفض أسعاره وفق قانون (العرض والطلب)، مما يحدو بصاحب وسائل الإنتاج إلى خفض أجور العمّال لمعادلة انخفاض أسعار المنتجات، وبالتالي ينخفض مستوى معيشة الطبقة العاملة لا محالة لقلة أجورها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أُخرى، فإنّ تطوّر وسائل الإنتاج وزيادتها يجعلها تحلّ محلّ الكثير من الأيدي العاملة التي يستغني عنها صاحب تلك الوسائل، فتصبح عاطلة عن

العمل، وهكذا يزداد بؤس هذه الطبقة واستغلالها يوماً بعد يوم.

وهنا يبدأ (الحل)، فتنمو في نفوس أصحاب الطبقة العاملة المحرومة أحاسيس المظلومية والحقد تجاه الطبقة المالكة التي تزداد ثراءً ورفاهاً وإمكانات وقدرات يوماً بعد يوم، وكلّما ازدادت هذه الأحاسيس كلّما نمت في نفوس العمال عوامل التغيير والثورة على هذه الأوضاع السيئة والمتردّية التي يعيشونها.

وفي مرحلة معيّنة تبدأ هذه الطبقة بحركة من أجل الإطاحة بطبقة المالكين لوسائل الإنتاج، المعبّر عنها بالطبقة (الرأسمالية)، وبعد نجاح هذه الحركة واستيلاء العمّال على وسائل الإنتاج، يتحوّل المجتمع إلى مجتمع واحد لا توجد فيه إلاّ طبقة واحدة هي (الطبقة العاملة)، التي هي الطبقة الأكثر والأشمل في الوجود الإنساني، ولا يبقى بعد ذلك صراع اجتماعي لزوال سببه الذي كان يتمثّل بوجود طبقتين: (طبقة مالكة) و(طبقة غير مالكة).

نقد الحل الماركسي

وقد ارتكب التحليل الماركسي لمشكلة الصراع بين القوي والضعيف والتي عبّر عنها بمشكلة (الصراع الطبقي) عدة أخطاء، ومن ثمّ لم تكن النتائج التي توصل إليها من خلال هذا التحليل متفقة مع الواقع التأريخي الذي عاشته البشرية، وخصوصاً في سنواتها الأخيرة، ومن هنا نعتقد بعدم واقعية ما تنبأت به النظرية الماركسية فيما يخصّ مستقبل حركة العلاقات الاجتماعية على طول التأريخ.

فمن الأخطاء التي وقعت فيها هذه النظرية ما يلي:

١ـ إنّها كانت أسيرة النظرة المحدودة والضيقة، إذ لم تنطلق في تحليلها للمشكلة الاجتماعية من خلال المجتمع البشري ككل، بل كانت وليدة

تحليل النموذج الاجتماعي الأوربي الذي عاشه ماركس نفسه، ولذا كانت هذه النظرية محدودة وضيقة وشبيهة بنظرة اليهود للمجتمع الإنساني التي كانت ترى في (اليهود) الصنف المفضّل والمختار للإنسان، وأمّا باقي الناس فهم همج رعاع، لأنّهم كانوا قد نظروا إلى المجتمع الإنساني من خلال النموذج الاجتماعي الذي عاشه الإسرائيليون في مجتمع الكفر والشرك والضلال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تصوّرهم الباطل هذا بقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ...﴾[1]، أي: أنّ لهم الحق في أنْ يصنعوا في الأميين ما يشاؤون، باعتبار الأميين أدنى منهم في سلّم الإنسانية[2].

٢ـ إنّها لم تُصِبْ كبد الحقيقة في تحليل (حقيقة الصّراع الطبقي) ولم تتوصّل إلى السبب الأساس فيه، ومن هنا أخطأت في النتائج والتنبؤات التي بنتها على ذلك التحليل والتي حددت من خلالها حركة الصّراع ومسيرته باتّجاه التغيير الاجتماعي المفترض.

فقد توقّع ماركس عدّة أمور وظواهر تتعلّق بعملية التغيير المرتقبة في المجتمع الأوربي نفسه، ولكن لم ينطبق أيّاً منها على الواقع، ومن الأمثلة على ذلك:

---

(١) آل عمران: ٧٥.

(٢) فلعل هذه النظرة اليهودية، لتصنيف البشرية قد أثرّت في (كارل ماركس) ـ أيضاً ـ حين تصدى لبحوثه الاجتماعية، باعتباره يهودياً ـ أيضاً ـ وباعتبار التأثير المتبادل ـ عادة ـ بين النظرية التي يتوصل إليها الإنسان غير العقائدي، وبين الأفكار المتبناة في المجتمع الذي يعيش فيه.

أ) توقعه في أنّ عملية التغيير المرتقبة سوف تحصل في أكثر المجتمعات الأوربية تطوّراً وتقدماً من ناحية الآلة المنتجة والوضع الصناعي والتي يعبّر عنها بالدول الرأسمالية، كألمانيا، وإنكلترا، وفرنسا، بل وحتى الولايات المتحدة الأمريكية، إلاّ أنّ هذا التنبؤ لم يتحقّق منه شيء في هذه المجتمعات، بل بقيت الرأسمالية في هذه المجتمعات إلى يومنا هذا، ولم يحدث فيها أي تغيير كما توقّعه ماركس، بل تجذّرت الحالة الرأسمالية فيها، وتعمقّت بصورة أكبر من ذي قبل.

بل والأكثر دلالة على خطأ هذا التنبؤ، هو حدوث هذا التغيير المرتقب في مجتمعات كانت متخلّفة على مستوى التطوّر التكنلوجي ووسائل الإنتاج من قبيل مجتمع روسيا القيصرية، ومجتمع الصين الزراعي، اللذين كانا يكادان يفقدان الاعتماد على أي وسيلة متطوّرة للإنتاج، وإنّما كانا يعتمدان بشكل أساسي على اليد العاملة البشرية فحسب.

ب) كما توقّع ماركس أيضاً، أنّ بؤس العمّال وحرمانهم سوف يزداد عندما تتطوّر الآلة المنتجة، وتصبح قادرة على الإنتاج الأكثر والأفضل، وعندما ستحل محل الكثير من الأيدي العاملة البشرية أيضا، ولكن الواقع الذي شهده المجتمع الغربي الرأسمالي بشكل عام (الأمريكي والأوربي) لا ينسجم مع هذا التنبؤ؛ لأنّ العمال لم يزدادوا بؤساً في هذه البلدان، بل أصبحت أوضاعهم أفضل منها عندما كانت الآلة أقل تطوّراً، كما أنّ العمال ومن خلال الوسائل الديمقراطية التي اتبعت في هذه المجتمعات، أسسوا النقابات الخاصة بهم والتي أخذت تتعايش وبصورة جيدة مع الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج، حتى أنّ الكثير من مسؤلي هذه النقابات أصبحوا وبالتدريج يعيشون حالة مترفة إلى حدّ كبير، ولم يزدد بؤسهم ولا بؤس من يمثّلونهم من العمّال، كما توقّع ماركس في نظريته.

ج) كما توقّع ماركس بالإضافة إلى ذلك، أنّ أصحاب رؤوس الأموال ومالكي وسائل الإنتاج سوف يشعرون بالخوف والرعب من الطبقة العاملة والمستغلَة؛ لأنّهم يعتقدون بأنّ هؤلاء سوف يحاولون الانقضاض والثورة عليهم والإطاحة بوجودهم من أجل تغيير المجتمع الذي يعانون فيه حالة الظلم والاضطهاد والحرمان، وأنّ هذه الحالة حالة متزايدة ومتصاعدة كلّما تطوّر الوضع الرأسمالي في هذه المجتمعات.

غير أنّ واقع المجتمعات الرأسمالية الحالية في أوربا وأمريكا لا ينطبق على هذا التوقع، حيث يتعايش أصحاب رؤوس الأموال ومالكي وسائل الإنتاج جنباً إلى جنب مع الطبقة العاملة، وقد رتّبوا أمورهم وتقاسموا أدوارهم فيما بينهم من دون أنْ يعيشوا حالة الرعب والخوف التي تصوّرها ماركس في تحليله.

فهل أنّ خطأ ماركس فيما تنبّأ وتوقّع كان بسبب سوء ظنّه الشديد في الطبقة الرأسمالية، فلم يتطابق ذلك مع الواقع؟ أو أنّ أصحاب رؤوس الأموال، وبسبب خوفهم من الطبقة العاملة تنازلوا لها عن بعض الفوائد والمنافع والمصالح، من أجل أنْ يتعايشوا معهم ويدفعوا عن أنفسهم الخطر المحتمل صدوره من مثل هذه الطبقة تجاههم؟

أو أنّ السبب يرجع إلى أنّ ضمائر أصحاب رؤوس الأموال ومالكي وسائل الإنتاج قد استيقظت بعد أنْ كانت ميتة، وأنّ الإحساس قد عاد إلى وجدانهم بعد أنْ فقدوه، فأصبحوا يعيشون حالة الرحمة و(التقوى) على حد ما نعبّر عنه في المصطلحات الإسلامية، ومن خلال هذه الرحمة والتقوى أصبح هؤلاء الرأسماليون يتعاملون مع العمّال بشكل إنساني أفضل، فتنازلوا لهم عن بعض المصالح والمنافع، وارتفعت بذلك حالة البؤس والحرمان التي كانت تعيشها طبقت العمّال من قبل؟

إلاّ أنّ التحقيق في المسألة يظهر لنا، أنّ كل الافتراضات السابقة لم تكن هي السبب وراء تحسّن أوضاع العمال في المجتمعات الرأسمالية، إذ لم يكن ماركس سيئ الظن بدرجة أكبر من الواقع، كما أنّ الرأسماليين لم يتنازلوا للعمّال نتيجة خوفهم من احتمال الثورة عليهم، أو نتيجة استيقاظ ضمائرهم في لحظة ما، بحيث أصبحوا رحماء وأتقياء.

وإنّما نتوصّل ومن خلال التحليل العلمي لهذا الموضوع إلى أنّ عدم تحقّق هذه التنبؤات الماركسية، يكمن في أنّ الأساس الذي قامت عليه هذه التنبؤات. والذي يتمحور حول ربط المشكلة الاجتماعية بصورة أساسية بـ (الصّراع الطبقي)، هو أساس غير واقعي وغير منطقي في نفسه.

فنحن نعتقد أنّ ماركس قد غفل عن نقطة مركزية وأساسية حينما قام بتحليله للمجتمع الأوربي؛ لأنّه حصر تفكيره في الصّراع القائم (داخل) هذا المجتمع وحده، في حين أنّ هذا الصّراع كان قد اقترن بصراع آخر (خارجي) قائم أيضاً على حقيقة الصّراع بين (القوي والضعيف)، وهو الصّراع بين المجتمع الأوربي ككل الذي تطورّ مادياً، وأصبح قادراً على ممارسة الاستغلال والهيمنة والتسلّط على الشعوب الأخرى، وبين المجتمعات الضعيفة الأخرى في العالم والتي يعبّر عنها الآن بمجتمعات العالم الثالث في (أسيا، وأفريقا، وأمريكا اللاتينية)، أو كما يعبّر عنه ـ الآن أيضاً ـ بصراع الشمال مع الجنوب.

وهكذا، ومن خلال هذا الصّراع الثاني وجد الإنسان الرأسمالي نفسه أمام نوعين من المكاسب:

النوع الأول: مكاسب يحصل عليها من الأيادي العاملة في داخل المجتمع الرأسمالي ذاته، مما يدفعه إلى زيادة استغلاله واستثماره لهذه الأيدي.

والنوع الثاني: مكاسب يحصل عليها من خلال استعمار الدول

المستضعفة، واستغلال شعوبها وثرواتها من النفط والحديد والرصاص واليورانيوم وباقي المعادن الأخرى التي تشكّل ثروات واسعة وهائلة جداً.

وبمقارنة بسيطة، وجد مثل هذا الإنسان أنّ مكاسب النوع الثاني هي الأكبر حجماً والأكثر فائدة، وأنْ لا مجال للقياس بينها وبين مكاسب النوع الأول، وكان عليه ـ وفقاً لهذه الحقيقة ـ أنْ ينسجم مع العامل في داخل المجتمع الرأسمالي الأوربي أو الأمريكي، على حساب مصالح الشعوب المستضعفة في دول العالم الثالث، ومن هنا تحسّنت حالة الطبقة العاملة في تلك المجتمعات الرأسمالية، بعد أنْ قام الرأسماليون بإرضائها من أجل أنْ يشتركوا معاً في الحصول على الغنائم والمكاسب والثروات التي يحصلون عليها من خلال استغلال تلك الشعوب الضعيفة والمقهورة.

فالحق هو: إنّ القسط الأعظم من الثروات والإمكانيات التي حصل عليها العمال في المجتمعات الرأسمالية، إنّما هي من جراء استغلال الشعوب الضعيفة في دول العالم الثالث من قبل أوربا وأمريكا، هذا الاستغلال الذي اشترك فيه أصحاب رؤوس الأموال والعمّال معاً.

ولا يمكن أنْ ننكر ـ بهذا الصدد ـ تأثير وجود العوامل الأخلاقية الأخرى في الوعي الإنساني، من خلال حركة الشعوب المستعمرة من ناحية، وويلات الحروب التي جرتها النظريات الأوربية على بلاد الغرب، لا سيما الحرب العالمية الأولى والثانية من ناحية ثانية، والأخطار التي شعر بها العالم الغربي من خلال صراع الحرب البادرة بينه وبين الفكر الماركسي، وتأجيج مشاعر الحقد والنقمة والثورة، مما كان يهدد المجتمعات الغربية من ناحية ثالثة، والثقافة الإنسانية العامة في المؤسسات العالمية، كالأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان، وثورة الاتصالات، والمعرفة من ناحية رابعة، وهذه وأمثالها عوامل كان لها تأثير كبير على فشل هذه التنبؤات، ولكن

العامل الأقوى في التأثير هو تغيير مواقع هذه المصالح كما ذكرنا.

الحل الرأسمالي الديمقراطي

الثاني: لقد فسّرت الرأسمالية الديمقراطية أسباب الصّراع في العلاقات الإنسانية على أساس عامل الاستبداد و(الحرية)، حيث ادّعت أنّ بإمكان المجتمع الذي يعيش الحرية أنْ يحلّ الصّراع الذي ينشأ في داخله عن طريق الحرية، كما أنّ بإمكان الإنسان في مثل هذا المجتمع أنْ يتحرّك بحرية نحو تحقيق أهدافه، وأنْ يعيش حالة العدل والرفاه والاستقلال.

وأمّا مجتمع الاستبداد و(العبودية)، فإنّه لا محالة يعيش حالة الصراع بين مَنْ يمثّل موقع المالك والمتسلّط على رقاب الناس، فرداً كان أو طبقة أو غير ذلك، وبين مَنْ يمثّل موقع العبيد المعتدى عليهم والمقيدين والمكبّلين بأغلال وقيود الجبابرة المتسلّطين.

نقد الحل الرأسمالي

ونجد أنّ التدقيق في هذا التفسير يوصلنا ـ أيضاً ـ إلى حقيقة أنّ هذا التفسير تفسير محدود وضيّق؛ لأنّه لم ينظر إلى الحياة الإنسانية وعلاقاتها إلاّ من خلال أزمة (الحرية) التي عاشتها أوربا في العصور الوسطى، مع أنّ دراسة حركة الواقع الإنساني حتى في أوربا التي حصلت على الحرية (المدعاة) وبشكلها المطلق، تثبت أنّ هذه الصّراعات قد استمرّت في حياة هذه المجتمعات، وأنّ قضية الاستغلال بقيت قائمة على ما هي عليه، بل تحوّلت هذه الحرية إلى استغلال واسع وإلى عبودية واسعة في داخل هذه المجتمعات، وذلك حين كان أصحاب رؤوس الأموال يستغلّون أبناء جلدتهم ـ في فترات من الزمن ـ استغلالاً فاحشاً تحت شعار (الحرية الاقتصادية) ويمارسون ألوان الاضطهاد تجاههم، حتى تحوّل هؤلاء الناس

إلى عبيد وأسرى للأوضاع الاقتصادية وللشركات الرأسمالية التي تملك قوتهم وحياتهم وحركتهم، ولكن دون أنْ تفرض عليهم قيود ظاهرية من خلال العلاقات الاجتماعية كما في السابق.

كما تحوّلت هذه (الحرية) في بُعد آخر إلى (قيود داخلية)، لا يمكن للإنسان أنْ يتحرر منها، فأصبح عبداً للشهوات والأمراض الاجتماعية وأسيراً للتضليل الشيطاني الإعلامي وللمخاوف على المستقبل، ومن خلال هذه الحرية لم يستطع أنْ يقف أمام تأثير هذه القيود وأنْ يتحرّر منها.

ومما يدل على هذه الحقيقة هو ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية في قضية (تحريم الخمر) في العقد الثالث من القرن العشرين، وذلك عندما سقط الشعب بصورة عامة، أمام قيود هذا الهوى وهذه الشهوة، فلم يتمكّن من التحرّر من موضوع شرب الخمر، بالرغم من قرار التحريم القانوني الذي اتّخذه نوّاب الشعب، وبُذلت من أجل سنّه الأموال الطائلة، واعتُقِل وقُتِل في سبيل تحقيقه عشرات الآلاف من الناس، وكُتِبت في سُبل الإعلام والدعاية له مئات الآلاف من الصفحات، ولكن، وبعد ثلاثة عشر عاماً من هذا (التحريم) تراجع المجتمع الأمريكي أمامه، فأباحه، بعد أنْ أصبح عبداً لهواه وشهواته.

وما نجده الآن قائماً في المجتمعات الأوربية والأمريكية ومن يسير في ركابهما مثال آخر لهذه الحقيقة، حيث تعيش هذه المجتمعات حالة العبودية المطلقة أمام قضايا الجنس، والمخدرات، والتحلل العائلي، والدعاية، وما شابهها، بالرغم من إيمانها بأخطار هذه الأوضاع ومدى الدمار الذي يصيبها بسببها، ولكنّها مع ذلك لا تستطيع أنْ تتحرر من هذه الأوضاع، بعد أنْ أصبحت أسيرة وعبدة لشهواتها، انطلاقاً من تلك الحرية المدّعاة.

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ التفسير الذي جاءت به الديمقراطية الرأسمالية لا

ينطبق على الواقع ولا ينسجم مع العلاقات الإنسانية التي يعيشها ذات الإنسان الذي جاءت هذه النظرية لتفسير مشكلته وطرح الحل المناسب لها، ولابد ـ حينئذٍ ـ من الرجوع إلى التفسير الرسالي لهذه المشكلة الذي تبيّناه من خلال الطرح القرآني، والذي قرّر بأنّ هذه الصراعات ترجع إلى عوامل داخلية في النفس الإنسانية، ويتشكّل في ظاهرة صراع القوي مع الضعيف، هذا الصّراع الذي يرجع في حقيقته إلى صراعين: صراع يعيشه الإنسان في داخله، هو صراع الهوى مع العقل، وصراع آخر يعيشه الإنسان من خارجه، وهو: صراع الشيطان مع الهداية، وأنّ علاج المشكلة إنّما يكون بإيجاد الموازنة بين محورين من الجهاد، داخلي يتمثّل بجهاد النفس لكسر القيود الداخلية، وخارجي يتمثّل بالجهاد في سبيل الله والوصول إلى المَثَل الأعلى المطلق والعمل على الإطاحة بالطغاة المستغلّين المستكبرين، لتحقيق العدالة والحرية الحقيقية في المجتمع الإنساني، كما شرحناه في البحث السابق.

الفصل الثالث

الــــدين

والعلاقات الاجتماعية المتبادلة

التأثير المتبادل بين خطي علاقة الإنسان بالإنسان والطبيعة

بعد أنْ تعرضنا فيما سبق إلى خطّي علاقة الإنسان بالطبيعة، والإنسان في المجتمع الإنساني، وإلى المشكلات التي يعاني منها كل خط، والحلول المطروحة بشأنها، نحاول هنا أنْ نتعرّض إلى التأثير المتبادل بين هذين الخطّين، إذ يتبيّن من خلال القرآن الكريم أنّ هناك تأثيراً متبادلاً بين خط علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وخط علاقته بالطبيعة.

فالتطوّر والنمو في أيّ من هذين الخطّين ينعكس على الخط الآخر، كما أنّ المشكلات التي تواجه أيّاً من هذين الخطّين، يكون لها تأثير مباشر على الخط الآخر من العلاقة.

ومن هنا، فإنّ محاولة تطوير أيّ خط من هذين الخطّين، أو علاج مشكلاته، لابد أنْ يأخذ بنظر الاعتبار هذه العلاقة المتبادلة بينه وبين الخط الآخر.

فعلى سبيل المثال، لو تطوّرت علاقة الإنسان بالطبيعة ونمت، فإنّ لهذه الحالة أثر سلبي على علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وذلك حين يصبح قادراً على المزيد من الاستثمار والاستغلال والهيمنة، وحين يجد الوسائل التي تجعله قادراً على ذلك بشكل واسع، فيحاول ـ حينئذٍ ـ أنْ يطغى ويستغل أخاه الآخر من أجل الوصول إلى المزيد من الإمكانيات والثروات، قال تعالى: ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[1]، فحيث يشعر الإنسان بالغنى والقدرة يُصاب بالطغيان ويتجاوز الحدود في علاقاته مع

---

(١) العلق: ٦ ـ ٧.

أخيه الإنسان، ويمكن أنْ نتصورّ هذه الحالة من خلال فرضين بسيطين:

الأوّل: أنْ نفترض أنّ لهذا الإنسان قدرة على استثمار الطبيعة، من خلال عمله اليدوي، ومن خلال الوسائل البدائية البسيطة التي عرفها الإنسان في أوائل حياته على هذه البسيطة، وحينئذٍ فإنّ مثل هذا الإنسان سوف يحاول أنْ يصطاد الحيوانات بيده أو بعصاه أو سكّينته، ويحرث الأرض بمحراثه وفأسه وما شابه ذلك، وفي هذه الحالة، فإنّه ومهما تحرّك في عملية استغلاله للطبيعة لن يحصل إلاّ على ثروة محدودة تتناسب مع حركته وآلاته البدائية، ومع المساحة المحدودة التي يتحرك عليها.

الثاني: أنْ نفترض أنّ هذا الإنسان كان قادراً على حيازة الثروات الطبيعية، من خلال الأجهزة الحديثة المعروفة في عالمنا اليوم، فإنّه سيتمكّن من الحصول على ثروات وإمكانات هائلة، وسوف ينعكس هذا الأمر على نمو هذه الثروات الذي سيكون سريعاً وكبيراً جداً يتناسب مع حجم إمكانات وقدرات هذا الإنسان على استثمار واستغلال الطبيعة، ومع سعة المساحة التي يتمكّن من الحركة فيها.

وتبعاً للمثالين السابقين، فإنّ الإنسان في (المثال الأوّل) تكون عملية استغلاله وهيمنته وسيطرته على أخيه الإنسان محدودة في أشكالها ومساحتها، فقد تقتصر على جانب من جوانب النشاطات الاجتماعية، أو على مساحة محدودة كقرية ما أو منطقة ما.

وأمّا الإنسان في (المثال الثاني)، فإنّ عملية استغلاله سوف تكون كبيرة وواسعة وشاملة، تبعاً لسعة وشمولية إمكاناته وقدراته، ومن هنا، نجد أنّ أحد أسباب التوسع الاستعماري في عالم اليوم إنّما يرجع إلى التطوّر الكبير الذي حصل في علاقات الإنسان مع الطبيعة وقدرته على السيطرة والهيمنة

عليها.

وبذلك تصبح هذه النكتة التي بيّنا فيها العلاقة المتبادلة بين خطّي علاقة الإنسان في المجتمع، نكتة فارقة ومهمة بين الفهم القرآني لهذه المسألة، وبين الفهم الماركسي القائم على المادية التأريخية لها، حيث حاولت الماركسية تفسير قضية استغلال الإنسان لأخيه الإنسان من خلال ربطها بتطوّر وسائل الإنتاج وهيمنة الإنسان على هذه الوسائل، وجعلت هذا الأمر هو العلة والسبب في كل ذلك، أمّا في التفسير القرآني فإنّ السبب يعود إلى أمر آخر ـ سبق ذكره ـ يتمثّل بـ (الهوى)، فحينما يتمكّن الإنسان من الهيمنة والسيطرة على الطبيعة بصورة أكبر، ولو من خلال تطوّر وسائل الإنتاج، فإنّ أبواب الهوى سوف تشرع أمامه، وتتسع بما يكون سبباً لطغيانه في حركته الاجتماعية وبصورة كبيرة تتناسب ودرجة هواه التي وصل إليها، ومن هنا يتبيّن أنّ تطور وسائل الإنتاج، كالسيف القاطع، والسلاح القوي الذي يمكن استخدامه في العدوان والدمار، كما يمكن استخدامه في صد العدوان وتحقيق الأمان والاستقرار، قد يوفّر الأرضية المناسبة لظهور الطغيان في المجتمع الإنساني، كما قد يكون نافعاً في تحقيق الرفاه والاستقرار، لا أنّه يمثل السبب والعلة الأساسية في ذلك.

وهكذا الأمر في الجانب الآخر من العلاقة، فإنّ تطوّر علاقة الإنسان بأخيه الإنسان يؤثر تأثيراً مباشراً على علاقة الإنسان مع الطبيعة أيضاً، فإذا تطوّرت هذه العلاقة، وأصبحت العلاقات الإنسانية في المجتمع قائمة على أساس التقوى والارتباط بالله تعالى وبما يحقّق العدل والقسط والأمن والاستقرار والرفاه، فإنّ قدرة الإنسان وعلاقته مع الطبيعة سوف تتطوّر تطوّراً إيجابياً بإذن الله تعالى، بحيث يكون مشمولاً للعناية الإلهية في انفتاح البركات عليه من السماء والأرض قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ

لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...﴾[٢].

وأمّا إذا اتجهت هذه العلاقة اتّجاهاً سلبياً في حركتها، بحيث كان المهيمن على علاقات - الإنسان - مع أخيه الإنسان هو الظلم وعدم الاستقرار والحيرة والضلالة، فإنّ ذلك سوف ينعكس ـ أيضاً ـ على علاقاته مع الطبيعة وعلى قدرته على استغلالها والاستفادة منها، بحيث تتراجع إمكانية استثماره للطبيعة، وتصبح الطبيعة شحيحة وغير قادرة على حل مشكلاته والإيفاء بحاجته، ومن هنا قال تعالى - بعد أنْ بين أنّ الإيمان والتقوى تكون سبباً لنزول البركات من السماء والأرض-: ﴿...وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣]، وكذلك جاء في سياق الآية الأخرى من سورة (الجن): ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[٤]، وهكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٥]، فعندما تكون العلاقة علاقة التكذيب وعدم الاستقامة على المنهج القويم فإنّ العذاب سوف ينزل على مثل هذه المجتمعات، وتكون المعيشة ضنكاً وصعبة، ويظهر الفساد في الأرض بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ

---

(١) الجن: ١٦.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) الأعراف: ٩٦.

(٤) الجن: ١٧.

(٥) طه: ١٢٤.

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

التفسير الغيبي والتفسير الإرادي في العلاقة المتبادلة

ويمكن تفسير هذا الأثر المتبادل، بأنّه أمر غيبي، وأنّ الله تعالى المهيمن على هذا الكون والمسيطر على كل الوجود والمؤثّر في كل تفاصيله قد أراد بصورة مباشرة - وإرادته لا تختلف - أنْ يكون الأمر في هذه العلاقة على هذا النحو من التأثير المتبادل بين مجتمع التقوى ونزول البركات، والعكس صحيح أيضاً، بحيث كلّما كان هذا الإنسان عادلاً في علاقته مع أخيه الإنسان كلّما نزلت عليه بركات السماء والأرض، وكلّما كان ظالماً ومفسداً في الأرض كلّما شحّت عليه هذه البركات والخيرات والنعّم.

كما يمكن تفسير ذلك بالتفسير الإرادي، بحيث يرتبط بإرادة الإنسان وحياته المادية، بأنْ يكون الله سبحانه قد ربط نزول هذه البركات بهذه الإرادة الإنسانية، وذلك لأنّ القرآن الكريم والنظرية الإسلامية بهذا الخصوص تؤكّد على أمور عامة:

منها: إنّ الإرادة الإلهية والعامل الغيبي عامل قائم وموجود ولا ينفصل ولا يتعطّل أثره حتى في أكثر الأمور ظهوراً في المادية والإرادية، بل لا يمكن ذلك أبداً، غاية ما في الأمر، أنّ هذا العامل الغيبي قد يؤثّر بشكل مباشر في هذا الأمر أو ذاك، وقد يجعل الله سبحانه وتعالى إلى جانبه واسطة للعوامل المادية لتتم عملية التأثير المطلوبة.

ومنها: إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل الحياة الدنيا دار امتحان واختبار

---

(١) الروم: ٤١.

وفتنة للإنسان، ومن هنا ترك للإرادة الإنسانية وللعوامل المادية - إلى جانب العوامل الغيبية - مجالاً في التأثير على حركة الإنسان في هذه الدنيا، ليكون مجالاً للامتحان والاختبار.

ثمّ إنّ هذا العامل المادي الذي نتحدث عنه، والذي يلعب هذا الدور في التأثير المتبادل بين خطّي علاقة الإنسان في المجتمع، يمكن أنْ نتبيّن جانبه السلبي بوضوح في القرآن الكريم من خلال حديثه عن المجتمع الفرعوني الذي هو مثال عالٍ للطغيان والظلم، بحيث يدّعي فيه الطاغية الربوبية المطلقة. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾[1].

وقال تعالى على لسان فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[2].

حيث بيّن القرآن الكريم - كما ذكرنا سابقاً - أنّ هذا المجتمع هو مجتمع الفرقة والتمزّق والضعف قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3]، وهو بذلك يكون مجتمعاً عاجزاً عن توظيف الطاقات الإنسانية الهائلة التي أودعها الله تعالى فيه، في طريق واحد وفي سبيل هدف واحد، وغير قادر على الاستفادة من الطبيعة واستثمارها والهيمنة عليها، فتكون الخيرات والبركات التي ينالها قليلة وشحيحة ويعيش المجتمع تبعاً لذلك حالة الفقر والحاجة الماسة.

---

(١) القصص: ٣٨.

(٢) النازعات: ٢٤.

(٣) القصص: ٤.

كما بيّن الجانب الإيجابي له في مجتمع الإيمان والتوحيد والتقوى، فهو يكون مجتمع الوحدة والقوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢]، تتوظف فيه كل الطاقات وتتوحد وتتجمع فيه كل الإمكانيات، ويكون قادراً على استثمار الطبيعة والحصول على أكبر قدر ممكن من الخيرات والبركات.

وهذا مضافاً إلى أنّ (العامل الغيبي) هو عامل التوفيق والتسديد والعناية والرحمة الإلهية التي تشمل مثل هذا المجتمع الذي اجتمع على إله واحد، ودين واحد، ونظام واحد يرتبط بالله تبارك وتعالى، واستمد منه العون والخير والبركة.

معالم التمزّق في المجتمع الفرعوني

ولتوضيح هذه الفكرة في الوحدة والتمزّق تناول أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ بشيء من التحليل معالم التمزّق، في المجتمع الفرعوني، كشاهد على حقيقة هدر الطاقات وحبس الخيرات والبركات عن المجتمع، بسبب الظلم والطغيان والاستبداد.

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

فقد قسّم الشهيد الصدر ﵀ المجتمع الفرعوني إلى عدّة طوائف[١]:

الطائفة الأولى: فرعون والطبقة الحاكمة

وتمثّل هذه الطائفة قمّة الهرم في المجتمع الفرعوني التي تحاول أنْ تستضعف المجتمع كله وبمختلف طبقاته، وأنْ تجعله عبداً لها لتنفيذ شهواتها ورغباتها، فهي طائفة (ظالمة) و(مستكبرة) قد تتجسّد في فرد، أو أُسرة، أو جماعة، أو أمة، في قبال سائر طوائف المجتمع الأخرى التي بعضها ظالم لنفسه مستضعف، وبعضها مظلوم ومستضعف.

ومن أهم خصائص هذه الطائفة، أنّ رأسها وممثّلها الرسمي يتمادى في ظلمه وطغيانه حتى يدعي ـ كما بينا سابقاً ـ الألوهية والربوبية، قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[٣]،

---

(١) لقد أشرنا سابقاً في الباب الثالث إلى تقسيم رئيسي ثلاثي لطوائف المجتمع الفرعوني.

ونحن هنا قد لا نتفق مع أُستاذنا الشهيد الصدر ﵀ في هذا التقسيم ــ الذي ذكرناه مع شيء من التصرف والتعديل ــ من ناحية بُعده الاستكباري والاستضعافي؛ لأنّ الملأ والمستشارين يمكن أنْ يحسبوا على الطبقة الاستكبارية لاشتراكها في البعد السياسي والثقافي مع المستكبر في الرؤية والمصالح والجانب الروحي والأخلاقي.

كما أنّ الهمج الرعاع قد يتحولون إلى مجرد أتباع للمستكبر، عندما يميلون مع ريحه وحركته ويلتزمون منهجه وطريقته، ولعل هذا هو ظاهر الآية القرآنية: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: ٣١)، فالاستضعاف هنا ــ كما هو الظاهر ــ استضعاف ثقافي معنوي، وقد ينتهي إلى الاستضعاف السياسي من التسلّط والظلم والانتهاك للحقوق والحرمات.

ولكن هذا التحليل يعبّر ــ على أي حال ــ بدقة عن معالم التجزئة والتمزّق في المجتمع الفرعوني.

(٢) القصص: ٣٨.

(٣) النازعات: ٢٣ ــ ٢٤.

سواء على مستوى الادعاء اللفظي الصريح أم السلوك العملي، ومن هنا يرى لنفسه الحق في أنْ يتدخّل في أخص خصوصيات المجتمع وأفراده، فيعتقد بأنّه السيد المطلق، وأنْ لا حق لغيره حتى في أنْ يفكّر في نفسه، وأنْ يرى لها شيئاً من الطريق والمصالح، إلاّ من خلاله هو، قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿...قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى...﴾[1].

الطائفة الثانية: الأتباع

وهي طبقة الظالمين الذي يتبّعون فرعون وأسرته الحاكمة، ويشاركونهم في ظلم الناس، فهم ظالمون من هذه الناحية، ولكنّهم مظلومون من ناحية أُخرى؛ لأنّهم أسرى بيد الطغاة والفراعنة والحكام المستبدّين، ولأنّهم يمارسون عملية الظلم ويباشرونها كأتباع للطبقة الحاكمة، لا كأصل فيها، ومن هنا عبّر عنهم القرآن الكريم: بـ (الظالمين المستضعفين) في قبال الطبقة الحاكمة التي هي طبقة (الظالمين المستكبرين)، قال تعالى: ﴿...وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[2]، فكلا الطائفتين ظالمة لقوله تعالى: ﴿...وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ...﴾[3]، غير أنّ بعضهم مستكبر آمر، والآخر مستضعف مأمور يتبع المستكبر ويطيعه وينفّذ أوامره.

---

(١) غافر: ٢٩.

(٢) سبأ: ٣١.

(٣) سبأ: ٣١.

الطائفة الثالثة: الأعوان والحاشية

وتمثّل هذه الطائفة، الوزراء، والمستشارين، والكتّاب، وأمثالهم ممن يشكّل جزءاً من الجهاز الحاكم، حيث تحيط هذه الطبقة بالظالم الجائر والطاغية المتحكّم في رقاب الناس، وتقدّم له المشورة، وتعينه على تنفيذها، وتتفاعل مع مشاعره وعواطفه وتتجاوب معها، وتزيّن له أعماله، فتساهم من خلال ذلك كلّه في إثارته وتحريضه على الظلم، دون أنْ تمارس الظلم بيدها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الطائفة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[1]، حيث حرّض هؤلاء الملأ الممثّلون لطبقة الحاشية فرعون وأثاروه ضد موسى عليه السلام من خلال ضربهم على الوتر الحسّاس في قلب فرعون الذي كان يتحسّس به، من أولئك الذين يرفضون ألوهيته ولا يقبلون بحاكميته واستكباره وجبروته.

الطائفة الرابعة: الهمج الرعاع

ويمثّل هذه الطائفة عموم أفراد المجتمع الفرعوني الذين لا رؤية لهم ولا إرادة ولا رأي في عملهم ومسيرتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، بل فقدوا قدرتهم على التفكير والنظر واتخاذ القرار، فهم يسيرون حسب ما تفرضه الظروف الفعلية القائمة، تحرّكهم العواطف والأهواء والأوضاع السياسية الفعلية، فهم مع الحاكم إذا كان الوضع العام معه، وهم ضده إذا تحوّل الظرف السياسي ضده.

---

(١) الأعراف: ١٢٧.

وقد وصف الإمام علي عليه السلام هذه الطبقة بقوله: ((... وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق))[1].

وتمثّل هذه الطائفة عادة الطائفة العظمى في المجتمعات الإنسانية، كما تمثّل في الوقت نفسه مشكلة رئيسية من مشاكل المجتمع الصالح، فكلما تمكّن هذا المجتمع من تحويل هذه الجماعة إلى جماعة ذات رؤية واضحة وإرادة قوية وموقف صالح، بحيث تصبح فئة (تابعة بإحسان) كما يعبّر القرآن الكريم، أو فئة (متعلّمة على سبيل النجاة) كما يعبّر الإمام علي عليه السلام، أو إلى فئة (مقلّدة للعلماء الربّانيين) كما يعبّر فقهاؤنا في الرسائل العملية، أو ربط هذه الفئة بالقيادة الصالحة من (الأنبياء) و(الأئمة) و(الصالحين)، كلّما تمكّن المجتمع من ذلك كان أقرب إلى التكامل والوصول إلى أهدافه، والعكس بالعكس.

ويدعو الإمام علي عليه السلام إلى القضاء على هذه الطائفة، لا جسدياً، بل بتحويلها إلى أحد الفئات الثلاث المذكورة، وأمّا الطاغوت والفراعنة فهم يحاولون توسعة دائرة هذه الطائفة، وجعلها قاعدة عريضة للطغيان بإبقائها على جهلها وتبعيتها المطلقة له، من أجل فرض هيمنته وسيطرته عليها، بل على كل المجتمع الذي يتشكّل منها ومن غيرها من الطوائف.

الطائفة الخامسة: المستضعفون المستسلمون

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الطائفة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٣٦: رقم ١٤٧، شرح محمد عبده. ويلاحظ في المجتمعات الأوربية وجود جزء من هذه الطائفة من خلال أولئك الذين لا يشاركون في التصويت بآرائهم أو إلقاء الأوراق البيضاء، حيث لا يكون لهم موقف معين من خلال القضايا المطروحة.

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[١]، فهذه الطائفة وإنْ كانت طائفة مظلومة ومضطهدة، وقد اعتُدي عليها، وهي تُدرك هذه الحقيقة ولا ترضاها لنفسها، ولكنّها فئة قد استسلمت للظلم وتقبلته في حركتها ومسيرتها الاجتماعية عملياً، وإنْ رفضته نفسياً وروحياً، ومن هنا كانت ظالمة لنفسها، واستحقت العقاب الإلهي ودخول جهنّم على هذا الظلم، لأنّ مجرّد كون الواقع واقعاً ظالماً لا يبرر للإنسان الركون إليه والخنوع والاستسلام له، بل عليه أنْ يعمل على تغييره، فإذا كان في حالة من الاستضعاف الشديد، لا يمكنه من ممارسة دوره وتكليفه الشرعي في مكان ما، فعليه أنْ يهاجر في أرض الله الواسعة، ليجد المكان المناسب الذي يستطيع فيه أنْ يمارس فيه دوره كخليفة لله تعالى في إعمار الأرض ومقاومة الظلم وتحقيق العدل وإيجاد الرفاه والاستقرار والطمأنينة في المجتمع.

الطائفة السادسة: الانعزاليون

والانعزاليون يعبّر عنهم القرآن بالرهبان، وهي: الطائفة التي تهرب من الحياة وتحاول أنْ تنزوي وتعتزل المجتمع وحركته، بسبب ما تراه من مظاهر الفساد والانحراف فيه والتي لا ترضاها، فهي غير مستسلمة للظلم، ولكنّها لا تقوم بدورها في مواجهة الظلم وفي إصلاح المجتمع، فتعيش في حالة خاصة ابتدعتها لنفسها، قال تعالى: ﴿... وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...﴾[٢].

(١) النساء: ٩٧.

(٢) الحديد: ٢٧.

نعم، كتب الله سبحانه وتعالى للصالحين من عباده رهبانية أخرى، يكون فيها الإنسان عابداً وزاهداً في هذه الحياة الدنيا، ولكنّه في الوقت نفسه يكون إنساناً مبتغياً لرضوان الله تعالى، ممارساً لدوره الطبيعي فيها، ولذلك كان (الجهاد) في نظر الإسلام (رهبنة)؛ لأنّه في الوقت الذي يعبر عن ممارسة الإنسان لمسؤليته الملقاة على عاتقه في مواجهة الظلم الذي يهيمن على مجتمعه، فإنّه وبجهاده هذا يمثّل رهبانية وزهداً في هذه الحياة الدنيا.

وهكذا تكون الصلاة والزكاة والصوم وغيرها من العبادات (رهبنة) في نظر الإسلام؛ لأنّها عبادة لله تعالى، وعلاقة به سبحانه وتعالى، وابتعاداً عن الدنيا وزخارفها وزينتها من جهة، ولكنّها من جهة أُخرى تبقي الإنسان إنساناً ممارساً لدوره الطبيعي في حياته الدنيا ومجتمعه، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتزكّي نفسه وتعرج بها في مراقي الكمال، ويمكن التأكد من هذه الحقيقة من خلال مطالعة مجمل أحكام هذه العبادات، وملاحظة الأبعاد الفردية والاجتماعية فيها.

ثمّ إنّ الرهبنة المبتدعة، يمكن أنْ تبرز في المجتمع على صورتين، إحداهما أسوء من الأُخرى:

الأولى: الصورة الجادة للرهبنة، حيث يعيش الإنسان حقيقة وواقعاً حالة الانعزال عن مجتمعه، ويترك كل ملذات الحياة الدنيا لئلا يتلوّث بأوحالها، ولكنّه يتخلّى عن ممارسة دوره ومسؤليته في الحركة الاجتماعية.

وهي رهبنة مبتدعة، ولكنّها تنطلق من مبادئ شريفة وطاهرة، وإنْ كان الموقف فيها منحرفاً.

ولذلك ينظر القرآن في موضع آخر إلى خلفية هذه الرهبانية نظرة إيجابية:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

الثانية: الصورة الريائية للرهبنة، حيث يتظاهر الإنسان بأنّه يعيش حالة الرهبنة ادعاءً، ولكنّه في الواقع يعيش أقصى حالات الالتصاق بالأرض والتمسّك بالحياة الدنيا وملذّاتها، كما كان يفعل الكثير من الرهبان والأحبار الذين أغرقوا أنفسهم في شهوات الدنيا وملذّاتها وجمعوا الأموال واهتمّوا بالمناصب، ومع ذلك كانوا يرفعون شعار الرهبنة والابتعاد عن الدنيا وشهواتها.

ويشير القرآن الكريم إلى هؤلاء في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

وقد رفض الإسلام كلتا الصورتين المبتدعتين للرهبنة، الجادة والمنافقة، وإنْ كان رفضه للرهبنة المنافقة أشدّ وأكبر.

الطائفة السابعة: المستضعفون الرافضون للظلم

وتعيش هذه الطائفة حالة الرفض للظلم على المستوى النظري والنفسي والعملي، وتعمل أو تنتظر الفرصة، من أجل أنْ تمارس دورها وتؤدّي تكليفها المناط بها.

---

(١) المائدة: ٨٢.

(٢) التوبة: ٣٤.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الطائفة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾(١).

فهؤلاء هم الذين يتضرعون إلى الله ويستغيثون به سبحانه وتعالى لكي يخلّصهم من الاستضعاف الذي يعشون فيه، وأنْ يعينهم في رفضهم ومقاومتهم للظلم.

ومن الواضح قرآنياً أنّ هذه الطائفة الوحيدة التي تبنّاها القرآن الكريم، وجعلها في موضع اللطف الإلهي واستثناها من حكم الطائفة الظالمة لنفسها.

قال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ۞ فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾(٢).

الخلاصة

والنتيجة التي يمكن أنْ نصل إليها هي: (إنّ المجتمع يتناسب مدى الظلم فيه، تناسباً عكسياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة، ويتناسب مدى العدل فيه تناسباً طردياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة).

فالمجتمع الفرعوني مجتمع مجزّأ مشتت مهدور الطاقات والقابليات، ومن هنا تحبس السماء عنه قطرها، وتمنع الأرض بركتها، وأمّا مجتمع العدل

---

(١) النساء: ٧٥.

(٢) النساء: ٩٨ ــ ٩٩.

والتوحيد فهو على العكس تماماً، إذ هو مجتمع تتوحّد فيه كل القابليات وتتساوى فيه الفرص وهو مجتمع الإيمان والتقوى، الذي تحدّثت عنه الآيات القرآنية الكريمة، وهو مجتمع الإمام المهدي عليه السلام الذي تحدّثت عنه الروايات الشريفة[١].

(١) المدرسة القرآنية: ١٨٣، الدرس الثالث عشر.

الباب السادس

الوحدة الدينية الخاتمة

تمهيد:

مراحل تاريخ المجتمع الإنساني

الفصل الأول:

أسس الوحدة الإلهية

الفصل الثاني:

الحكم الإسلامي

الفصل الثالث:

النتائج والآثار

تمهيد

مراحل تاريخ المجتمع الإنساني

من خلال الأبحاث السابقة، يمكن أنْ نتبيّن أنّ المسيرة البشرية والمجتمع الإنساني مرّ بعدة مراحل أساسية، كان للدين دور خاص فيها، وهذه المراحل كما يلي:

الأولى: الوحدة الفطرية، وهي: تلك المرحلة التي كانت تقوم العلاقات الاجتماعية فيها على أساس الفطرة الإنسانية، وما أودعه الله سبحانه وتعالى في الإنسان من توجّهات ذاتية، وكان دور الدين فيها هو تأكيد هذه التوجّهات والنوازع الإنسانية وهدايتها.

الثانية: الاختلاف البدائي من خلال ما فرضه تطوّر الأوضاع الاجتماعية للإنسان، من تزاحم في الغايات والرغبات، وحب للذات، وطغيان في السلوك، والذي أدى إلى ظهور الشرك والوثنية البدائية، وهي حالة يؤرّخ لها بظهور حالة المجتمع الإنساني الأوّل.

الثالثة: الوحدة الدينية التي قامت على أساس العقيدة الدينية في الإله الواحد، والأخلاق والقيم، وتنظيم السلوك الإنساني بالشريعة والقانون، وهي مرحلة قد نؤرّخ لها بنوح عليه السلام، كما يبدو من القرآن الكريم عندما يتحدّث عن شرع الدين الذي وصّى به نوحاً عليه السلام: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾**[1].

---

(١) الشورى: ١٣.

الرابعة: الاختلاف الوثني الذي تطوّر وتجسّد بالظاهرة الفرعونية، حيث طرح الإنسان نفسه إلهاً ومثلاً أعلى للمجتمع الإنساني يُعبد من دون الله تعالى، ويصبح إطاراً يُصاغ المجتمع الإنساني في حدوده وقيمه وتشريعاته.

وقد عرفنا خصائص التمزّق والفرقة في المجتمع الفرعوني الذي يمثّل مرحلة (الاختلاف الثاني)، وأنَّ الدين جاء في مرحلة متقدمة ـ أيضاً ـ لمعالجة هذا النوع من الاختلاف.

الخامسة: الوحدة الدينية الاجتماعية، التي قامت على أساس العقيدة الإلهية الواحدة والشريعة الربّانية أيضاً، ولكن أُضيف إليهما عنصران أساسيان جديدان، هما: المؤسسة الدينية، والإمامة الدينية، حيث بدأت هذه الوحدة ـ على ما يبدو ـ في زمن إبراهيم عليه السلام الذي أقام المؤسسات التوحيدية، وتمكّن من إحكامها وتثبيت دعائمها في المجتمع الإنساني مثل: (الكعبة الشريفة)، وأماكن العبادة الأُخرى التي بقي منها (بيت المقدس)، وأسّس الإمامة الدينية بقيادة المجتمع الإنساني حيث تكاملت بصورة تأريخية في موسى عليه السلام، وما جاء على يده من تشريعات اجتماعية تمثّل مشروعاً للدولة والمجتمع والأُمّة.

السادسة: الاختلاف في الدين وتفسيره وفهمه وتطبيقه، وهي ظاهرة بارزة ووضاحة في المجتمع الإسرائيلي وما تمثّل به من اختلاف ونزاع وتفرّق وتمزّق، تحدّث عنه القرآن الكريم بصورة واضحة ومفصّلة. وكانت رسالة عيسى عليه السلام وما جرى له وعليه وبعده، تجسيداً واضحاً لهذه المرحلة من المجتمع الإنساني.

السابعة: الوحدة الدينية الخاتمة، التي قامت على أساس وحدة، العقيدة، والإمامة، والدولة، والأُمّة، والمجتمع، وهو ما جاءت به الرسالة الإسلامية الخاتمة.

وهذه المراحل السبعة قد تتداخل في بعض أبعادها في الزمان أو المكان، بحيث تبدأ مرحلة منها ولما تنته المرحلة السابقة، أو تبقى بعض مخلّفات وآثار وظواهر مرحلة سابقة في ظروف مراحل لاحقة متطوّرة، سواء في جانب الاختلاف أم الوحدة[1].

ولكننا عندما ننظر إلى المجتمع الإنساني وتطوّر مسيرته التأريخية ونريد أنْ نؤرّخ له من خلال القرآن الكريم، يمكن أنْ نلاحظ بوضوح أنّ المجتمع الإنساني خضع في تأريخه لمعادلتين أساسيتين كان لهما تأثير في تطوّره وتكامله، أو تدهوره وتسافله من ناحية، وفي الظواهر التي اتسمت بها مسيرته من ناحية أُخرى:

إحداهما: معادلة الهوى وحب الشهوات، والهداية الإلهية أن خلال الوحي الإلهي (الرسالات الإلهية).

وثانيهما: معادلة الوحدة والاختلاف بجميع مراحلها وصورها وأشكالها، ونلاحظ ـ أيضاً ـ أنّ كلا من هاتين المعادلتين وطرفيهما مترابطتان؛ لأنّ الثانية تمثّل المظهر للمعادلة الأُولى، وكانا يمرّان بمراحل وأشكال قد يجتمع بعضها إلى جانب بعض، ولكنّهما يتّسمان في الوقت

(١) إنّ هذه المراحل للبشر في التأريخ الإنساني تستحق الدراسة بصورة كاملة، ولا سيما مرحلة الاختلاف في الدين التي ركّز عليها القرآن الكريم في الحديث عن تأريخ بني إسرائيل، وفي قصة موسى وعيسى عليهما السلام.

يمكن معرفة المزيد من فهم هذه المراحل البشرية مراجعة كتابنا (القصص القرآني)، ودراسة النماذج التي عرضناها للأنبياء (آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام)، يتضح الفرق في معالم هذه المرحلة والتي تحتاج كل واحدة منها بحثاً تفصيلاً لا تخفى معالمه على للباحث اللبيب من خلال قراءة هذين البحثين.

نفسه بالتطوّر والتكامل وتبادل التأثير فيهما، والسبب في كل ذلك هو أنّ الله سبحانه وتعالى جعل قانون الامتحان والابتلاء من القوانين الثابتة في مسيرة البشرية، وعنصراً من عناصر تكاملها، ومن ثمّ فالهوى والاختلاف لابد أنْ يكونا خطّين ثابتين موجودين في هذه المسيرة، وكلّما تطوّرا تدخّلت الهداية الإلهية لمعالجتهما بما يتناسب مع هذا التطوّر، والى جانبهما الهداية الإلهية وما أراده الله تعالى برحمته من الوحدة وعناصرها في المجتمع الإنساني، وهذا ما أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1].

وقد كانت الرسالة الخاتمة مشتملة على عناصر الوحدة الأساسية التي تنتهي بالإنسان إلى الهدف الكامل من وجود البشرية على الأرض، وهي الوحدة الخارجية الاجتماعية التي وعد الله سبحانه وتعالى بها المؤمنين الصالحين: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

وهذه المرحلة، هي: مرحلة الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، واليوم الموعود به النّاس على لسان الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

ونحتاج من أجل توضيح هذه الصورة في الرسالة الخاتمة إلى أنْ نشير إلى عدة أمور:

---

(١) هود: ١١٨ ــ ١١٩.

(٢) النور: ٥٥.

الأوّل: في بيان العناصر الأساسية في هذه المرحلة الدينية الخاتمة.

الثاني: في الحكم الإسلامي الذي يعتبر الأداة المهمّة في تحقيق الوحدة.

الثالث: في المنهج والطريق الذي ذكره القرآن الكريم للوصول إلى هذه الوحدة.

الرابع: النتائج والآثار.

الفصل الأول

أسس الوحدة الإلهية

بعد أنْ عرفنا خصائص التمزّق والفرقة في المجتمع الفرعوني، ومرحلة الاختلاف في الدين، يحسن بنا أنْ نتناول بالبحث العناصر الرئيسية التي اهتمّت بها الرسالة الألهية الخاتمة؛ لمعالجة ظاهرة الاختلاف والخصائص التي تميّزت بها عن الرسالات الإلهية السابقة، وهذه العناصر هي العناصر الأساسية للوحدة، ولكن مع إضافة وتطوير، حيث اهتمّت الرسالة الخاتمة الإلهية بعدّة عناصر وأسس رئيسية حاولت من خلال ذلك معالجة ظاهرة الاختلاف في المجتمع الإنساني، التي تطوّرت إلى عدة أنواع من الاختلاف، الاختلاف في العبادة، والاختلاف في الدين، والاختلاف في التطبيق. وذلك من أجل عودته إلى حالة المجتمع الواحد، ويمكن تلخيص هذه الأسس بالعناصر الخمسة التالية:

الأوّل: عقيدة التوحيد الإلهي.

الثاني: القيم والمبادئ التوحيدية المنبثقة عن تلك العقيدة، والتي يقوم على أساسها المجتمع الإنساني.

الثالث: الشريعة الإلهية الواحدة.

الرابع: الأُمّة والجماعة الواحدة التي تمثّل مادة المجتمع الإنساني.

الخامس: الإمامة والدولة والنظام الواحد الذي يمثّل الإطار للمجتمع الإنساني.

العنصر الأوّل: عقيدة التوحيد

عرفنا سابقاً أنّ العقيدة التوحيدية كانت ولا زالت تمثّل عنصراً مهمّاً في تحقيق الوحدة الإنسانية على مرّ العصور والمراحل الإنسانية، ولكن الرسالة الخاتمة أعطت هذه العقيدة التوحيدية أبعاداً جديدة، سواء في الوضوح أم

التفاصيل أم الشكل أم الضمانات أم التأثير في الكون والمجتمع الإنساني، أم العلاقة بهما، بحيث جعلتها عقيدة راسخة وواضحة ومؤثّرة في الحياة الاجتماعية الإنسانية، وقادرة على معالجة الكثير من أسباب الاختلاف ومستوياته، ويمكن أنْ نلاحظ ذلك في النقاط التالية:

الأولى: الوضوح والشمول في العقيدة التوحيدية في منظومة متكاملة من الإله المتصّف بصفات الجمال والجلال، والمسمّى بالأسماء الحسنى الذي تتمثّل علاقته بالملائكة والرسل بعلاقة الربوبية والعبودية، والذي ينزّل الكتب على رسله عن طريق الوحي الإلهي، ذي الصور والأشكال المتعدّدة، وهذا الإله هو مركز النظام التكويني والتشريعي معاً، ويرتبطان به بصورة دائمة ومستمّرة، كما أنّ المخلوقات جميعاً (الناس والكون بكل وجوده) تنتسب إليه، وتخضع لإرادته، وتخشع لعظمته، وتسبّح بحمده.

وهو يدعو إلى إقامة الحق والعدل بين النّاس، ويأخذ للمظلوم ظلامته من الظالم، وينتقم للمظلومين من الظالمين، وقد أعدّ لذلك يوم الجزاء والحساب والدار الآخرة، حيث كان الحكم والفصل النهائي فيها لهذا الإله الواحد (مالك يوم الدين).

والحياة الأخرى هي الحياة الحقيقية للإنسان، وفيها تتحقّق الأهداف المنشودة، في الراحة والاستقرار والكمالات الإلهية. وأنّ هذه العقيدة التوحيدية تترسّخ وتتكامل بالالتزام بالشريعة الإلهية والحدود الشرعية، وبدون ذلك تتناقض وتضعف حتّى تتحوّل إلى الشرك والنفاق.

إنّ هذه الصورة الواضحة (الوحدوية) البيّنة الجليّة بكل هذه التفاصيل لا نجد مثيلاً لها في الرسالات الإلهية السابقة، وإنْ كانت أُصولها وجذورها وبعض معالمها موجودة ثابتة.

ومن هذا المنطلق ينبّه القرآن الكريم ويؤكّد في آيات عديدة خطورة

ظاهرة التفرّق في الدين، والتحريف الذي تعرّض له بسبب الاختلاف فيه من قبل الجماعات التي التزمت به وآمنت به؛ لأنّ ذلك قد يؤدّي إلى فقدان العقيدة نفسها، وإنّ الالتزام بالصراط المستقيم الذي جاء به الإسلام وبتقوى الله هو المنقذ من هذا الاختلاف والتفرّق، ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾[2].

ومن هذا المنطلق نجد أنّ القرآن الكريم أكّد على هذا المفهوم العقيدي في تصوّره للوحدة داخل المجتمع الإسلامي ووضع صورتها في هذا الإطار؛ لأنها وحدة حقيقية يمكنها أنْ تحفظ للمسيرة البشرية قدرتها وطاقاتها وتكاملها في جميع الأبعاد، وأنْ تكون هذه الوحدة والاتفاق في الله ومن أجل الله وفي سبيل الله.

الثانية: المحافظة على المضمون العقائدي بهذه التفاصيل من الضياع والتحريف، من خلال النص القرآني المنزّل من قبل الله تعالى، والذي وضعت ضمانات لحفظه من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]، كما وضعت ضمانات لجعله ميسوراً لدى عامة المسلمين، بحيث يصبح الخط الثقافي العام الثابت فيهم.

وندرك أهميّة ذلك في معالجة الاختلاف وإيجاد الوحدة، إذا أخذنا بنظر

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) الحجر: ٩.

الاعتبار ما تعرّضت له الرسالات الإلهية من تحريف خطير في جانب العقيدة، بسبب التزوير والضياع الذي تعرّضت له الكتب السماوية السابقة، وحجب معرفتها عن عموم الناس وحصرها بطبقة معينة هي طبقة الأحبار والرهبان الذين كانوا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، وهو ما عرفناه في المرحلة السابقة، أي: في مرحلة الاختلاف في الدين.

الثالثة: تشخيص المرجعية الدينية الفكرية في عرض وفهم الإسلام من القرآن الكريم والسنّة النبوية، وكذلك معرفته وتفسيره، وهم: (أهل البيت عليهم السلام) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً: ﴿... **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1]، وقد أكّد النبي ﷺ في نصوص كثيرة واضحة هذه المرجعية الدينية الفكرية، منها: حديث الثقلين المتواتر:روي عن النبي ﷺ انه قال:((**إني أوشك ان ادعى فأجيب إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله،وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**))[2]، كما كان الخلفاء والمسلمون يرجعون إليهم عملياً في الكثير من الشؤون الدينية[3].

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) والطبقات الكبرى ٢: ١٩٤ وكنز العمال ١: ١٨٦،ح٩٤٤ وكمال الدين وتمام النعمة:٣٥ وذخائر العقبى: ١٦ وغيرها.

وفي هذا الحديث بحث من جوانب مهمة، حيث إنّ حديث الثقلين هو من أفضل ما روي من أحاديث في هذا المجال، من حيث الدلالة والسند والوثاقة حتى بلغ حدّ التواتر على ما ذكر بشأنه بعض العلماء والمحققين. راجع كتاب الفضائل الخمسة من الصحاح الستة ٢: ٥٢ ــ ٦٣.

(٣) لتوضيح وتفسير الاستدلال على هذه المرجعية الدينية، راجع كتابنا علوم القرآن: ٢٥٥.

الرابعة: تشريع الشعائر الإسلامية العبادية بصورة محددة وواضحة، وهو ما امتاز به الإسلام عن غيره من الرسالات الإلهية،كالصلاة اليومية، وصوم شهر رمضان، وإحياء الحج الإبراهيمي، وتوضيح صيغته التوحيدية، والإنفاق في سبيل الله (الزكاة والخمس)، بحيث أصبحت هذه العبادات ـ التي كان لها أصول في الرسالات الإلهية السابقة ـ بصيغها المحدّدة الموقوفة من أركان الإسلام، ولها أدوار اجتماعية مهمّة ومعنوية توحيدية.

الخامسة: إعطاء العقيدة والإيمان بُعداً عملياً أجتماعياً في حركة الإنسان اليومية ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ بحيث يتكامل الإيمان من خلال السلوك، وينعكس الإيمان على سلوك الإنسان وأعماله ونشاطه.

وقد امتدّ هذا التطوّر العقيدي في الرسالة الإسلامية على مستوى الوضوح والتفاصيل الذي شاهدنا بعض معالمه في عقيدة التوحيد، إلى باقي مفردات العقيدة الإلهية،وهي: الرسول، حيث نجد تفاصيل في شخصية الرسول ﷺ وطبيعة علاقته بالله تعالى، وكيفية صلته وارتباطه بالرسالة التي يحملها، وبالنّاس الذين يدعوهم إليها، ومسؤولياته تجاهها، ومواصفاته وغير ذلك من الشؤون التي لا نجدها في الرسالات السابقة.

كما أصبحت قضية (الإمامة) ومسؤوليتها في هذه الرسالة أكثر وضوحاً وذات تجسيد عملي، حيث يقوم الرسول الإمام - إلى جانب إبلاغ الرسالة - بمسؤلية أخرى وهي: مسؤلية قيادة عملية التغيير الاجتماعي التي يحطّم فيها الأصنام والطواغيت بصورة مشتركة، وأصبح، للصنمية والطغيان المستهدف أمثلة ومفردات جديدة ذات بُعد اجتماعي، مضافاً إلى بُعدها العقائدي. وأصبح ـ أيضاً ـ للعدل الاجتماعي وإقامته بين النّاس وضوحاً أكبر.

وبهذا أصبحت الإمامة ضرورة مستمرّة وباقية بعد انقطاع الوحي

بالرسالة وتمامها وخاتميتها؛ لبقاء هذه الأهداف ووضوحها.

واتضح بذلك ـ أيضاً ـ موقع عقيدة الدار الآخرة من ناحية، وتأثيرها في بناء الإنسان للمجتمع الإنساني الصالح، حيث يلاحظ أنّه لم تطرح قضية اليوم الآخر بهذه والتفصيل والنتائج والآثار في الرسالات السابقة.

العنصر الثاني: المبادئ والقيم التوحيدية

لا يخفى إن المبادئ القيم التوحيدية والأخلاق الإلهية تمثّل القاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإنساني بعد العقيدة في الرسالة الإسلامية، ولذلك جاء الحديث في القرآن الكريم عن التزكية والتطهير في عدة مواضع، منها:

﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...**﴾[1]، وجاء الحديث ـ أيضاً ـ عن التعليم للكتاب والحكمة: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[2]، حيث نرى في هذه الآية أنّ التعليم للحكمة جاء بعد التزكية وإلى جانب التعليم للكتاب، وأحد المعالم الواضحة للحكمة هو الأخلاق.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: ((**إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**))[3].

وتكامل الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية إنّما يتحقّق من خلال

---

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) مجمع البيان١٠: ٣٣٣، بحار الأنوار١٦: ٢١٠.

الأخلاق الفاضلة، فهي أساس للشريعة، بمعنى: أنها تكون منطلقاً، كما أنها هدف للشريعة يراد تحقيقه من خلالها.

وقد امتازت الرسالة الإسلامية على الرسالات الأخرى بتأكيد هذا الجانب بصورة واضحة، لأنّ أحد أهم ظواهر مرحلة الاختلال في الميزان الأخلاقي للجماعات الدينية، كما عرفنا ذلك في دراستنا لمرحلة الاختلاف في الدين.

ويمكن أن نلاحظ هذا التأكيد للقيم والأخلاق في تأكيد القيم والمبادئ التالية:

١. عبادة الله تعالى، وإمكان تحويل جميع تفاصيل حياة الإنسان وسلوكه إلى التعبير عن هذه العبادة وإدخال قصد القربة فيها.

مضافاً إلى ذلك ما وضعه الإسلام من تصميم للشعائر العبادية المحضة ومراسيمها العامة، الذي لا نجد نظيراً لها في أي رسالة إلهية.

أضف إلى ذلك ما يذكره الكريم من مشهد عبادة جميع الكون لله تعالى، وتسبيح السماوات والأرض وما فيهنّ لله عزّ وجلّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[1].

وهذه العبادة تعبر عن اتّجاه الإنسان للتخلّق بأخلاق الله تعالى (المَثَل الأعلى المطلق) والمصير إليه في حركة قائمة مستمرّة، وبصورة عميقة وشاملة، يتحرّك فيها الإنسان بكل تفاصيل حياته وبصورة يومية[2].

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) يمكن مراجعة بحث العبادات والشعائر من كتابنا (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة) الجزء الثاني، لنتعرّف على صورة إجمالية للعمق والشمول في العبادة الإسلامية.

٢. التقـوى، وهـي: مبـدأ تقويـة وتنميـة الـوازع الـداخلي في الإنـسان للاستقامة على جادّة الشرع، والعمل بما أمر الله تعالى، والترك لما نهى عنه، بصورة يكون فيها الإنسان مسؤولاً عن عمله أمام الله تعالى المطلّع على جميع الخفايا والسرائر، وقد يعبّر عنها: بـ (العدالة)، وهي تشكّل ـ كما ذكرنا ـ ضمانة من أهم الضمانات الإجرائية في السلوك الفردي الاجتماعي للإنسان.

وقد تمّ التأكيد عليها في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة بدرجة عالية، سواء من حيث الكم وذكرها في كل الأحوال والمناسبات، أم من حيث الأهميّة وما يترتب عليها من نتائج وآثار: ﴿..وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...﴾[1].

وهذه التقوى من أهمّ المبادئ للوحدة؛ لأنّها تقوى لله الواحد، فهي ذات اتّجاه واحد.

٣. تقوية الإرادة الإنسانية والعزم على إنجاز العمل والقيام به، وذلك من خلال منهج جهاد النفس (الجهاد الأكبر)، الذي يجعل الإنسان قادراً على مواجهة مختلف الضغوط الداخلية، كالشّهوات، والميول وطغيانها المتمثّل بالهوى، وكذلك مواجهة الضغوط الخارجية، كالإرهاب والقمع الذي يمارسه الطغاة.

مضافاً إلى قدرته على إنجاز الأعمال الصعبة والبعيدة الأمد، لأنّ التغييرات الاجتماعية لا تحصل ـ عادة ـ بصورة سريعة ودفعيّة، وإنّما تتحقّق بصورة تدريجية ولوقت طويل نسبياً.

---

(١) البقرة:١٩٧.

ويتكامل مبدأ تقوية الإرادة الإنسانية، مع مبدأ التقوى في تحقيق النتائج والأهداف الاجتماعية الكبيرة من ناحيتين:

إحداهما: إنّ قوة الإرادة تشكّل ضمانة لتحقيق التقوى والالتزام بالأحكام الشرعية والأوامر والنواهي الإلهية.

ثانيتهما: إنّ انسجام الإرادة الإنسانية، مع التقوى والإرادة التشريعية الإلهية تستلزم التأثير في الكون المحيط بالإنسان ونزول النصر الإلهي، وتنزّل الملائكة وجنود السماوات والأرض، إلى جانب حركة الإنسان الاجتماعية والفردية[1]، كما نصت على ذلك الآيات الشريفة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[3].

وبذلك تصبح الإرادة الإنسانية ذات الاتّجاهات المتعدّدة ـ والتي تؤدّي إلى الصراع عادة ـ عاملاً للتوحيد، عندما تكون منسجمة مع الإرادة الإلهية التشريعية.

وقد أكّدت الرسالة الإسلامية على هذا المبدأ ـ أيضاً ـ في نصوص كثيرة وممارسات عديدة تحدّثت عن الصبر، والاستقامة، والعزم، والثّبات، والجهاد...

٤. العلم والمعرفة والعقل التي تُمثّل الطريق للهداية إلى الله تعالى (المَثَل الأعلى)، وتشخيص الحكم الإلهي الواحد والموقف الشرعي الواحد

---

(١) وقد تناولنا هذا التكامل بين هذين المبدأين في الأبحاث السابقة.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) فصلت: ٣٠.

والمصالح والمفاسد الواقعية الواحدة، والموازنة بينها، وتُحصن الإنسان من الحيرة والضلال والانحراف والاختلاف.

٥. الوفاء بالعهد والميثاق، وهو مما ينمي في الإنسان الشعور بالمسؤلية تجاه الله تعالى والطبيعة، وأخيه الإنسان في إطار تأكيد الالتزامات الأوّلية التي يكون الإنسان ملتزماً بها من خلال وجوب الطاعة لله تعالى ولرسوله ولأُولي الأمر، وكذلك في إطار الالتزامات الثانوية التي يُلزِم بها الإنسان نفسه من خلال العهود والمواثيق والعقود والإيقاعات، بحيث يُنظّم بذلك حياته وعلاقاته في المجتمع ويحقق الوحدة والانسجام.

وهذا الوفاء وإنْ كان يمثّل أحد مفردات تربية الإرادة الإنسانية وتقويتها، لكنّه يمثّل أيضاً أحد المبادئ المهَمة التي أكّدها القرآن الكريم والإسلام الحنيف لمعالجة الاختلال في توازن الوحدة الاجتماعية في مرحلة الاختلاف في الدين، حيث يكون الانسجام مع العهد والميثاق الإلهي.

ولذا نشاهد الخطاب المؤكَد في هذا المجال تجاه بني إسرائيل سلباً وإيجاباً، وهم يعبّرون عن المصداق الأمثل لمرحلة الاختلاف في الدين.

كما أنّه يعالج الاختلاف في توازن الوحدة الاجتماعية عند تضارب اتّجاه الإرادات الإنسانية، فيحقّق الانسجام بينها من خلال العهود والمواثيق بين النّاس أو مع ولي الأمر.

٦. مبدأ الحق والعدل اللذين يُمثّلان الركنين الأساسيين للأحكام الشرعية؛ لأنّها تابعة في تفاصيلها إليهما.

الوحدة ومبدأ الحق والعدل

وإنّ مبدأ الحق والعدل يُمثّلان المحتوى الحقيقي للشريعة؛ لأنهما يلخصان القيم والمبادئ الإسلامية فيما يتعلق بالحركة الفردية والاجتماعية للإنسان،

كما أنهما يُمثّلان طريق التكامل الإنساني الفردي والجماعي، والوصول إلى الله (المَثَل الأعلى)، ونحتاج أنْ نقف عندهما قليلاً، لنتبيّن دورهما في تحقيق الوحدة الإسلامية.

الحق

أمّا الحق، فإنّ الله سبحانه وتعالى هو الحق المطلق، ولا يصدر منه إلاّ الحق، وهو يمثّل الحقيقة الثابتة في مسيرة الكون والحياة، وهو أمر واحد قائم في الواقع المنفصل عن رغبات الإنسان وميوله، ويكشف الحكم الشرعي، هذا الحق الذي يتطابق مع ما يضرّ الإنسان وينفعه، وما يصلح حياته ويفسدها، فيكون الحكم الشرعي طريق الإثبات للحق، على قاعدة (مطابقة الأحكام الشرعية للمصالح والمفاسد الواقعية)، ويكون ربط سلوك الإنسان بالقوانين والتشريعات الصادرة منه سبحانه وتعالى سبباً لتحقيق مصالح الإنسان نفسه، وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في آيات عدة منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ...﴾[1]، وذلك من أجل أنْ يكون الحكم بين الناس وتنظيم علاقاتهم وفق الحق الذي يعلمه الله تعالى لا بما يراه الناس أو يحبّونه؛ لأنّهم قد يرون ويحبّون لأنفسهم ما يضرّهم ولا ينفعهم، قال تعالى: ﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ...﴾[2].

كما أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في مجمل حركة الكون - أيضاً - قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ

---

(١) النساء: ١٠٥.

(٢) البقرة: ٢١٦.

فِيهِنَّ...﴾[1].

وقد تمّ تأكيد دور الحق في حل الاختلاف بنوعيه:

في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]، فقد دلّت هذه الآية الكريمة على أنّ الكتاب الذي جاء بالحق، إنّما جاء ليعالج ظاهرة الاختلاف التي وُجدت في المجتمع البشري، سواء الاختلاف البدائي أم الاختلاف في الدين، وذلك لأنّ الحق أمر واحد، بخلاف الهوى والميول والمصالح والمنافع الخاصة، فإنّها متعددة ومختلفة، كما أنّها لا تتطابق دائماً مع مصالح الناس عامة، ومن أجل ذلك كان كل ما هو خلاف الحق باطلاً لا يبقى ولا يصلح ولا ينفع.

وقد عبّر القرآن الكريم عن الاختلاف في الدين المنهي عنه بلبس الحق بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

القسط والعدل

وأمّا القسط والعدل، فقد أُنزلت الشرائع الإلهية لتنظيم علاقات الإنسان بينه وبين أخيه الإنسان، وبينه بين الطبيعة في إطار العلاقة بالله تعالى وعبوديته. ولكن هذه العلاقة قد تتعرّض لمشكلة الاختلاف بسبب تضارب

---

(١) المؤمنون: ٧١.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) البقرة: ٤٢.

المصالح والمنافع بين الناس وإرادتهم ورغباتهم، فكان إيجاد التوازن في هذه العلاقة هدفاً من أهداف الشريعة الإسلامية، ومبدأ من مبادئ الرسالة الإسلامية.

وقد تمّ تأكيد هذا المبدأ وأهميته بصورة خاصة، من خلال تأكيد مفاهيم القسط والعدل، وأنّه هدف الرسالات الإلهية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾[1].

﴿...وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2].

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾[3].

أو من خلال التشريع الذي يحفظ هذا الهدف، ويحقّق هذا التوازن في الواقع الاجتماعي.

أو من خلال توضيح سعة دائرة العدل والقسط في حياة الإنسان، فلم يلحظ في ذلك مجرّد علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان ـ كما هو الحال في التشريعات الوضعية عادة ـ بل لاحظ ذلك ـ أيضا ـ في علاقته مع الله تعالى، ومع نفسه، ومع الطبيعة أيضاً، حيث قد يكون الإنسان متجاوزاً للحدود مع الله تعالى، ليكون ذلك من أعظم الظلم، لقوله تعالى: ﴿... يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4]، وقد يكون الإنسان ظالماً لنفسه عندما يتجاوز في سلوكه حدود مصالحه الحقيقية دون مبالاة

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) المائدة: ٤٢.

(٣) النحل: ٩٠.

(٤) لقمان: ١٣.

وانسجاماً مع الميول والشهوات، وقد يكون ظالماً للكون والطبيعة التي حوله، أو ظالماً لما له عندما يتجاوز في تصرفاته حدود الحق، مثل: الإتلاف والإسراف... الخ.

وهذا المبدأ يتكامل مع مبدأ الحق الذي يضمن المصالح العامة والخاصة للإنسان في حركته الفردية والاجتماعية. كما يتكامل مع مبدأ التعويض في الدار الآخرة، عندما يقتضي حفظ التوازن والعدل والقسط في الحياة الاجتماعية، أنْ يقوم الفرد الإنساني بتضحيات خاصة ـ من أجل الآخرين، أو من أجل المجتمع ـ بالنفس، أو المال، أو الجاه والاعتبار.

الضمانات الإجرائية

وقد امتازت الرسالة الخاتمة في مجال القيم والمبادئ ـ مضافاً إلى الوضوح والسعة والشمول والتأكيد ـ بوضع الضمانات الإجرائية في هذا المجال والتي يمكن أنْ نلخّصها بالأمور التالية:

الأوّل: القرآن الكريم: الذي بقي محفوظاً بنصّه الكامل المقدس، وما تمّ من تأكيد إشاعة ثقافته بين الأمّة، حيث لم يبقَ محصوراً في الطبقة الخاصة، من الأحبار والرهبان، وذلك من خلال تأكيد قدسيته وإشاعة تلاوته وحفظه وفهمه وتدارسه... كما ذكرنا.

الثاني: القدوة الصالحة: المتمثّلة بمصاديق عديدة:

أوّلاً: (أهل البيت ﷺ) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، حيث كانوا يمثّلون التجسيد الكامل العملي لهذه القيم والمبادئ: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]،

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

وعلى رأس أهل البيت عليهم السلام رسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى أسوة للمسلمين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[1].

وكان أحد الأبعاد المهمّة في الرسالة الخاتمة تأكيد النبي ﷺ على أهل البيت عليهم السلام الذي أريد منه هذه القدوة العملية في حياة المسلمين، وذلك مضافاً إلى بُعدي الإمامة والمرجعية الفكرية فيهم، اللذين أشرنا إليهما سابقاً.

ومن الواضح أنّ القدوة الحيّة المعاصرة التي يعاصرها الإنسان في حياته ـ مثل أهل البيت عليهم السلام ـ أكثر تأثيراً من القدوة الغائبة التأريخية[2] التي يسمع عنها الإنسان من خلال المواقف المحدودة.

ثانياً: الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام السابقين، مثل: إبراهيم عليه السلام، أو من سبقه، أو لحقه منهم، كما أكّد على ذلك القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[3]، حيث يلاحظ أنّ هذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن الأنبياء عليهم السلام قبل إبراهيم عليه السلام وبعده.

ثالثاً: الاقتداء بالرجال الصالحين من الصحابة الخيّرين السابقين، من المهاجرين والأنصار، أو التابعين لهم بإحسان، من العلماء، والفقهاء،

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) ولمّا بالنسبة إلى الإمام المهدي عليه السلام، فقد تناول أئمة أهل البيت عليهم السلام موضوع الفائدة من وجوده في غيبته، وتحدثنا عن ذلك في كرّاس مستقل يمكن أنْ نتبيّن فيه جانب هذه القدوة، كما أشرنا إلى جانب من هذا البحث في كتابنا دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة ١: ١٩٤.

(٣) الأنعام: ٩٠.

والعبّاد، والزهّاد، الذين توارثوا العلم والأخلاق والصلاح جيلاً بعد جيل.

الثالث: الضمانات الأُخرى: التي وضعت لتطبيق الشريعة الإسلامية التي ذكرناها سابقاً، مثل: النظام الإسلامي الذي يقوم على أساس القيم والمُثل، ومثل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنمية الوازع الديني، وغيرها من الضمانات.

وبذلك أوجد الإسلام التكامل والتوازن في هذا الجانب، من الوحدة، فلم يترك القيم والمُثل تتّسم بالغموض، بل حدّدها في صيغ معينة تهدي إليها وهي: الشريعة، كما أنّ الشريعة لم تُترك ضمن حدود وصيغ جامدة وقيود حديدية، بل فُسّرت بالقيم والمبادئ، فأصبحت القيم والمبادئ اتجاهات تُوجّه مسار الصيغ الشرعية وتوضحها وتفسّرها لتتحرّك معها.

فالشريعة الإسلامية تكمّل دور القيم في الحياة الإنسانية، من خلال إيجاد الصيغة الواحدة المنظّمة للحياة، والقيم تفسّر وتوضح مسار الشريعة وتعطيها المرونة الكافية لمعالجة الاختلاف في كل زمان ومكان.

العنصر الثالث: الشريعة الواحدة الإلهية

نجد الرسالات الإلهية ومنها الرسالة الخاتمة اهتمّت بالتشريع، ولكن كان هذا الاهتمام في الرسالة الخاتمة أكثر تفصيلاً ووضوحاً وتطوّراً، وذلك لتحقيق وحدة النّاس ومعالجة الاختلاف الذي يعيشه المجتمع الإنساني في هذه المرحلة، بسبب تجاوز القيم والاختلاف في تفسيرها،فكان نزول الوحي الإلهي بالشريعة التي تنظّم حركة الإنسان وعلاقته بالطبيعة وأخيه الإنسان معاً، كما تعمل على حلّ المشاكل والاختلافات التي تطرأ على هذه الحركة أيضاً.

ميزات الشريعة الإسلامية

وقد تميّزت الشريعة الإسلامية بمجموعة من الميزات الأساسية:

الوضوح

الأوّل: الوضوح في التشريع الإسلامي، حيث اقترنت التشريعات الإسلامية بعدة عوامل رئيسية تمنحها هذا الوضوح:

أ) بيان وشرح الرسول الأعظم ﷺ شخصياً لها، مع تكوين (مشروع) جماعة المتفقّهين والمبلّغين لها، لتوضيحها وشرحها، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1].

ب) التطبيق والتجربة الخارجية لها في زمن صاحب الرسالة، حيث أتيحت للرسول الأعظم ﷺ فرصة واسعة نسبياً، لتطبيق الأحكام الشرعية في المجتمع الإسلامي، ويمكن أنْ نلحظ ذلك فقهياً في الكثير من أصول وكليات الفقه في العبادات والمعاملات التي يتّفق عليها المسلمون، بالرّغم مما تعرّض له الفقه الإسلامي من مشكلات عديدة.

ج) تشخيص المرجعية الدينية الفكرية والفقهية في الكتاب الكريم والعترة الطاهرة، واختصاص علي عليه السلام من بين أصحاب رسول الله ﷺ بالعلم والمعرفة والقضاء، حيث كانت هذه المرجعية الدينية متمثّلة بالإمام علي عليه السلام وأولاده عليهم السلام من بعده، بحيث يتم الرجوع إليهم في حلّ المشكلات لفهم

---

(١) التوبة: ١٢٢.

الشريعة[1].

الشمول

الثاني: الشمول والسعة في تناول الشريعة لمختلف أبعاد الحياة الإنسانية، بحيث لا نجد هذه السعة والشمول في أيٍّ من الرسالات الإلهية السابقة، فقد تناول هذا الشمول السلوك الفردي والجماعي للإنسان، سواء في عبادته أم معاملاته أم مأكله ومشربه، ملبسه ومسكنه، وكل أشكال سلوكه، أم في علاقته مع الطبيعة، أم أخيه الإنسان الآخر، وسواء في الحكم أم السياسية أم الاقتصاد أم الأسرة أم المجتمع، إلى غير ذلك مما يعرفه الإنسان.

وقد تمّ تحقيق هذا الشمول:

أوّلاً: ببيان الأحكام التفصيلية في القضايا المنظورة.

وثانياً: بيان القواعد والأصول العامة، التي يمكن أنْ يرجع إليها الإنسان عند الحاجة في القضايا غير المنظورة.

وثالثاً: بيان الأحكام على مستوى الواجب والحرام والمكروه والمستحب والمباح.

ورابعاً: بيان الأحكام على مستوى تزاحم المصالح أو الإرادات وبيان الأولويات والحالات الاستثنائية كالضرر والعسر والحرج....

المرونة

الثالث: المرونة في الشريعة، بحيث تكون قادرة على الاستمرار ومواكبة الظروف المتطوّرة والمستجدّات في الحياة الإنسانية، من خلال مراعاة الحاجات

---

(١) هذا الموضوع تناوله علماؤنا الأعلام بالبحث التفصيلي وتناولناه ـ أيضاً ـ في بعض المحاضرات، وكذلك في علوم القرآن: ٢٥٥.

الثابتة في الحياة الإنسانية التي توضع لها الأحكام الثابتة والحاجات المتغيّرة أو المتحرّكة في حياة الإنسان، حيث تمّ تغطيتها تشريعياً بمراعاة هذا التغيير في موضوعات الأحكام وربطها بعللها ومصالحها، وتشخيص العناوين الثانوية (الاستثنائية الطارئة) وتقديمها، ومنح الصلاحيات المطلوبة لولي الأمر في إطار القواعد العامة واتجاهات الحكم الشرعي ومقاصده.

الضمانات الإجرائية

الرابع: وضع الضمانات الإجرائية والتنفيذية، التي يمكن تلخيصها:

أوّلاً: تطوير وتنمية الوازع الذاتي الداخلي للإنسان المسلم، من خلال تأكيد مبدأ (التقوى) والورع عن محارم الله وتقوية الإرادة الإنسانية عن طريق الجهاد الأكبر، وضبط النفس والسيطرة على طغيان الشهوات والميول.

ثانياً: تأكيد مبدأ التعويض الإلهي للبذل والعطاء والصبر على الطاعة واجتناب المعصية، وتحمّل الجهد والنصب في سبيل الله والآخرين، ومصلحة الجماعة، قال تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً...**﴾[1].

وكذلك تأكيد القيم والمبادئ الإسلامية التي تشكل ضمانة في الإجراء، وفي تشخيص اتجاهات الشريعة، وكذلك تفسير الحكم ومعرفة الحكمة فيه.

ثالثاً: بالدولة والنظام الإسلامي، الذي سوف نتناول الحديث عنها بصورة مستقلة؛ لأنها تمثّل عنصراً مهمّاً في تحقيق هذه الوحدة.

رابعاً: في تأكيد مبدأ رقابة الأمّة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمبدأ يمثّل مسؤولية عامّة، تتحملها الأمّة في مراقبة الحاكم من ناحية،

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

ومراقبة السلوك للإنسان الآخر من ناحية ثانية، وسوف نتعرف على مزيد من التوضيح في البحث عن العنصر الرابع.

خامساً: الجهاد الأصغر الذي يشمل القتال ـ أيضاً ـ في بعض الحالات الخاصة المحددة فقهياً.

العنصر الرابع: الأمّة والجماعة الواحدة[1]

لقد أعطت الرسالة الإسلامية (الأمّة) موقعاً خاصاً في الأهداف الرسالية، وفي النظام الاجتماعي، فقد جعل الله تعالى الإنسان خليفة له في الأرض، وعليه أنْ يقوم بواجب هذه الخلافة، كما شرحنا ذلك في الباب الأول من هذا الكتاب، وذكرنا هناك ماذا تعني هذه الخلافة.

وقد جاءت الرسالات الإلهية لهداية الإنسان إلى الله تعالى الذي يمثّل الكمال المطلق، وعندما وقع الاختلاف بين الناس، كان أحد الأهداف الأساسية المهمّة للرسالات الإلهية هو حلّ هذا الاختلاف والوصول بالإنسان إلى الوحدة في العبادة لله تعالى والصراط المستقيم الواحد الذي يوصله إلى الله تعالى وإلى الكمالات الإلهية، التي تعني أنْ يعبد الإنسان الله تعالى وحده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، وأنْ يقيم الحق والعدل في سلوكه وحركته ومجتمعه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ

---

(١) تناولنا هذا الموضوع بالبحث في عدّة مواضع من أبحاثنا، منها(الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق) و(دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة)، و(المنهاج الثقافي)، ونتناوله هنا بالحديث بصورة موجزة إكمالاً للنظرية التي طرحناها حول الرسالة الخاتمة.

(٢) الذاريات: ٥٦.

وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾[1].

ولاشك أنّ حركة الأنبياء والرسالات الإلهية سوف تنتهي إلى تحقيق هذا الهدف الإلهي في نهاية المطاف: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2].

وكانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة التي يتحقّق فيها هذا الهدف بإذن الله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3].

وبذلك يكون الإنسان والأمّة والجماعة هي هدف التغيير والتكامل والوحدة، بالنسبة إلى الرسالة الإسلامية.

ولكن كيف يتحقّق ذلك التغيير الاجتماعي العام؟

وهنا يبدو ـ أيضا - من الرسالة الإسلامية أنّ التغيير يتحقّق من خلال عاملين أساسيين:

أحدهما: الرسول الذي يتحمّل مسؤلية، إبلاغ الرسالة والعمل على تزكية الناس وتعليمهم.

والآخر: الإنسان نفسه الذي يستقبل هذه الرسالة ويتغيّر بها نفسياً وروحياً، فإنّ تغيير المجتمع إنّما يكون من خلال تغيير الأفراد: ﴿... إِنَّ اللهَ

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) النور: ٥٥.

لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾[1].

إذن، فالإنسان كما هو هدف التغيير الاجتماعي، فكذلك هو أداة التغيير الاجتماعي، - أيضاً - وأنّ التغيير لا يتحقق ـ بحسب الإرادة والسنّة الإلهية ـ بالقوة والقهر: ﴿...**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...**﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿... **وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿... **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[5].

كما أنّه سبحانه وتعالى شاء أنْ يختار من الناس ويصطفي من بني الإنسان الرسل والأنبياء عليهم السلام ليقوموا بهذه المهمة، ولم يجعل ذلك عن طريق آخر، كالملائكة، أو القوى الغيبية الأخرى.

ولعل هذا التصوّر النظري لموقع الأمّة والجماعة في الرسالة الإسلامية الخاتمة هو الذي فرض أسلوباً خاصاً في الخطاب القرآني، جعله خطاباً موجّهاً إلى الأمّة والناس والجماعة، أكثر مما هو خطاب موجّه للنّبي أو الخاصة والنخبة، بالرغم مما يتحمّله الرسول من مسؤليات وأعباء متميّزة، وتقوم به النخبة المصطفاة من دورها الرئيس في المجتمع الإسلامي.

ومن هذا المنطلق النظري، امتازت الرسالة الإسلامية في هذا المجال (مجال

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) النحل: ٩.

(٤) الشعراء: ٤.

(٥) يونس: ٩٩.

الأمّة)، بتأكيد بُعدين رئيسيين فيها:

الأوّل: بُعد وحدة الأمّة والجماعة الإنسانية، وإيجاد العوامل الرئيسية التي تحقّق هذه الوحدة الإنسانية فيها.

الثاني: بُعد تشخيص الدور أو الأدوار التي يجب أنْ تقوم بها الأمّة في المجتمع الإنساني المتكامل، الذي يمثّل الهدف للرسالة الإسلامية.

وسوف نشير إلى البُعد الأول منهما في هذا الموضع، ونتناول البعد الثاني عندما نتحدث عن الدولة والحكومة الإسلامية، حيث يمثل دور الأمّة أحد العناصر المهمة في شكل هذه الدولة.

وحدة الأمّة والجماعة

يمكن أنْ نلخّص عوامل وعناصر وحدة الأمّة والجماعة في الرسالة الخاتمة بالأمور التالية:

أوّلاً: (الأخوّة الإيمانية)، فإنّ الرسالة الخاتمة أكّدت وحدة البشرية في أصولها، وألغت جميع فوارق العرق والجنس واللغة والتأريخ والجغرافيا والأرض والتراب والمصالح والمنافع الخاصة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، وقد ورد عنه ﷺ قوله: ((... كلّكم لآدم وآدم من تراب... وليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى))[2].

ولكنّ البشرية ـ بسبب ظروفها وحياتها ـ أصبحت بعيدة عن هذا

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) تحف العقول: ٣٤.

الأصل الواحد الذي كان يجمعها اجتماعياً، فلابدّ من إطار واحد لمجتمعها، وقد وضعت الرسالة الخاتمة هذا الإطار الواحد على أساس وجود الامتياز بين الحق والباطل، والإيمان بالله تعالى، والكفر به: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾[١]، حيث يراد للمجتمع الإنساني أنْ يكون سلوكه على أساس الحق، وأنْ يكون مصيره وتكامله بالسير نحو الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[٢].

وانطلاقاً من هذه الرؤية، وضعت العلاقة الإيمانية أساساً لوحدة الأمّة والجماعة، فأصبح المسلمون أخوة بإيمانهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣].

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: ((إنّما المؤمنون أخوة، بنو أب وأم، وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون))[٤].

كما روي أيضاً عنه عليه السلام: ((المؤمنون أخوة، تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم))[٥].

ثانياً: (ولاء المؤمن للمؤمن)، إنّ إطار الأخوّة الإيمانية الذي يقوم على

---

(١) السجدة: ١٨.

(٢) الانشقاق: ٦.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) الكافي ٢: ١٦٥، ح ١.

(٥) الأمالي للمفيد: ١٨٦ – ١٨٧، ح١٣.

للمزيد من التوضيح، راجع في هذا العامل والعامل الذي يليه، الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين: ٨٢، وكذلك كتاب الأخوّة الإيمانية من منظور الثقلين..(للمؤلف).

أساس قاعدة الإيمان، يحتاج إلى محتوى يحقّق هذه الوحدة في الجماعة، ويمنحها القوة والقدرة الفاعلة في الحياة الاجتماعية والتكامل في المسيرة الإنسانية، لأنّ مجرّد العلاقة العقائدية والفكرية لا تكفي وحدها لتحقيق الآثار والنتائج الاجتماعية لهذه الوحدة.

ومن هذا المنطلق جعلت الرسالة الخاتمة محتوى علاقة الأُخوّة الإيمانية هو ولاء المؤمن للمؤمن، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾[1].

والولاء يعني: المودّة والحب، والالتزام والعهد، والحماية والنصرة، فهي علاقة ذات بُعد عاطفي ونفسي، ينتهي إلى حب الله تعالى ورسوله، كما أنّها ذات بُعد عَقْدي وعهدي والتزام اجتماعي، وفي الوقت نفسه ذات بُعد عملي يتمثل بالحماية والنصرة للمؤمن. وكل هذه الأبعاد دلّت عليها النصوص القرآنية والحديثية، وهي مستنطقة ومستنبطة من فكرة الولاء نفسها[2].

ثالثاً: وضع نظام كامل للعلاقات الاجتماعية بين أبناء الأمّة والجماعة المسلمة بمختلف مستوياتها، كما أنّه يشمل هذا النظام الناس خارج إطار الأُخوّة الإيمانية من أهل الكتاب وغيرهم، وهو نظام محكم وقوي وشامل يقوم على أساس من النظرة الإنسانية الشاملة والعقيدة الإيمانية والمسؤلية الاجتماعية والحيوية.

ومن مبادئ هذا النظام: التكامل الاجتماعي والمسؤلية الجماعية تجاه

---

(١) التوبة: ٧١.

(٢) لقد أشرنا إلى توضيح ذلك في كتابنا (الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين): ٨٥، وكذلك (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق): ٩٠، وكتاب (الأُخوّة الإيمانية من منظور الثقلين).

قضايا المجتمع، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والواجبات الكفائية التي يتحمّلها المجموع، والقيم الأخلاقية، والمشاعر النبيلة، وحسن المعاشرة[1].

رابعاً: وضع نظام للشعائر الإسلامية، له أبعاد اجتماعية، من أجل صياغة حركة الأُمّة بصورة جماعية، وتنسيقها، وكسر الحواجز بين أبنائها، ومنحها الصبغة الدينية العبادية التي تتناسب مع الوحدة الدينية الخاتمة، مثل: صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة، والعيدين، وحج بيت الله الحرام، وغيرها من أماكن العبادة والزيارة، مما له دور كبير في تحقيق هذه الوحدة مضموناً وشكلاً[2].

خامساً: تشخيص وتحديد علاقة الحاكم والمحكوم، باعتبار أنّ أحد العناصر الرئيسية في وحدة المجتمعات الإنسانية والاختلاف فيها، هي قضية الحكم، والعلاقة القائمة بين الوالي والرعية والحاكم والمحكوم، وقد قامت الرسالة الإسلامية بتحديد هذه العلاقة بصورة دقيقة وواسعة، مما يكون له دور كبير في المساهمة لتحقيق هذه الوحدة الاجتماعية، ومن أهمّ خصائص هذه العلاقة هي طاعة الحاكم في إطار طاعة الله تعالى، وعقد البيعة له، ووحدة الإمامة، ومسؤلية الحاكم في الرعاية الروحية والمعنوية والمعيشية والعلمية تجاه جميع أوساط الرعية على حدٍّ سواء، وقد تناولنا هذا الموضوع في بحث مستقل، ونتناول جانباً منه في بحث الدولة الإسلامية.

---

(١) لقد تناولنا هذا النظام الاجتماعي بصورة تفصيلية في كتابنا (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة) ١: ٤٦٥، وشرحناه في الجزء الثاني: ١١.

(٢) تناولنا بحث نظام الشعائر والعبادات بشيء من التفصيل في كتابنا (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة) ٢: ١٥٥، الباب السابع.

مشاهد لوحدة الأمّة

ويمكن أنْ نلاحظ جانباً من تجسيد هذه الوحدة في المشاهد القرآنية التالية:

أ) مشهد الوحدة في المسيرة الاجتماعية في العقيدة، من خلال الاعتصام بحبل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾[1].

وهذا المشهد يؤكّده مشهد آخر، وهو: التمسّك بالعروة الوثقى التي تمثّل القوّة والثبات: ﴿... فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ب) مشهد الوحدة في القلوب وعواطفها ومشاعرها وانسجامها بعضها مع بعض في الموقف والحركة، وذلك من خلال وجود العامل الغيبي المتمثّل بالنعمة الإلهية والتأييد والنصر الرّباني. ﴿... وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً...﴾[3].

ويؤكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة الغيبية عندما يشير في آية أُخرى أنّ من المستحيل (اجتماعياً) تحقيق هذا التآلف بالوسائل المادّية: ﴿... هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

ج) مشهد الأمّة الواحدة تأريخياً واجتماعياً، من خلال تحويلها في

---

(١) آل عمران: ١٠٢ ــ ١٠٣.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٤) الأنفال: ٦٢ ــ ٦٣.

جذرها العقائدي والأخلاقي وأهدافها في الحياة وأصولها الإنسانية إلى أمّة الأنبياء عليهم السلام، فإنّهم بالرغم من اختلافهم في الزمان والمكان واللغة والأقوام، ولكن تربطهم الأهداف الاجتماعية، والغايات والمقاصد الإنسانية الواحدة، والوسائل الشريفة، والعقيدة والمفاهيم الواحدة، بحيث تتكامل النظرة الشمولية الاجتماعية العالمية للأمّة الإسلامية عموماً في جذور التأريخ الإنساني، مع النظرة الشمولية العالمية أفقياً في استيعابها للأقوام والشعوب المتعدّدة في عصر الرسالة الإسلامية: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1]، ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[2].

وإنّ هذه الوحدة القائمة على الأصل الإنساني وعقيدة الإله الواحد والحياة الأبدية، والتكامل الأخلاقي، تتبدّل إلى الفرقة والتمزّق اجتماعياً وعملياً عندما تفقد هذه العوامل الموحدّة لها، فتتقطّع إلى أحزاب وجماعات: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[4].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[5].

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) المؤمنون: ٥٢.

(٣) المؤمنون: ٥٣.

(٤) الأنعام: ١٥٩.

(٥) الروم: ٣١ – ٣٢.

د) مشهد امتداد وانبساط الولاء لله تعالى، والبراءة من أعدائه، إلى جميع تفاصيل الحياة الاجتماعية الإنسانية ليوحدها في إطار عملي واحد وجعله محوراً لها، انطلاقاً من فكرة الولاء لله تعالى ورسوله والمؤمنين، والبراءة من الشركاء والأنداد له تعالى، حيث يعتبر موقف إبراهيم عليه السلام في التبرّي من قومه، بسبب عبادتهم للأنداد القدوة والأسوة في ذلك، ولكن مع تطوير واسع في الشمول والامتداد الاجتماعي لجميع مناحي الحياة الإنسانية، ويبدو ذلك واضحاً من المقارنة بينهما عندما نقرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[2].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ

---

(١) التوبة: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) الممتحنة: ٤.

﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

ويبدو ذلك واضحاً عندما نتابع آيات الولاء في القرآن الكريم، لنجد في ذلك شمولاً لجميع التفاصيل في الحياة الإنسانية.

العنصر الخامس: الإمامة والدولة

من الأسس والعناصر الرئيسية في الوحدة الدينية الخاتمة هو: (الإمامة).

والإمامة تتّحد مع النبوة ـ أحياناً ـ في الشخص، وتفترق عنها أحياناً أخرى، وهي: في الرسالة الخاتمة عنصر ملازم لا ينفك عنه، فالنّبي الخاتم ﷺ كان إماماً منذ البداية، كما كان إبراهيم عليه السلام إماماً في نهاية المطاف، ثمّ استمرّت الإمامة بعد النّبي الخاتم في الرسالة الخاتمة، بالرغم من توقّف وعدم استمرار النبوّة فيها.

مسؤليات النبوّة والإمامة

والإمامة تشترك مع النبوّة في المهمات الأساسية التي تتحمّلها النبوّة الخاتمة التي أشار إليها القرآن الكريم، وهي: (تلاوة آيات البلاغ) و(التزكية والتطهير للأمّة والجماعة) و(تعليم الكتاب والحكمة)، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2].

ولا شك أنّ كلّ ذلك مما يستلزم أنْ يكون الرسول والإمام مستوعباً للرسالة بكاملها ومحافظاً عليها، ليكون قادراً على إبلاغها وتعليمها والتزكية

---

(١) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) الجمعة: ٢.

والتطهير بها.

كما أنّ الرسول والإمام لابد أنْ يكون مسؤلاً عن إعطاء التوجيه والإشراف والرقابة على مسيرة الأمّة، بمقدار ما يكون الأمر متعلقاً بالرسالة[1] وأهدافها، ليمكنه أنْ يحقق التزكية والتطهير بها.

كما أنّ لابد أنْ يكون مسؤلاً عن (التدخّل لمقاومة الانحراف واتّخاذ كل التدابير الممكنة من أجل سلامة المسيرة)[2]، لأنّ ذلك من لوازم التزكية والتطهير.

الفرق بين النبوّة والإمامة

والنبوّة قد تتّحد مع الإمامة في الشخص ـ كما قلنا ـ وقد تفترق عنه، ولكن تتميّز النبوّة عن الإمامة في عدة أمور:

١. إنّ النبي يكون حامل رسالة من الله تعالى، تأتيه من خلال الوحي الإلهي، أمّا الإمام فانه مستودع لهذه الرسالة من قبل النّبي، وإنْ كان معيّناً من قبل الله تعالى في ذلك.

٢. إنّ إحدى الأدلة التي تثبت نبوة النبي من عند الله تعالى هي: (المعجزة)، وأمّا الإمام فإنّ ما يثبت إمامته عند الناس والحجّة التي له على الناس، إنّما هو النص من النّبي على الإمام بأمر الله تعالى.

نعم، قد تقترن الإمامة بالأمور الغيبية الخارقة للعادة والقوانين التجريبية التي تشبه المعاجز، ولكن الأصل في الحجّة ليس ذلك، وإنّما هو النص.

٣. إنّ منكر النّبي يكون خارجاً عن الإسلام، بخلاف منكر الإمامة، فإنّه

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٣٦ ــ ١٣٧.

(٢) الإسلام يقود الحياة: ١٣٦ ــ ١٣٧.

لا يكون خارجاً عن الإسلام، وإنما يكون خارجاً عن الإيمان الكامل، والسبب في ذلك هو: أنّ الإمامة امتداد للرسالة، وتثبت من خلال نصّ النّبي عليها، فهي بدرجة من الوضوح أقل من درجة الوضوح في النبوّة.

٤. إنّ الدور الأساس الذي يقوم به النّبي هو إرساء وتثبيت دعائم الرسالة وإبلاغها للناس، وأمّا الإمام الذي يأتي بعد النّبي ولا يكون نبياً، فدوره هو الاستمرار في عملية البناء والتغيير، فدور النبي هو دور التأسيس، ودور الإمام هو دور البناء على ذلك الأساس، ولذا جاء تأكيد رسول الله ﷺ في هذا الجانب، بما ذكره لعليّ عليه السلام من أنه ﷺ يقوم بالقتال على التنزيل، وأمّا دور علي عليه السلام، فهو القتال على التأويل[1].

وذلك أنّ هدف النبيّ الأساس هو تغيير المجتمع الإنساني بالرسالة، وهذا يمرّ بمرحلتين:

الأولى: إبلاغ الرسالة والتأسيس لها.

الثانية: التغيير الاجتماعي بالرسالة الذي لا يستوعبه عمر النّبي - عادة - فيحتاج إلى إكمال هذا الدور بالإمام.

---

(١) حيث ورد عنه ﷺ قوله: ((يا عليّ، أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي، تقضي ديني، وتنجز عدتي [عدتي] وتقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل، يا عليّ، حبك إيمان، وبغضك نفاق، ولقد نبّأني اللّطيف الخبير أنّه يخرج من صلب الحسين تسعة من الأئمة، معصومون مطهّرون، ومنهم مهديّ هذه الأمّة، الّذي يقوم بالدّين في آخر الزمان كما قمت به في أوله))، كفاية الأثر: ١٣٥، بحار الأنوار ٣٦: ٣٣١:ح١٩٠، وقد ورد مضمون القتال على التأويل والقتال على التنزيل في عدد من النصوص التي رواها الفريقان، راجع تاريخ ابن عساكر ٣: ١٢٧ ــ ١٣٦، مستدرك الصحيحين ٣: ١٢٢، قال الحاكم: هذا حديث صحيح.

وقد فرضت هذه المسؤليات في النبوّة الخاتمة عدة قضايا وأمور رئيسية:

استمرار الإمامة

القضية الأولى: هي ضرورة استمرار الإمامة بعد النبوّة لعدة أسباب نذكرها بصورة موجزة[١]:

١. ما ذكرناه آنفاً، من أنّ عملية التغيير الاجتماعي ـ ومنها الإطاحة بالطواغيت والأصنام الاجتماعية، وجهاد النفس، والتزكية الاجتماعية لا يستوعبها عمر النبيّ ـ عادة ـ الأمر الذي يفرض وجود الإمامة بعد النّبي، لانقطاع النبوّة في الرسالة الخاتمة.

٢. إنّ الاختلاف على مستوى العبادة والتطبيق للأحكام الشرعية، والمفاهيم الاجتماعية، ظاهرة لازمة في التأريخ الإنساني لا ينفك عنها بنص القرآن: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٢]، وبالنص النبوي المتواتر: ((**النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس**))[٣]، فلابدّ من وجود الإمامة؛ لإقامة الحجّة ومعالجة هذا الاختلاف في الدين، وهذا وإنْ كان أقل حدة وشدّة في الرسالة الخاتمة ـ لما ذكرناه من عوامل وضمانات ـ منه في الرسالات السابقة، ولكنّه قائم على كل حال.

---

(١) يمكن مراجعة ــ في شرح هذه الأسباب والاستدلال عليها ــ كتابنا الإمامة وأهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية (الإمامة).

(٢) هود: ١١٨ ــ ١١٩.

(٣) مستدرك الصحيحين ٣: ١٤٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٣. إنّ تطبيق الحكم الشرعي بصورة كاملة كما تفرضه المرحلة الأخيرة (الوحدة الدينية الحقيقية)، التي بشّر بها جميع الأنبياء عليهم السلام، ومنهم النّبي الخاتم صلى الله عليه وآله، وهي مرحلة الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه، سواء في مرحلة التمهيد لها، أم تطبيقها، تحتاج إلى هذه الإمامة أيضاً.

الإمامة في أهل البيت عليهم السلام

القضية الثانية: إنّ هذه الضرورة في استمرار الإمامة وبقائها فرضت قضية أُخرى - أيضا - وهي: أنْ تكون الإمامة في أهل البيت عليهم السلام -أيضا- ؛لأنّهم المؤهّلون لها دون غيرهم، لعدة أسباب وعوامل أساسية تقتضيها شروط الإمامة ومحتواها.

وهذا من الأبحاث الكلامية التي لا يسع هذا الكتاب تناوله، ولذا نحيله إلى كتابنا المشار إليه في الهامش السابق.

وحدة الإمامة

القضية الثالثة: من أجل أنْ تقوم الإمامة بدورها المطلوب في تحقيق الوحدة الدينية الخاتمة، أصبح من الضروري أنْ تكون الإمامة في الأُمّة واحدة غير متعدّدة؛ وهذا ممّا أجمع عليه المسلمون.

وقد أشارت إلى ذلك النصوص القرآنية، سواء في قصّة موسى عليه السلام حيث جعل هارون وزيراً لموسى عليه السلام لا عدلاً له، أم في الصيغة التي طرحها القرآن الكريم عن النبوّات في مختلف أدوارها، حيث لم نشهد تعدّد الإمامة فيها في أي عصر وعهد.

كما أكّدت ذلك النصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، ومنها: ما ورد في إمامة الحسن والحسين عليهما السلام، حيث فرض أنّ أحدهما لابد أنْ يكون هو القائم بالأمر، فعن الحسين بن أبي العلا، قال:

قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ((تترك الأرض بغير إمام؟ قال: لا، قلنا له: تكون الأرض وفيها إمامان؟ قال: لا، إلاّ إمام صامت لا يتكلّم، ويتكلّم الّذي قبله))[١].

الولاية للرسول والإمام

القضية الرابعة: من أجل أنْ يصبح دور الإمامة في تحقيق الوحدة الخاتمة فاعلاً ومؤثراً، فرضت البيعة للإمام على كلّ المسلمين، ويلتزم فيها المسلم بالطاعة للإمام بصورة مطلقة في إطار الحكم الشرعي، بحيث قرنت طاعته بطاعة الله تعالى.

فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله متواتراً وبإجماع المسلمين، قوله صلى الله عليه وآله: ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية))[٢]، أو ((من مات

---

(١) بصائر الدرجات: ٥٠٦ :ح ١١ ، بحار الأنوار ٢٣: ٥١: ح١٠٢.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة ٤٠٩ و ذكر المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار ٢٣: ٧٦ ــ ٩٥، باب وجوب معرفة الإمام، وقال في صفحة: ٩٤، ما لفظه: ((روى كثير منهم ــ أي علماء الجمهور ــ أنّه عليه السلام قال: من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)).

ولكن لم ترد هذه الرواية عن طرق الجمهور إلاّ في مسند أحمد بن حنبل، وذكرها بعضهم، ثم حذفت بعد ذلك منه في بعض الطبعات الأخرى ــ وهذا من الأساليب الخطيرة التي استخدمت في تزوير الحقائق في العصر الحديث، وقد ذكرها – أيضا – صاحب مجمع الزوائد الذي هو من كتب الأحاديث الجامعة المتأخّرة لأهل السنة، وكذلك ذكرت في كنز العمال.

وجاء في التاج الجامع للأصول ٣: ٤٦، عن صحيح مسلم – أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: ((من مات وليس في عنقه بيعةٌ مات ميتة جاهلية))، وأكثر الروايات بهذا الصدد، جاءت بعنوان من مات وليس في عنقه بيعة ــ إما لإمام أو بصورة عامة ــ مات ميتة جاهلية.

أما رواية ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)) فهي لم ترد إلاّ بصورة محدودة جداً في كتب علماء الجمهور.

وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية))[١].

كما ورد في القرآن الكريم، أنّ الطاعة ملازمة لإرسال الرسول: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ...﴾**[٢]. وأنّ طاعة الرسول والإمام (أولي الأمر) مقرونة بطاعة الله عزّ وجلّ أيضاً، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾**[٣].

وقال تعالى: **﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾**[٤].

وقال تعالى: - في سياق الآية السابقة **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ...﴾** - **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾**[٥].

والحديث عن الإمامة والطاعة للإمام يجرّنا للحديث عن مشروع الدولة الإسلامية الذي يعتبر من أهم خصائص الرسالة الإسلامية الخاتمة، سواء في

ومن المحتمل جداً أنّ عملية التزوير قد جرت لتلك الروايات التي وردت في موضوع (البيعة)، حيث كانت في الأصل قد وردت في معرفة الإمام، ولكن من أجل إبعاد أذهان الناس عن عنوان الإمام، حوّلت هذه الروايات وزوّرت، بحيث أصبحت لها مداليل أُخرى.

(١) التاج الجامع للأصول ٣: ٤٦، عن صحيح مسلم، وهي روايات كثيرة، كما يعرف ذلك من مراجعة كنز العمال ٦: ٤٥ ـ ٦٦، أحكام الإمارة وآدابها.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) الأنفال: ٤٦.

(٥) النساء: ٦٥.

المحتوى والمضمون، أم في مجال التطبيق العملي الخارجي، كما أنّه في الوقت نفسه يعتبر من أهم عناصر تحقيق الوحدة الخاتمة، وتقليص دائرة الاختلافات فيها.

ولـذا نلاحظ أنّ الرسالة الإسلامية تمكّنت ـ بإذن الله من دون بقية الرسالات ـ من إقامة الحكم الإسلامي في عصر صاحب الرسالة، وبقي هذا الحكم قائماً إلى زماننا هذا[1]، وسوف يبقى حقيقة قائمة في وسط المسلمين روحياً ومعنوياً إلى أنْ تتحقق مرحلة ظهور الحجّة المهدي القائم ﷺ في تحقيق الوحدة الحقيقة الخارجية الكاملة.

كما أنّ هذا الحكم كان له تأثير كبير في نشر الرسالة الإسلامية وتوطيد دعائمها.

ولأهميّة الحديث عن الحكم الإسلامي، اقتضى أنْ نعقد له فصلاً مستقلاً بما يتناسب مع هذا الكتاب، كما تناولناه بصورة أكثر تفصيلاً في كتاب مستقل[2].

---

(١) إنّ الحكم الإسلامي وإنْ كان قد تجسّد نسبياً في حكم داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما من بني إسرائيل، ولكن ذلك كان مجرّد سلطة توصّل إليها النبي من خلال تحوّلات الأوضاع الاجتماعية في السلاطين والملوك وطبّق فيها حكم الله تعالى، وأمّا الدولة الإسلامية في الرسالة الخاتمة فهي مشروع الرسالة، ولذا استمرّ إلى يومنا الحاضر، بالرّغم من تعرّضه لكثير من الانحرافات، وحتى بعد سقوط الدولة العثمانية بقي دستور الحكم في إيران سابقاً والسعودية قائماً على أساس الحكم بالشريعة، وإنْ تمّ مخالفتهما في كثير من الأحيان.

(٢) وهو كتابنا: (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق).

الفصل الثاني

الحكم الإسلامي

تقسيم البحث

والحديث في الحكم الإسلامي[١] حديث واسع، نحاول أنْ نوجزه بذكر معالمه الأساسية في أبحاث ثلاثة، ونترك التفصيل إلى كتابنا (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق):

البحث الأول: في التصوّر العام لهيكلية الحكم الإسلامي، ومواصفات الحاكم.

البحث الثاني: في دور الحكم الإسلامي في المجتمع الإنساني.

البحث الثالث: في خصائص الحكم الإسلامي.

---

(١) قد اعتمدنا في هذا البحث ــ بصورة أساسية ــ على كتابنا (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق)، مع تطوير وتوضيح لهذا البحث في الأسلوب والمضمون.

المبحث الأول: الهيكل العام للحكم الإسلامي ومواصفات الحاكم

من خلال النصوص السابقة، عرفنا أنّ الحكم بالأصل لله تعالى: ﴿... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ...﴾[1]، وأنّ الله تعالى قد جعل هذا الحكم للأنبياء بالشخص والاسم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ...﴾[3].

وأمّا بعد الأنبياء، فمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية أنّ الحكم للأئمّة الاثني عشر عليهم السلام بالنص النبوي على ذلك بأمر من الله تعالى[4]، وأنّ الإمام ـ كما ذكرنا ـ يتحمّل المسؤليات نفسها التي يتحمّلها النّبي، كما أنّ له

---

(١) الأنعام: ٥٧، وقد جاء هذا الموضوع في عدة سورة، راجع المعجم المفهرس: مادة (حكم).

(٢) الأنعام: ٨٣ – ٨٧، ويشير إلى ذلك ما ورد في سورة الأنبياء أيضاً.

(٣) ص: ٢٦.

(٤) تعرّضنا للاستدلال على ذلك في كتابنا: (الإمامة وأهل البيت عليهم السلام)، وكذلك للاتجاهات الإسلامية في الحكم، في كتابنا: (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق)، الباب الثاني (الولاية والشورى): ٦١.

الصلاحيات نفسها ـ أيضاً ـ مع فوارق بين النّبي والإمام، وقد أشرنا إليها قبل قليل.

ولكن ـ على مذهب جمهور المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، وعلى مذهب أهل البيت عليهم السلام بعد غيبة الإمام المهدي عليه السلام ـ يأتي سؤال لمن يكون الحكم؟ وكيف يكون؟.

يبدو من النصوص الدينية القرآنية والنبوية العامة، والفتاوى الفقهية لفقهاء وعلماء المسلمين: أنّ للحكم الإسلامي أركاناً وأبعاداً ثلاثة، تتضح هيكليته من خلالها، واهتمت النظرية الإسلامية بإيجاد الموازنة بينها:

الأوّل: محتوى الحكم الإسلامي وصلاحياته، وهي: السلطات الثلاثة: (التشريعية، والتنفيذية، والقضائية)، وهي: صلاحيات تكاد تتمركز في الحاكم الإسلامي.

الثاني: مواصفات الحاكم الإسلامي الذي تتمركز فيه هذه الصلاحيات، والتي من خلالها يتمّ تشخيص صلاحيته للحكم.

الثالث: الأمّة التي يقوم الحكم بإدارة شؤونها ودورها في الحكم، وتشخيص أو تعيين الحاكم.

الركن الأول: محتوى الحكم الإسلامي

الحكم الإسلامي ـ كما أشرنا سابقاً ـ يشتمل على التشريع والتنفيذ والقضاء، وهي: السلطات الثلاثة المعروفة:

السلطة التشريعية

أما التشريع: فيمتاز الحكم الإسلامي فيه أنّ الأصل في التشريع يكون من قبل الله تعالى، ودور الحاكم هو إبلاغ هذا الحكم، أو اكتشافه بالرجوع إلى

أدلّة الإثبات التي اعتمدها الشارع المقدس أيضاً.

وهذه الأدلّة بصورة إجمالية هي: (القرآن الكريم)، و(السنّة النبوية) التي تثبت بالأسانيد المعتبرة، و (الإجماع)، و(العقل) عندما يدرك الحكم الشرعي، أو علله أو ملازماته بصورة قطعية[1].

ولكن على أي حال لا بدّ للحاكم الإسلامي أنْ يكون عالماً بالحكم الشرعي، إمّا بصورة مباشرة عن طريق الوحي الإلهي، كالرسول؛ فيبلّغه للناس: ﴿...يتلوا عليهم آياته...﴾[2]، ﴿...وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[3]. أو يكون مستودعاً لهذا الحكم من قبل الله والرسول، كالإمام، أو يكون مجتهداً قادراً على اكتشاف الحكم عن طريق الأدلّة التفصيلية الأربعة.

نعم، لولي الأمر الذي هو الفقيه الجامع للشروط المطلوبة، من الاجتهاد، والعدالة، والخبرة، أنْ يقوم بملء الفراغ التشريعي في الأمور التي فوّضها الشارع المقدّس له، وهي: الأمور ذات الطبيعة المباحة أو المتحرّكة المتغيّرة التي لا يمكن وضع أحكام ثابتة لها، بسبب تأثرها بعامل الظروف المتغيّرة.

التشريع بالولاية

ونشير إلى بعض عناوينها للتوضيح:

١. الموضوعات ذات العلاقة بالأمور العرفية التي تتغير بتغيّر الأعراف والأوضاع الاجتماعية، فالزوج يجب عليه الإنفاق على زوجته في أكلها وملبسها وسكنها... إلخ، وهذه أمور تتغيّر وتتحرّك من زمان إلى آخر

---

(١) إنّ البحث في هذا الموضوع يتمّ ــ عادة ــ في علم أصول الفقه، ونكتفي هنا بالإشارة إليه.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) النور: ٥٤، وكذلك في سور أخرى، راجع المعجم المفهرس: مادة (بلغ).

حسب المستوى المعيشي للناس، وأساليب المعيشة والحياة، وهكذا في الأمور الأخرى.

٢. موارد التزاحم والتضاد بين الواجبات التي لا يمكن الجمع بينها، كواجب حفظ الناس، وواجب الدفاع عن الإسلام والجماعة عندما تتعرّض إلى هجوم، وقد يؤدّي ذلك الدفاع إلى الشهادة والقتل، أو تزاحم الواجبات مع المحرّمات التي تنطلّق من مصالح ومفاسد قد يزاحم بعضها بعضاً، فشرب الخمر حرام، وحفظ النفس واجب، وقد يتعرّض الإنسان إلى مرض يعرّض حياته للهلاك ويكون دواؤه منحصراً بشرب الخمر. وإسقاط الجنين حرام وحفظ حياة الحامل واجب من الواجبات، وقد يتزاحم هذا الحرام مع ذلك الواجب، وهكذا فتشخيص الأهمّ من المهمّ وتقديم الأهّم على المهمّ من واجبات الحاكم التشريعية.

٣. إنّ الواجبات الشرعية ـ بصورة عامة إلاّ ما استُثني بدليل خاص ـ مقيده بالضرر، والحرج، والعسر: ﴿...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾[1]، ﴿...يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾[2]، ((لا ضرر ولا ضرار في الإسلام))[3]، وهذه من القواعد المسلّمة، فإذا كان الواجب الإسلامي في بعض الحالات موجباً للضرر أو الحرج أو العسر، فإنّ تشخيص ذلك وتقنينه تشريعياً من واجبات الحكم والحاكم الإسلامي، وذلك لأنّ الضرر قد يختلف من زمان ومكان... وهكذا العسر والحرج.

٤. التشريع والتقنين لإدارة شؤون الناس في مجال القضايا المباحة أو ذات

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه٤: ٣٣٤، ح ٥٧١٨، وسائل الشيعة ٢٦: ١٤، أبواب موانع الإرث، ب١، ح١٠.

العلاقة بهم وتحت ولايتهم وتصرّفهم، وذلك عندما تتعارض فيها إرادات هؤلاء الناس، بحيث تؤدي إلى الإخلال بحياتهم أو الإضرار بها أو النزاع والاختلاف فيما بينهم، كما هو الحال في موارد الاستفادة من الموارد الطبيعية العامة، كالماء، والأرض، والحيوانات الموجودة في البر والبحر.... إلخ، أو الاستفادة من الطرقات العامة، حيث تقوم الحاجة إلى التشريع والقانون لتنظيم ذلك.

٥ ـ تنظيم وتنفيذ وتطبيق الواجبات الأصلية العينية أو الكفائية، بحيث تحقّق أغراضها المطلوبة كتنظيم عملية الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو جمع الخمس والزكاة، أو الإعداد للقوة... الخ.

إنّ هذه الأمور وأمثالها يتحمّل الحاكم والحكم الإسلامي مسؤولية التشريع والتقنين فيها.

آلية التشريع

وأمّا آلية التشريع، فهي تعتمد بصورة أساسية على عدة أمور:

١. الاتجاهات العامة في التشريع الإسلامي التي يمكن للمجتهد أنْ يستنبطها من الشريعة، وهي تمثّل: مؤشّرات وسياسات عامة للشريعة الإسلامية ترتبط بأهدافها الكلية ومقاصدها العامة وحرماتها ومقدساتها وقيمها، فإنّها تعتبر حدود لعملية التقنين التي يمارسها الولي[1].

وهذا الأمر يؤكّد ضرورة أنْ يكون الحاكم مجتهداً؛ ليكون قادراً على هذا التشخيص.

٢. الفحص والتشخيص والمتابعة للمصالح العامة للجماعة المسلمة

---

(١) راجع توضيح ذلك فيما نكره للشهيد الصدر في (الإسلام يقود الحياة).

وقدراتها وإمكاناتها والأخطار التي تهددها ودرجتها.

٣. التشاور مع الأمة والجماعة في الأمور ذات الاختصاص، التي تحتاج معرفتها إلى ذوي الخبرة والتجربة والإطّلاع.

٤. أخذ رأي الأمة في الأمور ذات العلاقة بمصالحها الشخصية وشؤونها الدنيوية العامة والخاصة، التي تكون الولاية فيها بالأصل للناس؛ لأنها تخصّ حياتهم ولابد من الاهتمام بحاجاتهم وآرائهم ورغباتهم فيها، حيث إنّ إداراتها بالأصل متروكة لهم، كما ذكرنا.

ومن هذا المنطلق أخذت، التجربة المعاصرة للحكم الإسلامي[1] بصيغة (مجلس الخبراء)، و(مجلس تشخيص المصلحة)، و(مجلس الأمن القومي)، و(مجلس الشورى الإسلامي)، و(مجالس الشورى البلدية) و(مجالس الشورى التنفيذية)، في مختلف المجالات ذات العلاقة.

وتشكيل هذه المؤسسات، قد يبدو لأوّل وهلة أنّه استعارة من الأنظمة الديمقراطية لتطوير صيغة النظام الإسلامي، ولكنّها في الحقيقة ليست كذلك، بل هي مؤسسات ـ مع قطع النظر عن الاسم والشكل ـ ذات محتوى ومنطلق إسلامي كما أشرنا.

الضمانات الإجرائية

وبذلك نعرف أنّ التشريع ملء منطقة الفراغ محدود بعدّة قيود أساسية تشكّل ضماناً لسلامة التشريع:

الأوّل: الحكم الشرعي الإلهي والاتجاهات العامة له التي تشير إلى مقاصده وأهدافه وقيمه ومبادئه.

---

(١) أي: في الجمهورية الإسلامية المباركة في إيران.

الثاني: المصالح والمفاسد الواقعية للجماعة التي قد تتغيّر بسبب الظروف والأوضاع الاجتماعية، والتي يمكن معرفتها عن طريق ذوي الخبرة والمشورة.

الثالث: إرادة الأمّة واختيارها في القضايا ذات العلاقة بشؤونها وحياتها الدنيوية الخاصة بها، وفي تطبيق المواصفات المطلوبة في الحاكم الولي.

الرابع: استفراغ الوسع في معرفة الواقع والمصلحة والوصول إليه، وممارسة الإشراف على عملية التقنين التي تمارسها الأجهزة المختصّة المكلّفة من قبل الولي أو المنتخبة من قبل الأمّة لذلك.

وهذه الأمور الأربعة تشكّل ضمانات إجرائية لمطابقة التشريع والتقنين في هذا المجال للحكم الشرعي من ناحية، وللحق، والعدل، والمصالح العليا من ناحية أخرى.

السلطة التنفيذية

وأمّا التنفيذ ـ الذي يعني إجراء وتطبيق الأحكام الشرعية التي ثبتت في أصل الشريعة، أو القوانين والتشريعات التي يضعها ولي الأمر والأجهزة المختصّة لتنظيم الحياة الإنسانية حسب متطلّبات الظروف والحاجات الإنسانية والاجتماعية المتجددة، فأنها من الأمور الموكولة إلى الحاكم الإسلامي ـ أيضا بمقتضى ولايته العامة، وإنْ كانت الولاية بحسب مفهومها الفقهي الإسلامي تعني معنى أوسع من التنفيذ والإجراء، بحيث تشمل السلطات الثلاث، وتساوي الحكومة.

وكذلك يمكن أنْ نفهم ذلك ـ أيضاً ـ من نصوص وجوب البيعة للإمام، التي تعني: التعهد، والالتزام بالطاعة والامتثال: ((من مات وليس في عنقه

بيعة مات ميتة جاهلية))[١]، و((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية))[٢].

وكذلك يمكن أنْ نفهم ذلك من نصوص إيكال الحكم ـ بصورة عامة ـ للأصناف الثلاثة: (الأنبياء، والربّانيين، والأحبار)، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾[٣]، فإنّ الحكم هنا إنّما هو التنفيذ والإجراء للشريعة الإلهية، بقرينة قوله تعالى: ﴿... بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ...﴾، وبقرينة الأحكام التنفيذية التي جاءت في سياقها أيضاً.

فالرسول والربّاني والحبر وإنْ كان قيّماً ومشرفاً وشاهداً على الحكم الشرعي الإلهي، ولكنّه في الوقت نفسه يتولّى ذلك، ويعمل على تطبيقه: ﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۞.... الظَّالِمُونَ ۞... الْفَاسِقُونَ﴾[٤].

والسرّ في ذلك هو أنّ الشريعة الإلهية الخاتمة أُريد لها أنْ لا تبقى مجرّد مفاهيم وعقائد أو بشارة وإنذار تحدّد السلوك الإنساني، أو مواعظ وإرشادات للناس يتمّ الالتزام بها من خلال تنمية الدوافع الداخلية الذاتية في الناس فحسب، بل أُريد منها ـ إلى جانب ذلك ـ وجود آلية للتنفيذ والتطبيق في المجتمع الإنساني، فكانت هذه الآلية من خلال:

---

(١) التاج الجامع للأصول ٣: ٤٦.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة:٤٠٩

(٣) المائدة: ٤٤.

(٤) المائدة: ٤٤ و٤٥ و٤٧.

١) إيكال التنفيذ إلى الحاكم الإسلامي.

٢) فرض الطاعة على الرعية في الحدود الشرعية، لقوله ﷺ: ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))[1]، والمصالح الإسلامية العليا للجماعة.

٣) فرض الرقابة الشرعية للرسول والإمام والمجتهد (العالم بالأحكام الشرعية).

٤) فرض الرقابة العامّة للأمّة؛ لضمان عدم خروج الحاكم عن الخط العام للمسيرة الإسلامية.

فكانت سلطة الحاكم وطاعته عنصران أساسيّان في تحقيق هذا الهدف الرسالي.

ومن أجل أنْ تعطي الرسالة الخاتمة هذا البعد أهميّة خاصة، نجد التأكيد الكبير على عنصر الطاعة، بدرجة بحيث ترتبط بأصل الإيمان بالله تعالى وأساس الشريعة، وأنّ التخلف عنها يؤدّي إلى النفاق والكفر.

وهذان العنصران لهما دور كبير في تحقيق الوحدة الاجتماعية في الجماعة، حيث لا تبقي مجالاً للاجتهادات الخاصة في مجال التنفيذ، ولا لتعدّدية القرار وتضاربه.

وبذلك نفسّر أهميّة وحدة الإمامة في المجتمع الإسلامي.

السلطة القضائية

المراد من السلطة القضائية، هي: سلطة وصلاحية فصل الخصومات والمنازعات على الحقوق بين أبناء المجتمع، فإنّ الناس في ظل النظام الإسلامي قد يختلفون بينهم على بعض الحقوق والاستحقاقات، إمّا لجهل

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٦٩٧، ح١٦٥ شرح محمد عبده ، من لايحضره الفقيه ٤: ٥٣٨١ ح٥٨٣٢.

بالواقع، بحيث يدّعي كل منهم الحق إلى جانبه، أو لعمد وانحراف عن الواقع؛ بسبب الهوى، وتأثير وطغيان الميول والشهوات، أو يرتكب بعض المخالفات للشريعة والأحكام الشرعية، أو العدوان على الآخرين في أنفسهم، أو أموالهم، أو حرماتهم، أو حقوقهم، الأمر الذي يحتاج إلى تشخيص الحق، وفصل الخصومات، وتعيين العقوبة الرادعة، أو الإجراءات المانعة، وهذا ما تتولاه السلطة القضائية.

وهي سلطة موكولة ـ أيضاً ـ إلى الحاكم الإسلامي الذي تجتمع فيه الشروط المطلوبة، مثل: الرسول، أو الإمام، أو المجتهد (العالم بالشريعة) الجامع للعدل والخبرة.

وقد دلّت النصوص القرآنية على ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1].

ولابد أنْ نعرف بأنَّ القضاء، هنا ليس هو تشخيص الحكم الواقعي الإلهي، بحيث يعبّر الرسول، أو الإمام، أو المجتهد عن حكم الله تعالى الواقعي الحقيقي، بل إنَّ القضاء هنا هو: تعبير عن تطبيق الموازين في الكشف عن الحقيقة لتشخيصها، ثم تطبيق الحكم الشرعي عليها حسب طبيعة هذا الكشف.

وقد تُخطئ هذه العملية الواقع، باعتبار قصور وسائل الإثبات، أو انعدامها، وقد أكّد رسول الله ﷺ ذلك في قوله: ((إنّما أقضي بينكم

---

(١) النساء: ٦٥.

بالبيّنات والأيمان))[1]، والبيّنة قد تُخطئ الواقع، كما أنّ اليمين قد يكون يميناً كاذباً، ولكن مع ذلك يتمّ الفصل على أساسها، وعلى كلٍّ من الطرفين الالتزام بالقضاء والفصل والطاعة لهما، لحلّ الخلاف والإشكال بذلك.

وبهذا العرض نرى أنّ الحكم الإسلامي والسلطات والصلاحيات تتمركز بصورة أساسية في (الحاكم الإسلامي)، وأنّ الأُمّة وإنْ كان لها دور تشخيص الحاكم، والرقابة عليه في الخط العام وانطباق مسيرته مع الحكم الإسلامي، ولكن عليها الطاعة في حدود الحكم الشرعي، وما لم يخرج الحاكم عن هذه الموازين.

الركن الثاني: مواصفات الحاكم الإسلامي

الاصطفاء في الحاكم

عرفنا عند الحديث عن هيكلية الحكم الإسلامي أنّ الاتجاه العام في الرسالات الإلهية بصورة عامة، وفي الرسالة الإسلامية الخاتمة بصورة خاصة، هو تمركز السلطات والصلاحيات في الحاكم الإسلامي، وإذا أضفنا إلى ذلك ـ ما سوف نذكره في واجبات الحاكم الإسلامي ـ المسؤليات الكبيرة التي يتحمّلها الحكم والحاكم الإسلامي، نجد من الضروري عندئذٍ أنْ تضع الرسالة الإسلامية ضمانات في الحكم والحاكم الإسلامي، تضمن سلامة المسيرة في الحكم.

ويبدو أنّ أهمّ الضمانات الموضوعة لذلك هو التشديد في مواصفات

---

(١) فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيّما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً، فإنّما قطعت له به قطعة من النار))، الكافي٧: ٤١٤،ح١.

الحاكم الإسلامي وخصائصه، بحيث يمثّل في هذه المواصفات (الإنسان الصالح) الذي يتّصف بأفضل الصفات العلمية، والأخلاقية، والروحية، والمواصفات الشخصية، ويكون أفضل الناس، أو من أفضلهم في هذه الموضوعات، والقدوة والأسوة التي يقتدي بها الآخرون في السلوك والعمل، حيث يكون بذلك مؤهّلاً لمسؤلية الإمامة، وينطبق عليه عنوان الإمام.

ويمكن أنْ نفهم ذلك بوضوح من الآيات القرآنية الكريمة التي تحدّثت عن اصطفاء الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام من بين الناس، وكذلك وصفهم بأفضل الصفات: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

مضافاً إلى ذلك الآيات التي تتحدّث عنهم بوصفهم القدوة والأسوة التي يقتدي بها الآخرون، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

وكذلك آية الإمامة لإبراهيم عليه السلام التي تتحدّث أنّ استحقاقه لهذه الإمامة كان بعد مرحلة الابتلاء بالكلمات وإتمامهنّ له[3].

مضافاً إلى الآيات التي نصّت على استخلاف ووراثة الصالحين للأرض.

---

(١) آل عمران: ٣٣ ــ ٣٤.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤).

الولاية (الإمامة)

وتمثّل (الولاية) أو (الإمامة) البعد الثاني في حركة الرسول، ويطلق عليها في المصطلحات الدستورية الحديثة بالسلطة التنفيذية.

ويتلخّص هذا البُعد في كون الرسول قيّماً ومشرفاً ومتولّياً لتطبيق الشريعة والحكم؛ لأنّ الشريعة الإلهية الخاتمة إنّما أنزلت لتطبّق، لا لتبقى مجرّد مفاهيم إلهية، أو تكون بشارة وإنذار يحدّد السلوك الإنساني، أو مواعظ وإرشادات للناس يتمّ الالتزام بها من خلال الدوافع الذاتية في أفراد الناس، نجد أنّ نزول الشريعة وأحكامها إلى حيّز ودور التطبيق والتنفيذ يواجه مشكلات عدّة، أهمّها: مشكلة اختلاف الاجتهادات والآراء في طريقة تطبيق هذه الأحكام وأشكال تنفيذها وإجرائها، حيث نلاحظ ـ وفي كثير من الأحيان ـ مدى تأثير تلك الأحكام والقوانين، وكيفية إجرائها بشخص المنفّذ والمطبّق لها، فقد يحيف المطبّق لها، ويخرج بها عن جادّة الحق والصواب والعدل، وقد تتشابه عليه مصاديق ومواضيع الأحكام، فتتحكّم في عملية إجراء الحكم رؤية الحاكم الخاطئة القاصرة أو المقصّرة، عمداً أو عن غير عمد.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا

---

(١) النور: ٥٥.

عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[١].

التشدد في المواصفات

ولم يترك القرآن الكريم مفهوم (الإنسان الصالح) عنواناً عاماً وغير محدّد يخضع للاجتهادات أو التزوير، بل سعت الرسالات الإلهية إلى تشخيصه، إمّا بالاسم والشخص من قبل الله تعالى، كما في الرسل والأوصياء والأئمّة الهداة، أو إلى تحديده بالمواصفات العامة الدقيقة التي يمكن من خلالها تشخيصه من قبل الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾[٢].

و(النّبي) يتحدّد بالقرار الإلهي؛ لأنّ الله هو الذي يختار النّبي ويصطفيه، وكذلك (الربّانيون) الذين يمثّلون الأوصياء في حركة الأنبياء، فإنّه يتمّ تعينهم من قبل الله تعالى، وهذان الصنفان يكونان على درجة عالية من العدالة، التي يطلق عليها في علم الكلام بـ (العصمة)، ومن هنا نتوقّع، بل نستطيع أنْ نؤكّد ونقطع أنّ تطبيق هذين الصنفين للشريعة يكون تطبيقاً كاملاً.

وأمّا في حال غياب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فإنّ النوبة تصل إلى (الأحبار)، والذين يمكن التعرّف عليهم من خلال المواصفات الدقيقة وطرق الإثبات الصحيحة التي وضعتها الشريعة لهم، بما يضمن التطبيق الأمين والدقيق للحق والعدل، وعدم وقوع هؤلاء الحكّام في الهوى، وتحكيم الرغبات والميول والمصالح الخاصة أو الاشتباه والخطأ، لأنّنا سوف

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) المائدة: ٤٤.

نرى في هذه المواصفات ما يتناسب بصورة دقيقة مع الهدف من الحكم، ومع المسؤليات الكبيرة والخطيرة التي يتحمّلها الحاكم.

وقد عرفنا ـ سابقاً ـ بعض المؤشّرات لهذه المواصفات، ونحاول هنا أنْ نذكره بشيء من التوضيح.

مواصفات الحاكم

ويمكن أنْ نُجمل هذه المواصفات العامة، وهي مواصفات يمكن أنْ نستنبطها من الآيات القرآنية، والروايات النبوية:

١) العلم بالدين والشريعة

فمن مواصفات الحاكم في الدولة الإلهية، أنْ يكون عالماً بالإسلام والشريعة الإسلامية وأحكامها واتجاهاتها العامة، لكي يتمكّن من إصدار أوامره في شؤون الناس عن بينّة شرعية، ومن هنا اشترطت الشريعة في الحاكم الإسلامي - حتى في غير الرسول والوصي - أنْ يكون بدرجة عالية من العلم التي يعبر عنها: بـ (الاجتهاد)، تؤهلّه لاستنباط الحكم الشرعي الذي تحتاجه عملية التشريع الموكول إليه، وإبلاغ الإسلام وتعليمه وتطبيقه.

والمجتهد هو الذي يعبّر عنه القرآن الكريم بـ (أهل الذكر)، حيث حدّد الرجوع إليه عند الشك والريب، قال تعالى: ﴿... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

كما أنّهم هم المقصودون من التعبير بـ (الأحبار) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ

---

(١) النحل: ٤٣.

﴿وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾[١]، والحبر هو: العالم بالشريعة، وقد أوكل القرآن الكريم إليهم مسؤلية الحكم بالتوراة على سياق الأنبياء والربانيين.

وقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: **((ان العلماء ورثة الأنبياء وذاك أنّ الأنبياء لم تورّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنّما أ ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً...))**[٢].

وهكذا ما ورد عنه صلى الله عليه وآله، مما رواه الإمام عليّ عليه السلام: **((قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللّهم ارحم خلفائي ـ ثلاثاً ـ قيل: يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: الذيّن يبلغون حديثي وسنّتي ثمّ يعلّمونها أمتي))**[٣].

وفي حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: **((... الذينَ يأتون من بعدي ويروون أحاديثي وسنّتي فيعلّمونها النّاس من بعدي))**[٤].

حيث وصفت هذه الروايات وأمثالها العلماء بأنهم ورثة الأنبياء وخلفاء النّبي، ومما لا شك فيه أنّ أبرز مهام الأنبياء والرسل هو الحكم، لقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ...﴾**[٥]، حيث وردت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن الحكم الإسلامي، فلا بد لخلفائهم أنْ يكونوا من العلماء، ويكون للعلماء دور ومقام الحكم في المجتمع الرسالي أيضاً.

---

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) الكافي ١: ٣٢، ح٢.

(٣) الأمالي للصدوق: ٢٤٧، ٢٦٦.

(٤) عيون أخبار الرضا ١: ٤٠، ح٩٤.

(٥) النساء: ٦٤.

وأوضح من هذا، ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: ((العلماء حكّام على الناس))[1]، وما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، أنه قال: ((... مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه...))[2]، حيث يستفاد من هذه النصوص جعل الولاية للعلماء من خلال التعبير بـ(الحكام) و(مجاري الأمور) و(الأمناء)، فإنّ هذه العناوين إنّما تصدق على الحاكم، أو تشمل بإطلاقها الحاكم كأظهر المصاديق.

وكذلك ما ورد عن الإمام الحجّة المهدي عجل الله فرجه في التوقيع المعروف: ((... وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله...))[3]، حيث يستفاد من المقارنة في الحجّية في هذا النص- بين حجيّة الإمام عليه السلام وحجيّة رواة الحديث - الولاية للفقهاء، لوضوح أنّ للإمام عليه السلام حجيّة على مستوى الحكم والولاية، فتكون حجيّة رواة الحديث شاملة للولاية أيضاً.

ولعلّ أفضل الروايات الدالة على ولاية العالم الفقيه هي صحيحة زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شئ من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن...))[4]، حيث الظاهر من قوله عليه السلام: ((والوالي هو الدليل

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ٢٥: ١٨، ح٢٧ نقله عن غرر الحكم. مستدرك الوسائل١٧: ٣٢١، أبواب صفات القاضي ب١١، ح٣٣.

(٢) تحف العقول: ٢٣٨، مستدرك الوسائل ١٧: ٣١٥،ح١٦.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٨٤،ح٤، وسائل الشيعة٢٧: ١٤٠، أبواب صفات القاضي، ب١١، ح٩.

(٤) محاسن البرقي ٢: ١٨، ح٥، الكافي ٢: ١٨،ح٥.

عليهن...))، أنّه في مقام تشخيص الوالي وتعيينه، بعد بيان فضل الولاية وتعريفها: بأنّها مفتاحهن، وهذا العنوان ظاهر في (الفقيه)، لأنّه العالم الذي يهدي إلى هذه الأركان ويدل الناس عليها[1].

٢) العدالة

والمراد بالعدالة هي: أنْ يكون الإنسان في سلوكه وحركته إنساناً مستقيماً على جادة الشرع، ويفسّر الفقهاء العدالة ـ عادة - بأنها: عبارة عن ملكة وحالة نفسية وروحية ثابتة، تجعل الإنسان قادراً بصورة مستمرة على أنْ يمسك ويملك نفسه عند مواجهة الضغوط النفسية والخارجية، (إذا غضب أو رغب أو رهب)، وهي من كمال الإيمان، كما أنّها هي التقوى والاستقامة اللذان تحدّث عنهما القرآن الكريم كثيراً، وأمر نبيّه والمؤمنين الالتزام بهما، وبذلك يجعل سلوكه منسجماً ومتطابقاً مع الأحكام الشرعية، سواء في الواجبات أم المحرمات.

والعدالة على درجات، كما هو الحال في جميع الصفات النفسية، ولذا لابد أنْ يتّصف الحاكم بدرجة عالية من العدالة تتناسب وعظم المسؤلية

---

(١) ومن البعيد أنْ يكون ظاهر عبارته عليه السلام: ((... **والوالي هو الدليل عليهن...**)) هو لبيان مسؤلية الوالي، وإلاّ لجاء التعبير بطريقة أُخرى، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾، (الحج:٤١)، فيكون التعبير ـ مثلاً ـ (والوالي المقيم لهنّ)، أو غير ذلك، وهكذا يكون ظاهر النص، أنّه بصدد تعريف الوالي بالدلالة على الحكم الشرعي، وكأنّه يقول: إنّ الوالي هو العارف بهنّ أو العالم بهنّ أو الهادي لهنّ.

ولمزيد من التوضيح في الاستدلال العلمي على ذلك، راجع كتابنا: (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق): ١٠٠.

الملقاة على عاتقه.

ومن النصوص القرآنية التي تشير إلى ضرورة التزام الحاكم بالعدالة في الحكم، قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾[١].

ومن الروايات الواردة في اشتراط الورع والعدالة بالنسبة إلى الحاكم، ما ورد عن أبي جعفر ﷺ، قال: ((قال رسول الله ﷺ **لا تصلح الإمامة إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتّى يكون لهم كالوالد الرحيم**))[٢].

وكذلك ما ورد من كلام لأمير المؤمنين عليّ ﷺ عند مسيره إلى الشام لقتال معاوية: ((... **فإنّ الرعيّة الصالحة تنجو بالإمام العادل، ألا وإنّ الرعيّة الفاجرة تهلك بالإمام الفاجر...**))[٣].

وكذلك ما ورد عن الصادق ﷺ قال: ((**إذا رأيتم العالم محبّاً لدنياه فاتّهموه على دينكم، فإنّ كلّ محبّ لشيء يحوط ما أحب...**))[٤].

وهذه الرواية وإنْ وردت في العالم الفقيه، ولكن يمكن استفادة اشتراط العدالة في الحاكم منها، باعتبار ما ذكرنا من أنّ الولاية في الحكم إنّما هي للفقيه العالم بالشّرع، وأريد من (الفقيه) و(العالم) هنا العنوان المشير إلى الإنسان المؤهّل للولاية.

ويتشدّد الإمام السجاد ﷺ في طرق الإثبات وضرورة التأكّد من وجود العدالة بدرجة عالية في الحاكم، وذلك من خلال مراقبة جميع أبعاد سلوكه

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) الكافي ١: ٤٠٧، ح٨، بحار الأنوار ٢٧: ٢٥٠، ح١٠.

(٣) الإرشاد ١: ٢٦٠، بحار الأنوار ٣٢: ٣٨٧، ح٣٦.

(٤) الكافي ١: ٤٦، ح٤، بحار الأنوار ٢: ١٠٧، ح٧.

وأعماله، للتأكّد من عدالته وتقواه واستقامته على جادّة الشرع، فيقول عليه السلام:
((... وإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام، فرويداً لا يغرنّكم! فإنّ شهوات الخلق مختلفة، فما أكثر من ينبو عن المال الحرام وإنْ كثر، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها، محرّماً فإذا وجدتموه يعف عن ذلك فرويداً لا يغرنّكم، حتى تنظروا ما عقده عقله، فما أكثر من ترك ذلك أجمع، ثمّ لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله.

فإذا وجدتم عقله متيناً، فرويداً لا يغرنّكم! حتى تنظروا أمَعَ هواه يكون على عقله، أو يكون مع عقله على هواه؟ وكيف محبّته للرئاسات الباطلة وزهده فيها؟ فإنّ في الناس من خسر الدنيا والآخرة، يترك الدنيا للدنيا، ويرى أنّ لذّة الرئاسة الباطلة أفضل من لذّة الأموال والنعم المباحة المحلّلة. فيترك ذلك أجمع طلباً للرئاسة، حتّى إذا قيل له: اتقّ الله، أخذته العزّة بالإثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد، فهو يخبط خبط عشواء، يقوده أول باطل إلى أبعد غايات الخسارة، ويمدّه ربّه بعد طلبه لما لا يقدر عليه في طغيانه، فهو يُحلّ ما حرّم الله، ويُحرّم ما أحلّ الله، لا يبالي بما فات من دينه إذا سلمت له رئاسته التي قد يتقي من أجلها، فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذاباً مهيناً.

ولكنّ الرجل كلّ الرجل، نعم الرجل، هو: الذي جعل هواه تبعاً لأمر الله، وقواه مبذولة في رضى الله، يرى الذل مع الحق أقرب إلى عزّ الأبد من العزّ في الباطل، ويعلم أنّ قليل ما يحتمله من ضرّائها يؤديه إلى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد، وأنّ كثير ما يلحقه من سرّائها إنْ اتّبع هواه يؤدّيه إلى عذاب لا انقطاع له ولا يزول، فذلكم الرجل نعم الرجل! فبه فتمسّكوا وبسنّته فاقتدوا، والى ربّكم به فتوسلّوا ! فإنّه لا تردّ له دعوة ولا يخيب له

طلبة))[1].

وفي مجال طرق الإثبات، يكون للأمّة دور كبير ـ كما ذكرنا ـ وذلك من خلال سعيها في تشخيصها له بواسطة أهل الخبرة والمعرفة، الأكفاء الذين تختارهم الأمّة لهذه المهمّة.

٣) الكفاءة والخبرة السياسية

ولابدّ أنْ تكون للحاكم الخبرة اللازمة بالأوضاع الاجتماعية السائدة، والظروف السياسية، وأولويات المصالح والمنافع، وتضادّها وتبادلها، وله القدرة على تشخيص الأمور المهمّة وتمييز الأهمّ من المهمّ منها، وعلى إدارة شؤون الناس بالشكل الذي يحقّق لهم مصالحهم ومنافعهم، ويدفع عنهم المفاسد والأضرار المحتملة.

ويمكن أنْ نفهم هذا الشرط من خلال الآيات الكريمة، عند وصف الأنبياء بالرشد والعقل والحكمة.

وكذلك شرط الحرص على مصالح المسلمين وأوضاعهم الحياتية وضرورة التشاور معهم في أمورهم العامة، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾[3].

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٢٠، بحار الأنوار ٢: ٨٤.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

ومن الروايات الدالة على شرط (الكفاءة) في الحكم ما ورد عنه ﷺ، فيما رواه أبو جعفر عليه السلام: ((**لا تصلح الإمامة إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال... وعدّ منها:... وحسن الولاية على من يلي...**))[1]، حيث عبّر ﷺ عن هذه الكفاءة والخبرة: بحسن الولاية.

وما ورد عن عليّ عليه السلام: ((**أيّها النّاس، إنّ أحقّ النّاس بهذا الأمر أقواهم عليه...**))[2].

والمقصود بـ (الأمر) هنا هو: الخلافة والولاية، وبـ (أقواهم): الأفضل في الخبرة والكفاءة اللازمة لإدارة الناس وفق الشريعة، فيما يصلح أمرهم ويدفع الضرر عنهم.

وهكذا بعض الروايات التي وردت في شرط (العلم والأعلمية). كما في صحيحة العيص بن القاسم، عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: ((**... وانظروا لأنفسكم فو الله إنّ الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الّذي هو فيها، يخرجه ويجيء بذلك الرجل الّذي هو أعلم بغنمه من الّذي كان فيها...**))[3].

ومثلها ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: ((**والثاني: - أي من شروط الإمام - أنْ يكون أعلم النّاس بحلال الله وحرامه، وضروب أحكامه، وأمره ونهيه... فيحتاج النّاس إليه ويستغني عنهم**))[4].

فالظاهر من الروايتين وأمثالهما أنّ الأعلمية هنا بمعنى عام، يشمل

---

(١) الكافي ١: ٤٠٧، ح ٨، بحار الأنوار ٢٧: ٢٥٠، ح١٠.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٨٦، ح١٧٣. شرح محمد عبده.

(٣) الكافي ٨: ٢٦٤، ح٣٨١.

(٤) بحار الأنوار ٢٥: ١٦٥، ح ٣٢، عن تفسير النعماني.

الدراية والخبرة في كيفية إدارة شؤون النّاس والمجتمع، لا مجرّد العلم بأحكام الشريعة.

وهكذا يمكن أنْ نفهم هذا الشرط من الروايات التي وردت في شرط (العقل) ودوره في الحكم والحاكم، من قبيل الرواية السابقة عن السجاد ﷺ، في قوله: ((.... فرويداً لا يغرّنكم، حتى تنظروا ما عقدة عقله، فما أكثر من ترك ذلك أجمع، ثمّ لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما فسد بجهله أكثر مما يصلحه بعقله...))[١]، حيث يفسّر العقل هنا وفي كثير من هذه الروايات: بحسن التدبير والقدرة على إدارة شؤون المجتمع[٢]، لا مجرّد العقل قبال الجنون الذي هو بديهي في مثل هذا الموقع.

ومثل قول الرسول ﷺ: ((إذا بلغكم عن رجل حسن حال، فانظروا في حسن عقله، فإنّما يجازى بعقله))[٣].

وعن أبي جعفر ﷺ أنه قال: ((إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا))[٤].

وعن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: ((العقل دليل المؤمن))[٥].

وعن أبي الحسن الرضا ﷺ أنه قال:((لا يعبأ بأهل الدين ممّن لا عقل

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٢٠.

(٢) يراجع (ميزان الحكمة)، مادة: (عقل)، لمعرفة المزيد من النصوص التي تدل على ذلك بوضوح، مثل: (لا عقل كالتدبير).

(٣) المحاسن ١: ١٩٥، ح١٤، الكافي ١: ١٢، ح٩.

(٤) المحاسن ١: ١٩٥، ح١٦، الكافي ١: ١١، ح٧.

وفي حديث آخر عن الإمام عليّ ﷺ: ((إنّ الله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدنيا))، بحار الأنوار ١: ١٠٦،ح٢، عن معاني الأخبار.

(٥) الكافي ١: ٢٥، ح٢٤، كنز الفوائد: ٨٨.

له...))[١].

٤) كمال الشخصية الإنسانية

وتشترط النظرية القرآنية في الحاكم ـ أيضاً ـ أنْ يكون شخصية كاملة في مواصفاته الاجتماعية، مثل: أنْ لا يكون فيه صفة منفّرة، وكذلك تشترط فيه الرجولة، والحرية، وطهارة المولد.

وأن يكون كاملاً في مواصفاته الروحية والنفسية، مثل: الشجاعة، والصبر، وحسن المعاشرة مع الناس، ومن هنا مدح القرآن الكريم أخلاق النّبي ﷺ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

وهناك العشرات من الآيات والروايات التي تؤكّد هذه الحقيقة، من خلال وصف النّبي بالصفات الحميدة، أو نفي الصفات الذميمة عنه، مثل: السحر أو الجبن... وأن أخلاق وسلوك وصفات القائد ذات أثر بالغ في حصول حالة الطاعة له داخل مجتمعه، الأمر الذي يؤدّي إلى نجاحه في أداء دوره وإدارته للمجتمع الإنساني، وتحقيق وحدته المنشودة، وليس هناك أبلغ في الدلالة على هذه الحقيقة، من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾[٣].

٥) الاستشارة

ومن الصفات المهمّة التي لابدّ أنْ يتّصف بها الحاكم، أنْ يكون مستشيراً في أعماله، سواء في تشخيص الموضوعات والظروف السياسية، والفحص

---

(١) الكافي١: ٢٧، ح٣٢.

(٢) القلم: ٤.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

عنها، أم في اتّخاذ القرارات السياسية والاجتماعية، وقد نصّت على ذلك الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١].

أو قوله تعالى: ﴿...وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...﴾[٢]، حيث يستفاد من سياق الآية الكريمة، أنّ من صفات المؤمنين أنْ تدار أمورهم عن طريق المشورة والاستشارة.

الركن الثالث: دور الأمّة في الحكم

يمكن أنْ نلخّص دور الأمّة في الحكم بالأمور التالية:

الأوّل: انتخاب وتشخيص القيادة الإسلامية والحاكم الإسلامي في عصر الغيبة، وأمّا في عصر النبوّة والإمامة الظاهرة، فإنّ ذلك يتمّ بالتعيين الإلهي؛ وذلك لأنّ القياد الإسلامية في عصر (الغيبة) وهي: (المرجع)، يتمّ تعيينها من قبل الله بالعنوان العام والمواصفات العامة، وقد عرّف بها أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولكنّ الأمّة تقوم بعملية التشخيص والتطبيق لتلك العناوين الكلية على الفرد والمصداق الخارجي[٣].

الثاني: انتخاب الإدارة المدنيّة للمجتمع الإسلامي، حيث يوجد جانبان في الحركة الاجتماعية:

أ ـ جانب يرتبط بتطبيق الأحكام الإسلامية على حركة الأمّة والجماعة

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الشورى: ٣٨.

(٣) لقد تناولنا شرح هذا لجانب من دور الأمّة في كتابنا: (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق): ١٧٢.

والوصول بها إلى درجة التكامل، من خلال ملء هذا الجانب بالقوانين والتشريعات التي يمارسها ولي الأمر، كما ذكرناه سابقاً.

ب ـ جانب يرتبط بإدارة الشؤون الدنيوية الخاصة التي ترتبط بشؤون حياة الناس، والتي تُرك فيها الخيار إلى الناس أنفسهم، وهي مساحات الجواز بمعناه العام الشامل لموارد (الاستحباب، والكراهة، والإباحة)، فإنّ هذه المساحة تُركت للإنسان نفسه، ليختار فيها ما يناسبه.

وقد يحتاج هذا الجواز إلى تنظيم اجتماعي لمنع تعارض الإرادات فيه، أو لاستيفاء المصالح والرغبات والميول، وهنا يُترك للناس أنفسهم إدارة ذلك بما ينسجم مع رغباتهم ومصالحهم، ويُعمل فيها الإنسان تجاربه الخاصة.

ولّما كانت الإدارة لا يمكن أنْ تكون لكلّ فرد، فيمكن للجماعة اختيار الإدارة التي تقوم بذلك عنهم عندما تكون ذات طابع جماعي.

وهذا هو الذي يعبّر عنه في المصطلحات الدستورية: بهيئات الدولة، أو بالمجالس البلدية، وذلك حسب مستوى الإدارة والمسؤليات.

وقد أشرنا إلى هذا الدور عند الحديث عن سلطة ولي الأمر في الجانب التشريعي.

وتتحقّق مشروعية هذه الإدارة، إمّا من ناحية إمضاء ولي الأمر العام لهذا العمل، أو من ناحية أنّ انتخاب الأكثرية لهذه الإدارة يحقّق موضوع رأي وموقف جماعة المسلمين، ويجب اللزوم لجماعتهم حينئذٍ، وعدم الخروج عنها، كما دلّت النصوص المعتبرة على ذلك، ومنها قوله ﷺ في خطبة حجة الوداع: ((... ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئٍ مسلم: إخلاص

العمل لله، والنصيحة لأئمّة المسلمين، واللزوم لجماعتهم...))[١].

الثالث: تقديم المشورة للقيادة الإسلامية، وهذه المشورة تمثّل مصلحة حقيقية للقيادة الإسلامية وللأمّة معاً، سواء كانت هناك حاجة إلى المشورة من أجل الاقتراب من الواقع، كما هو الحال في القيادة غير المعصومة، التي تحتاج إلى هذه المشورة، أم لم تكن هناك حاجة إلى هذه المشورة لغرض معرفة الواقع، كما في القيادة المعصومة التي تعرف الواقع.

وتتجسّد هذه المصلحة المشتركة من طرف القيادة، في أنها تكون سبباً لتأكيد وتوثيق العلاقة بين القيادة والأمّة، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢]. فالرسول وإنْ لم يكن بحاجة إلى المشورة لمعرفة الموقف الصحيح، ولكنّ المشورة لها تأثير كبير في تأكيد العلاقة والارتباط النفسي والروحي بين الأمّة والقيادة نفسها.

كما تتجسّد هذه المصلحة من طرف الأمّة في تربيتها على تحمّل المسؤلية والمشاركة في قضاياها، واقترابها من الواقع، وسعيها إلى معرفة الحقيقة والموقف الصحيح.

وفي حالة القيادة غير المعصومة، فإنّ مشورة الأمّة يكون لها دور حقيقي في المساهمة للوصول إلى الحقيقة والموقف الصحيح. ولذا أكّدت النصوص الشرعية من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿...وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم...﴾[٣]،

---

(١) الكافي ١: ٤٠٣، ح١ و ٢.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الشورى: ٣٨.

إلى نصوص السنة الشريفة على أهميّة دور المشورة والاستشارة في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد تناولنا ذلك بصورة مفصّلة في كتابنا: (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق)[1]، كما سوف نشير إليه في بحث نظام العلاقات الاجتماعية إنْ شاء الله.

الرابع: الرقابة العامة على الاستقامة وحسن الإجراء لما تقوم به القيادة أو الإدارة المنتخبة، وهي رقابة ذات بُعدين:

أحدهما: الرقابة على بقاء اتّصاف القيادة أو الإدارة بالمواصفات المطلوبة، من العلم والتقوى وحسن الإدارة، ومدى انسجام سلوكها مع هذه المواصفات.

ثانيهما: الرقابة على حسن الإجراء والانسجام مع الأحكام الشرعية الكلية الواضحة في حالة القيادة، وكذلك الانسجام مع ما تريده الأُمّة من الإدارة في تحقيق رغباتها ومصالحها في حالة الإدارة.

وقد وردت الأدلّة على هذا الدور الخاص للأمّة ـ كما أشرنا ـ من خلال نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام فيما رواه عن جده رسول الله ﷺ: ((.... **من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنّة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أنْ يدخله مدخله...**))[2].

ويمكن أنْ تمارس الأُمّة هذه الرقابة بصورة مباشرة، أو عن طريق المؤسسات الدستورية، أو من خلال مؤسسات المجتمع المدني، كالصحافة،

---

(١) الحكم الإسلامي: ١١٣.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٨٥، وتاريخ الطبري ٤: ٣٠٤، باختلاف يسير.

والأحزاب وغيرها، التي تمنح الأمّة حريّة التعبير عن آرائها ووجهات نظرها.

الخامس: الالتزام بالنصيحة والنصرة وبالدعم والإسناد والإخلاص في العمل والطاعة للقيادة، ويمكن أنْ نفهم هذا الجانب من دور الأمّة، من النصوص التي وردت في وجوب الطاعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1]، وكذلك النصوص التي وردت في وجوب البيعة ومعرفة الإمام: ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية))[2]، أو ((من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية))[3]، أو النصوص التي وردت في وجوب النصيحة لأئمّة المسلمين، كالنص السابق المعتبر الذي ورد بشأن خطبة النّبي ﷺ في حجّة الوداع: ((... ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم...))[4].

البحث الثاني: دور الحكم الإسلامي في المجتمع الإنساني

الإنسان محور عملية التغيير

من الواضح ـ كما ذكرنا في الأبحاث السابقة ـ أنّ الإسلام يعطي الإنسان بمحتواه العقلي والعلمي والروحي والأخلاقي أهميّة خاصّة في عملية التغيير

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٩.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٩.

(٤) الكافي ١: ٤٠٣، ح١ و٢.

في المجتمع، بحيث يعتبره المحور الأساس في هذه العملية، وتتأثر كل الأوضاع الاجتماعية الأخرى بهذا الجانب، فمن الإنسان تبدأ عملية التغيير.

على خلاف التصور الماركسي الذي يُعطي وسائل الإنتاج وتطورها الدور الأساسي في عملية التغيير.

أو النظريات الأخرى التي تُعطي للطبيعة الدور الأساس في التغيير والتكيّف الاجتماعي، بحيث يكتسب الإنسان المواصفات الخاصة من خلال الحياة التي تفرضها الطبيعة على شخصيته، كما يفهم ذلك من نظرية (داروين).

أو يكون للعرق دور خاص في التغيير والتطوّر الاجتماعي، كما في النظرية النازية.

أو يكون للغرائز الدور الأساس كغريزة الجنس، كما هو رأي (فرويد)، أو غيرها من الغرائز، كغريزة التملّك أو التسلّط.

كل هذه النظريات وما أشبهها يرفضها التصوّر الإسلامي في العامل الواحد المؤثّر في عملية التغيير.

صحيح، إنّ بعض هذه الخصائص لها دور في التطوّر والتغيير سلباً أو إيجاباً، ولكنّه دور ثانوي يرتبط بالمحور الأساس، وهو المحتوى الروحي والأخلاقي للإنسان. وبمقدار ما يكون لهذه الخصائص من أثر في هذا المحتوى، يتأثّر المجتمع ويتغيّر ويبقى تأثير هذه الخصائص محدوداً في ذلك المحتوى والعلاقة به غير قطعية وحاسمة.

وهناك آيات كثيرة تربط الكثير من مظاهر التطوّر والتغيير في شخصية الإنسان أو المجتمع أو مصيره في الدنيا والآخرة بالتقوى التي ترتبط بالمحتوى الروحي والأخلاقي والحالة الوجدانية والنفسية للإنسان.

وهذا الدور الأساس الذي يمنحه القرآن الكريم للإنسان ينسجم مع أربع

نقاط مركزية في التصوّر الإسلامي حول الإنسان:

الأولى: إنّ الإنسان يمتاز على جميع المخلوقات، بما نفخ الله فيه من روحه، ومنحه الإرادة والاختيار والعقل والقدرة على التكامل في المصير إلى الله تعالى.

الثانية: إنّ المحتوى الداخلي أو الجانب الروحي والنفسي، هو العنصر الأهم في مصير الإنسان وحياته الأبدية التي تمثّل الحياة الدنيا منها جانب اللهو واللعب: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

الثالثة: إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وما فيها للإنسان كي ينتفع بها، وخلق له السماوات والأرض كي يبتليه ويمتحن إرادته في اختيار الحق والصواب، أو طريق الباطل والضلالة، ومن خلال هذا الامتحان يمكن أنْ يتكامل الإنسان، ويدل على ذلك مجموعة آيات التسخير والابتلاء في القرآن الكريم.

الرابعة: إنّ الإنسان يمثّل في وجوده على الأرض الخلافة لله، واستحقّ ذلك بعد أنْ علّمه الله الأسماء، ومنحه القدرة والكفاءة لعملية الاستخلاف هذه، ومن ثمّ، فهو قادر على أنْ يخضع هذه الأرض لإرادته بإذن الله، كما

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

أنه لابد أنْ يقوم في الأرض بما تقتضيه مسؤلية هذه الخلافة.

تغيير القاعدة أولاً أم تغيير الحكم؟

وإذا كان الأساس في عملية التغيير هو الإنسان، فمن أين تبدأ عملية التغيير الإنساني؟ من الفرد، أو الجماعة؟ وما هو دور الحكم فيها؟

ويبدو من خلال النظرية الإسلامية أنّ عملية التغيير تبدأ من الأفراد وهدفها الأسمى هو الفرد، ويمكن أنْ نفهم ذلك من خلال مراجعة عمل الأنبياء عليهم السلام ولا سيّما النّبي الخاتم ﷺ في ممارسة هذه العملية، حيث كانوا يبدؤون من الأفرادّ، ويتدرّجون في ذلك حتى تشمل عملية التغيير المجتمع الإنساني وجهاز الحكم الذي يدير شؤون الجماعة، ولم يكن الأنبياء يبدؤون بالتخطيط لاستلام الحكم لتغيير الجماعة كلّها.

ويؤكّد هذه الحقيقة أنّ مسؤلية الإنسان في الآخرة إنّما هي تجاه أعمال نفسه، وإذا كان يتحمّل المسؤلية تجاه الآخرين، فإنّما هو في حدود الواجبات الملقاة على عاتقه تجاه هداية الآخرين وإرشادهم، بل إنّ الرسول والنّبي لا يتحمّل تجاه هذا الأمر أكثر من إبلاغ الرسالة وإيصالها. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

ولكن يبقى هذا السؤال: هل أنّ الحكم يعبر- حينئذ- عن مجرد حالة انعكاس لمستوىً عالٍ من تغيير الأفراد، بمعنى أنْ يتغيّر الأفراد في المجتمع عندما يصل إلى حالة تصاعدية عالية ينعكس في المجتمع على شكل تغيير في الحكم، أو أنّ الحكم في النظرية الإسلامية له دور أعمق في العملية

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

التغييرية؟.

إنّ هناك نوعين من العلاقة يتصوّرهما الإسلام تجاه الحكم:

دور الحكم هو الفعل لا الانفعال

الأوّل: العلاقة الطبيعية الصحيحة بين الحكم والأمّة، وفي هذا النوع من العلاقة لا يعبّر الحكم عن مجرّد حالة انعكاس للحالة الاجتماعية، كما هو في النظرية الديمقراطية أو الاشتراكية، حيث يعبّر في الديمقراطية عن حالة انعكاس لإرادة الأكثرية من الأفراد، انطلاقاً من الحرية الشخصية، وفي الاشتراكية يعبّر عن حالة انعكاس لمصالح الطبقة العاملة وإرادتها وتطوّر وسائل الإنتاج.

أمّا في النظرية الإسلامية ـ كما تؤكّد على ذلك التجربة الاجتماعية والتأريخية والنصوص الإسلامية (القرآن الكريم والسنّة النبوية) ـ فإنّ للحكم دوراً مهمّاً وفاعلاً في التأثير بالقاعدة الاجتماعية وتوجيهها، كما سوف نلاحظ ذلك.

على أنّنا لا يمكن ـ أيضاً ـ أنْ نفصل بين الحالة الإنسانية والحكم، حيث إنّ الحكم ـ أيضا ـ يعبّر بشكل من الأشكال عن نتاج طبيعي تكويني للحالة الإنسانية، ومع قطع النظر عن الموقف التشريعي، ولكنّه في الوقت نفسه يكون له دور في التأثير فيها، ولذا أعطاه القرآن الكريم أهميّة خاصة.

ويمكن أنْ نلاحظ ذلك من خلال النقاط التالية:

١. إنّ القرآن الكريم يشير إلى أنّ الحكم المنحرف، الذي يتمثّل بأئمّة الضلال أو الطغاة المستكبرين، كان سبباً لوجود ظاهرة الانحراف في كثير من أوساط الناس المستضعفين، لمجرّد التبعية والخوف من ممارسات القمع لهؤلاء المستكبرين.

وهـذه الممارسـات وإنْ كانـت لا تفقـد الإنسان إرادتـه وقدرتـه علـى المواجهة، ولا تسقط الوظيفة الشرعية والإنسانية في المقاومة، ولكنّ كان لها دور كبير في وجود الانحراف أو استمراره والتسليم له.

﴿... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾[1].

﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[2].

٢. إنّ القرآن الكريم، يُعطي الإمامة والحكم دوراً أساسياً في الهداية والإصلاح، أو الضلالة والانحراف والفساد، كما أنّ الأنبياء ﻹ بما لهم من دور واقعي في التأريخ يمثّلون أئمّة الهدى والصلاح، ويعملون على تحقيق العدل والخير للبشرية، وأمّا المجرمون والمستكبرون والطغاة والشياطين، فهم يمثّلون أئمّة الفساد والانحراف والضلالة.

ومن هذا المنطلق، نجد القرآن الكريم يشير إلى حقيقة أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يدعو الناس في يوم القيامة بأئمتهم؛ لأنّهم يمثّلون هؤلاء الناس، لا لمجرّد أنهم يعكسون واقع هؤلاء الناس، بل لأنّهم يسيّرون هؤلاء الناس ويوجهونهم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

---

(١) سبأ: ٣١ ــ ٣٢.

(٢) إبراهيم: ٢١.

الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾(١).

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾(٢).

٣. يشير القرآن الكريم إلى أنّ الإرادة الإلهية، إذا تعلّقت بتدمير بلد أو قرية من هذه الأرض، فإنّما يتحقق ذلك من خلال الحكم المنحرف وفساده. ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾(٣).

الدولة مسؤلة عن التكامل الإنساني

الثاني: العلاقة التشريعية، وهي: تصوّر في العلاقة بين الحكم والحالة الإنسانية ينسجم مع النوع الأول من التصوّر، وينطلق من النقاط المركزية السابقة، فالإسلام بعد أنْ أخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار في تصحيحه التشريعي للحكم ـ انطلاقاً من قاعدة انسجام التشريع مع الحقائق الكونية والتأريخية والفطرة الإنسانية ـ أعطى الحاكم مهمّة ومسؤلية النظارة والتربية والتزكية والتطوير للأمّة باتجاه الأهداف السامية والكمالات الإلهية.

ومن هذا المنطلق في التصوّر، لابد للحكم أنْ تكون مسيرته وهدفه تحقيق التكامل الإسلامي والمُثل والقيم الإلهية في إطار الشريعة الإسلامية، وأنّ الحاكم الذي يمارس الحكم هو: (الإنسان الصالح) المرتبط بالسماء: (الأنبياء، والربّانيون، والأحبار)، وأنّ واجبه ـ من أجل تحقيق هدفه ـ أنْ يعمّق صلته وعلاقته بالأمّة.

وبذلك يصبح دور الحكم هو تجسيد لتطوّر عملية التغيير الفردي ليصل

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) القصص: ٤١.

(٣) الإسراء: ١٦.

بها إلى مرحلة جديدة، وهي: التغيير الجماعي، والمحافظة عليها من التراجع، كما أنّه حلقة الوصل وأداة الارتباط بين الأرض والسماء، أي: بين الإنسان والله تعالى، ويتفرّع على ذلك أنّ الطاعة للحاكم الإسلامي قضية ترتبط بالإيمان أكثر من أي قضية أُخرى في سلوك الإنسان.

التجربة ودور الحكم في التغيير

ويؤيّد ذلك التجربة التأريخية في مسيرة البشرية جمعاء، وكذلك في سيرة النّبي ﷺ، فإن النّبي ﷺ، إنّما تمكّن من نشر رسالته في الجزيرة العربية، ومن ثمّ القدرة على الانتشار في مختلف أنحاء الدنيا، بعد أنْ أقام الدولة الإسلامية، وجاهد من أجل كسر القيود والأغلال التي فرضتها الأنظمة الطاغوتية على البشرية.

ولذلك شاهدنا أنّ النبي ﷺ تمكّن من نشر الإسلام، وتطوير دعائمه في كل الجزيرة في السنوات العشر، بعد إقامة الدولة الإسلامية، بينما نجد الرسالة تبقى محصورة في مجموعة خاصة من المسلمين، طيلة ثلاث عشرة سنة من بدء البعثة النبوية الشريفة وحتى الهجرة، بالرغم من الجهود العظيمة التي بذلها النبي ﷺ من أجل توطيد دعائم الإسلام في مكة المكرمة.

كما أنّنا نلاحظ دور الحكم في توطيد دعائم الإيمان والإسلام في كل التأريخ، عندما ننظر إلى أعمال الأنبياء وأعدائهم، الطغاة حيث نلاحظ عبر التأريخ الدور الذي كان يقوم به الحكم في نشر الرسالة وتحقيق إيمان الناس بها، فإنّ الديانة اليهودية والمسيحية لم تنتشر بشكل واسع في العالم إلاّ بعد أنْ ملكت زمام الحكم.

والسبب في ذلك أنّ الرسالة وإنْ كانت تنسجم دائماً مع الفطرة

الإنسانية، إلاّ أنّ الطغاة والمستكبرين يمنعون الناس من الإيمان بها، فيكون إقامة الحكم الإسلامي وكسر حاجز الطغيان والاستبداد والاستكبار والإطاحة بالجبابرة والأصنام، سبباً لانتشار الرسالة في الأرض، والمنع من تأثير الهوى في الناس.

خلفية إعطاء الحكم هذا الدور

ويمكن أنْ نلخّص الأسباب التي دعت النظرية الإسلامية لإعطاء الحكم هذا الدور المهم في الحياة الإنسانية في النقاط التالية:

١. إنّ الحكم يعتبر المركز الرئيس في الحياة الاجتماعية، الذي يملك قدرة التوجيه ورسم طريق المسيرة البشرية، فهو يحفظ البشرية من الانحراف إذا كان الحكم عادلاً صالحاً، كما أنّه يعمّق انحراف البشرية أو يضللها إذا كان الحكم ظالماً أو فاسداً.

وهذا هو معنى قوله عليه السلام: **((... فإنّ الرعيّة الصالحة تنجو بالإمام العادل، ألا وإنّ الرعيّة الفاجرة تهلك بالإمام الفاجر...))**[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: **((لا يصلح الناس إلاّ بإمام، ولا تصلح الأرض إلاّ بذلك))**[2].

٢. إنّ الإنسان في النظرية الربّانية هو الكائن الوحيد ـ على ما نعرف ـ الذي يتميّز على بقية الكائنات في قدرته على التطوّر والكمال، بالإرادة والاختيار بحيث يتّجه نحو الكمال المطلق وهو: الله تعالى، من خلال التخلّق بأخلاقه سبحانه، وهو الكائن الوحيد، الذي يتمكّن أنْ يتحرّر من قيود

---

(١) الإرشاد ١: ٢٦٠، بحار الأنوار ٣٢: ٣٨٧، ح٣٦٠.

(٢) علل الشرائع ١: ١٩٦، ح٩، الإمامة والتبصرة: ٢٨، ح٨.

المادة وعبوديتها ليرتقي مدارج الكمال الروحي والنفسي، في طريقه إلى الله سبحانه، ولا يمكن لهذا الإنسان أنْ يسير في تطوّره هذا، ما لم يكسر القيود والأغلال التي تفرضها الأنظمة الطاغوتية على الجميع، ويقوم الحكم الصالح الذي يسمح للإنسان أنْ يتحرّك بحرية وكرامة كما أراد الله سبحانه وتعالى، وإلاّ فسوف يتعرّض للخوف والإرهاب والضغوط النفسية والروحية المضادة التي تخلّفها الحكومات الطاغوتية.

وبذلك نفهم أفضلية الولاية على سائر الأركان الإسلامية، كما جاء في الحديث المعتبر.

فعن زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل، لأنّها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن...))[1].

٣. إنّ الحكم في المنظور الإسلامي ومن خلال شروطه، يمكن أنْ يكون القدوة الصالحة التي تتقدّم المسيرة، وتضرب لها أفضل الأمثلة وضروب الأُسوة، وذلك لأنّ الحاكم في الإسلام، من خلال مواصفاته المفروضة، مثل: العصمة، أو العدالة العالية، يمكن أنْ يكون سلوكه وعمله الذي يجسّد فيه الأخلاق الربّانية، الإنسان الذي يشق الطريق الصحيح للآخرين، بل يجسّد الصراط المستقيم للمسيرة البشرية أمام الناس.

وهذا هو الجانب الآخر من سر اشتراط العصمة في الأنبياء والأئمّة عليهم السلام،

---

(١) محاسن البرقي ٢: ١٨، ح٥، الكافي٢: ١٨، ح٥.

أو اشتراط العدالة العالية في الفقيه الولي، وبذلك أصبحت ـ أيضاً ـ معرفة الحاكم ضرورة من ضرورات الدين؛ لأنّه يمثّل هذا اللون من الهداية أيضاً.

فعن رسول الله ﷺ قال: ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية))[1].

ومن كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام إلى عثمان بن حنيف، عندما كان عامله على البصرة، يقول عليه السلام فيه: ((... ألاَ وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد...))[2].

عن الرضا عليه السلام ـ في حديث طويل ـ قال: ((... إنّ الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، والجهاد...))[3].

البحث الثالث: خصائص الحكم الإسلامي

للدولة الإسلامية خصائص ومواصفات عديدة مهمّة، منها:

١) المُثل والقيم العليا

تحتّل (المُثل والقيم) موقع الهدف الأعلى والأسمى في الدولة الإلهية الخاتمة ـ كما أشرنا إلى ذلك في الأبحاث السابقة - ومن هذا المنطلق تعتبر

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٩.

(٢) نهج البلاغة٣: ٧٠، الكتاب٤٥، شرح محمد عبده.

(٣) الكافي١: ٢٠٠، ح١.

الدولة الإسلامية[1] - مضافا إلى الجانب العقادي فيها، الذي يرتكز على الإيمان بالله تعالى وعبادته - دولة (المُثُل والقيم)، فهي لا تكتفي في حركتها بتطبيق النظام وتحقيق الأمن والاستقرار، وسدّ الحاجات المادية للإنسان والمجتمع، كالأكل، والشرب، والمسكن، والملبس، والحركة، والعلاقات الجنسية المستقرّة ضمن نظام الأسرة.... أو توفير فرص التعليم، أو الاهتمام بالجانب الصحي، أو الانسجام بين الأفراد والجماعات في الحركة والعمل وما شابه ذلك،بل تتعدّى هذه الأمور إلى ما يمثّل (الهدف) لها في (النظرية القرآنية)، ونعني به: التكامل في القرب من (المَثَل الأعلى، وهو الله تعالى)، ولا يتحقّق ذلك إلاّ من خلال القيم والمُثُل والحقائق الإنسانية التي تمثّل المنطلقات الأخلاقية والأهداف التكاملية لهذا الإنسان.

أو ما يُعبّر عنه القرآن الكريم بـ (الحكمة)، ولذا كان تعليم الحكمة، من مهمّات الأنبياء عليهم السلام، كما هو الحال في تعليم الكتاب والشريعة، وهو هدف يسعى الحكم الإسلامي لتحقيقه بشتى الوسائل المشروعة والتي بدونها يصبح الحكم غير إسلامي، مهما كانت النتائج المادية التي يحققّها، ومهما اكتسب من القدرة والقوة والإمكانيات، أو التأييد العام من الخاصة والعامة.

ولا يعني ذلك الاستهانة بهذه النتائج المادية، بل يعني: إنّ هذه النتائج لا بدّ أنْ تكون في إطار ذلك، كما أنّ هذه القيم والمُثُل ـ في الوقت نفسه ـ تمثّل الأساس والطريق للوصول إلى هذه النتائج المادية.

وقد تحدّثنا ـ سابقاً ـ عن أهمّ هذه القيم والمُثُل، من خلال بعض المفردات

---

(١) مضافاً إلى الجانب العقائدي فيها الذي يرتكز على الإيمان بالله تعالى وعبادته.

عند تناولنا للعنصر الثاني من عناصر الوحدة الدينية الخاتمة، ويمكن تطبيق تلك المفردات في مجال الحكم، و نشير إلى بعض الأبعاد منها في هذا المجال:

أ) التوحيد في الحكم

يُمثّل الإيمان بالإله الواحد الذي له العبادة المطلقة في مجال الحكم،أن يكون حقّ الحكم والتشريع والطاعة لله تبارك وتعالى، ورفض كل ألوان التسلّط والهيمنة للآلهة الأخرى، وأنّ جميع الحقوق الأخرى في التشريع والطاعة إنّما هي امتداد لهذا الحق، وهذا الأمر يمثّل المفردة الأولى، بل الأساس لباقي المفردات، قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وبهذا الإيمان والعبودية لله تعالى تتحرر إرادة الإنسان في حركته داخل المجتمع من كل العبوديات الأُخرى، ويعيش حالة الحرية التشريعية والحقيقية قبالها.

ب) السعي لتحقيق الكمالات الإلهية

وانطلاقاً من ذلك، يصبح مسار المجتمع الذي تحكمه الدولة الإلهية ملتزماً بالطريق والصراط المستقيم الذي يتحرّك فيه الإنسان والمجتمع نحو الكمال المطلق والمَثل الأعلى، وهو: الله تعالى، فيسعى لتحقيق الكمالات الإلهية من العدل، والعلم، والقدرة، والقوة، والرحمة، والبذل، والعطاء، والبر، والخير، بحيث

---

(١) يوسف: ٣٩ ــ ٤٠.

يكون التكامل المعنوي - إلى جانب التكامل المادي - هدفاً أساسياً للحكم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

ويفهم من هذه الآية الكريمة أنّ الحكم والدولة في الرسالة الإسلامية، ليس إلاّ أداة ومؤسسة لتحقيق أهداف الرسالة في تكامل الإنسان، وليست الدولة هدفاً سلطوياً مستقلاً، وعندما يكون المحتوى الحقيقي للرسالة الإلهية هو الأخلاق والكمالات الإلهية - كما تشير إليه هذه الآية الكريمة وكذلك الحديث المعروف المروي عن رسول الله ﷺ من قوله: ((**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**))[2]، فإنّ هذه الدولة لابد أنْ يكون السعي فيها لتحقيق هذه الكمالات.

ج) إعطاء الدنيا حجمها الطبيعي

كما تتبنى الدولة الإلهية تصوّراً خاصاً للحياة الإنسانية في الدنيا، وأنّها لا تمثّل من وجود الإنسان وحركته، بما فيها من الطيبات والزينات والشهوات والرغبات والإمكانيات، إلاّ مقدمة لعالم آخر يتحقّق فيه ذلك التكامل الحقيقي المنشود، وتكون مهمّة الدولة هي تجسيد هذا التصوّر وهذا المفهوم لدى الإنسان، بحيث يعيش حالة الإحساس بمحدودية هذه الدنيا، وكونه الخليفة فيها لإعمارها، وإقامة الحق والعدل فيها، والتصرّف بشؤونها، بما تفرضه عملية الاستخلاف، لا أنْ يتحوّل الإنسان إلى عبد مملوك لهذه الدنيا تتحكم في سلوكه وأعماله، ولا يرى في الحياة إلاّ أفقها الضيّق، قال تعالى:

---

(١) الحج: ٤١.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٣٣٣، بحار الأنوار ١٦: ٢١٠.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

د) الإرادة الإنسانية الحرّة

ويسعى الحكم الإلهي إلى جعل إرادة الإنسان إرادة حرّة في مجال تحرّكه الاجتماعي يلتزم بتقوى الله والنظام العام والقوانين الإسلامية، ويعمل:

أوّلاً: على كسر الأغلال الداخلية، كطغيان الشّهوات، والرّغبات، والميول، والأهواء التي تعيش في داخله، وهو ما يُعبّر عنه القرآن الكريم بـ (الهوى)، وذلك من خلال التزكية والتطهير التي يمارسها الحكم في التوجيه والإرشاد والموعظة الحسنة، وكذلك من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنع كل الظواهر والأسباب التي تؤدّي إلى انسياق الإنسان مع هذه الشّهوات والغرائز.

وثانياً: على كسر الأغلال الخارجية، كالإرهاب، والخوف الذي يفرضه الطغاة وسلاطين الجور على الناس، أو الأفراد والعصابات التي تمارس الفساد في الأرض، فيقوم الحكم بدور كسر هذه الأغلال وتحطيم هذه الأصنام، ولذلك كان تشريع الحرب والقتال وفرض الجهاد الأصغر على النّاس، والحدود الشرعية الشديدة، كالقتل، أو القطع، أو النفي.

ويسعى الحكم الإلهي ـ في كل ذلك ـ لجعل إرادة الإنسان حرّة وغير محكومة إلاّ الله تعالى وللشريعة والعقل والمصالح والأهداف المقدّسة التي

---

(١) الحديد: ٢٠.

تحقق التكامل له، فتختار حينئذ ما فيه صلاحه وصلاح مجتمعه وكرامته وعزته في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ۞ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ۞ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) الحج: ٣٩ ــ ٤٠.

(٣) الأحزاب: ٦٠ ــ ٦٢.

(٤) المائدة: ٣٣.

بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١).

هـ) العلم والعقل

ويسعى الحكم إلى تحكيم العلم والعقل في حركة الإنسان وتطوّره؛ لأنّ الرسالة الإسلامية أكّدت على هذين العاملين المهمّين في إدراك الحقيقة واكتشافها وتوجيه السلوك وتكامل المسيرة، قال تعالى: ﴿... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿... يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾(٤).

ولذلك جعل الإسلام من شروط الحاكم أنْ يكون متّصفاً بالعلم بالشريعة، والخبرة بالظروف الاجتماعية، والقدرة على تشخيص موضوعات الأحكام الشرعية، كما عرفنا ذلك.

وجعل من أهداف الحكم ـ كما سوف نشير ـ تعليم الكتاب والحكمة، وجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم، كما جاء في الحديث الشريف: ((طلب العلم فريضة على كلّ مسلم...))(٥).

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) الزمر: ٩.

(٣) الإسراء: ٣٦.

(٤) المجادلة: ١١.

(٥) أمالي المفيد: ٢٩، عوالي اللئالي٤: ٧٠، ح٣٦، دعائم الإسلام١: ٨٣، الكافي١: ٣٠،ح١ ◄

وأوجد الإسلام المؤسسات التعليمية، كالمساجد، وصلاة الجمعة، والحوزة العلمية، للتفقه في الدين والمعرفة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

وكانت معرفة الله ورسوله والإمام (الولي) من شروط قبول الأعمال التي يؤديها الإنسان، فقد ورد في صحيحة زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: ((... أما لو أنّ رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدّق بجميع ماله، وحجّ جميع دهره، ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله جلّ وعزّ حقّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان...))[2].

وقد كان من أول الأعمال التي قام بها الرسول صلى الله عليه وآله في مجال تنظيم الأمّة وتوعيتها، إرسال المبلغين والدعاة إلى الله تعالى الذين كانوا يعرّضون أنفسهم للأخطار البالغة، في سبيل نشر العلم وتحصيله.

و) العهد والميثاق

كما أنّ الحكم بحسب مضمونه الاجتماعي والإنساني ميثاق وعهد بين الأمّة والحاكم، والراعي والرعية، وكان عقد البيعة تعبيراً عن هذا الميثاق، واعتبرته الرسالة الإسلامية أمراً لازماً، يرتبط بالعقيدة، لما ورد عنه صلى الله عليه وآله

كنز الفوائد: ٢٣٩، كنز العمال١: ١١٣. وغيرها من المصادر.

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) محاسن ١: ٢٨٦-٢٨٧،ح٤٣٠ ، الكافي٢: ١٨، ح٥.

قوله: ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية))[1]، أو ((من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية))[2].

ز) العدل والقسط

كما أنّ من القيم والمُثُل في الدولة الإسلامية إقامة الحق والعدل بين الناس، ولذا كان ذلك من أهم أهداف الدولة، وواجباتها الملقاة على عاتقها، والعمل على القضاء على كل ألوان الظلم والبغي، وفي كل المجالات، سواء في مجال ظلم الإنسان للإنسان الآخر، أم ظلمه للطبيعة فيما حوله، أم ظلمه لنفسه ذاتها، بل وظلمه من خلال الشرك بالله عزّ وجلّ الذي هو أعظم ألوان الظلم، قال تعالى: ﴿... يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3].

كما تسعى ـ في الوقت نفسه ـ إلى إشاعة العدل والإحسان بين الناس، ونشر المعروف والإصلاح بينهم، ورعاية الحرمات والكرامات الإنسانية، وإيجاد التوازن في العلاقات الاجتماعية والإنسانية والطبيعية، من أجل الوصول إلى الكمالات الإلهية.

وهنا مجموعة كبيرة جداً من الآيات الكريمة التي تناولت هذه القيمة والمبدأ الاجتماعي[4].

وقد عرفنا في بحث سابق أنّ المحتوى الحقيقي للشريعة، هو الحق،

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٩.

(٢) التاج الجامع للأصول ٣: ٤٦.

(٣) لقمان: ١٣.

(٤) راجع على سبيل المثال الآيات التالية: البقرة: ٢١٣، الحديد: ٢٥، المائدة: ٤٢، النحل: ٩٠، النساء: ٨٥، يونس: ٤٧، النساء: ١١٤، الشورى: ٤١ ـ ٤٢.

والعدل.

ح) روح التضحية

ومن أجل أنْ تكون الدولة الإلهية قادرة على تحقيق هذه القيم والمُثُل في المجتمع الإنساني، تعمل الدولة الإلهية ـ مضافاً إلى تقوية الإرادة بالصبر والثبات ـ على إذكاء روح التضحية والفداء والشهادة في أفراد المجتمع الإنساني، إذ بدون ذلك يكون المنطلق في حسابات الحركة الاجتماعية الأهواء الشخصية أو الجماعية أو المصالح والمنافع الخاصة لهذا الشخص أو ذاك، أو لهذه الفئة أو تلك.

وقد طرحت النظرية القرآنية هذا الأمر بشكل يضمن فيه التزام الإنسان بهذه التضحيات، وذلك من خلال ما أشرنا إليه من توضيح حقيقة دور الحياة الدنيا والآخرة في حياة الإنسان والعلاقة بينهما، وكذلك عملية التعويض الإلهي للتضحيات والآلام والمحن والبذل والعطاء التي يقوم بها الإنسان أو يتحمّلها في الدنيا عن طريق الجزاء والثواب في الآخرة، فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يعوّض الإنسان عن ذلك إضعافاً مضاعفة في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معاً.

وقد عبّر عن هذا المبدأ في القرآن الكريم بمبدأ (الجهاد في سبيل الله)، الذي يشمل الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر معاً، وذلك لأنّ الجهاد لا يعني: القتال في سبيل الله وحده، وإنّما القتال هو مفردة من مفردات الجهاد، والصبر على الأذى، والإنفاق في سبيل الله، وتحمّل الصعاب، كلّها من الجهاد الذي يقوم به الإنسان في سبيل الله، سواء كان مالياً، أم بدنياً، أم روحياً ونفسياً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

ومن الواضح أنّ هذه المُثُل والقيم متداخلة فيما بينها، يكمّل بعضها بعضاً، كما أنّ هناك مئات من الآيات القرآنية التي يمكن من خلالها أنْ نستنبط مختلف المُثُل والقيم التي وضعها القرآن الكريم هدفاً للمجتمع

---

(١) التوبة: ١١١ ــ ١١٢.

(٢) الأنعام: ١٦٠.

(٣) البقرة: ٢٦١.

(٤) التوبة: ١٢٠ ــ ١٢١.

الإنساني وللحكم الإلهي.

٢) الشريعة الإلهية

ولم يترك القرآن الكريم والرسالة الإسلامية هذه المُثُل والأهداف مجرّد مفاهيم عامة، قد تخضع للاجتهادات والتفسيرات المختلفة، أو يتحير الإنسان في طريق الوصول إليها، وإنّما شرّع مجموعة من الأحكام والقوانين التفصيلية التي تشكّل إطاراً للحكم، ومنهجاً يلتزم به، تنطلق من هذه المُثُل والقيم، ويسعى الحكم للوصول إليها في طريق التكامل، وهو ما نطلق عليه عنوان: (الشريعة الإلهية).

وبذلك تصبح الشريعة والأحكام الشرعية خصوصية وصفة ثابتة في الحكم الإلهي وجانباً آخر من الإطار العام له.

وأهميّة كون الحكم الإلهي قائماً على أحكام الشريعة الإلهية، تنطلق من فكرة أنّ الأحكام الشرعية ليست مجرّد أوامر انضباطية أو فوقية، وإنّما هي أحكام تتطابق مع الحق والعدل، والذي نعني به: المصالح والمفاسد الواقعية، اللذين ترتبط بهما حياة الإنسان ومسيرته التكاملية، ويحفظ من خلالهما التوازن في السلوك الإنساني، فما أمرت به الشريعة أو أباحته، من قبيل الأمر بالعبادة والعدل والإحسان والبر والتقوى وغير ذلك، يرتبط بمصالح حقيقية وواقعية للإنسان في حياته الدنيوية والأخروية، وما نهت عنه، من الظلم والعدوان والزنا والسرقة والكذب وغير ذلك، يرتبط بمفاسد واقعية موجودة في هذه الأمور تؤدّي إلى تسافل حركة الإنسان في حياته الدنيوية أو الأخروية أو كلتيهما.

الحاجة إلى الشريعة الإلهية

ولابدّ هنا من الإشارة إلى نكتة مهمّة بصدد الحديث عن (الشريعة

الإلهية)، وهي: إنّ هذه الشريعة مرّت بمراحل من التكامل الرسالي، التي كانت تواكب حركة التكامل للعقل الإنساني والمجتمع الإنساني، حتّى انتهت إلى الشريعة الخاتمة، التي وُضعت من قبل الله تعالى على أساس المرونة والقدرة على البقاء والاستمرار ومعالجة الاختلافات، فهي: شريعة مرنة وسمحاء، تناولت في جانب ثابت منها الحاجات الثابتة في حياة الإنسان وحركته، وهي: لا تتغيّر مهما تغيّرت الظروف واختلفت المجتمعات وتبدّلت الأزمان، مثل: الأكل، والشرب، والعبادة، والعلاقات الزوجية، والعلاقات الإنسانية... إلخ.

ووضعت الشريعة لهذه الحاجات أحكاماً ثابتة لا تتغيّر.

كما أنّ الشريعة تناولت في جانب آخر، القضايا المتغيّرة في حياة الإنسان، والتي تعبّر عن جانب التطوّر والتغيير في أساليب حياته وفي وسائل العيش والحياة، أو الظروف المحيطة بها من القدرة والعجز، أو القوّة والضعف، أو الغنى والفقر، تبعاً لتغيّر الظروف والأزمان، ثمّ وضعت لهذه الحاجات والقضايا المتغيّرة الحلول، ضمن القواعد العامة والأحكام والقوانين التي يصدرها الحاكم، ضمن هذه المتغيّرات.

ثمّ إنّ التمييز بين الحاجات والقضايا (الثابتة) و(المتغيرة)، ومن ورائها المصالح والمفاسد (الثابتة) و(المتغيرة)، لا يمكن أنْ يتمّ إلاّ من قبل الله تعالى؛ لأنّ الهدف من الشريعة هو الاقتراب من المَثَل الأعلى واتّصاف الإنسان بالصفات الإلهية، وهذا القرب من الكمال الإلهي هو غيب مطلق، لا يمكن للإنسان أنْ يعرفه ويدركه بكلّ أبعاده، بحواسّه أو تجاربه، بل لابدّ لله تعالى أنْ يدلّه عليه؛ إذ لا يعلم الغيب إلاّ الله، أو مَنْ آتاه الله علم الغيب.

كما أنّ بعض هذه المصالح والمفاسد ترتبط بمستقبل الإنسان البعيد في الدنيا أو بمستقبله الأبعد في الآخرة، فإذا افترضنا أنّ علم الإنسان ومعرفته

وتجاربه تمكّنه من أنْ يحيط بماضيه وحاضره، ولكنّ الإنسان لن يكون قادراً على الإحاطة بمستقبله الدنيوي الذي هو بُعد آخر في الغيب، فضلاً عن المستقبل الأُخروي الذي هو غيب مطلق.

على أنّ الإنسان غير قادر على الإحاطة بماضيه وحاضره، بالدرجة التي يستطيع معها أنْ يشخّص المصالح والمفاسد الواقعية، من خلال التجربة وبصورة قطعية غير قابلة للاشتباه والخطأ أو الانحياز، لوجود الفرق بين التجربة العلمية والتجربة الاجتماعية، والواقع والوجدان شاهد على ذلك، من خلال مطالعة ومراجعة التجارب الإنسانية التي كانت بعيدة عن الشرائع الإلهية، حيث إنّها كانت ولا زالت تتخبط في الوصول إلى الحقيقة أو القبول بها.

ومضافاً إلى ذلك تضمّنت الشريعة (الخاتمة) ـ كما ذكرنا سابقاً ـ عناصر الحفظ والبقاء والاستمرار لمضمونها، بعيداً عن الضياع المطلق أو التحريف المطلق، لوجود القرآن الكريم، والسنّة النبوية الصحيحة، وأهل البيت عليهم السلام الذي أُوكل لهم دور المحافظة على المضمون القرآني والسنّة النبوية. وكذلك المؤسسة الإسلامية والشعائر الدينية، وغيرها من العناصر التي تساهم إلى جانب الحفظ للشريعة، في حفظ وحدة الأُمّة ومعالجة الاختلاف بدرجة ما.

وبذلك نعرف أنّ مسيرة الإنسان والحكم ـ بصورة عامة ـ لا يمكن أنْ تتحكّم بها الآراء والأهواء والمصالح الخاصة، سواء كانت هذه الأهواء والمصالح تابعة للحاكم أم للجماعة المحكومة، أكثرية كانت أو أقليّة، بلا أدنى فرق.

نعم، يمكن للجماعة أنْ تختار ما يتناسب مع ظروفها ومصالحها في الجانب المتغيّر من الحياة، الذي أوكل الله تعالى فيه الأمر إلى الحاكم الصالح أو إلى الناس، وهو جانب واسع يخضع للاختيار العام وللتجربة الإنسانية،

لأنه مرتبط بالظروف والأساليب المتغيّرة، ولكن كل ذلك في إطار الأحكام الإلهية الثابتة.

تأكيد القرآن للشريعة

ولقد اهتمّ القرآن الكريم بهذه الخصوصية في الحكم، واعتبر استقامة الحكم وقدرته على تحقيق أهدافه، ترتبط بشكل خاص بالشريعة، وبدون ذلك يكون مصير الحكم هو الفساد والدمار، حيث جعل أمام الحكم طريقين:

- طريق الحكم الإلهي الشرعي الذي يمثّل الحق والهدى والعدل.
- وطريق الهوى الذي يمثّل الباطل والضلال والظلم و الفساد في الأرض. قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) المؤمنون: ٧١.

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[١].

٣) الأهداف والواجبات

الخصوصية الثالثة في الحكم الإسلامي، هي: الأهداف التي يجب أنْ يسعى الحكم لتحقيقها، والواجبات والمسؤليات التي يتحمّل الحكم تنفيذها وتطبيقها، وهذه الأهداف تمثل نقاط هداية وتوجيه للحكم ومؤشرات في اتجاهه، وكذلك الحال في هذه المسؤليات.

وقد أشرنا في الأبحاث السابقة إلى هذه الأهداف والواجبات، ولكن بصورة متفرقة، ونحاول هنا أنْ نلخصها بعدّة نقاط، ونذكرها بصورة مختصرة اعتماداً على ما ذكرناه آنفاً.

ويبدو من الآيات القرآنية الشريفة أنّ واجبات الحاكم الإلهي تتمثّل بالأمور التي يتحمّلها الرسل والأنبياء عليهم السلام، والتي أشار إليها القرآن مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٣].

وهي الأمور الأربعة التالية:

---

(١) المائدة: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) البقرة: ١٢٩.

(٣) الجمعة: ٢.

١. إبلاغ الرسالة الإلهية

إنّ الحكم الإسلامي يتحمّل مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى، وتمهيد الطريق لعباده، وإيصال تفاصيل العقيدة الإلهية والهداية الربانية، وإقامة الحجّة على النّاس، ومعالجة الموانع والحواجز النفسية بالحكمة والموعظة الحسنة، أو استخدام القوة لكسر وتحطيم وإزالة الموانع التي يضعها الطغاة والمستكبرون، أو التي يصطنعها المردة والجاحدون.

وتشير إلى ذلك مجموعة كبيرة من الآيات الكريمة، مضافاً إلى ما ذكرناه من آية سورة الجمعة وما يشبهها، مثل وجود الدعوة إلى الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

وآيات البلاغ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾[2].

وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآيات وضع الأغلال والإصر، وغير ذلك من الآيات التي سبقت الإشارة إليها.

٢. التزكية والتطهير

كما يتحمّل الحكم الإسلامي مسؤولية تزكية النّاس وتطهيرهم، وإيجاد وتهيئة العوامل المؤثّرة في ذلك، وإبعادهم وحمايتهم عن العوامل المضرّة والمفسدة لنفوسهم وأرواحهم، كما هو مسؤول عن إبعادهم وحمايتهم عن الأمراض الجسيمة، وفرض الرقابة والمتابعة لذلك.

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الأحزاب: ٣٩.

وقد أعدّ الإسلام منهجاً ثابتاً لهذه العملية النفسية الروحية، من خلال الشعائر الإسلامية، كالصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، أو من خلال جهاد النفس، ولكن ـ مضافاً إلى ذلك ـ لا بدّ للحكم الإسلامي أنْ يضع المناهج المتحرّكة ذات العلاقة بالظروف المتجددة أو العوامل السلبية الطارئة.

وقد دلت آية سورة الجمعة وما يشبهها على هذا الهدف والواجب، كما أنّ ذلك الهدف والواجب جعله القرآن الكريم هدفاً لبعض العبادات الهامة، مثل: الصلاة التي جعلها تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1].

ومثل: الزكاة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ومثل: القدوة الصالحة والأخلاق الفاضلة ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[3]، إلى غير ذلك من الموارد.

٣. تعليم الناس

حيث يتكفّل الحاكم مسؤلية تعليم الناس الشريعة الإلهية والسنن والقوانين التي تحكم حركة المجتمعات الإسلامية، وكذلك الأخلاق الإلهية.

مضافاً إلى ذلك العلوم التي تساهم في إعداد القوة وتطوير المجتمع

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) التوبة: ١٠٣.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

الإنساني وحمايته من الأضرار والفساد والدمار المادي والمعنوي.

٤. إقامة القسط والعدل

ويتحمّل الحاكم الإلهي - أيضاً - مسؤولية إقامة الحق والقسط والعدل بين الناس، وذلك من خلال الالتزام بتطبيق الأحكام الشرعية التي وضعها الله تعالى من أجل إقامة الحق والعدل بين الناس، حيث - ذكرنا سابقاً - أنّ مبدأ الحق والعدل يمثّل الأساس للحكم الشرعي، والحكومة الإسلامية في الرسالة الخاتمة تتحمّل مسؤولية هذا التطبيق، فهي مؤسسة إلهية أُريد منها أنْ تكون الأداة والضمانة لتطبيق الشريعة والالتزام بها والعمل بقوانينها، سواء الثّابتة منها، أم المتحرّكة التي تخضع لضوابط، وتلتزم بأهداف الرسالة ومبادئها وقيمها، وبدون ذلك يكون الهوى والميول والرّغبات هي الموجّه لمسيرة المجتمع الإنساني، أو تكون الأخطاء والحيرة هي المتحكمّة في هذه المسيرة، والتي تؤدي إلى الظلم والجور والفساد عمداً أو خطأً.

وقد ذكرنا: إنّ العدل والظلم له مجالات عديدة في العلاقات الاجتماعية، ومع الطبيعة والكون، ومع الله تعالى، ومع الإنسان نفسه، وكل ذلك لا يمكن للإنسان أنْ يتعرّف عليه أو يلتزم به دون أنْ يكون الحكم إسلامياً إلهياً.

قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1].

وقال تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ

---

(١) ص: ٢٦.

اللهُ...﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾[٢].

مصاديق تطبيق الشريعة

وتطبيق الأحكام الشرعية يمكن أنْ نراه ـ مضافاً إلى الأحكام الشرعية الثابتة ـ في الأبعاد والمصاديق الآتية[٣]:

الأوّل: تشخيص حدود ومعالم السلوك الإنساني في مجال المتغيّر من حياة الناس، بما ينسجم مع الأحكام الشرعية العامة الثابتة والقواعد الكلية التي وضعها الله تعالى كإطار لهذا السلوك، ومن هنا يصبح تشريع القوانين وتعيين الأوامر والتعليمات من مهمّات الحاكم الإسلامي بصورة عامة، ولذا قرنت الطاعة لولي الأمر بطاعة الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٤].

باعتبار أنّ الرسول ﷺ كحاكم، وكذلك ولي الأمر من بعده، يتحمّل

---

(١) النساء: ١٠٥.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) لقد تناولنا هذه المصاديق وغيرها في بحث السلطة التشريعية، وهنا نؤكد ذلك بهذا التلخيص.

(٤) النساء: ٥٩.

مسؤلية سنّ هذه القوانين ذات العلاقة بسلوك الإنسان في الجوانب المتحركة والمتغيرة من حياة الإنسان، ويجب حينئذ طاعة الرسول وولي الأمر في هذا الجانب المتغيّر، كما يجب طاعة الله تعالى في الجانب الثابت من الشريعة.

الثاني: تشخيص الموضوعات للأحكام الشرعية الأولية أو الثانوية التي وضعت معالجات شرعية ثبتتها الشريعة للحالات الاستثنائية، كحالات الاضطرار إلى أكل الميتة، أو الضرر العام، أو الحرج العام، أو تشخيص وجود القدرة على القتال التي وضعت شرطاً لوجوب القتال، وغير ذلك من الموارد، حيث يقع على الحاكم تشخيص وجود هذه الحالات أو تحقّق هذه الشروط والموضوعات.

الثالث: موارد تزاحم الأهمّ مع المهم عندما تتزاحم الواجبات، ولا يكون المجتمع قادراً على القيام بها جميعاً، أو تتزاحم المفاسد المحرّمة، ولا يكون المجتمع قادراً على اجتنابها جميعاً، فإنّه يقع على عاتق الحاكم مسؤلية تشخيص الأهمّ من هذه الواجبات والمحرّمات، وتقديمه على المهمّ في مجال التطبيق، وبدون وجود هذا المرجع السياسي والمسؤل عن تطبيق ذلك، سوف يعيش المجتمع حالة الفوضى والاضطراب بسبب تعدّد الأهواء واختلاف الآراء فيه، فأُعطيت المسؤلية للحاكم في الدولة الإلهية، لحسم الموقف قال تعالى: ﴿... فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ...﴾[1].

وهذه الخصائص والواجبات والمسؤليات في الحكم تؤكّد - أيضا - أهميّة ما ذكرناه من مواصفات لابدّ منها في شخص الحاكم، لأنّ الحكم في النظرية الإسلامية يتمركز في (الحاكم) بصورة عامة، ونعرف بذلك أهميّة أنْ يكون

---

(١) النساء: ٥٩. النزاع ـ كما هو الظاهر ـ هنا ليس نزاعاً بين الأفراد في حقوقهم الخاصة، بل هو نزاع في المجتمع وإدارة شؤونه العامة، واختلاف الآراء في ذلك.

الحاكم أفضل الناس في العلم والمعرفة والصفات الروحية والنفسية والأخلاقية. وأنْ يكون على درجة عالية من العدالة أو العصمة. ومستوىً عالٍ من التجربة والخبرة. وأنْ تكون لديه وسائل المشورة والوصول إلى الحقيقة.

الفصل الثالث

منهج تحقيق وحدة المجتمع

لم يكتف القرآن الكريم بتشخيص الأسس التي تقوم عليها الوحدة في الرسالة الخاتمة وإيجاد المؤسسة الأم التي تقوم بهذه المهمّة، بل أهتمّ إلى جانب ذلك لوضع المناهج والوسائل التي يمكن أنْ تتبع لتحقيق هذه الوحدة.

وبهذا الصدد لابدّ أنْ نشير إلى أنّ بعض الأسس التي تحدّثنا عنها في الفصل الأول تمثّل في جانب آخر منها وسائل لتحقيق الوحدة أيضاً، ولكنّها وسائل وقائية تمنع أو تساهم في المنع من حدوث الاختلاف والتنازع، فتوحيد الله، والعبادة له وحده دون غيره، والعلم، والمثل، والشريعة، والأمّة الواحدة، والإمامة الواحدة، كلّها وسائل لتحقيق الوحدة.

أمّا المنهج والوسائل التي نريد الإشارة إليها في هذا الفصل، فهي وسائل وقواعد وضوابط ومناهج عمليّة وضعتها الرسالة الإسلامية للمعالجة، بعد ظهور الخلافات في المجتمع الإنساني، سواء على المستوى الفردي أم الجماعي.

وقد عرفنا أنّ الناس كانوا أمة واحدة، ثمّ كان الاختلاف بينهم؛ بسبب غلبة الهوى وتضاد المصالح والمنافع والأهواء الخاصة بينهم، ثم جاءت مرحلة أخرى، فكانت الاجتهادات الخاطئة في تفسير الدين، وحصل الاختلاف بسبب ذلك.

وفي كلّ هذه المراحل كان السبب الأساس هو الهوى والطغيان في تمزيق شمل الناس، وزرع الاختلافات بينهم.

وقد وضعت الرسالة الإسلامية منهجاً رسالياً متكاملاً في مقام تحقيق الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي يعتمد مجموعة من الأسس والأساليب في معالجة هذه الحالات.

أسس تحقيق الوحدة

أمّا الأسس فيمكن أنْ نلخّصها بالأمور التالية:

١. مخاطبة الفطرة والمشاعر الإنسانية لدى الإنسان، باعتبارها العامل الأساس الموحّد لحركة الإنسان في جميع المجالات، كما عرفنا ذلك في بحث مرحلة الوحدة الفطرية.

ولذلك اهتمّ القرآن الكريم والنبي العظيم ﷺ بهذا الجانب في الخطابات التي استخدمها في هذا المجال، بصورة واسعة.

٢. مخاطبة العقل الإنساني، باعتباره القوة الذاتية التي أودعها الله تعالى للسيطرة على الهوى، ولتمييز الحق من الباطل، ومصالح الإنسان الحقيقية الدائمة من مصالحه الآنية الزائلة...

٣. السعي لمعرفة الواقع والحق والكشف عن الحقيقة عند الاشتباه والالتباس والاختلاف فيها؛ لأنّ الواقع والحق واحد لا يتعدّد.

٤. اعتماد حسن الظن بالآخرين في العلاقات الاجتماعية.

٥. تعبئة وإثارة الشعور بالمسؤلية المشتركة في الحياة الاجتماعية، وروح رعاية المصالح والأضرار الجماعية، في مقابل انكفاء الإنسان على مشاعر (الأنا) والعزلة والانفراد واللامبالاة.

٦. الإحسان للآخرين والتضحية بالأمور الصغيرة الشخصية لمصلحة وحدة الجماعة وقوّتها، والفائدة الكبيرة في العلاقات الاجتماعية القوية، وفتح باب الرجوع إلى طريق الحق والصلاح والوئام.

٧. استخدام القوّة عند الحاجة إليها، وذلك في حالات الجحود

والتمرّد والإصرار على الطغيان والاستبداد وتهديد المصالح العامة للجماعة والأمّة.

ومن الواضح أنّ هذه الأسس تنطلق من الحقائق والعوامل التي لها تأثير في الوحدة والاختلاف، ومن المبادئ والقيم الأخلاقية التي أراد الله تعالى من خلالها أنْ يتكامل الإنسان ويحقّق أهدافه في هذه الحياة.

وسائل تحقيق الوحدة

أمّا الوسائل فيمكن أنْ نشير إلى بعض معالمها، بنحو من الشرح والتفصيل[1]:

الأوّل: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

يأتي أُسلوب الدعوة إلى الله تعالى وسبيله بالحكمة والموعظة الحسنة في مقدمة الوسائل التي استخدمها المنهج الإسلامي في تحقيق الوحدة، وذلك لأنّ هذه الوسيلة تعتمد على أساس مخاطبة الفطرة الإنسانية والمشاعر والأحاسيس الخيّرة في الإنسان، وتغليب العقل والمنطق والأخلاق على الهوى، وجانب المصلحة الحقيقية الدائمة والعامة المتمثّلة بمصالح المجتمع والإنسان في مستقبل حياته الأُخرويّة على جانب المصلحة الآنيّة للفرد: قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2].

---

(١) اعتمدنا في عرض هذه الوسائل بتلخيص وتنقيح وتطوير ما ذكرناه في كتابنا: (الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين): ٩٤.

(٢) النحل: ١٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢].

والدعوة إنْ لم تكن بالحكمة والموعظة الحسنة، أو كانت بالغلظة والشدة، فإنّ الناس سوف تثار فيهم مشاعر الغضب والصدود والإعراض، أو العزّة بالإثم والتعصب للأنا والذات، فلا يسمعون للحق ولا يعرفون الصدق، ولانفضّوا عن داعية الحق، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك، عند حديثه مع رسول الله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾[٣].

وقد تناول القرآن الكريم معالم عديدة في تفاصيل هذه الحكمة والموعظة الحسنة، تحتاج إلى دراسة واسعة، منها: حسن الخطاب، والصبر على الأذى، والإعراض عن الجاهلين، والمحافظة على العلاقة والصلّة، ومراعاة مستوى المخاطبين، وتأنيب الجاحدين، وعدم المماراة وقرع الأسماع.

ولو استقصينا سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام في مجتمعاتهم لما رأينا في سلوكهم إلاّ مصداقاً للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

---

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

واللين والرفق والأخلاق العالية[1]، حيث يمكن أنْ تكون القدوة في ذلك.

الثاني: الصلح والمساعي الحميدة

ويأتي أسلوب الصلح والمساعي الحميدة التي يمكن أنْ يبذلها العقلاء والحكماء والمخلصون في سبيل تحقيق الوفاق والانسجام بين الأطراف المختلفة، أحد الوسائل الهامة التي أكّدتها الرسالة الخاتمة لحلّ الاختلاف وتحقيق الوحدة، فإنّ هذه المساعي تعتمد مخاطبة العقل أيضاً، وتهدئة

---

(١) من الأمثلة الجميلة على ذلك: ما رواه الشيخ المفيد عن حادثة وقعت للإمام الكاظم عليه السلام، وهي: ((إنّ رجلاً من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى عليه السلام ويسبّه إذا رآه، ويشتم عليّاً عليه السلام. فقال له بعض حاشيته يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم عن ذلك أشد النهي، وزجرهم، وسأل عن العمري، فذكر أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه فوجده في مزرعة له فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمري: لا توطئ زرعنا، فتوطّأه عليه السلام بالحمار، حتّى وصل إليه، ونزل وجلس عنده، وباسطه وضاحكه، وقال له: كم غرمت على زرعك هذا؟ قال: مائة دينار، قال: فكم ترجو أنْ تصيب؟ قال: لست أعلم الغيب، قال له: إنّما قلت كم ترجو أنْ يجيئك فيه؟ قال: أرجو أنْ يجيء مائتا دينار.

قال: فأخرج له أبو الحسن عليه السلام صرة فيها ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو، قال: فقام العمريّ فقبّل رأسه وسأله أنْ يصفح عن فارطه ـ أي سوء أدبه ـ فتبسّم إليه أبو الحسن عليه السلام وانصرف، قال: وراح إلى المسجد فوجد العمري جالساً فلمّا نظر إليه قال: الله أعلم حيث يجعل رسالاته، قال: فوثب أصحابه إليه فقالوا له: ما قضيتك، قد كنت تقول غير هذا، قال: فقال لهم: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام فخاصموه وخاصمهم، فلمّا رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: أيّما كان خيراً ما أردتم، أم ما أردت؟ إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم، وكفيت به شرّه))، الإرشاد ٢: ٢٣٣، إعلام الورى بأعلام الهدى ٢: ٢٦، بحار الأنوار ٤٨: ١٠٢، ح٧ باختلاف يسير.

مشاعر الغضب والهوى، وممارسة الضغوط الأدبيّة والأخلاقية والنفسيّة للسيطرة على هذه المشاعر والأحاسيس ومعرفة الحقيقة ومصلحة الطرفين.

وقد أكّد القرآن الكريم في عدة موارد هذا الأسلوب، ودعا لممارسته سواء:

أ) على مستوى الخلافات ذات الطابع الفردي، كما في مجال الأسرة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾[1].

ب) أم على مستوى الخلافات الجماعية عندما تقع بين القبائل والطوائف والجماعات داخل المجتمع المؤمن الواحد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا... ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

ج) أم على مستوى الخلافات والصراع بين الجماعة المؤمنة وأعدائها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

الثالث: العلم في معالجة الحوادث

لقد عرفنا أنّ أحد أسباب التنازع والفرقة هو الاجتهادات الخاطئة، والاعتماد على الشبهات والظنون الآثمة، ولذا نجد القرآن الكريم يعالج هذا السبب من الفرقة والاختلاف بالأمور التالية:

١. الدعوة إلى الاعتماد على العلم والبيّنة في معرفة الحقائق، والنهي عن

---

(١) النساء: ٣٥، وراجع أيضاً، الآية: ١٢٨، من السورة نفسها.

(٢) الحجرات: ٩ ــ ١٠.

(٣) الأنفال: ٦١.

اعتماد الظنون والاحتمالات والشبهات، حيث أسس القرآن الكريم قاعدة: ﴿إنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿... إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً...﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[4].

وقال تعالى: ﴿...فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ...﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[6].

٢. إعتمد في مؤسسة القضاء وفصل الخصومات والنّزاعات أدلّة الإثبات القائمة على الحسّ، وهي: الشهادة أو الأدلّة التي تؤدّي إلى العلم، أو

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) يونس: ٣٦.

(٤) الإسراء: ٣٦.

(٥) النحل: ٤٣ – ٤٤.

(٦) البقرة: ٧٨.

الأيمان المغلّظة، في حالات عدم وجود طريق إلى العلم، وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: ((إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان))[١].

٣. التوثيق بالكتابة، والشهادة في بعض القضايا المهمّة، كالقضايا التي تكون سبباً للخلاف والنزاع، كالقضايا المالية، والوصايا أو الطلاق، فأمر بالكتابة والإشهاد فيها، منعاً لهذه النزاعات والاختلافات، ولكي يعتمد العلم في معالجتها.

وبهذا الصدد جاءت الآية (٢٨٢) من سورة البقرة التي تؤكّد على كتابة (الدين) والإشهاد عليه، حيث جاء التأكيد والتعليل لهذا الحكم في موارد عديدة، مثل قوله تعالى: ﴿... ولا تَسأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغيراً أَوْ كَبيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا...﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ...﴾[٤].

---

(١) فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((قال رسول الله ﷺ: إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيّما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً، فإنّما قطعت له به قطعة من النار))، الكافي٧: ٤١٤، ح١.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) النساء: ٦.

(٤) الطلاق: ٢.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ... ۞ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

٤. التحذير والإنكار الشديد للإشاعات التي تهدّد المجتمع بالاختلاف والتمزّق والضعف وتقوم على أساس الظنون والأخبار غير الموثّقة، بحيث جعلها القرآن بمستوى الافتراء، والبهتان في الإثم، ووضع لها العقوبات الرادعة من الحدود والتعزيرات، سواء استهدفت هذه الإشاعات شخصاً معيناً أم وضعاً اجتماعياً عاماً.

ونجد مثالاً على ذلك قضية حديث الإفك، التي تناول فيها بعض الأشخاص زوج النبي ﷺ بالإشاعة الكاذبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۞ يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا

---

(١) المائدة: ١٠٦ ــ ١٠٨.

(٢) النور: ١١ ــ ١٢.

وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

ومثال آخر يرتبط بالأوضاع السياسية والاجتماعية العامة، حيث يتّخذ القرآن الكريم موقفاً متشدّداً من أصحاب الإشاعات، بعد أنْ يشخّصهم في طبيعتهم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[٣].

وهذه الآيات الكريمة تناولت موضوعات متعدّدة، عقائدية، واجتماعية، وسياسيّة، وشخصية، الأمر الذي يعني أنّ هذا الأسلوب في المعالجة له أهميّة كبيرة تنعكس على مختلف المجالات ذات العلاقة بوحدة المجتمع وظواهر التنازع والاختلاف فيه.

الرابع: التعامل على أساس ظاهر الإسلام

ومن الوسائل التي استخدمتها الرسالة الخاتمة لمعالجة النزاع والخلاف، هو التعامل على أساس الظاهر وحسن الظن، ومن ذلك التعامل على أساس ظاهر الإسلام عند الشك في سلامة الدين والعقيدة، فيشترك المسلمون في الحقوق والواجبات العامة على أساس هذا الظاهر، مهما اختلفت مستوياتهم الدينية، مما يسد الأبواب أمام منافذ الفرقة والاختلاف

---

(١) النور: ١٥ ــ ١٩.

(٢) النور: ٢٣.

(٣) الأحزاب: ٦٠ ــ ٦٢.

والتمزّق من خلال الاتهام بالدين أو التمييز بالمعاملة.

وبذلك منع الإسلام مبدأ التفتيش في العقائد والنيّات الذي كان سبباً لصراعات دموية خطيرة ترتبط بالاختلافات المذهبية والعقائدية التي ترجع إلى الاجتهادات في المسائل الدينية، والاختلاف في فهمها وتفسيرها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾[1]، فقد وردت هذه الآية الكريمة في حادثة ترتبط بأسامة بن زيد، فقد ذكر علي بن إبراهيم في تفسيره: ((فانّها نزلت لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر، وبعث أسامة بن زيد في خيل إلى بعض قرى اليهود في ناحية فدك ليدعوهم إلى الإسلام، وكان رجل من اليهود يقال له: مرداس بن نهيك الفدكي في بعض القرى، فلما أحسّ بخيل رسول الله ﷺ جمع أهله وماله وصار في ناحية الجبل، فأقبل يقول: أشهد أنْ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله ﷺ، فمرّ بأسامة بن زيد، فطعنه فقتله، فلّما رجع إلى رسول الله ﷺ أخبر بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: ((قتلت رجلاً شهد أنْ لا إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله؟ فقال: يا رسول الله، إنما قال تعوّذاً من القتل، فقال رسول الله ﷺ: فلا شققت الغطاء عن قلبه ولا ما قال بلسانه قبلت، ولا ما كان في نفسه علمت...))[2].

وكذلك وردت حادثة أخرى بالقائد العسكري خالد بن الوليد ـ هي أشد وضوحاً وإيلاماً ـ حينما أرسله النبي ﷺ إلى قوم من أجل دعوتهم للإسلام الحنيف، فعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى حيّ يقال لهم: بنو المصطلق من

---

(١) النساء: ٩٤.

(٢) تفسير القمي ١: ١٤٨، التفسير الصافي ١: ٤٨٥.

بني خزيمة، وكان بينهم وبين بني مخزوم إحنة في الجاهلية، وكانوا قد أطاعوا رسول الله وأخذوا منه كتاباً لسيرته عليهم، فلما ورد عليهم خالد أمر مناديه ينادي بالصلاة فصلّى وصلّوا، ثمّ أمر الخيل فشنّوا عليهم الغارة، فقتل فأصاب فطلبوا كتابهم فوجدوه فاتوا به النبي ﷺ وحدّثوه بما صنع خالد بن الوليد، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ثمّ قال: اللهم إنّي إبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ـ وفي بعض الروايات قالها ثلاث مرات ـ قال: ثمّ قدم على رسول الله ﷺ بتبر ومتاع، فقال لعلي عليه السلام: يا علي إيت بني خزيمة من بني المصطلق فأرضهم مما صنع خالد بن الوليد. ثمّ رفع ﷺ قدميه، فقال: يا علي اجعل قضاء أهل الجاهلية تحت قدميك.

فأتاهم علي عليه السلام فلّما انتهى إليهم حكم فيهم بحكم الله عزّ وجلّ، فلّما رجع إلى النبي ﷺ قال: يا علي أخبرني بما صنعت، فقال: يا رسول الله عمدت فأعطيت لكل دم دية، ولكل جنين غرّة ولكل مال مالاً، وفضلت معي فضلة، فأعطيتهم لميلغة كلابهم وحبلة رعاتهم، وفضلت معي فضلة، فأعطيتهم لروعة نسائهم وفزع صبيانهم، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لما يعلمون ولما لا يعلمون، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم ليرضوا عنك يا رسول الله. فقال ﷺ: أعطيتهم ليرضوا عنّي رضي الله عنك. يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي))[1].

---

(١) علل الشرائع ٢: ٤٧٣، ح ٣٥ ، راجع سيرة ابن هشام ٤: ٧٠، سيرة ابن كثير ٣: ٥٩١، تاريخ الطبري ٢: ٣٤١، باختلاف يسير.

وقد تكرّر مثل هذا الموقف والعمل من هذا القائد العسكري! الذي كان يتعامل مع قضية نشر الإسلام والدعوة له من منطلقات جاهلية، يتضح فيها الفرق بين النظرية الإسلامية والنظريات العقائدية السياسية القديمة والحديثة، حيث يكون الهدف هو التوسع والسيطرة، ولو كان ذلك عن طريق العنف والإرهاب.

ومن هنا يتبيّن ـ وبصورة قاطعة ـ أنّ الأساس في التعامل مع الناس هو: على أساس ظاهر إسلامهم، وأنّ ما جاء عن رسول الله ﷺ قوله: ((فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله))[1] تأكيد آخر لهذا الأمر.

ويمكن أنْ نتبيّن أهميّة هذه الوسيلة في الحفاظ على وحدة المجتمع من خلال بعدين:

الأوّل: البُعد المرتبط بالحقوق والواجبات، حيث عرفنا أنّ المدار في قبول ذلك هو إظهار الإسلام والتلفّظ بالشهادتين، وبذلك يصبح الإنسان مسلماً، له حقوق المواطنة في المصطلح السياسي الحديث.

وهذا يعني أنّ المسلمين هم طبقة واحدة لا يتمايزون بعضهم عن بعض في الحقوق والواجبات، بسبب درجات الإيمان والتقوى، وإنْ كانوا يتمايزون بذلك عند الله تعالى بالاحترام والتقدير والفضل، فالأعلم أو الأتقى ـ مثلاً ـ لا يستحق أكثر من غيره مالاً، أو ترفع عن كاهله بعض الواجبات التي يجب أنْ يقوم بها تجاه مجتمعه، بل حاله في ذلك حال غيره.

نعم، يمتاز على غيره بالثواب والأجر والدرجات العالية عند الله تعالى:

وكانت القضية الأخرى المعروفة تاريخياً، هي: قضية قتله الصحابي الجليل مالك بن نويرة، طمعاً بزوجته، ودخوله بها ليلة القتل، مما أثار هذا العمل حفيظة واستنكار الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، الذي كان يهدّد خالد بإقامة الحد عليه، راجع الفضائل لابن شاذان: ٧٥، بحار الأنوار ٣٠: ٣٤٣، ح١٦٣، تاريخ الطبري ٢: ٥٠٢، كنز العمال ٥: ٦١٩، ح ١٤٠٩١.

(١) راجع صحيح مسلم ١: ٥١.

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[1]. وبذلك تعالج قضية الاختلاف والامتياز الطبقي الاجتماعي.

الثاني: البُعد المرتبط بالجانب العقائدي، فإنّ الأمّة الإسلامية شأنها شأن بقية الأمم السابقة، تعيش التعدّدية في مذاهبها الفقهية، كما أنّها تعيش اختلافاً واقعياً وحقيقياً على مستوى الفهم العقائدي، وأنّ لهذه الاختلافات والتعدديّة أسباباً، منها: تعدّد الاجتهادات، واختلاف فهم مصادر المعرفة، أو الطرق الموصلة إلى هذه المصادر.

ولأن حالة التعدديّة والاختلاف حالة واقعية وحقيقية، ولكنّها كانت ولا زالت سبباً من أسباب النزاع والصراع، ولذلك عالجت الشريعة الإسلامية هذا السبب بتأكيد وحدة المسلمين، وضرورة تعاملهم في هذا المجال على أساس ظاهر الإسلام.

وقد كان بعض المسلمين من المنافقين ينتقدون رسول الله ﷺ ويعيبونه على هذا النوع من التعامل، وذلك عندما كان يغض النظر عن بعض تصرفات المسلمين التي كانت تؤشّر على نفاقهم أو انحرافهم، فيتّهمونه بالسذاجة وعدم الفهم والوعي، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

كما أنّ الإسلام نهى عن التجسّس والغيبة للمحافظة على هذا الظاهر وعدم الكشف عمّا وراءه من سوء في العمل أو العقيدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) التوبة: ٦١.

يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[١].

وهذا كلّه فيما إذا لم تتحوّل هذه الأمور المستورة إلى أعمال ونشاطات تخريبيّة تهدّد المجتمع الإسلامي نفسه.

وبهذه الطريقة كان يتعامل النبي ﷺ مع أبناء المجتمع الإسلامي، وكان فيهم الكثير من المنافقين ومرضى القلوب وضعفاء النفوس، أو من الأعراب وأهل البادية وغيرهم، ولكن عندما تصاعد نشاطهم الهدّام والمعادي، واتّضحت مواقفهم، أخذ القرآن الكريم بالحديث والتحذير من هذه النشاطات والتهديد باتّخاذ الإجراءات تجاهها، كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٢].

ونلاحظ أنّ الإسلام اتّخذ موقفاً شديداً تجاه ظاهرة التفتيش عن العقائد وتكفير المسلمين لمجرّد الاختلاف معهم في عقيدة ما أو تحليل للتاريخ، أو موقف سياسي، فقد ورد في القاعدة المشهورة التي أشارت إليها بعض الأحاديث: ((من كفّر مسلماً فقد كفر))[٣].

ولا بد من التنبيه هنا إلى أنّ تأكيد احترام عقائد الناس جميعاً، واعتبارهم مسلمين على الظاهر، لا يعني أنْ نعتبر كل عقيدة ومذهب في

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) الأحزاب: ٦٠.

(٣) فقد ورد الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((... إنّ من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره... وإذا قال له: أنت عدوّي فقد كفر أحدهما...))، الكافي ٢: ١٧١، ح٧، وحديث: ((أيما رجل قال لأخيه كافر فقد باء به أحدهما))، صحيح البخاري٧: ٩٧.

المجتمع الإسلامي هي عقيدة صحيحة، بل لابد من محاربة العقائد الفاسدة والبدع والضلالات، ولكن لا يكون الاتّهام بالخروج عن الدين لمجرّد الاختلاف في الرأي، وإنْ كان من الصحيح مناقشة الآراء وإبطال البدع والضلالات.

كما لا يعني ذلك منع البحوث العلمية والاجتهاد، وإنْ أدّت إلى نتائج تختلف عمّا هو موجود عند الآخرين، غاية ما في الأمر، أنّ هذه البحوث والاختلافات العلمية لابد وأنْ تكون في إطار الاحترام المتبادل بين المسلمين وحسب القواعد والأُصول التي أقرّتها الشريعة، في دائرة صيانة دم المسلم وعرضه وماله وشؤونه المختلفة الأُخرى التي تهمّه.

وبذلك تكون الشريعة بوضعها لأُسلوب التعامل على الظاهر، قد هيّأت حلاً واقعياً موفقاً لمشكلة تعدّ من أصعب المشاكل التي تعيشها المجتمعات البشرية، ونعني بها: التمايز الطبقي والصراعات الطائفية والمذهبية والعقائدية التي تعصف بوحدة المجتمع وتماسكه، ووفّرت للمجتمع وسيلة مهمّة من وسائل استحكام قدرته ووحدته.

الخامس: العفو والصفح

ويأتي هذا الأُسلوب كوسيلة للمحافظة على الوحدة وتحقيقها في قضايا الخلاف والنزاع ذات الطابع الشخصي أو المحدود، فالعفو والصفح كما هو حالة أخلاقية وصفة تكاملية للإنسان الذي يصدر منه العفو والصفح، كذلك هو أُسلوب من أساليب المحافظة على الوئام والعلاقات الاجتماعية القويّة، وإرجاع الأُمور إلى أوضاعها الطبيعية في الانسجام والوئام.

وينطلق هذا المبدأ والأُسلوب من مبدأ التوبة، والمغفرة الإلهية، لإعطاء العبد فرصة للرجوع إلى الحق والصواب والهدى والصلاح، ولذلك أمر

الله تعالى به.

والإسلام وإنْ كان قد وضع إلى جانب هذا الأسلوب وسيلة أخرى لمعالجة هذا النوع من الاختلاف ـ كما سوف نشير إلى ذلك ـ وهي وسيلة العقوبات الرادعة في الجرائم الاجتماعية الشخصية، كالحدود، والتعزيرات، أو القصاص، والمعاملة بالمثل في القضايا ذات الطابع الشخصي أو العام، ولكنّه ـ في الوقت نفسه ـ نجد الإسلام قد وضع استثناء في هذه العقوبات، وهو مبدأ العفو والصفح الذي يكون بيد صاحب الحق في القضايا الشخصية، وبيد الحاكم الإسلامي في بعض القضايا العامة، ودعا إلى الأخذ بهذا المبدأ الاستثنائي في القضايا الخاصة.

قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِه فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

حيث تُبيّن هذه الآيات أنّ مبدأ المقابلة بالمثل مبدأ ثابت، ولكنّ العفو والغفران أمر يحبّه الله تعالى ويؤجر صاحبه عليه، ويغفر لمن يعفو ويصفح كجزاء لعفوه وتجاوزه عن إساءة الآخرين بحقّه.

وهكذا في حالة المطلّقة التي لم يمسّها زوجها، قال تعالى:

---

(١) الشورى: ٤٠ ـ ٤٣.

(٢) النور: ٢٢.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، حيث بيّنت الآية أنّ حقّ المطلّقة قبل الدخول، هو نصف المهر، إلاّ أنّ الله تعالى يحب أنْ تعفو هي، أو من بيده عقدة النكاح، وجعل ذلك من علامات القرب من حالة التقوى.

بل وللشريعة ذاتها عفو وصفح عن بعض المجرمين في حالات خاصة، مع كون العقوبة ثابتة بحقهم في الحالات الاعتيادية، كما بالنسبة إلى المحارب والمفسد في الأرض، فإنّ الشريعة وإنْ أمرت بإقامة الحد عليه إلاّ أنّها قرّرت العفو والصفح عنه ـ أيضاً ـ إذا تاب قبل أنْ يقدر عليه ولي الأمر.

السادس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الوسائل التي اعتمدتها الرسالة الخاتمة في تحقيق وحدة المجتمع الإنساني في إطار المعروف والإصلاح بين الناس، الأمر الذي يحفظ لها وحدتها التي يمزّقها المنكر والشر والفساد.

وتنطلق فكرة هذا الواجب من الشعور بالمسؤلية المشتركة بين أبناء الجماعة، تجاه الجماعة ومصالحها العامة، وهذه المسؤلية المشتركة هي أسس النهج الإسلامي في تحقيق الوحدة كما عرفنا.

ولذلك جاء هذا الثناء والتأكيد على دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة الإسلامية، سواء في القرآن الكريم أم السنّة الشريفة.

فقد دعا القرآن الكريم المسلمين إلى أنْ يكونوا أُمّة تدعو إلى الخير وتأمر

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وعندما أراد القرآن الكريم أنْ يفسّر أفضلية الأُمّة الإسلامية على جميع الأمم، وصفها بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾[2].

وعندما تحدّث القرآن الكريم عن السلطة وتمكين المؤمنين في الأرض، جعل أحد الأهداف الأساسية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[3].

وعندما تحدّث عن الجماعة المؤمنة في تماسكها وانسجامها وتوادّها وتراحمها، وصفها بأنّها أُمّة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

وعندما تحدّث عن أتباع الرسول النبي الأمّي ـ الذي بشّر به الأنبياء السابقون في إقامة حكومة الحق والعدل والحرية والاستقرار ـ وصفه فيما وصفه: بأنّه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، لأنّ ذلك هو الذي يحقّق كل هذه الأمور، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) الحج: ٤١.

(٤) التوبة: ٧١.

عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقد ورد في الحديث الشريف أنّ الأمر بالمعروف به تقام الفرائض، وتأمن المسالك، ويتحقّق العدل والرفاه للمجتمع الإنساني، فعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((... **إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب** ـ أي المسالك ـ **وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر** ـ أي: أمر الدين والدنيا ـ **فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم...**))[2].

السابع: التعاون على البر والتقوى

ويأتي التعاون على البر والتقوى وسيلة أُخرى لتحقيق هذا الهدف العظيم في الوحدة، حيث يكون هذا التعاون هدفاً للمسؤلية المشتركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنّ البر والتقوى من الأُمور التي توحّد الجماعة وتجمع صفوفها وتلغي عوامل الفساد والاختلاف والنزاع، أو عناصر التضاد والتدافع في الإرادات والرغبات والشهوات، وتسيطر على أسباب الهوى والغضب والانفعال.

وعمل البر والتقوى بالرغم من حسنه وميل الفطرة الإنسانية إليه إلاّ أنّه عمل ثقيل وصعب، لما فيه من جهاد النفس والبذل والعطاء وتحمّل الآلام،

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) الكافي ٥: ٥٥، ح١.

ولذلك فهو يحتاج إلى التعاون والاشتراك في المسؤلية والإنجاز.

وقد جاء في القرآن الكريم الحث على ذلك بعنوانه، مثل قوله تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[3].

ويأتي في سياق تصعيد روح الشعور بالمسؤلية المشتركة ما ورد من الحث على الاهتمام بأمور المسلمين عامة، مثل قوله ﷺ: ((من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم...))[4]، وكذلك ما ورد في الحث على التناصر بين المسلمين، مثل قوله ﷺ: ((... ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم))[5].

وذلك لأنّ الحديث الشريف يفترض في هذا المجال أنّ المسلمين جسد واحد، لقوله ﷺ: ((المؤمنون في تبارهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى تداعى له سائره بالسهر والحمّى))[6]، وبذلك يمكن أنْ

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) العصر: ٣.

(٣) البلد: ١٧.

(٤) الكافي ٢: ١٦٤، ح٥.

(٥) الكافي ٢: ١٦٤، ح٥.

(٦) كتاب المؤمن: ٣٩، ح ٩٢، بحار الأنوار ٧١: ٢٣٤، ح ٣٠، عن رسول الله ﷺ، باختلاف يسير.

تتحقق هذه الوحدة الإلهية.

الثامن: الوقوف في وجه العدوان

كان الطغيان والعدوان أحد الأسباب المهمة للاختلاف والفرقة، خصوصاً إذا تحوّل الطغيان إلى حالة اجتماعية عامة، من خلال الوضع السياسي الثقافي العام للأمّة والممارسة الطويلة في المجتمع له.

أو من خلال وجود مؤسسة قويّة تقوم على أساس الطغيان، كالحاكم الطاغية، أو الجيش، أو الأجهزة الأمنية، والذي يؤدّي ذلك ـ عادة ـ إمّا إلى تمزيق الأمّة المحكومة نفسها، أو ظهور الاختلافات والنزاعات الدامية بين أبنائها. وهذا ما عرفته البشرية في تأريخها من ظاهرة الحروب والمعارك والاقتتال، فضلاً عن الألوان الأخرى من الطغيان. أو ظهور طبقة المستضعفين المستغلّين التابعين، كما شرحنا ذلك في أسباب الاختلاف الفرعوني وظهور الطبقات الاجتماعية فيه.

كما أنّ العدوان والطغيان قد يكون في دائرة محدودة من أبناء الأمّة، وفي إطار دولة الحق والعدل، وذلك عندما يتجاوز أحد أفراد الأمّة على الآخرين ويعتدي عليهم أو على أموالهم وحرماتهم وحقوقهم أو حقوق الجماعة كلّها، ولكن بصورة فردية أو محدودة، كما في موارد القتل، أو السرقة، أو الغصب، أو قطع الطريق وغير ذلك من مظاهر العدوان.

وهذا النوع من العدوان يكون سبباً آخر للنزاع والاختلاف والفرقة والتمزّق، ولا سيما إذا أخذ طابعاً اجتماعياً عاماً، وقد عالج الإسلام كلاً من هذين النوعين من الطغيان والعدوان باستخدام القوة ضدهما، إما بالجهاد أو العقوبات الأخرى الرادعة.

واعتبر استخدام القوة وسيلة من وسائل حل الاختلاف وتحقيق الوحدة

إذا لم تنفع الوسائل الأخرى، على قاعدة: (إنّ آخر الدواء الكي).

وميز الإسلام بين حالتين من الطغيان: الطغيان العام على المجتمع، والطغيان المحدود على الأفراد والجماعة، فكان القتال هو الوسيلة لمعالجة الطغيان على المجتمع، وكانت العقوبات (القصاص، الحدود، والتعزيرات) هي الوسيلة لمعالجة الطغيان المحدود على الأفراد والجماعة.

أمّا على مستوى الطغيان العام على المجتمع، فقد ذكر القرآن الكريم مجموعة من المصاديق التي يراها تصحّح القتال:

أ) إذا تعرّضت جماعة المسلمين إلى الظلم الشديد، بسبب إيمانهم بالله تعالى، مثل: الإخراج من الديار أو القتل والقمع، فإنّ الله تعالى أذن لهم بالدفاع عن النفس والقتال بسبب ذلك.

ب) تعرّض أماكن العبادة والدعاء والصلاة للعدوان والهدم، أو منع المسلمين من ممارسة شعائرهم الإسلامية. قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

ج) المعاملة بالمثل في العدوان، فإذا كان قتالاً فقتال، وإذا كان انتهاكاً لحرماتهم ومقدساتهم، فلهم أنْ يردّوا بالمثل. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2]، ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ

---

(١) الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) البقرة: ١٩٠.

بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

د) التعرّض للاضطهاد والتعذيب والحصار من أجل الفتنة، وحرف المسلمين عن دينهم وعقيدتهم. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا...﴾[٢].

هـ) الدفاع عن المستضعفين من المسلمين الذين لا يملكون حيلة في الدفاع عن أنفسهم وحرماتهم. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[٣].

و) الدفاع الوقائي عن النفس عندما يرى المسلمون أنّ الأعداء يتربّصون بهم الدوائر، ويستعدّون للهجوم عليهم وقتالهم، مع وجود الأدلة والقرائن على ذلك، فيمكنهم عندئذ أنْ يبادروهم بالقتال تحوّطاً واحترازاً من العدوان. قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وقد أكّد الإسلام والقرآن الكريم أنّه إذا انتفت هذه المبرّرات فلا داعي للقتال، بل لا بدّ أنْ يعمّ السلم والسلام والهدوء. قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ

---

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) البقرة: ٢١٧.

(٣) النساء: ٧٥.

(٤) التوبة: ١٣.

وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾(١).

أمّا على مستوى الأمّة المؤمنة نفسها فإنّ النزاعات تُعالج في البداية بالعفو أو الصلح والمساعي الحميدة ـ كما أشرنا سابقاً ـ فإذا أصرّ أحد الجانبين على تأجيج الصراع واستمراره فلا بدّ من النظر إلى الموضوع من خلال قوانين وقواعد القسط والعدل والوقوف حينئذٍ في وجه المعتدي، وإلى جانب المعتدى عليه، وإيقاف المعتدي عن عدوانه، فإذا بغى على الحقّ والعدل، فلا بدّ من قتاله حتّى يرجع إلى الحق ويلتزم به، من دون فرق بين أنْ يكون ذلك بين جماعتين من المسلمين، أو يكون على الحاكم الإسلامي، أو يكون من الحاكم الإسلامي على الأمّة.

وقد بيّن القرآن الكريم هذا الموقف بصورة واضحة: قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

وأمّا على مستوى الطغيان المحدود الفردي فإنّ الإسلام وضع العقوبات، كالقصاص، والحدود، والتعزيرات لمعالجتها، وذلك في مثل موارد القتل:

---

(١) النساء: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) الحجرات: ٩ ـ ١٠.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى... ﴾[1].

والسرقة، قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا.. ﴾[2].

والزنا، قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾[3].

وقاطع الطريق المحارب، وهو نوع من أنواع السعي في الأرض فساداً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4].

وأكل المال بالباطل، كالربا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾[5]. وغير ذلك من الجرائم.

وهذه الجرائم، وإنْ كانت في مظهرها ذات طابع فردي وشخصي، ولكنّها جرائم تهدّد الأمن الاقتصادي أو الاجتماعي أو المالي أو البُنية الأساسية للمجتمع كالأسرة، أو غير ذلك من الأمور التي تستحق مثل هذه العقوبات.

وقد وضع الشارع المقدّس إلى جانب العقوبة في مثل هذه الموارد العفو

---

(١) البقرة: ١٧٨.

(٢) المائدة: ٣٨.

(٣) النور: ٢.

(٤) المائدة: ٣٣.

(٥) البقرة: ٢٧٨ ــ ٢٧٩.

والصفح ـ كما ذكرنا ـ وترك أمره في الجانب الشخصي منها إلى الشخص صاحب الحق، وفي الجانب الجماعي إلى ولي الأمر، ضمن ضوابط محدّدة يراد منها تحقيق هدف المحافظة على المجتمع من ناحية، والانسجام فيه وتطوّره من ناحية أخرى.

وبهذه المفردات في الوسائل والأساليب يتوضّح المنهج الذي وضعه الإسلام لتحقيق الوحدة، والذي ينطلق من الأسس الروحية والعقلية والنفسية والاجتماعية المختلفة، وهو منهج تكاملت به الرسالة الخاتمة من بين الرسالات الإلهية الأخرى.

الفصل الرابع

النتائج والآثار

لقد تمكّنت الرسالة الخاتمة ـ بفضل الله وبتطبيق هذا المنهج ـ أنْ تحقّق نتائج وآثاراً عظيمة في واقع المجتمع الإنساني باتجاه تحقيق (الوحدة)، وذلك بالرغم من بقاء ظاهرة الاختلاف قائمة في المجتمع الإسلامي، باعتبارها سنّة تأريخية، ولكنّها وضعته في طريق تحقيقها الذي يمثّل الهدف النهائي للرسالات الإلهية.

ويمكن أنْ نعرف ذلك بوضوح إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأوضاع العقائدية والروحية والفكرية والاجتماعية التي كان عليها المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وما تحقق من تقدم باتجاه الوحدة بعد الإسلام.

ونحاول هنا أنْ نشير أولّاً: إلى جانب من معالم المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وثانياً: إلى النتائج والآثار التي حققتها الرسالة الإسلامية.

أولاً: الأوضاع الاجتماعية الجاهلية

أ ـ كان المجتمع الجاهلي في علاقاته والأسس التي تقوم عليها، يتّصف ـ بصورة عامة ـ بالضعف، والفرقة، والتمزق،والعداوة فالإطار العام للجماعة هو العشيرة والقوم، أو الملك والسلطان، أو الأرض والتراب والمصالح الخاصة، فتراهم يتنازعون بينهم على أبسط الأشياء، سواء على مستوى الجزيرة العربية التي يبدو فيها هذا الأمر واضحاً، حيث يصف القرآن الكريم أمّة العرب حينذاك بذلك عندما يتحدث إليهم: قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً... ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

أم على مستوى الأمم الأخرى، كالروم، والفرس، والحبشة، وأهل النوبة وغيرهم، فإنّ وقائع الفتح الإسلامي وهزيمة تلك الدول ـ بالرغم مما كانت تتمتّع به من جيوش وأموال وطاقات بشرية وعلمية ـ أفضل دليل على هذه الحقيقة.

ب ـ العقيدة الوثنية المفرّقة والممزّقة المسيطرة على مجتمعاتهم وعقولهم، التي كانت تبدأ بعبادة الأوثان والأصنام ـ كما هو الحال في الجزيرة العربية ـ حيث تعبّر عن منتهى السقوط في التمزّق والتفرّق في العبادة، وتنتهي بعبادة النار أو الإنسان، كالأحبار والرهبان. قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

ج ـ سيطرة الخرافات والأوهام والظنون والسحر والشعبذة على عقول الناس، والتي جعلت الإنسان أبعد ما يكون عن الحقيقة والحق والواقع والعدل والمنطق، سواء في ذلك على مستوى العلوم الطبيعية، أم على مستوى العلوم الإنسانية المرتبطة بفهم الكون والحياة والعلاقات والمشاعر الإنسانية.

د ـ سيطرة الهوى والشهوات والرغبات والميول والغرائز على سلوك الإنسان وحركته، فشاعت المنكرات والفواحش، حتى أصبحت معْلَماً واضحاً من معالم الحياة الإنسانية، وساد العدوان وانتهاك الحرمات حتى

---

(١) الأنفال: ٢٦.

(٢) التوبة: ٣١.

أصبحت قانوناً في المجتمع الإنساني، وتحكّمت الطبقية الاجتماعية والاقتصادية والقوّة في علاقات المجتمع الإنسانية، وقد وصف القرآن الكريم هذه الحالة: بقوله تعالى: ﴿...وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِنْهَا...﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2].

وبذلك فَقَدَ الإنسان القيم الروحية والمعنوية التكاملية، وأخذ يعيش لحياته اليومية، ويرى أنّ تكامله فقط هو التكامل المادي والغريزي لا غير، وانكفأت المعاني الروحية وتسافلت المُثُل الأخلاقية عنده.

هـ ـ فقدان القانون والنظام العام للمجتمع، إلاّ بمقدار ما تفرضه القوّة والقدرة التي يتمتّع بها السلطان، الذي يتمثّل برئيس العشيرة أو القوم أو السلطان، فالقوّة هي القانون، وكذلك العادات والتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد.

كما أنّ الأمّة والشعب والناس لم يكن لهم أيّ دور يذكر في الحياة السياسية والاجتماعية، بسبب سيطرة القوّة والحاكم والزعيم.

ثانياً: نتائج وآثار الرسالة الخاتمة

وقد أدّى نزول القرآن الكريم، ومجيء الرسالة الخاتمة إلى حدوث تطوّر وتحوّل وتغيّر عظيم في المجتمع الإنساني آنذاك، بلحاظ حل المشاكل الرئيسية التي كان يعيشها المجتمع الإنساني، وباتجاه تحقيق الوحدة الإنسانية وعناصرها الأساسية:

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) آل عمران: ١٤.

العلاقات الاجتماعية

١ ـ ففي مجال العلاقات الاجتماعية، أحدثت الرسالة الإلهية الخاتمة تحوّلاً عظيماً على مستوى النظرية والتطبيق معاً.

فعلى المستوى النظري، وضعت العلاقات الإنسانية في إطار واحد شامل لجميع أصناف البشرية، وهو الأصل الإنساني الواحد لها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾، وحولت جميع الخصوصيات الأخرى كـ (الشعوبية والقبلية وغيرها) إلى قضايا ثانوية ذات هدف إنساني، وهو: التعارف والتفاهم وتنظيم الحالة الإنسانية، قال تعالى: ﴿...وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾، وألغت جميع الامتيازات والموازين بتأكيدها للموازين الحقيقية للتفاضل والتكريم بين الناس، وهي مبادئ (التقوى)، قال تعالى: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، والإيمان والعلم، قال تعالى: ﴿... يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾[2]، والجهاد في سبيل الله، وإقامة المجتمع الصالح، قال تعالى: ﴿... وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[3].

كل ذلك دون سائر الموازين الأخرى البشرية كـ (القوة، والمال، وكثرة الأولاد والأتباع، أو العرق، أو الجمال، أو الجاه، أو غير ذلك من الأمور الطارئة).

وأمّا على مستوى التطبيق، فيمكن أنْ نلاحظ ذلك في عدة إجراءات

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) النساء: ٩٥.

وأمور اتخذتها الرسالة الإسلامية، وطبقّها النبي الأعظم ﷺ، في ممارسته وسيرته وسلوكه الشخصي والاجتماعي:

الأول: العلاقات الاجتماعية الشخصية، حيث قرّب رسول الله مجموعة من الأشخاص الذين كانت لهم انتماءات عرقية أو اجتماعية، تجعلهم من الدرجة الثانية أو الثالثة في المجتمع الجاهلي، مثل: زيد بن حارثة الذين كان عبداً مملوكاً وأعتقه رسول الله ﷺ، واتّخذه مولاً له، بل ارتقى به إلى درجة الولد، حتى كان ينسب إلى رسول الله بالتبنّي إلى أنْ نزل القرآن الكريم بإلغاء هذا النوع من النسبة الاجتماعية كلية.

أو سلمان الفارسي الذي ارتقى به رسول الله في علاقته الاجتماعية إلى درجة أنّه اعتبره من أهل البيت عليهم السلام، حيث قال ﷺ: ((**سلمان منّا أهل البيت**))[1].

وكذلك بلال الحبشي الذي اتّخذه رسول الله ﷺ مؤذناً خاصاً له، ومثل: صهيب الرومي وغيرهم.

الثاني: العلاقات الزوجية، حيث اعتبر الإسلام أنّ المؤمن كفء المؤمن، وقام رسول الله بتزويج زينب بنت جحش وهي ابنة عمّته إلى مولاه زيد بن حارثة، وسعى إلى تزويج جويبر من الذلفاء، وهي ابنة أحد زعماء القبائل العربية[2].

---

(١) مجمع البيان٢: ٤٢٧، بحار الأنوار ٢٠: ١٨٩، تاريخ الطبري٢: ٢٣٥، كنز العمال١١: ٣١٦، ح٣٣٣٣٦، وقد تنازع المسلمون في سلمان هذا عندما ابتكر لهم فكرة الخندق التي حمتهم من غزو محقق كان يسعى إليه المشركون، فقال كل جماعة منهم: سلمان منا، حتى فض رسول الله ﷺ نزاعهم بقوله هذا، وهذه القصة تدل على الارتقاء ـ أيضاً ـ في المجتمع الإسلامي كلية.

(٢) روى أبو حمزة الثمالي قال: ((كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذا استأذن عليه رجل، فأذن ←

له، فدخل عليه فسلّم، فرحّب به أبو جعفر عليه السلام وأدناه وساءله، فقال الرجل: جعلت فداك إنّي خطبت إلى مولاك فلان بن أبي رافع ابنته فلانة، فردّني ورغب عنّي وازدراني لدمامتي وحاجتي وغربتي، وقد دخلني من ذلك غضاضة هجمة غضّ لها قلبي، تمنيّت عندها الموت، فقال أبو جعفر عليه السلام: اذهب فأنت رسولي إليه، وقل له: يقول لك محمّد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: زوّج منجح بن رباح مولاي ابنتك فلانة ولا تردّه، قال أبو حمزة: فوثب الرّجل فرحاً مسرعاً برسالة أبي جعفر عليه السلام، فلّما أنْ توارى الرّجل، قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ رجلاً كان من أهل اليمامة يقال له جويبر: أتى، رسول الله صلى الله عليه وآله منتجعاً للإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وكان من قباح السودان، فضمّه رسول الله صلى الله عليه وآله لحال غربته وعراه، وكان يجري عليه طعامه صاعاً من تمر بالصاع الأوّل، وكساه شملتين، وأمره أنْ يلزم المسجد، ويرقد فيه بالّليل، فمكث بذلك ما شاء الله حتى كثر الغرباء ممّن يدخل في الإسلام من أهل الحاجة بالمدينة، وضاق بهم المسجد، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّه صلى الله عليه وآله أنْ طهرّ مسجدك وأخرج من المسجد من يرقد فيه باللّيل، ومُرْ بسدّ أبواب من كان له في مسجدك باب إلاّ باب عليّ عليه السلام ومسكن فاطمة عليها السلام، ولا يمرّن فيه جنب، ولا يرقد فيه غريب، قال: فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بسدّ أبوابهم إلاّ باب عليّ عليه السلام، وأقرّ مسكن فاطمة عليها السلام على حاله، قال: ثم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أنْ يتخذ للمسلمين سقيفة، فعملت لهم وهي الصفّة، ثم أمر الغرباء والمساكين أنْ يظلّوا فيها نهارهم وليلهم، فنزلوها واجتمعوا فيها، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعاهدهم بالبّر والتمر والشعير والزّبيب إذا كان عنده، وكان المسلمون يتعاهدونهم ويرقّون عليهم لرقّة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويصرفون صدقاتهم إليهم. فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقّة عليه، فقال له: يا جويبر، لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك، وأعانتك على دنياك وآخرتك، فقال له جويبر: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي من يرغب فيّ، فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال فأيّة امرأة ترغب فيّ؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جويبر إنّ الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهليّة شريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهليّة وضيعاً، وأعز بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهليّة وتفاخرها بعشائرها وباسق (المرتفع في علوه) ◄

أنسابها، فالناس اليوم كلّهم أبيضهم وأسودهم وقرشيّهم وعربيّهم وعجميّهم من آدم، وإنّ آدم خلقه الله من طين، وإنّ أحبّ الناس إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم، وما أعلم يا جويبر لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلاّ لمن كان أتقى لله منك وأطوع، ثمّ قال له: انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد، فإنّه من أشرف بني بياضة (وهم قبيلة من الأنصار) حسباً فيهم، فقل له: إنّي رسول رسول الله إليك وهو يقول لك: زوّج جويبراً ابنتك الذلفاء.

قال: فانطلق جويبر برسالة رسول الله ﷺ إلى زياد بن لبيد وهو في منزله وجماعة من قومه عنده، فاستأذن فأُعلم فأذن له فدخل وسلم عليه، ثم قال: يا زياد بن لبيد إنّي رسول رسول الله إليك في حاجة لي فأبوح بها أم أسرّها إليك؟ فقال له زياد: بل بح بها، فإنّ ذلك شرف لي وفخر، فقال له جويبر: إنّ رسول الله ﷺ يقول لك: زوّج جويبر ابنتك الذلفاء، فقال له زياد: أرسول الله أرسلك إليّ بهذا؟ فقال له: نعم، ما كنت لأكذب على رسول الله ﷺ، فقال له زياد: إنّا لا نزوّج فتياتنا إلاّ أكفاءنا من الأنصار، فانصرف يا جويبر حتّى ألقى رسول الله ﷺ فأخبره بعذري، فانصرف جويبر وهو يقول: والله ما بهذا نزل القرآن ولا بهذا ظهرت نبوّة محمّد ﷺ، فسمعت مقالته الذلفاء بنت زياد وهي في خدرها، فأرسلت إلى أبيها ادخل إليّ، فدخل إليها فقالت له: ما هذا الكلام الذي سمعته منك تحاور به جويبر؟ فقال لها: ذكر لي أنّ رسول الله ﷺ أرسله، وقال: يقول لك رسول الله ﷺ: زوّج جويبراً ابنتك الذلفاء، فقالت له: والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله ﷺ بحضرته، فابعث الآن رسولاً يردّ عليك جويبراً، فبعث زياد رسولاً فلحق جويبراً، فقال له زياد: يا جويبر مرحباً بك اطمئن حتّى أعود إليك، ثمّ انطلق زياد إلى رسول الله ﷺ فقال له: بأبي أنت وأمّي إنّ جويبراً أتاني برسالتك وقال: إنّ رسول الله ﷺ يقول لك: زوّج جويبراً ابنتك الذلفاء فلم ألن له، القول ورأيت لقاءك، ونحن لا نتزوّج إلاّ أكفاءنا من الأنصار.

فقال له رسول الله ﷺ: يا زياد جويبر مؤمن والمؤمن كفء للمؤمنة والمسلم كفء للمسلمة فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه، قال: فرجع زياد إلى منزله ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله ﷺ، فقالت له: إنّك إن عصيت رسول الله ﷺ كفرت، فزوّج جويبراً، فخرج زياد فأخذ بيد جويبر، ثمّ أخرجه إلى قومه، فزوّجه على سنّة الله وسنة

<

رسوله ﷺ، وضمن صداقه، قال: فجهزّها زياد وهيّأوها، ثمّ أرسلوا إلى جويبر فقالوا له: ألك منزل فنسوقها إليك؟ فقال: والله ما لي من منزل، قال: فهيّأوها وهيّأوا لها منزلاً وهيّأوا فيه فراشاً ومتاعاً، وكسوا جويبراً ثوبين، وأدخلت الذّلفاء في بيتها وأدخل جويبر عليها معتّماً (ليلاً)، فلما رآها نظر إلى بيت ومتاع وريح طيبة قام إلى زاوية البيت فلم يزل تالياً للقرآن راكعاً وساجداً حتّى طلع الفجر، فلمّا سمع النّداء خرج وخرجت زوجته إلى الصّلاة فتوضّأت وصلّت الصبح، فسئلت هل مسك؟ فقالت: ما زال تالياً للقرآن وراكعاً وساجداً حتّى سمع النّداء فخرج، فلّما كانت اللّيلة الثانية فعل مثل ذلك، وأخفوا ذلك من زياد، فلمّا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فأُخبر بذلك أبوها، فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال له: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله أمرتني بتزويج جويبر ولا والله ما كان من مناكحنا، ولكن طاعتك أوجبت عليّ تزوجيه.

فقال له النبي ﷺ: فما الّذي أنكرتم منه؟ قال: إنّا هيّأنا له بيتاً ومتاعا وأدخلت ابنتي البيت، وأُدخل معها معتّماً مثل كلّمها ولا نظر إليها ولا دنا منها، بل قام إلى زاوية البيت فلم يزل تالياً للقرآن راكعاً وساجداً حتّى سمع النّداء، فخرج ثمّ فعل مثل ذلك في الليلة الثانية ومثل ذلك في الثالثة ولم يدنُ منها ولم يكلّمها إلى أنْ جئتك، وما نراه يريد النساء فانظر في أمرنا، فانصرف زياد. وبعث رسول الله ﷺ إلى جويبر فقال له: أما تقرب النّساء؟ فقال له جويبر: أوَ ما أنا بفحل، بلى يا رسول إنّي لشبق نهم إلى النسّاء، فقال له رسول الله ﷺ: قد خبِرّت بخلاف ما وصفت به نفسك، قد ذكر لي أنّهم هيّأوا لك بيتاً وفراشاً ومتاعاً، وأُدخلت عليك فتاة حسناء عطرة، وأتيت معتّماً فلم تنظر إليها ولم تكلمها ولم تدنُ منها، فما دهاك إذن.

فقال له جويبر: يا رسول الله، دخلت بيتاً واسعاً، ورأيت فراشاً ومتاعاً وفتاة حسناء عطرة، وذكرت حالي الّتي كنت عليها وغربتي وحاجتي ووضيعتي وكسوتي مع الغرباء والمساكين فأحببت إذ أولاني الله ذلك أنْ أشكره على ما أعطاني وأتقرّب إليه بحقيقة الشكر، فنهضت إلى جانب البيت فلم أزل في صلاتي تالياً للقرآن راكعاً وساجداً أشكر الله حتّى سمعت النّداء، فخرجت فلّما أصبحت رأيت أنْ أصوم ذلك اليوم، ففعلت ذلك ثلاثة أيام ولياليها، ورأيت ذلك في جنب ما أعطاني الله يسيراً، ولكنّي سأرضيها وأرضيهم اللّيلة إنْ شاء الله، فأرسل رسول الله ﷺ إلى زياد فأتاه فأعلمه ما قال جويبر، فطابت أنفسهم. قال: ووفى لها جويبر بما قال، ثمّ إنّ رسول

<

وشجعت الرسالة الإسلامية الزواج من الإماء والجواري، وصنع ذلك رسول الله ﷺ بنفسه، حيث تزوج جاريته (مارية القبطية)، وبعض النساء الأسيرات كـ (صفية بنت حيي بن أخطب النضري اليهودي)[1].

وأصبحت هذه السيرة قدوة وأسوة يقتدي بها الصالحون، ومنهم أئمة أهل البيت عليهم السلام، حتى أنّ بعض النصوص تحدّثنا عن محاولة الخليفة الأموي أنْ يعيب على الإمام زين العابدين عليه السلام مثل ذلك، فكان رد الإمام عليه السلام في هذا الموضوع رداً حاسماً[2].

الثالث: الشعائر الإسلامية وطريقة أدائها، كصلوات الجماعة والجمعة، وكذلك مؤسستها المساجد التي كان يصطفّ فيها المسلمون في صعيد واحد، مهما اختلفت انتماءاتهم العرقية ومستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية، أو حج بيت الله الحرام الذي يتساوى فيه الجميع في اللباس والأداء والحركة، حتى نهى الإسلام نخبة من الناس ـ التي كان تتمثّل بقريش ـ أنْ تخصّ نفسها بطريقة خاصة في الإفاضة من المشعر الحرام، كما كانت تفعل في الجاهلية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ

الله ﷺ خرج في غزوة له ومعه جويبر فاستشهد رحمه الله تعالى، فما كان في الأنصار أيّم المرأة التي لا بعل لها أنفق منها بعد جويبر))، الكافي ٥: ٣٣٩، ح١.

(١) راجع الخصال: ٤١٩، ح١٣، إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٢٧٨.

(٢) فقد روى زرارة عن أحدهما عليه السلام قال: ((إنّ عليّ بن الحسين عليهما السلام تزوّج أم ولد عمّه الحسن عليه السلام، وزوج أمّه مولاه، فلمّا بلغ ذلك عبد الملك بن مروان كتب إليه: يا عليّ بن الحسين، كأنّك لا تعرف موضعك من قومك، وقدرك عند الناس، تزوّجت مولاة وزوّجت مولاك بأمك، فكتب إليه عليّ بن الحسين عليه السلام: فهمت كتابك، ولنا أسوة برسول الله ﷺ فقد زوّج زينب بنت عمّه زيداً مولاه وتزوّج مولاته صفيّة بنت حيي ابن أخطب))، كتاب الزهد للحسين بن سعيد الكوفي: ٦٠: ١٥٩، بحار الأنوار ٤٦: ١٣٩، ح٣٠.

وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

إنّ هذه الشعائر الإسلامية، كان لها دور وأثر كبير في صياغة الأمّة الواحدة في شكلها وصورتها، وفي تحكيم الارتباط بين أبناء الأمّة في علاقاتها، وفي إسقاط وهدم الحواجز النفسية والطبقية بين أبنائها، مضافاً إلى الآثار الروحية والمعنوية والتعبوية التي تمكّنت من تحقيقها.

الرابع: المساواة في العطاء، والاحترام والمعاملة بين هذه الفئات والطبقات الاجتماعية دون تمييز، وقد أكّد ذلك بصورة دقيقة وعميقة بعد ذلك الإمام علي عليه السلام في أيام حكومته، والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام في طريقة أدائهم وعلاقاتهم، بالرغم من المحاولات التحريفية التي أكّدها الأمويون، وتاه فيها العباسيون، وهي محاولات التمييز الطبقي والعرقي، تحت شعار السبق إلى الإسلام، أو القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله.

الخامس: منح المواقع والمناصب القيادية السياسية والعسكرية، فقد كان يوكل ذلك إلى بعض الموالي المؤهّلين، كما صنع في (معركة مؤتة)، حيث أوكل قيادة الجيش إلى مولاه زيد بن حارثة، مع أنّ فيهم ابن عمّه جعفر بن أبي طالب[٢]، الذي كان يعتبر من كبار وخيرة الصحابة والسابقين الأولين، كما أوكل قيادة الجيش إلى أسامة بن زيد، وأمر كبار الصحابة أنْ يلتحقوا به قبل وفاته بأيام، وهو المعروف بجيش (أسامة بن زيد)[٣].

إنّ هذه الإجراءات كان لها دور كبير في تأليف القلوب بين المسلمين، وإيجاد الوحدة الحقيقية في أوساط الأمّة.

---

(١) البقرة: ١٩٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢ ق٢:٤٠.

(٣) البداية والنهاية ٦: ٣٣٥، بحار الأنوار ٣٠: ٤٣١.

وقد حاول الأمويون وبعض أسلافهم أنْ ينحرفوا بهذه الإجراءات، فيتّخذوا موازين يتميز بها بعض المسلمين في العطاء أو المواقع أو حتى الزواج والعلاقات الاجتماعية، فكانوا يميزون أهل الشام على أهل العراق في العطاء، وقريش من العرب على غيرهم، وهكذا المضريين على غيرهم، ويتمسّكون بالعادات الجاهلية في قضايا الزواج وغيرها.

ولكن الموقف الأصيل الثابت لأهل البيت عليهم السلام كان له دور عظيم في إرساء وإحياء الرسالة الإسلامية في هذا المجال وإبقاء السيرة المحمدية الشريفة، وتذكر بعض النصوص الآثار السيئة التي تركها أسلاف الأمويين في هذا المجال، من أنّ بعض القبائل العربية جاءوا إلى الإمام عليّ يحتّجون على هذا المنهج بقولهم: (غلبتنا عليك هذه الحمراء)[1]، وعرفنا موقف الخليفة الأموي من محاولته لاستنقاص الإمام زين العابدين عليه السلام، بسبب قضية الزواج وولادته من جارية[2].

توحيد الله وعبادته

٢ ـ وفي مجال العبادة، تحوّل ذلك المجتمع الذي كان يدعو إلى عبادة الآلاف من الآلهة التي يتخّذها إلهاً من دون الله، والتي كانت سبباً من أسباب تشرذمه وتفكّكه واختلافه وضعفه، تحوّل هذا المجتمع إلى مجتمع يعبد الله الواحد سبحانه وتعالى، واستطاع أنْ يقفز قفزة عظيمة بعبادة التوحيد عملياً تجاوز بها حتّى مجتمعات أهل الكتاب في توحيدها وفي طهارة ونظافة

---

(١) راجع الغارات ٢: ٤٩٨، بحار الأنوار ٣٢: ٥٢٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩: ١٢٤. والمقصود من الحمراء: الموالي الذين كانوا يتميّزون على العرب في ذلك الوقت بالحمرة في وجوههم، بخلاف العرب الذين كانت تغلب عليهم (السمرة).

(٢) كتاب الزهد: ٦٠،ح١٥٩، بحار الأنوار ٤٦: ١٣٩، ح٣٠.

وصفاء عقيدتها، وأصبح التوحيد شعاراً للمجتمع وواقعاً روحياً ونفسياً واجتماعياً يتحرّك في تفاصيل سلوك المجتمع وتقاس عليه أموره، وبدأ المجتمع يرفض أي لون من ألوان الشرك بالله تعالى، سواء في العبادة أو الطاعة أم السلوك والعمل.

ويمكن أنْ نلاحظ ذلك بوضوح في بعض مصاديق التوقّف والتّردد لدى المسلمين في بعض ألوان العبادة، كالسعي بين الصفا والمروة، لشبهة أنّ ذلك لون من ألوان عبادة الأحجار، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[١].

أو تأكيد الإسلام والتزام المسلمين بأنْ تكون حليّة اللحم من خلال ذكر الله تعالى في الذبح في جميع الأحوال، قال تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢].

أو في تأكيد القرآن الكريم طاعة الله تعالى وحده دون غيره من الناس، وأنّ طاعة الرسول وأولي الأمر إنّما هي طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ...﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

---

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) الأنعام: ١٢١.

(٣) النساء: ٨٠.

(٤) النساء: ٦٤.

الأمرِ منكُمْ...﴾[1].

أو في تأكيد القرآن الكريم أنّ قول الرسول هو قول الله تعالى، وليس من قوله وهواه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]، وقال تعالى: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾[3]. وقد كان المسلمون يدقّقون في السؤال في مواطن عديدة في أنّ ما يتخذه الرسول ﷺ من قرار وإجراء، هل هو قراره أو أنه قرار إلهي؟ وكان يجيب ﷺ بأنه قرار إلهي.

وفي تأكيد أنْ تكون نية العمل لله تعالى دون شائبة شرك أو رياء، وأنّ الحساب عند الله تعالى على هذه النية. وأنّ أيّ إنفاق إنما هو قرض لله تعالى وعطاء لله، وهكذا.

وأنّ جميع ما يجري في هذا الكون إنّما هو بأمر من الله تعالى وتقديره وقضائه، وأنّ جميع ما فيه يسبّح لله تعالى ويعبده. وكل ذلك في منظومة واسعة وشاملة ودقيقة ترتبط بالإله الواحد، بالرغم من تعدّد الأسباب في سلسلة مراتبها وتعدّد الظواهر الكونية والاجتماعية في تداعياتها.

وقد كان لتوحيد صيغة العبادة وعددها وطريقة أدائها من خلال الأركان والشعائر الإسلامية، كالصلاة، ومنها: الدعاء، والزكاة، ومنها: الصدقة، والحج، ومنه: الزيارة والإحرام، والصوم، ومنه: الاعتكاف، وجعل العبادة توقيفية، وتشخيص المؤسسة التي تمارس فيها العبادة، وهي: (المسجد)، وبيان وشرح جميع مواصفاتها، وغير ذلك من الخصوصيات، مثل: مقاومة

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) النجم: ٣ ــ ٤.

(٣) الحشر: ٧.

الطغيان بجميع أبعاده، وكذلك سيطرة الشّهوات والغرائز... لقد كان لذلك دور كبير في إرساء دعائم هذا التوحيد العبادي والمحافظة عليه، ومساهمته في صياغة الأُمّة ووحدتها.

إنّ هذا التأثير العظيم الذي تركته الرسالة الإلهية على المجتمع آنذاك، يمثّل في حقيقته عمق البرنامج والخطة التي وضعتها هذه الرسالة لتطوير المجتمع والانتقال به من حالة التفرّق والتمزّق والالتصاق بالأرض، إلى حالة التطلّع للسماء والمصير نحو الإله الواحد، والكمالات والصفات الجمالية والكمالية التي يتّصف بها، ومن خلال كسر كل القيود التي تقيّد حركته وتحريره من كل ألوان العبوديات الباطلة الداخلية والخارجية، وجعله عبداً لله تعالى الواحد القهار وحده.

المعرفة والحقيقة

٣ ـ كما عمل الإسلام على توجيه الإنسان إلى العلم وحقائقه، واعتمد في ذلك العقل والبيّنات والبراهين والوثائق والتوثيق ـ كما ذكرنا سابقاً ـ كمنهج صحيح للوصول إلى الحقيقة، ورفض كل ألوان الأوهام والخرافات والظنون والشّكوك وغير ذلك مما يعتري الإنسان.

وهكذا وحّد الإسلام الرؤية للكون والحياة وللوقائع والأحداث داخل هذا المجتمع من خلال توحيد الطريق المتمثّل بالعقل؛ لأنّ العقل الذي أوجده الله تعالى في الإنسان ليهديه إلى (الحقيقة الواحدة)، المتمثلة بـ (الله) تعالى ومخلوقاته، وإلى (الطريق الواضح) الذي يكتشف به الحقائق وهو (العلم)، كل ذلك إذا لم يتعرّض ـ العقل ـ لمؤثرات خارجية. وعلى الإنسان أنْ يبذل جهده في استخدام عقله الاستخدام الصحيح البعيد عن كل المؤثّرات، وسوف يصل ـ وبوعد الله تعالى ـ إلى هذه الحقيقة، لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ومن هنا ـ أيضاً - ربط الله تعالى بين الإيمان من جهة، وبين العقل والعلم من جهة أخرى، قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾[2]؛ لأنّ العلماء هم الذين يصلون إلى الحقيقة الإلهية ـ من خلال العقل والعلم ـ التي يشكّل الإيمان جزءاً كبيراً منها، فيستشعرون الخشية.

كما أرشد القرآن الكريم في الرجوع لأهل العلم والذكر لمعرفة الحقائق عند جهلها، قال تعالى: ﴿... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وهذا الارتباط بين المعرفة والعلم بالكون والإيمان بالله هو ما يؤكّده القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾[4]، حيث تكون النتيجة الطبيعية للمزيد من العلم والمعرفة بالآفاق والكون والحياة، الوصول إلى الحق وهو الله تعالى.

ومن هذا المنطلق نلاحظ:

أولاً: التأكيد والحث الواسع والكبير في القرآن الكريم على التدبّر والتفكّر في خلق السماوات والأرض وآيات الله المختلفة، وعلى استخدام العقل والعلم في الوصول إلى الحقائق.

وذلك كله يأتي في سياق تحرير الإنسان من سيطرة الأوهام والخرافات والظن والشك، ويجعله يسلك طريق العقل والعلم في حركته داخل

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) النحل: ٤٣.

(٤) فصلت: ٥٣.

مجتمعه، ولا شك أنّ العقل والعلم اللذين يهديان إلى (الحقيقة الواحدة) سوف يكونان سبباً من أسباب الوحدة الاجتماعية، ولأنّ الأوهام والخرافات تمثّل طرقاً مختلفة ومتعدّدة، ولها نتائج متضاربة، فلا شك أنّها تؤدّي بالمجتمع إلى الفرقة والاختلاف.

وثانياً: قيام الرسالة الإسلامية بتحريم الأعمال التي تعتمد على الوهم والإيهام والظن والشك والإضلال، مثل: السحر، والشعبذة، والغش، والبدع، والضلالات، وكذلك تحريم ترتيب الأثر على الظن، وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1].

وكذلك حرمة العمل بالظن الآثم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ...﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[3].

وحرص الإسلام على التوثيق في الموارد التي تؤدّي إلى الاختلاف، مثل: الدَين، والوصية، والطلاق، وغيرها.

ومن خلال ذلك حقّق الإسلام نجاحاً عظيماً وقفزة كبيرة في المجتمع الإسلامي والإنساني باتّجاه استخدام العقل والعلم والبيّنات والوثائق في الحياة الإنسانية.

ثالثاً: إعطاء العلم في المجتمع الإيماني والإسلامي مقاماً عالياً ودرجة

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) الحجرات: ٦.

رفيعة، قال تعالى: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿...يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

رابعاً: إيجاد المؤسسة العلمية للتفقّه في الدين، وبذلك تحوّل العلم الديني من حرفة ومهنة كان يمارسها الأحبار والرهبان والطبقة الخاصة اللاهوتية، إلى واجب ديني كفائي عام تمارسه الأمم بجميع أطرافها وطوائفها، وتتحمّل مسؤليته إلى جانب مسؤلية الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3].

وبذلك وجد خط الحوزات العلمية، وانتشر طلب العلم في جميع البلاد الإسلامية، ولاسيما البلاد المفتوحة الجديدة العهد بالإسلام، بل تقدم العلم فيها على بعض البلاد العربية.

وقد كان ولا زال لهذه المؤسسة العلمية الفقهية من الآثار والنتائج العظيمة على مرّ التأريخ الإسلامي في تحقيق الوحدة وإيجاد عواملها، ما لا يعلمه إلاّ الله ويطول شرحه، مثل: المحافظة على القرآن في شرحه وتفسيره وتوضيحه والاستنباط منه، وعلى السنّة النبوية، والتأريخ الإسلامي، والفاعلية في تشخيص الموقف الشرعي الواحد لمواجهة المستجدات والتحديات والمشكلات الجديدة التي تواجهها البشرية والمسلمون، وفي حركة الإصلاح بين الناس

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) التوبة: ١٢٢.

والتجديد والإحياء للرسالة، والعودة بها إلى الحياة العامة، بعد أنْ ضيّعها الحكّام والسلاطين والأمراء في العصور المختلفة.

كما كان لأهل البيت عليهم السلام دور خاص في رعاية هذه المؤسسة وترسيخ دعائمها وتطويرها وتوسيع دائرة امتدادها، ولا سيما ما قام به الإمامان الهمامان الباقر والصادق عليهما السلام في هذا المجال، مما لا ينكره أي عالم منصف من المسلمين أو غيرهم، ممن تناول هذا الموضوع بالبحث والتمحيص، حيث كان للإمام الصادق عليه السلام وحده ـ في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ـ حوالي أربعة آلاف طالب ومستفيد من مختلف المذاهب والبلاد الإسلامية[1].

خامساً: إنّ حركة المسلمين العلمية ـ سواء في مجال العلوم الإنسانية أم الطبيعية ـ كان لها تأثير عظيم على اعتماد العلم والمعرفة كطريق لمعرفة الحقيقة، ليس في العالم الإسلامي فحسب، بل كان لها تأثير واضح وكبير على العالم أجمع الشرقي والغربي منه، وهذا مما يعترف به الباحثون في جميع العصور، وحتى عصرنا الحاضر الذي يحاول الغرب فيه أنْ يسيطر عن طريق العلم والقوة على العالم أجمع.

القيم والروح المعنوية

٤ ـ وأمّا في مجال سيطرة الشّهوات على سلوك الإنسان فإنّ الإسلام ـ

---

(١) ويمكن أنْ يعرف هذا العدد من الطلاب والمستفيدين من خلال مراجعة كتب الرجال التي ذكرت أسماء الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام، مثل: كتاب الرجال للشيخ الطوسي. فقد ذكر النجاشي في رجاله ـــ فضلاً عن غيره ـــ عند ترجمة: (الحسن بن علي بن زياد الوشا)، قال فيه: (فإنّي أدركت في هذا المسجد (مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدثني جعفر بن محمد)، رجال النجاشي: ٤٠، ح٨٠، ومن هنا يمكن أنْ نفهم أنّه في الكوفة وحدها كان له هذا العدد الكبير، ممن أدركه الحسن بن علي الوشا، فضلاً عمن قبله من الرجال.

الذي لم يرفض مسألة إشباع الإنسان لحاجاته الغريزية التي أودعها الله فيه لأهداف تكاملية في الحياة الدنيا والآخرة. تمكّن من أنْ يوجد الحل المناسب عملياً لسيطرة هذه الشهوات والغرائز على سلوك الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي، من خلال طرحه لمعادلة (الدار الآخرة)، وأنّ الله سبحانه وتعالى يعوّض الإنسان ـ عن جميع تضحياته وآلامه في سبيل الله وسيطرته على غرائزه وشهواته غير المشروعة ـ جنّات عدن في الدار الآخرة، بل قد يكافئ الإنسان على ذلك في الحياة الدنيا أيضاً.

ولذلك تحوّل المجتمع الجاهلي الغارق في الشّهوات، إلى مجتمع يتنافس أبناؤه على الخير، ويسارعون إلى مغفرة الله سبحانه وتعالى، ويتحمّلون الآلام من أجل بناء المجتمع الصالح، وإبلاغ الرسالة الإلهية، وتعبيد الطريق أمام عبادة الله الواحد الأحد، وأصبح البذل والعطاء على مستوى المال والأهل والولد والنفس، والشهادة والاستشهاد في سبيل الله من المعالم البارزة التي يتميّز بها الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي، وبذلك تمكّن أنْ يحقّق الإسلام هذا الفتح الواسع السريع للبلاد المحيطة بالجزيرة العربية، من أجل أنْ تتحوّل إلى عبادة الله تعالى، وأنْ يطيح بالقوّتين العظميين في ذلك الوقت، بهذه الروح المعنوية العالية والقيم والمُثُل الإلهية الكاملة.

وبدون ذلك لا يمكن أنْ نجد تفسيراً معقولاً لهذا الفتح العظيم الذي حقّقه الإسلام، سواء في الجزيرة العربية، أم البلاد الأخرى الفارسية، والرومية، والنبطية، والحبشية، ولو استمرّت هذه الروح المعنوية بعض الوقت ـ كما كان ذلك في التصميم الإلهي[1] ـ لعمّ

---

(١) لقد تناولنا هذا الجانب من البحث في كتابنا (الإمامة وأهل البيت عليهم السلام القسم الأول، النظرية، الفصل الثالث، الإمامة في الأئمة الاثني عشر).

الإسلام الشرق والغرب كله، ولأكل المسلمون والناس من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولتحقّقت الوحدة الإنسانية الحقيقية، كما وعد القرآن الكريم بذلك.

ولكن عندما تراجعت هذه الروح ـ لأسباب يطول الحديث فيها ـ وأصبح الهمُ الأكبر للمسلمين هو نعيم الدنيا وزينتها، تراجع الفتح، وتراجعت القوّة، وأصبح المسلمون طُعمة سائغة لقوى الكفر والوثنية والجاهلية الحديثة.

ولكنّ هذه الروح المعنوية العالية لم تفقد فاعليتها بصورة مطلقة، بل أوجدت في الأُمّة تياراً إسلامياً أصيلاً، يحفظ لها وجودها ويدافع عن رسالتها وقيمها، وقد أسسّه رسول الله ﷺ ورعاه بعده أئمّة أهل البيت عليهم السلام والعلماء الصالحين، وكانت تضحيات أئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام وفي مقدمتها التضحية الفريدة للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، المعين الذي لا ينضب في إمداد ضمير الأمّة الإسلامية ووجدانها بالوعي والحياة في هذا المجال، حيث أخذ منه الثائرون ـ على مرّ العصور والأزمان ـ الدروس والعبر، ولا زالوا يفعلون ذلك، ممّا أعطى الأمّة الإسلامية امتيازاً لا نظير له في جميع الرسالات الإلهية، وزخماً معنوياً مؤثراً وفاعلاً على مر التأريخ[1]، وسوف يبقى كذلك إلى ظهور (مهدي) أهل البيت عليه وعليهم الصلاة والسلام.

النظام والقانون

٥ ـ وأمّا في مجال تنظيم المجتمع وصيانته القانونية، فقد كان للشريعة

---

(١) ومن ذلك ما نشهده في عصرنا الحاضر، من قيام الحكم الإسلامي الأصيل في بلاد أهل البيت عليهم السلام (إيران)، وعموم النهضة الإسلامية في العالم الإسلامي، وامتداد روحها المعنوية وآثارها إلى الجاليات الإسلامية في العالم الغربي، وتأثيرها في الأوساط الغارقة في الشّهوات والماديات.

الإسلامية ومرونتها وبُعديها (الثابت) و(المتغيّر) والصياغة الواقعية للعملية التشريعية دور كبير في تحويل المجتمع الجاهلي العربي، وبلاد الفتح الإسلامي بعد ذلك، ثمّ المجتمع الإنساني إلى مجتمع النظام والقانون.

ولا يمكن لأي منصف أو عالم أو مثقّف أنْ ينكر ما للتمدّن الإسلامي من تأثير داخلي وعالمي في هذا المجال.

فإنّه بالرغم من أنّ القانون وأصوله كان موجوداً لدى الأمم الأخرى، كالرومان، والإغريق، وبعض البلاد العربية، إلاّ أنّه لا بدّ أنْ نلاحظ في هذا المجال أمرين:

الأوّل: إنّ أصول هذه القوانين كانت إلهية أيضاً، كما دلّلت على ذلك الأبحاث التأريخية والأثرية.

الثاني: إنّ هذا القانون كان قد اندثر وانقطعت أُصوله على المستوى الواقعي العملي، وفقد أو ضعف تأثيره إلى حدٍّ كبير في المجتمعات المدنية، وتحوّل إلى العادات والتقاليد الاجتماعية، أو إلى قرارات الحاكم والسلطان (الكسروية والقيصرية)، ورئيس العشيرة أو الولاية أو رؤساء الكنائس والمقامات الدينية، وإنْ بقيت وثائقه الأثرية أو تأثيراته الاجتماعية.

أمّا الآن فإنّنا نلاحظ وجود الخصائص القانونية التالية:

١ ـ إنّ القانون والتشريع هو ضرورة من ضرورات المجتمع الإنساني.

٢ ـ البعد الثابت المتمثّل بالدستور والقانون الأساسي وملحقاته، والبُعد المتغيّر المرتبط بالمجالس التشريعية والبلدية.

٣ ـ تشخيص المصدر الواحد للقانون والنظام والتشريع، وهو إمّا الله تعالى أو الشعب أو كليهما.

٤ ـ تشخيص آلية التشريع والتقنين، من خلال (السلطة التشريعية)، وتمييز المسؤليات الثلاثة بعضها عن بعض.

فإنّ هذه الخصائص تنتمي في تأريخها الواقعي والعملي إلى الرسالة الإسلامية وتأثيراتها في المجتمعات الإنسانية، وإنْ كانت المجتمعات الإنسانية قد تختلف مع الرسالة الإسلامية في طريقة تطبيق هذه الخصائص والتفاصيل[1].

وعلى كلّ حال، فقد تمكّنت الرسالة الإسلامية أنْ تحقق إنجازاً عظيماً على مستوى المجتمع الإنساني في الجزيرة العربية والعالم المحيط بها، وتطوراً عظيماً على المستوى العالمي في مجال إرساء قواعد النظام والقانون، وحدّدت ـ بصورة واضحة ـ مصدر التشريع وهو الله تعالى، وفصّلت في هذا التشريع بين الثابت والمتغيّر، فمنحت ولي الأمر والأُمّة سلطة التشريع المتغيّر، ولكنْ في إطار التشريع الثابت.

كما أنّها أوضحت آليات التشريع وحدوده وضوابطه.

وفي هذا المجال يحسن بنا أنْ نشير إلى عاملين مهمّين، كان لهما دور أساس في المحافظة على النظام:

الدولة الإسلامية وحفظ النظام

الأوّل: إنّ الرسالة الإسلامية أقامت المؤسسة الأم التي تقوم بتطبيق القانون، وهي الدولة الإسلامية التي تمّ تأسيسها في عهد صاحب الرسالة، ومارس دوره في بنائها وتوضيح معالمها وإرساء قواعدها، وبقيت هذه الدولة قائمة ومستمرة منذ ذلك التأريخ وإلى يومنا الحاضر. بالرغم من تعرّض هذه المؤسسة إلى مشكلات حادّة وجديّة؛ومن ذلك: ما حدث بعد

---

(١) هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة تأريخية اجتماعية قانونية، ولكنّه ليس بعيداً عن الواقع التأريخي، كما يظهر ذلك لكل متأمل ومنصف عندما يقارن الأوضاع التي كانت عليها الأمم في عصر الرسالة الإسلامية وتأثيرات حركة الرسالة الإسلامية عليها اجتماعياً وقانونياً.

وفاة رسول الله ﷺ من الاختلاف في تعيين الخليفة من بعده، وأنّ تعيينه يكون بالنص من النبي بأمر من الله تعالى أو الانتخاب باختيار الأمّة.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ الاختلاف في طريقة هذا الانتخاب (انتخاب النخبة)، وفرضه بعد ذلك على الجماعة، كما حصل للخليفة الأوّل، أو الوصية والسكوت عليها من قبل الآخرين، كما هو في الخليفة الثاني، أو إيكال الأمر إلى مجموعة معيّنة، كما هو الحال في الخليفة الثالث، أو انتخاب جمهور المسلمين في مركز الخلافة، كما حصل ذلك للإمام علي عليه السلام، وإعمال الاجتهادات المتعدّدة في هذا المجال.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ المشكلة الحادّة التي أدّت إلى تفجير نهضة الإمام الحسين عليه السلام، حيث حاول الأمويون أنْ يحوّلوا الخلافة والدولة الإسلامية إلى دولة قيصرية.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ انحراف الجهاز الحاكم عن تطبيق الشريعة بصورة بيّنة وواسعة، ووجود معالم الظلم والفسق في هذا المجال.

ومن ذلك التهديدات التي واجهتها الدولة من القوى الداخلية التي كانت تتحرّك بصورة فوضوية أو مصلحية، أو القوى الخارجية المعادية، كموجة الغزو المغولي، أو الصليبي، أو الغزو العسكري الغربي للبلاد الإسلامية والسيطرة عليها، وإلغاء الخلافة الإسلامية. أو انقسام الدولة الإسلامية والبلاد الإسلامية وتحوّلها إلى دول عديدة.

أو غير ذلك من الأحداث والقضايا المريرة التي مرّت بها الدولة الإسلامية، إلاّ أنّ كلّ ذلك لم يلغ دور هذه الدولة واقعياً وعملياً، فنجد:

أوّلاً: المحافظة على فكرة ضرورة قيام الدولة الإسلامية في أوساط الأمّة الإسلامية، لحفظ الرسالة الإسلامية وبيضة الدين والنظام الإسلامي.

ثانياً: المحافظة في أوساط الأمّة كلها، على فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية

والنظام الإسلامي بالخصائص السابقة التي أشرنا إليها، ممّا كان له تأثير كبير في بقاء تأثير هذا العنصر في وحدة المسلمين.

ثالثاً: المحافظة على صيغة إقامة الشعائر الإسلامية وآثارها في توحيد الأُمّة الإسلامية.

ولذلك نلاحظ أنّ هذه الدولة بقيت على قيد الحياة إلى يومنا الحاضر، ولو في بعض المناطق - كالجزيرة العربية وإيران - وفي إطار أُصولها العامة، حتى بعد أنْ تعرّض العالم الإسلامي إلى موجات الغزو، وأهمّها وأخطرها الغزو العسكري الغربي في بداية القرن العشرين الميلادي.

كما أنها بقيت أملاً حياً قوياً تعيشه الأُمّة الإسلامية وهدفاً قائماً في حياتها السياسية. مما مكّنها من السعي لعودة الإسلام إلى الحياة السياسية والاجتماعية مرّة أُخرى.

رقابة الأمّة وحفظ النظام

الثاني: إنّ الرسالة الإسلامية تمكّنت من إيجاد روح الرقابة في أوساط الأُمّة على تطبيق النظام من خلال تيّار إسلامي محمّدي أصيل، يمارس دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة الانحراف والظلم والاستبداد، هذا التيار الذي قاده أهل البيت عليهم السلام والعلماء الصالحون من المسلمين، وكان عمل الإمام علي عليه السلام ونهضة الإمام الحسين عليه السلام وآثارها وتداعياتها أحد المعالم الواضحة فيه، وهو مبدأ عبّر عنه الإمام الحسين عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية: **((...إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولامفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد ان آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام...))**[1].

---

(١) راجع بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

وأهمية هذه النهضة تنبع من عدة مصادر صافية:

الأوّل: إنّ القائم بهذه النهضة هو سبط الرسول الأعظم ﷺ وخامس أصحاب الكساء[1]، ومن أهل البيت الذين يُجمع المسلمون على أنّه نزل فيهم القرآن الكريم، وأنّهم قد أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، في قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2].

الثاني: إنّها كانت الحركة والمبادرة الأولى في التأريخ الإسلامي التي اقتدت بها الحركات والنهضات الأخرى، حيث كان بعض الصحابة وكبار التابعين يترددون عملياً في اتخاذ الموقف الصحيح من الظاهرة اليزيدية[3].

الثالث: حجم التضحية العظيمة التي قدّمها الإمام الحسين عليه السلام، وطريقة أدائه واستشهاده، والوحشية التي استخدمها الأمويون في انتهاك حرماته الشخصية والمعنوية، وحرمات أهل بيته وأصحابه، بحيث أصبحت على درجة عالية جداً من الوضوح في التمييز بين موقف الحق وموقف الباطل.

الرابع: إنّ الإمام الحسين عليه السلام انطلق من هذه الحركة من روايته ودرايته للحكم الشرعي والموقف الإسلامي تجاه هذه الظاهرة في الأمّة، فقد روى

---

(١) نسبة إلى حديث الكساء المعروف، وهو: ـ ما ذكره الطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ـ عن أم سلمة قالت: ((جاءت فاطمة عليها السلام إلى النبي ﷺ تحمل حريرة لها، فقال: ادعي زوجك وابنيك، فجاءت بهم فطعموا، ثمّ ألقى عليهم كساء له خيبرياً، فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقلت: يا رسول الله وأنا معهم، قال: أنت إلى خير))، مجمع البيان ٨: ٣٥٦.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) تحدثنا عن هذا الموضوع بصورة دقيقة في كتابنا: (ثورة الحسين عليه السلام).

ذلك إلى المسلمين جميعاً عندما خطب فيهم في لقاء له مع جيش يزيد بن معاوية في العراق، حيث يقول فيه عليه السلام: **((أيها الناس، إنّ رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنّة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أنْ يدخله مدخله...))**[1].

وقد كان لهذا التيار الصالح (الرقابي) في الأُمّة دور عظيم في المحافظة واقعياً على الشريعة والقانون والقيم والمُثُل والمعاني الأخلاقية والمصالح الإسلامية، التي تستند إليها الشريعة والقانون الإسلامي.

وقد تمكّن هذا التيار أنْ يحفظ للأُمّة الإسلامية جانباً من وحدتها، لما يتّسم به من وعي للإسلام، والاهتمام بالمحافظة على وحدة الأُمّة الإسلامية ومراعاة الأولويات في مصالحها[2].

وكان وجود هذا التيار من أهم الامتيازات ذات التأثير العميق الذي امتازت به الشريعة الإسلامية الخاتمة.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١٨٤ ــ ١٨٥، عن تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤، باختلاف يسير.

(٢) لقد شرحنا ذلك في كتابنا: (الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين)، وكذلك في كتابنا: (ثورة الإمام الحسين عليه السلام)، وكتابنا: (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة).

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس المصادر

١. القرآن الكريم

٢. التبيان، الشيخ الطوسي، المطبعة العلمية في النجف ١٣٧٦هـ.

٣. تفسير العياشي، محمد ابن مسعود العياشي، المطبعة العلمية ١٣٨٠هـ.

٤. تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، مطبعة النجف ١٣٨٦هـ تصحيح وتعليق السيد طيب الموسوي.

٥. التفسير الصافي، الفيض الكاشاني، طبعة مكتبة الصدر، الثالثة، طهران، ١٤١٥ هـ ق.

٦. نور الثقلين، الشيخ عبد علي الحويزي، المطبعة العلمية قم تصحيح وتعليق الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي.

٧. مجمع البيان للطبرسي، مطبعة دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٧٩ق ١٣٣٩ش.

٨. الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي، طبعة اسماعيليان، الخامس، قم ١٤١٢هـ ق.

٩. التفسير الكبير، الفخر الرازي، طبعة دار الكتاب العالمية، بيروت، ١٤١١هـ ق.

١٠. المنار، محمد رشيد رضا، طبعة دار أحياء التراث العربي، الأولى بيروت، ١٤٢٣هـ ق.

١١. نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار البلاغة بيروت ١٤٠٥هـ.

١٢. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، طبعة دار أحياء التراث العربي، الثانية، ١٣٨٧هـ ق.

١٣. الكافي، للشيخ الكليني، مطبعة الحيدري طهران نشر محمد الاخوندي دار الكتب الإسلامية.

١٤. كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، طبع جماعة المدرسين، الثالثة، قم.

١٥. عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، طبعة طوس، الثالثة، قم ١٣٦٣ هـ ش.

١٦. الأمالي، الشيخ الصدوق، طبعة البعثة الأولى، قم، ١٤١٧ هـ ق.
١٧. الخصال، للشيخ الصدوق،مطبعة الحيدري طهران ١٣٨٩هـ.
١٨. علل الشرائع، الشيخ الصدوق، الطبعة الثانية منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتهما في النجف ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
١٩. الأمالي، الشيخ المفيد، طبعة جماعة المدرسين، الثالثة، قم، ١٤١٥هـ ق.
٢٠. الإرشاد، الشيخ المفيد، طبعة أهل البيت عليهم السلام، الأولى، قم، ١٤١٣هـ ق.
٢١. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، طبعة طهران بنفقة الشيخ محمد الاخوندي.
٢٢. بصائر الدرجات، محمد حسن الصفار القمي، طبعة المرعشي النجفي، ١٤٠٤ هـ ق.
٢٣. تحف العقول، ابن شعبة الحراني، مطبعة بغداد، علاء.
٢٤. المحاسن، احمد بن محمد بن خالد البرقي، المجمع العالمي، لأهل البيت عليهم السلام، الأولى، قم، ١٤١٣هـ ق.
٢٥. غوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الاحسائي، طبعة سيد الشهداء، الأولى، قم ١٤٠٥ هـ ق.
٢٦. إعلام الورى بأعلام الهدى، للطبرسي ، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤١٧هـ.
٢٧. غرر الحكم، الامدي التميمي، طبعة الأعلمي، الأولى، بيروت، ١٤١٧هـ ق.
٢٨. وسائل الشيعة، للحر العاملي، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ بيروت.
٢٩. مستدرك الوسائل، المحدث النوري، طبعة آل البيت عليهم السلام، الأولى .
٣٠. كفاية الأثر، أبي القاسم الخزاز القمي الرازي، طبعة بيدار، قم ، ١٤٠١هـ ق.
٣١. الفضائل الخمسة في الصحاح الستة، طبع بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٣٢. مستدرك الصحيحين، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٣٤٠هـ.
٣٣. التاج الجامع للأصول، منصور ناصف، طبعة دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ ق.
٣٤. تاريخ ابن عساكر، أبو الحسن علي ابن الحسن الشافعي(ابن عساكر)

٣٥. كنز العمال، علاء الدين علي المتقي الهندي.
٣٦. الغارات، ابن هلال الثقفي.
٣٧. صحيح مسلم، أبو الحسين بن مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي.
٣٨. تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري.
٣٩. الحكم الإسلامي، السيد محمد باقر الحكيم، طبعة المنار، الأولى، قم، ١٤١٢هـ ق.
٤٠. دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، السيد محمد باقر الحكيم، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الأولى، قم.
٤١. كنز الفوائد، ابن الفتح الكراجكي الطرابلسي، طبعة دار الذخائر، الأولى، ١٤١٠هـ ق.
٤٢. علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، طبعة مجمع الفكر الإسلامي، الثالثة، قم.
٤٣. المدرسة القرآنية، الشهيد محمد باقر الصدر، طبعة المؤتمر للإمام الصدر، الأولى.
٤٤. الإسلام يقود الحياة، الشهيد محمد باقر الصدر، طبعة المؤتمر للإمام الصدر، الأولى.
٤٥. اقتصادنا، الشهيد محمد باقر الصدر، طبعة دار التعارف، الطبعة العشرون، ١٤٠٨هـ ق.
٤٦. الاحتجاج، أبي منصور الطبرسي، طبعة الأعلمي وأهل البيت عليهم السلام، ١٤٠١.
٤٧. كتاب المؤمن، الحسين بن سعيد الاهوازي، طبعة مدرسة الإمام الهادي عليه السلام، الأولى.
٤٨. كتاب الزهد، الحسين بن سعيد الاهوازي.
٤٩. ذخائر العقبى، مؤسسة الوفاء بيروت ١٤٠١هـ.
٥٠. مسند الإمام احمد بن حنبل، المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣هـ.
٥١. سيرة ابن كثير، دار إحياء التراث العربي تحقيق مصطفى عبد الواحد.
٥٢. الفضائل لابن شاذان منشورات المطبعة الحيدرية ومكتبتها في النجف

الاشرف ١٣٨١هـ - ١٩٦٢ م.
٥٣. الطبقات الكبرى، مطبعة دار صادر بيروت ١٣٧٦هـ.
٥٤. دروس في علم الأصول للشهيد محمد باقر الصدر الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥م مطبعة قلم نشر نصايح.

المحتويات

الباب الأوّل

خلافة الإنسان

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثاني

المجتمع الإنساني ونشوؤه

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثالث

أثر الهوى والدين في المجتمع

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الرابع
النظرية القرآنية في حركة التأريخ

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الخامس

الدين والعلاقات الاجتماعية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الباب السادس
الوحدة الدينية الخاتمة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفهارس العامة